

الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



20.9.2015

رواية

جوزية ساراماجو

الطوفان الجري

ترجمة وتقديم: دنور طلعت شاهين

الطوف الجري

جوزيه ساراماجو

رواية

ترجمة وتقديم: دكتور طلعت شاهين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٧

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير	دكتور: ناصر الأنصارى
نائب رئيس مجلس الإدارة	دكتور: وحيد عبدالمجيد
نائب رئيس التحرير	دكتور: سهير المصادفة
الإشراف التنفيذي	السيد أبوشادى
مدير التحرير	السماح عبدالله
سكرتير التحرير	وردة عبدالحليم
التصميم الجرافيكى	دكتور: مدحت متولى
الإخراج الفنى	صبرى عبدالواحد
	على أبو الخير

ساراماچو، جوزيه.

الطوف، العجري/ لجوزيه ساراماچو : ترجمة
ونقديم: طلعت شاهين. - القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ ..

٤٨٠ ص ٢٢ سم .. (سلسلة جوائز).

تدمك ٩ ٠٥١ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص البرتغالية .

(أ) شاهين، طلعت (مترجم ومقدم) .

(ب) - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٤٦٧ / ٢٠٠٧

I.S.B.N- 978- 977 - 420- 051 - 9

ديوى ٨٦٩,٢

● الكتاب: الطوف الحجري La balsa de piedra

● الكاتب: جوزيه ساراماجو José saramago

● ترجمة: دكتور طلعت شاهين

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلي للهيئة المصرية العامة للكتاب.

● جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.

● جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف:

Copyright © José saramago & Editorial caminho,
S.A, Lisboa, 1986.

● الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

● طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى فناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعاً موازياً يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالى ولم تترجم بعد، أو أنها
ترجمت ونفدت طبعتها، إيماناً من السلسلة بأن
الأعمال الأدبية يكون لها دائماً تأثير لا يمضى بمرور
زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة
الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى
تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه،
ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت
جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت
أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل
يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة
بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى
يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر
السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى
للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب،
وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات
هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها
ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس
التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحظى بأكبر
قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك
الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة
حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على

جودته لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُترجم عنها في أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تفتح سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتاً لم يتعرف إليها بعد القارئ العربي، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية في العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التي لاقت اختياراتها ترحيباً واحتراماً من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعي.

د. ناصر الأنصاري

تقديم

الكاتب البرتغالي "جوزيه ساراماجو" البالغ من العمر ٨٥ عاماً لا يعتبر كاتباً عادياً صنعته ثقافة مجتمعه من خلال مؤسساتها التعليمية، ولا من أولئك الكتاب الذين يعيشون في أبراجهم العاجية في انتظار أن تصل أعمالهم إلى قراء يجهلونهم، بل هو كاتب عصامي، نشأ في أسرة من الرعاية الأميين، لم يساعده فقره المادي على الاستمرار في التعليم التقليدي، وفقد الطريق إلى التعليم الجامعي، فقرر أن يثقف نفسه بنفسه.

بل إنه في تثقيفه لنفسه بدأ ذلك في وقت متأخر، فقد كان أول كتاب اشتراه في حياته في عمر التاسعة عشرة، وبدأ أولى كتاباته الإبداعية عندما تعدى الخامسة والعشرين ليصمت بعدها عن الكتابة لفترة ليست بالقليل؛، لأنه كان مقتنعاً في ذلك الوقت بأنه لا شيء لديه يقوله للقراء، ولم يعد إلى ممارسة

الكتابة حتى بلغ الأربعين من العمر، لذلك يقول إنه لو مات في الستين من عمره، من المؤكد أنه ما كان سيتترك شيئاً ذا قيمة في الأدب البرتغالي، وما كان للتاريخ أن يذكره، وما كان له أن يتمتع بالحصول على جائزة نوبل؛ والشهرة والراحة المادية التي تحققهما هذه الجائزة، والتي سعت إليه وهو في الخامسة والسبعين، لكنه يؤكد أن كل ما كتبه منذ ذلك الوقت كان من منطلق الالتزام المطلق تجاه قناعاته الخاصة.

لذلك يعتبر جوزيه ساراماجو كاتباً ملتزماً، لم يقدم مطلقاً أي تنازل أخلاقي أو سياسي ليضمن رضا السلطة السياسية أو الدينية عنه، ويرى أن حرية الفكر والتعاطي معها تؤدي إلى نوع من التوازن العقلي، ذلك التوازن الذي يسمح له بالتفكير الصحيح في قضايا المجتمع والعالم الذي يعيش فيه، من هنا فإن هجره لوطنه عام ١٩٩٢ وإقامته الدائمة بجزيرة "لنثاروت"، إحدى جزر الكناري الإسبانية، كانت نتيجة غضبه من قرار وزارة الثقافة والتعليم في بلاده، منع روايته "إنجيل المسيح" من التداول في المدارس والجامعات البرتغالية، وأيضاً كانت السبب في الانتقادات التي وجهها الفاتيكان للجنة جائزة نوبل لأنها منحت الجائزة لكاتب متمرّد على الكنيسة الكاثوليكية.

رد جوزيه ساراماجو على انتقادات الفاتيكان بتهكمه المعهود في أول لقاء صحفي مع وسائل الإعلام عقده في مقر دار نشر "الفاجوارا" بمدريد، وقال: "لا

أعرف معنى الكلمة التي وصممتي الفاتيكان بها ليعلن عن معارضته لحصولي على جائزة نوبل، لذلك أقول للفاتيكان عليه أن يتفرغ لصلواته ويترك الآخرين يعيشون في سلام".

وكثيراً ما أعلن الكاتب أنه لا يعتنق المسيحية بشكلها التقليدي الذي تحاول الكنيسة فرضه، مؤكداً احترامه لكل الذين يعتنقونها، ولكنه يؤكد دائماً أنه لا يكن هذا الاحترام للسلوك الكنسي؛ لأن المسيحية تدعو إلى محبة الآخرين، وهو لا يستطيع، لا يرغب في حب جميع الناس، بل يكن الاحترام لجميع الناس، ويقصر حبه على بعضهم فقط".

أيضاً إصراره على أنه لا يزال يحمل الفكر الاشتراكي رغم سقوط نمودجه السياسي في الاتحاد السوفيتي السابق ودول أوروبا الشرقية، لأنه يرى أن قيام أو سقوط النظام السياسي النمودج لذلك الفكر لا يعني انتهاء هذا الفكر، لأن الاشتراكية- في رأيه- قبل أن تكون نظاماً سياسياً أو اجتماعياً فهي حالة روحية، ويرى أن الرأسمالية بوضعها الحالي وتطبيقاتها غير قادرة على تقديم حلول حقيقية لبؤس العالم، لذلك فإن الاشتراكية لم ينته دورها كما يعتقد البعض.

الكتابة عند ساراماجو تعتبر نوعاً من تحقيق الوجود، وأيضاً تمثل الكتابة بالنسبة له طريقاً لكسب حب الآخرين، وإن كان البعض يعتبره كاتباً متشائماً

رغم إعلانه دائماً بأنه سعيد ومتفائل، ويشرح هذا التناقض بقوله إنه بالفعل متشائم مما يراه من حوله من أحداث مأساوية، لكنه يحاول أن يؤكد للآخرين أنه سعيد حتى لا يجد نفسه مطالباً بأن يتحدث عن أشياء أخرى تنقصه لتحقيق السعادة الكاملة، أو على الأقل السعادة بالمعنى الذى يفهمه هو شخصياً.

لم يأت الأدب الذى يكتبه جوزيه ساراماجو من فراغ، بل هو أدب يعتمد على تراث طويل مكتوب فى اللغة البرتغالية، منذ تلك الكتابات التى يصنفها النقاد تحت اسم "الفنائية الجالايكو-برتغالية"، التى سادت فى القرون الوسطى من خلال الأعمال الأدبية للعديد من الكُتّاب مثل: لويس دى كاموينز، وجيل فيسنتى، وأنثيرو دى كينتال، وكاستيلو بلانكو، وأيسا دى كيروز، لتصل إلى الأدب البرتغالى المعاصر الذى يعتبر من أبرز ممثليه: فرناندو بيسوا، ومجيل توجرا، وفيرجيليو فيريرا، أو أجوستينا بيسا لويس.

وعند الحديث عن الإنجازات الأدبية فى اللغة البرتغالية، لا يستطيع أحد أن ينسى كتابات مبدعى البرازيل الذين يكتبون بهذه اللغة، وحققوا من خلالها إنجازات مهمة، مثل: ماتشادو دى أسيس، وكارلوس دروموند، وهارولدو دى كامبوس، وجواو كابرال دى ميلو نيتو، أو الروائى الأكثر شهرة عالمياً بين هؤلاء جورج أمادو.

بدأ جوزيه ساراماجو الكتابة الأدبية- كما ذكرنا- فى وقت متأخر من حياته، وكانت روايته

"مانويل بالرسوم والكتابة" الصادرة عام ١٩٧٣ بدايته الحقيقية وطريقه نحو الشهرة؛ لأنها كانت النموذج الحقيقي لرؤيته وأسلوبه الشاعرى فى الكتابة، المعبر عن رؤيته الجمالية أيضاً، وتتضح فى تلك الرواية الخطوط العامة التى تبدأ من الجماعية والتعبير عنها لتنتهى إلى الفردية، وربما ينبع هذا من إحساسه الدائم بأنه كاتب ملتزم بالأدب والقضايا العامة التى يجب أن يتناولها.

ثم جاءت روايته "ثورة الأرض" عام ١٩٧٩ لتكون من أكثر أعماله الأدبية التزاماً بالمجتمع. وتتناول حياة أسرة ريفية منذ بدايات القرن حتى سنوات الستينيات الثورية، لتأتى بعدها رواية "ذكريات الدير" الصادرة عام ١٩٨٢، والتى حققت نجاحاً عالمياً بترجمتها إلى العديد من اللغات.

أما روايته "سنة موت ريكاردو ريبس" الصادرة عام ١٩٨٤، فهى تتناول تاريخ العاصمة البرتغالية لشبونة، خلال فترة حكم الدكتاتور "سالازار"، وتأثيرات الحرب الأهلية الإسبانية على المجتمع البرتغالى، والتى اعتبرها النقاد نوعاً من التكريم لأعمال الكاتب البرتغالى الكبير فرناندو بيسوا.

ثم كانت روايته "الطوفان الحجرى" الصادرة عام ١٩٨٦، التى نقدم ترجمتها الكاملة هنا، لتؤكد على توجهه إلى خارج الوطن "البرتغال" بحدوده الضيقة، والحديث عن شبه الجزيرة الأيبيرية

(البرتغال وإسبانيا)، ثم الانفتاح على القارة الأوروبية التى بدأت فى تكوين كتلتها السياسية والاجتماعية، والتى تدخل البرتغال فى إطارها بعد خروجها من عزلتها، ليأتى من بعدها كتاب "تاريخ حصار لشبونة" الصادر عام ١٩٩٠، كنوع من تحدى الشعر للرواية، أو عدم الرضاء عن الإنجاز الروائى فى مواجهة اللغة الشعرية.

ثم تتوالى بعد ذلك سلسلة من الأعمال التى تعتبر تمرداً على الممارسات الشمولية التى تنتهجها بعض المؤسسات الدينية والسياسية، وبشكل خاص الكنيسة الكاثوليكية، فكانت أولها رواية "إنجيل للمسيح" الصادرة عام ١٩٩١، ليأتى من بعدها "بحوث عن العمى" التى يعالج فيها النزعة الفردية، ثم روايته "كل الأسماء" الصادرة عام ١٩٩٧، التى يتناول فيها عالم البيروقراطية والرأسمالية بعد سقوط الاشتراكية الواقعية فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية.

هذا إضافة إلى أعمال أخرى، حيث كتب ساراماجو حوالى عشرين رواية وكتابات شعرية ودراسات أدبية وتاريخية، ويؤكد نقاد أدب ساراماجو باللغة البرتغالية أنه من الصعب وضع حد فاصل بين إبداعه وأفكاره، خاصة تلك التى يعلن من خلالها رأيه فى عالم اليوم، الذى يؤكد أنه يعيش لحظة من أحط لحظات التاريخ البشرى، لذلك يصفه أحدهم بأنه "مقاوم لا يقبل التصنيف"، وأعماله الأدبية تحاول أن

تسبح ضد تيار التدمير عبر التجريد، وحزبه الذى ينتمى إليه فكرياً، "حزب الرافضين للرؤية أو الإحساس عبر الآخرين، حزب الفرد الذى يرى ويشعر عبر رؤيته الخاصة"، ومن هنا تنبع أهمية كتابيه "بحوث عن العمى" و"كل الأسماء".

وإذا كان هناك من يتساءل عن وضعيه جوزيه ساراماجو: هل هو كاتب مبدع أم مناضل؟، فإنه يمكن العودة إلى ما قاله ألبير كامى: "ليس النضال هو الذى يدفعنا إلى أن نكون فنانين، بل إنه الفن الذى يفرض علينا أن نكون مناضلين"، وساراماجو كان فتى فقيراً عادياً، وعندما قرر أن يكون كاتباً حقيقياً وجد نفسه مدفوعاً إلى أن يكون مناضلاً، لأن الإبداع التزام.

من يعرف هذا الكاتب البرتغالى وقرأ أعماله وتابع نشاطه السياسى والاجتماعى يعرف أن الرجل كان دائماً صادقاً مع نفسه قبل أن يكون صادقاً فى مواجهة الآخرين، لذلك فهو وإن كان يتقبل النقد الأدبى بروح سمحة باعتبار أن للنقاد، بل وللقراء أيضاً، حق النقد، لكنه لا يقبل التشكيك فى رؤيته للعالم التى يعبر عنها من خلال آرائه، حتى لو تعرض للنقد الجارح، وربما من أبرز المواقف التى تعبر عنه ما حدث بعد زيارته للأراضى الفلسطينية المحتلة على أثر مذبحة جنين، التى وصفها بأنها "الجريمة البشعة"، وأنها لا تقل بشاعة عن "أوشفيتز" التى بنت عليها إسرائيل أسطورة وجودها، ورد على منتقديه

وقتها، بأنه يفضل أن يكون ضحية كالفلسطينيين عن أن ينتمى إلى معسكر القتل بالفعل: إسرائيل، والقتلة بالصمت: الغرب وإعلامه.

كان موقفه هذا قد جاء بعد الزيارة التي قام بها مع عدد من أعضاء "برلمان الكتاب الدولي" إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة ليعلموا رفضهم للممارسات العنصرية الصهيونية بعد أن راعهم صمت الساسة المريب على كل الأصعدة، لم يكن من بينهم من يعي الحقيقة المرة التي سيواجهونها على أرض الواقع سوى الكاتب الإسباني "خوان جويتيسولو" الذي كانت زيارته تلك الرابعة، فقد سبقتها زيارات ثلاث مطولة قام بها هذا الكاتب الإسباني، وأنجز خلالها العديد من البرامج التليفزيونية التي تدين الاحتلال الإسرائيلي، وتكشف حرب "الإبادة" التي يمارسها ضد الشعب الفلسطيني، وأيضاً كتب خلال تلك الزيارات عدداً من الأعمال الصحفية والأدبية، منها مجموعة مقالات في زيارة له عقب اتفاقات أوسلو، كان لى شرف ترجمتها ونشرها باللغة العربية، صدر جزء منها قبل خمس سنوات في كتاب بعنوان "دفاتر العنف المقدس".

كانت مفاجأة ما هو على أرض الواقع اليوم في العاصمة الفلسطينية المحتلة "رام الله" وما حولها من المدن والقرى الفلسطينية المدمرة كبيرة على من كانت تلك زيارتهم الأولى، وجعلت بعضهم يقارن- في

دهشة- بين ما يراه وما كان يسمعه عن مناطق أخرى في العالم كانت تعيش أحداثاً مماثلة لما يحدث الآن في وجودهم وأمام أعينهم، فقد أشار أحدهم من نافذة السيارة التي كانت تقلهم عبر بقايا المدن والقرى الفلسطينية التي دمرتها آلة الحرب الإسرائيلية من دبابات وجرافات على الأرض، وطائرات "أف ١٦" وحوامات "الأباتشي" الأمريكية من السماء، وبتوجيه من أقمار التجسس الصناعية الأمريكية التي توفر لتلك القوات كل المعلومات عن أي تحرك فلسطيني حتى لو كان فردياً، وأقامت على طرقاتها الحواجز العسكرية التي تمنع الاتصال ما بين قرية وأخرى إلا بتصريح خاص، لم يكن الهدف منه أمنياً بقدر ما هو "إذلال الفلسطيني والنيل من كرامته في محاولة لوضع حد لمقاومته"، حسب تعبير أحد أعضاء الوفد برلمان الكتاب الدولي، فيما أكد آخر أن "هذا مزيج من التبت وبرلين قبل سقوط حائطها الشهير".

مجموعة الكتاب المكونة من ثمانية يمثلون جنسيات وانتماءات عرقية ودينية عديدة، كان بينهم اثنان من الحاصلين على جائزة نوبل للآداب: النيجيري "ول سونيكا"، والبرتغالي "جوزيه ساراماجو" أول من حصل على جائزة نوبل للآداب من كتاب اللغة البرتغالية، وكان هذا الأخير صامتاً طوال الطريق يراقب ما يحدث حوله من جرائم، ويحاول أن يجد له شبيهاً في ذاكرته التي شهدت أسوأ ما أبدعته النفس البشرية من تدمير، سواء خلال الحربين

الكبريين فى أوروبا، أو الحروب الأهلية الدائرة فى العديد من بلدان العالم التى زارها للتضامن مع ضحاياها، وكانت آخر هذه الزيارات لمناطق مشتعلة تلك التى قام بها للمكسيك لإعلان تضامنه مع سكان "تشياباس" الهنود الحمر الذين يتعرضون للإبادة هناك، وكانت تلك الزيارة قبل أيام قليلة من زيارته للعاصمة الفلسطينية رام الله، ولم يجد الكاتب البرتغالى شبيهاً فى التاريخ الإنسانى المعاصر لما يحدث فى الأراضى الفلسطينية سوى ما حدث على أيدي النازى خلال الحرب العالمية الثانية، ليس ضد اليهود فقط، بل ضد كل من كان النازى يرى أنه عقبة فى سبيل تحقيق "سمو الجنس الآرى"، حتى أن المصادر التاريخية تؤكد أن ضحايا النازى من "الفجر" يفوق كثيراً عدد ضحايا اليهود فى ما يسمونه "المحرقة".

ولأنه يدرك أن ما يحدث فى الأراضى الفلسطينية المحتلة على أيدي جيش مسلح بأحدث ما يملك البشر من أدوات للتدمير فى هذا العصر لا يمكن التعامل معه على أنه مجرد "مواجهة" بين قوتين؛ لأن المواجهة تكون عادة بين قوتين شبه متعادلتين فى العدد والعدة، بل هى حرب "إبادة" لا يمكن أن يكون لها اسم آخر، فقد قال كلمته التى كانت لا تعنى سوى الحقيقة: "هذه هى المحرقة النازية التى يمارسها الجيش الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى، ورام الله المحاصرة، تذكرنى بمعسكر أوشفيتز النازى".

بهذا التصريح المبالغت للإعلام الصهيونى، ليس فى إسرائيل وحدها بل والإعلام التابع والمؤيد للصهيونية فى العالم أجمع، الذى لم يتوقع أن يكون بين أعضاء الوفد من يجروء على كسر المحرمات الصهيونية، كان رأى جوزيه ساراماجو خروجاً عن نطاق الآراء واللغة الدبلوماسية التى اعتادوا سماعها من "المرتعبين" من مجرد نطق كلمة "المحرقة"، رغم أنها لم تعد تقول شيئاً بعد كل هذه السنوات التى أستهلك استخدامها من قبل إسرائيل.

هذه الصدمة التى أحدثتها تصريحات ساراماجو فى إسرائيل وبين مؤيديها كشفت عن جهلهم لموقف الرجل، فهو لم يكن يوماً من هؤلاء الذين اعتادوا الابتعاد عن الصدق فى التعبير، لا فى وطنه ولا خارجه، حتى خلال تسلمه لجائزة نوبل كان خطابه من أجراً الخطابات التى اعتاد جمهور "نوبل" أن يسمعها من الفائزين بها كل عام، والتى لم تكن تخرج عن التعبير عن السعادة بشرف الفوز بها، وتبجيل صاحبها، لذلك فى زيارته للعاصمة الفلسطينية المحاصرة "رام الله" لم يمنع نفسه من التعبير عن رأيه الحقيقى الذى يفكر فيه دون انتظار لمكافأة من أحد، بل كان يعرف أن كل ما سيقوله قد يجلب له المتاعب من قبل وسائل الإعلام التابعة والخاضعة للسيطرة الصهيونية، التى ترى فى كل رأى مخالف "عداء للسامية"، وكأن إسرائيل هى تلك السامية المزعومة، وكما قال كاشفاً حقيقة أخرى لم يجروء أوزوبى قبله

على البوح بها علناً: "إسرائيل لا ترى موقفاً ثالثاً لأحد، إما الانضمام إلى جوقة المؤيدين إلى السامية طبقاً لتعريفها، أو احتلال مكان العدو للسامية، ذلك السلاح الكاذب الذى يوجهونه إلى مناهضيهم".

عندما قال ساراماجو فى مؤتمر صحفى فى رام الله أن ما يحدث من حوله ليس سوى "أوشفيتز" - معسكر النازى الذى يقول دعاة الصهيونية إن ملايين اليهود ماتوا فيه- حاولت صحيفة إسرائيلية ابتزازه قائلة: "لا توجد هنا أفران غاز"، فرد عليها بهدوء: "ما أقوله يتعلق بالفعل وليس بالاسم، وما يحدث هنا يصدر عن روح مماثلة (للنازية) وهذا واضح جداً هنا، وزاد فى رده بقوله: "إن ما يحدث هنا جريمة ضد الإنسانية، وإذا كانت كلمة "أوشفيتز" تغضب الإسرائيليين فعليهم أن يختاروا كلمة أخرى للتعبير عن ما أراه هنا، وعلى أى حال لن تكون أية كلمة أخرى لوصف ما يحدث هنا أقل بشاعة من وصف المحرقة النازية".

كان ساراماجو يعرف أيضاً أن تصريحاته الناطقة بالحق والحقيقة سوف تثير عليه حرباً تستخدم فيها الصهيونية كل ما تملك من أسلحة دعائية لتشويهه، ولكنه كان جاهزاً للرد، لأنه يعتقد أنه يقول الحق، ولذلك لم يحاول التملص من كلماته أو النكوص عنها، كما حدث من قبل مع الكثير من الساسة والمثقفين، بالتراجع تحت الضغوط من خلال محاولة تقديم

تفسيرات من ذلك النوع الذى يستخدمه السياسيون عندما يؤكدون أن تصريحاتهم "قد أسىء فهمها"، أو "اقتطعت الكلمات من سياقها".

لم تمض ساعات حتى أكد الكاتب البرتغالى فى حوار مع صحيفة "الباييس" الإسبانية بالهاتف أجرته معه الصحيفة وهو لا يزال فى فندقه فى تل أبيب، لعله ينفى أو يتراجع، أو يحاول التملص من كلماته، فما كان منه إلا أن أكد من جديد أن كل كلمة قالها فى اتهامه إسرائيل بممارسة "حرب إبادة" ضد الفلسطينيين كانت تعنى ما تتضمنه، وأنه فكر كثيراً فى هذه الكلمات، واعتى باختيارها قبل الإدلاء برأيه؛ لأنه ببساطة وصف بدقة ما شاهده على أرض الواقع، وغير مستعد للخضوع لأية ضغوط للتراجع عن ما قاله حرفياً، وأكد أنه إذا كانت إسرائيل لا تريد أن تسمع اسم معسكر النازى "أوشفيتز"، فإنه تعمد "ذكر هذه الكلمة بالتحديد حتى يهتز المجتمع الإسرائيلى من داخله وي طرح نقاشاً حول ممارسات جيشه وحكومته ضد الفلسطينيين، وأن يتخذ ما من شأنه أن يوقف المعاناة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى حتى لا يتكرر مع الفلسطينيين ما حدث لليهود على أيدي النازى".

أما رواية "الطوف الحجرى" التى نقدم للقارئ ترجمتها الكاملة هنا، فتعكس أيضاً هذه الرؤية الواضحة لهذا الكاتب؛ لأنها جاءت تحديداً بعد انضمام بلاده إلى الاتحاد الأوروبى فى ظل معارضة

من جانب العديد من المتطرفين الغربيين الذين يرون في البرتغال وإسبانيا عالماً متخلفاً لا يجب أن ينتمى إلى أوروبا، وربما كانت المقولة الأوروبية الشهيرة لبعض متطرفيها: "أوروبا تنتهى عند جبال البرانس، وما هو جنوبها ينتمى إلى إفريقيا".

يتخيل الكاتب عدداً من الأحداث المتوازية التى لا رابط بينها: انطلاق كلاب قرية فى النباح دون توقف، وموظف برتغالى يقذف حجراً فى مياه المحيط الأطلنطى، ومُعلم مدرسة برتغالية تتبعه الزراير أينما توجه، وصيدلى إسبانى يشعر باهتزاز الأرض تحت قدميه، وسيدة برتغالية مطلقة ترسم خطأ على الأرض بفرع شجرة دردار، وأرملة جيليقية تفك خيوط جورب صوفى أزرق وتصنع منه تلاً من الخيوط لا ينتهى. إلا أن تلك الأحداث غير المنطقية تؤدي إلى حدث واحد مرعب وهو انفصال شبه الجزيرة الأيبيرية: إسبانيا والبرتغال، عن أوروبا، وتحديدًا عند جبال البرانس التى يعتبرها المتطرفون الأوروبيون الحد الجنوبي لقارتهم، وإبحار هذه الكتلة الضخمة من الأرض فى مياه المحيط الأطلنطى دون توقف، وما يترتب على ذلك من آثار جغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

فَمَنْ قذف الحجر إلى مياه المحيط دفعه شعوره بالذنب إلى البحث عن صاحب الزراير، وتوجهها معاً إلى إسبانيا بحثاً عما يشعر باهتزاز الأرض تحت قدميه، ثم يتوجه ثلاثتهم لمعرفة علاقة أفعالهم بما

حدث لبلادهم، ليلتقوا بالسيدة التى رسمت الخط على الأرض ولا تفهم ما حدث لبلادها، وهكذا تتوالى الأحداث التى تكشف عن الكثير من الفلسفات الحياتية المتقابلة والمتعارضة التى تحدث عادة فى ظل الكوارث الكبرى، وانفصال شبه الجزيرة الأيبيرية واحدة من تلك الكوارث.

تتغير حياة الناس جميعاً، كل تسير حياته فى الاتجاه الذى تدفعه إليه حركة هذا "الطوف الحجرى"، سواء بإبحاره بلا اتجاه معين، أم بدورانه حول نفسه وما قد ينجم عن ذلك من أخطار.

وكعادته يستخدم الكاتب تقنيته المعروفة عنه فى الكتاب، وهى السرد والحوار متداخلات معاً ومما تطلب منا أثناء الترجمة وضع الحوار بين علامتى تنصيص حتى لا يختلط الأمر على القارئ. وفق إضافة من المترجم حتى يمكن تسهيل مهمة القراء

إنها عمل عبقري تطلب من مؤلفه أن يكون ملماً، ليس بجغرافية الأرض التى حركها من مكانها، بل بتاريخها القديم والحديث، وبالسياسة المعاصرة وجنورها القديمة فى شبه الجزيرة، وأيضاً بالنظريات والحقائق العلمية التى لم يتركها للصدفة أو الخيال لمجرد الخيال.

يأخذ جوزيه ساراماجو القارئ فى "الطوف الحجرى" إلى رحلة متسارعة النبض لا تجعله يتوقف حتى يصل إلى نهايتها، من خلال تقنية روائية أقرب

إلى حكايات "ألف ليلة وليلة"؛ أى الحكاية التى تتولد من الحكاية، وهنا تنتقل الشخصيات بحثاً عن بعضها، لننتعرف على حكاية كل شخصية وعالمها الخاص، الذى سرعان ما يذوب فى حكاية الشخصية التالية، لندوب جميعاً فى حكاية واحدة من خلال ربط مصائر تلك الشخصيات ببعضها البعض.

دكتور. طلعت شاهين

كل مستقبل هو جميل
، اليخو كارينتيين،

- ١ -

عندما رسمت جوانا كاردا على الأرض خطأ بعضاً من فرع شجرة دردار، بدأت كلاب ثيربيري فى النباح، فأشاعت بين سكانها الخوف والرعب، فهناك اعتقاد قديم جداً يقول، إنه عندما تنبح الكلاب التى تعتبر حيوانات خرساء يكون ذلك علامة على نهاية العالم. كيف تشكلت هذه العقيدة المتجذرة، أو هذا الاعتقاد الجازم؟ ذلك أنه فى كثير من الأحيان، تكون الخرافة التعبير الموازى البديل، لا أحد يتذكر ذلك الآن، رغم أننا حالياً نعرف، لحسن الحظ، تلك اللعبة التى تقول إنه نتيجة سماع الحكاية وتكرارها بشكل جديد، فقد كانت الجدات الفرنسيات تسلين أحفادهن بتلك الأساطير المنتشرة فى هذا المكان، بلدة ثيربيري،

التابعة لمقاطعة "البرانس الشرقية" والتي تقول الخرافة إنه خلال الحقب الإغريقية والأسطورية نبج هناك كلب بثلاث رؤوس وكان يدعى ثيربيرو، اعتبره الملاح "كارونتي" منافساً له. ثم حدثت أمور أخرى، لا يعرف أحد أسبابها، منها التحول العضوى الذى مر به هذا الحيوان الشهير ليصل إلى مرحلة الخرس التاريخى، وتحول أحفاده إلى كلاب ذوات رأس واحدة، كنوع من الانحطاط. عند تلك النقطة من الحكاية التى تجاهلها قليلون، وبشكل خاص من كانوا ينتمون إلى الجيل القديم "الكاتثرييرو"، والتى تُكتب فى لفتنا هكذا، ويُقال أيضاً إنه يحرس بوابة جهنم المرعبة؛ حتى لا تهرب منها الأرواح، وبالتالي ربما جرى هذا التحول رحمة بالآلهة المحتضرة، ومن هنا خرس الكلاب المستقبلية فيما تبقى من حياة أبدية، ربما يمكن إخماد ذاكرة هذه المنطقة الجحيمية بهذا الصمت. لكن ما يُرتجى لا يستمر دائماً، وهو ما تعلمناه فى الحقبة المعاصرة، فكان كافياً هذه الأيام أنه على بعد مئات الكيلومترات من ثيربيرو، فى مكان ما فى البرتغال، سنذكركم باسمه فيما بعد، كان يكفى أن ترسم امرأة اسمها جوانا كاردا خطأ على الأرض بعضاً من فرع شجرة دردار، حتى تنطلق كل الكلاب نابحة فى الشارع، تلك، أكرر، التى لم تنبح أبداً من قبل. ولو سأل أحدهم جوانا كاردا، من أين وانتهت فكرة أن ترسم بالعصا خطأ على الأرض، وهو عمل أكثر ارتباطاً بالمراهقة المجنونة من أن يكون من صنع

امراة عاقلة؟ وعما لو كانت قد فكرت فى نتيجة عمل يبدو بلا معنى مثل هذا، وأولئك، تذكروا هذا، ما نتج عنه الخطر الأكبر، ربما تجيب، "لا أعرف، إن ما دفعنى لذلك، هو أن العصا كانت على الأرض، أخذتها ورسمت الخط"، ولم يخطر على بالها أنها يمكن أن تكون عصا سحرية، "اعتقدتُ أنها أكبر من أن تكون عصا سحرية، وكنت أعرف دائماً أنهم يقولون إن العصا السحرية تكون مصنوعة من الذهب والبلور، ويشع منها الضوء وعلى رأسها نجمة ذات حواف مدببة". "هل كنت تعرفين أنها فرع شجرة دردار؟"، "أعرف أنها عصا من أشجار مجهولة بالنسبة لى، وقيل لى فيما بعد إن العصا يمكن أن تكون من نوع آخر، حتى لو غيرنا أسماءها، ولا أى نوع منها له قدرات خارقة للطبيعة، على أية حال أنا متأكدة من أن أى عصا من الفسفور كان يمكنها أن تؤدى إلى النتيجة نفسها"، "لماذا تقولين ذلك؟"، "لأنه ما يجب أن يكون، يجب أن يكون، وله قوة كبرى، ولا يمكن أن يقاومها شىء، أنا سمعت هذا من كبار السن آلاف المرات، لكنهم يعتقدون فى سوء الحظ"، وأنا أعتقد فيما يجب أن يحدث".

ضحكوا كثيراً فى باريس من توسلات العمدة، الذى كان يبدو كما لو كان يهاتفهم من حظيرة كلاب لحظة تقديم الطعام لها، وفقط أمام التضرعات المتكررة لبرلمانى ينتمى إلى الأغلبية، وكِد ونشأ فى تلك البلدة، وبالتالي يعرف الأسطورة والحكايات المحلية،

قررُوا إرسال طبيبين بيطريين من المكتب العاشر إلى الجنوب؛ ليقوما بمهمة خاصة جداً وهى دراسة تلك المشكلة الغريبة، وتقديم تقرير وعرض الحلول لمواجهتها. فى الوقت نفسه، فإن السكان المنهارين، أو على وشك الإصابة بالخرس، كانوا يهيمنون على وجوههم فى شوارع وميادين ذلك المكان الهادئ، الذى تحول الآن إلى مكان جحيمى، وقام الأهالى بإلقاء العشرات من كرات اللحم المسموم، وهى الطريقة القديمة التى ثبت نجاعتها عبر تجارب تعدت الزمان والمكان، فى النهاية، لم يمت سوى كلب واحد، ولكنه كان كافياً لتتعلم الكلاب الأخرى الحية الدرس، وفى لحظة واحدة، من النباح والعواء، اختفت الكلاب فى الحقول المحيطة بالمكان، دون سبب ظاهر يفسر هذا الاختفاء، وخيم الصمت بعدها بقليل. وأخيراً بعد أن وصل الطبيبان قدموا لهما جثة المسكين ميدور باردة، ومنفخة، وتختلف كثيراً عن الحيوان المبدل الذى كان يرافق سيده خلال تسوقها، ولأنه كان قد بلغ الشيخوخة فقد كان معتاداً على النوم فى الشمس بلا مبالاة. وبما أن العدالة لم تكن قد غادرت العالم بعد، قرر الله، شاعرياً، أن يموت ميدور بكرة اللحم المسمومة التى أعدتها سيده المحبوبة، والتى، من المستحسن أن يُعرف، أنها كانت تفكر فى قتل كلبة معروفة بالجوار، لم تكن تخرج من حديقة البيت. قال أكبر الطبيبين أمام بقايا الجثة، لنقم بتشريحها، مع أنه لم يكن فى الواقع يحتاج إلى ذلك، لأنه يمكن لأى

من سكان ثيرير إذا أراد، أن يؤكد سبب الموت، ولكن العمر الخفى، كما يقولون فى الاستخبارات، أن يتم التشريح حتى يمكن فحص الأحبال الصوتية للحيوان، ليبين خرس الموت النهائى الآن والصمت الذى كان يبدو عليه طوال حياته، لقد عاش ساعات قليلة من الكلام مكنته من أن يكون مثله مثل الكلاب الأخرى الطبيعية. كان التشريح جهداً ضائعاً، فلم يكن لميدور أحبال صوتية، أصابت الطبيبين الدهشة، لكن العمدة أدلى برأيه، الإدارى والرزين، "هذا ليس بالغريب، بعد قرون عديدة كانت فيها كلاب ثيريرى دون نجاح، فقدت أحبالها الصوتية". "ولكن كيف حدث هذا فجأة؟"، "هذا ما لا أعرفه، فأنا لست طبيباً بيطرياً، لكن انزاعنا انتهى، فالكلاب اختفت، ولم يعد يسمعها أحد فى الأماكن التى هربت إليها"، أما ميدور الممزق والمخاط بشكل سيئ، فقد تم تسليمه لسيدته الباكية، كما لو كان تكفيراً حياً، إنه تكفير عن الخطايا حتى بعد الموت، فى طريقهما إلى المطار ليستقلا الطائرة باتجاه باريس، قرر الطبيب أن عدم ذكر الأحبال الصوتية المفقودة فى تقريرهما. ويبدو أنه منذ تلك الليلة بدأ يظهر فى شوارع ثيريرى كلب بثلاث رموس، بارتفاع شجرة لكنه أخرس لا ينبع.

خلال تلك الأيام نفسها، وربما قبل ذلك، وربما بعد أن رسمت جوانا كاردا خطها على الأرض بعضا البردار، كان هناك رجل يتنزه على الشاطئ، حدث هذا لحظة غروب الشمس، عندما كان صوت الأمواج

يكاد لا يُسمع، كانت الأمواج قصيرة وساكنة كهمسات بلا سبب، وهذا الرجل، الذى سيقول فيما بعد إن اسمه جواكيم زازا، كان يسير على الخط الفاصل بين الرمال الجافة وتلك المبتلة، ينحنى من وقت لآخر ليلتقط قوقعة، أو بقايا ذراع سرطان بحر، أو جزءاً من رخوية بحرية خضراء، ليس غريباً أن يقتل وقته بهذه الطريقة، وهذا ما كان يفعله هذا الرجل الوحيد، ولأنه لم يكن يحمل جيوباً ولا كيساً لحفظ مقتنياته، فقد كان يلقي إلى البحر بالبقايا الميتة عندما تكون يده مليئتين، فللبحر ما للبحر، وللأرض ما يتبقى على الأرض. لكن كل القواعد لها شواذها، فقد شاهد حجراً بعيداً عن أمواج الماء، رفعه جواكيم زازا، كان الحجر ثقيلاً، وعريضاً كدائرة، لم يكن متساوى الحواف، لكنه كالأشياء الأخرى، من الممكن الإمساك به، وناعم الملمس، من تلك التى يمكن الإمساك بها بين إصبعى السبابة والإبهام، قذف به جواكيم زازا على سطح الماء ليراه يقفز وهو يشعر بالسعادة لحذقه، وليغرق فى النهاية فى عمق الماء، وبعد أن هدا الرجل وبدا أن الحجر قد بلغ مصيره، المحتوم، جفت الشمس، المبتلة بماء المطر فقط، والفارقة الآن فى الأعماق المظلمة فى انتظار مليون عام حتى يتبخر هذا البحر، أو يتراجع فيعيد الحجر إلى الأرض، ليبقى مليون عام أخرى، وليمر الوقت حتى يهبط إلى الشاطئ جواكيم زازا آخر، يكرر دون أن يعرف تلك الحركة، ولا يقول كأي إنسان آخر، لن أفعّلها، من المؤكد أنه لن يكون هناك أى حجر.

على شواطئ الجنوب، في هذه الساعة الدافئة، كان هناك من يأخذ حمامه الأخير، لا شيء، كان يقفز ككرة، يغطس بين الأمواج، أو ربما يترك نفسه يفرق على مرتبة هوائية، أو، يدخل في جلد نسيمات المساء الأولى، يريح الجسد ليتلقى آخر لمسات الشمس التي ستختفي في البحر خلال ثانية واحدة، إنها الثانية الأكبر حجماً بين الثواني؛ لأنها تنظر إلينا وتتركنا ننظر إليها. لكن هنا، على هذا الشاطئ الشمالي الذي يمسك فيه جواكيم زازا بيده حجراً، حجراً ثقيلاً جداً يصيب يده بالتعب، تهب الرياح باردة بينما تفرق الشمس حتى المنتصف، فيما لا تطير النوارس على الماء. قذف جواكيم زازا الحجر، اعتقد أنه سيسقط هنا بالقرب منه، عند قدميه تقريباً، على الواحد منا أن يعرف كيف يقيس قوته الشخصية، لم يكن هناك شاهد يمكنه أن يضحك من القذفة الخائبة، لكنه كان مستعداً ليضحك من نفسه، إلا أنه لم يحدث ما كان مُنتظراً، فقد صعد الحجر الغامض الثقيل في الهواء، وسقط فيما بعد واصطدم بسطح الماء بكل قوته، وعاد للصعود من جديد على أثر الاصطدام، ليفرق فيما بعد بعيداً، فإذا كان البياض الذي شاهدناه قبل قليل، بعيداً، لم يكن سوى جزء من الزيت الناتج عن تحطم الموجة، كيف يكون ممكناً، فكر جواكيم زازا مذهولاً، بهذه القوة الطبيعية الهزيلة، أن أقذف بعيداً حجراً ثقيلاً جداً، كان البحر يدخل في الظلام، وليس هناك شخص يمكنه أن يقول لي، حسن جداً، يا جواكيم زازا

أنا شاهد على موسوعة جينيس للأرقام القياسية، إن مغامرة مثل هذه لا يمكن أن يتم تجاهلها، سيقول الجميع إن ما حدث غريب. جاءت موجة عالية جداً من داخل البحر، كانت مزيدة ومدمرة، لقد سقط الحجر أخيراً إلى البحر، هذا هو رد الفعل المعروف منذ جريان أنهار الطفولة لن كانت لطفولته أنهار، الدوائر المتتالية الناتجة عن الحجر دفعت جواكيم زازا إلى الصعود إلى الشاطئ، فيما تكسرت الأمواج على الرمال حاملة القواقع، وذراع السرطان، والطحلب الأخضر، ولكنها حملت أشياء أخرى، طحالب، عوالق، رقائق. وحجراً صغيراً يمكن الإمساك به، من تلك الأحجار التي يمكن الإمساك بها بين أصبعي السبابة والإبهام، كم مر عليه من السنوات دون أن يرى النور!

الكتابة عملية صعبة جداً، إنها من المسئوليات الكبرى، يكفى التفكير في العمل الشاق الذي يحتاجه الترتيب الزمني للأحداث، أولاً هذا، وبعده ذلك، أو، لو كان هذا متوافقاً مع الفعل المطلوب، فحدث اليوم موضوع قبل فصل الأمس، وألعاب أخرى ليست أقل خطورة، كتابة الماضي كما لو كان يحدث الآن، والحاضر كما لو كان مستمراً بلا نهاية، لكن، مهما بذل المؤلفون من جهد، هناك قدرة لا يمكنهم إعلانها، أن يضعوا في وقت واحد شيئين وقعا في ذات الوقت. هناك من يعتقد أنه من الممكن التغلب على هذه الصعوبة بتقسيم الورقة إلى عمودين، كل عمود من ناحية، لكن هذه الحيلة غبية؛ لأنه سيكتب جانباً أولاً

وبعد الآخر، دون أن ننسى أن القارئ عليه أن يقرأ هذا أولاً وبعدها ذلك، أو العكس، من احتالوا على هذا هم مغنو الأوبرا، كل واحد يمتلك جزءه الخاص به بين المجموع، ثلاثة أربعة خمسة ستة من بين الأصوات الحادة والمنخفضة، كلهم يغنون كلمات مختلفة، على سبيل المثال، الوغد يتداخل، والغبي يتضرع، والمعجب بنفسه يتأخر كثيراً في الاستجابة، وما يهم المشاهد هو الموسيقى، لكن القارئ ليس كذلك، يريد كل شيء واضحاً، مقطعاً مقطعاً، وواحد تلو الآخر، كما نبين هنا، لهذا السبب، إذا كنا قد تحدثنا أولاً عن جواكيم زازا، لننتحدث الآن عن بدرو أورثي، عندما قذف جواكيم زازا الحجر إلى البحر، وقفز بدرو من المقعد، إنهما عملاقان حدثا في لحظة واحدة، رغم أن الساعات كانت تشير إلى أوقات مختلفة، نتيجة وجود هذا في إسبانيا وذاك في البرتغال.

إن لكل نتيجة سبباً، تلك حقيقة معروفة، لكن ليس من الممكن تجنب بعض أخطاء الأحكام، أو تحديدها ببساطة، فمن الممكن أن نعتبر أن هذه النتيجة جاءت عن ذلك السبب، فيما أن السبب كان آخر، بعيداً جداً عن المفهوم الذي لدينا والعلوم التي نعتقد أننا نمتلكها. على سبيل المثال، بدا أنه تم إثبات أن كلاب ثيريري نبحت لأن جوانا كاردا رسمت خطأ على الأرض بعضاً من فرع شجرة دردار، رغم أن طفلاً عاقلاً جداً، هذا إذا ما تبقى بعض العقل من تلك

الأيام الذهبية، أو بريئاً، إذا ما كان اسم البراءة المقدس يمكن القسم به بلا طائل، طفل صغير قادر على الاعتقاد بأن إغلاق يده يعنى أنه سيمسك بضوء الشمس، فقط هذا الصغير يمكنه أن يعتقد أن الكلاب كانت قادرة على النباح، وهى التى لم تتبح أبداً من قبل لأسباب ذات طبيعة تاريخية وفسيولوجية. فى كل تلك الآلاف المؤلفة من الأماكن والقرى والأحياء والمدن سنجد أشخاصاً يقسمون إنهم السبب، تماماً كنباح الكلاب، وكل ما يأتى من بعده، لأن الكلاب اصطدمت فى باب أو أن ظفرها قد تحطم، أو قطعوا بها ثمرة من شجرة، أو سحبوا ستارة، فى الأوقات نفسها، أو ولدوا، تلك فرضيات، فرضيات الموت والميلاد، التى تعتبر الأصعب قبولاً، خاصة إذا كان من يجب أن يفترضها هم نحن، فمن يولد لا ينطق منذ تكوينه فى بطن أمه، ومن يموت لا ينطق بعد دخوله باطن الأرض. ولا يفيد شيئاً أن نضيف أن الجميع لديهم أسبابهم ليحكموا على السبب والنتائج كلها. هذه الأشياء التى كنا نتحدث عنها، والأكثر من ذلك تلك الخاصة بسير العالم، ما أريد معرفته الآن هو كيف يكون ذلك العالم عندما يخفى البشر والنتائج التى يتسببون فيها؟ ربما لا يكون مفيداً التفكير على هذا النحو الضخم، يا له من دوار، والآن حسن، يكفى أن يتبقى على قيد الحياة بعض الحيوانات الصغيرة، وبعض الحشرات، وعندها سيكون هناك عوالم؛ عالم النملة، وعالم الجنّيب، ولا تُفتح الستائر، ولن يتم

النظر في مرآة، وأكثر من ذلك، في النهاية فإن الحقيقة الكبرى، لا يمكن للعالم أن يموت.

يقول بدرو أورثي مهما كانت الجراحة، بأن السبب في أن الأرض اهتزت أنه خبط الأرض بقدميه عندما نهض عن الكرسي، كانت ردة الفعل قوية، ولما لم يقدم دليلاً، ربما نشك قليلاً، لو أن كل إنسان يترك علامة في العالم، فإن تلك يمكن أن تكون علامة بدرو أورثي، لذلك فهو يقول، "وضعتُ قدميَّ على الأرض وعندها بدأت الأرض في الاهتزاز". لقد كانت هزة عنيفة لكن لم يشعر بها أحد، وحتى الآن، بعد مرور عشر دقائق، عندما انسحبت الموجة عن الشاطئ، ويقول جواكيم زازا لنفسه، "لو أنني حكيت هذا لأسموني الكاذب". الأرض تتذبذب كما يتذبذب وتر الكمان بعد أن صممت نغماته، يشعر بها بدرو أورثي في باطن قدميه، ويظل يشعر بها عندما يخرج من الصيدلية إلى الشارع، ولا يبدو أن أحداً هناك شعر بشيء، تماماً كالنظر إلى نجمة والقول، يا له من ضوء جميل، يا لها من نجمة رائعة! ولا يمكن أن يعرف أنها انطفأت في منتصف الجملة، وسيكرر الأبناء والأحفاد تلك الكلمات، يتحدث المساكين عن ما مات ويسمونه حياً، لا يحدث هذا الخداع في العلوم الفلكية فقط. هنا يحدث العكس، يقسم الجميع أن الأرض ثابتة، وفقط بدرو أورثي يؤكد وحده أنها تهتز، من حسن الحظ أنه سكت ولم يخرج هارباً، من ناحية أخرى لم تهتز الجدران، والمصابيح المعلقة ظلت ساكنة كما لو خُتمت

بالرصاص، والطيور فى القفص، وهى من المفترض أول من يطلق صيحات الإنذار، تنام هادئة على القضيب المعلق، والرأس تحت الجناح، وإبرة مسجل الزلازل رسمت وتواصل رسم خط أفقى مستقيم على الورق الحساس.

فى الصباح التالى، كان هناك رجل يعبر سهلاً قاحلاً، ليس به لا شجيرات ولا حشائش طينية، فى طريقه لصيد الأسماك النهرية متبعاً طريقه باتجاه الأشجار العالية كما كان يسميها، أشجار الحور والدردار، وكثير من أشجار الأثل، بلونها الإفريقى، ما كان يمكن لهذا الرجل أن يختار مكاناً أكثر عزلة من هذا، والأقرب إلى السماء، وفوق رأسه يطير صخب غير مسموع مصحوب بسرب من الزراير، من الكثرة بحيث كانت تكون سحابة مظلمة وضخمة، كعاصفة. عندما كان يتوقف كانت الزراير تدور فى حلقات، أو تطير صاعدة هابطة فوق شجرة، وتختفى بين الأفرع فيزداد الصوت تردداً، فتطن قمة الشجرة بأصوات حادة، مرعبة، كما لو كانت تجرى فيها معركة عنيفة، عاد جوزيه أنايسو للسير من جديد، كان هذا اسمه، تصعد الزراير بشكل فجائى، فيرووووووو، لو لم يكن معروفاً من يكون هذا الرجل، لبدأنا فى التفكير للتكهن بهويته، سنقول إنه ربما كان يعمل حارس طيور، أو كالحية لديه ملكة السحر، وقدرات مدهشة، فيما كانت الحقيقة هى أن جوزيه أنايسو كان مثلنا غير متأكد من سبب هذا المهرجان، "ماذا تريد منى تلك

المخلوقات؟، لن تدهشنا تلك الكلمة المجهولة، منذ أيام والكلمات المعروفة لا تغرى باستخدامها.

كان السائر يأتى من اتجاه الشروق ويتجه غرباً، هكذا جاء الطريق والمسيرة، ولكن بما أنه كان عليه أن يتجنب البحيرة الكبيرة فقد اتجه جنوباً بشكل منحني بطول الشاطئ، كان الوقت صباحاً، وبدأت الشمس تلسع، رغم هبوب نسيم رطب لا يزال نقياً، خسارة عدم القدرة على الاحتفاظ به فى الجيوب لاستخدامه عندما تشتد حرارة الشمس بشكل حقيقى. سار جوزيه أنايسو مُطلقاً العنان لتلك الأفكار، مشوشة وعفوية كما لو كانت لا تخصه، عندما انتبه إلى أن الزراير تخلفت عنه، تتخبط فيما بينها بعيداً عنه، حيث يدور الطريق ليوافى البحيرة، من المؤكد أن هذا كان من ملكاته العجيبة، لكن أخيراً، كما يقولون، من يذهب يذهب، ومن يبق يبق، أهلاً أيتها الطيور، كان جوزيه أنايسو قد دار حول البحيرة، نصف ساعة تقريباً من الطريق الوعر بين العوسج، ثم عاد إلى الطريق الأول فى الاتجاه نفسه الذى جاء منه، من الشرق إلى الغرب كالشمس، عندها حدث فجأة، فروووووو، ظهرت الزراير من جديد، أين كانت خلال تلك الفترة؟ والآن حسناً، لا يوجد تفسير لهذه الظاهرة. إذا كانت جماعة من الزراير قد رافقت رجلاً خلال نزهته الصباحية كما الكلب الأمين خلف صاحبه، وإذا كانت قد منحته الوقت ليدور حول البحيرة لتتبعه فيما بعد كما كانت تفعل، لا يُطلب منها

أن تتبعه كالسابق، ولا يمكن أن يُطلب منها أن تقول أو تفسر الأسباب، فالطيور ليس لديها أسباب، ولكنها تتبع الغريزة، والتي كثيراً ما تكون ضبابية وعفوية كما لو كانت لا تخلصنا، لنتحدث عن الغريزة، ولكن لنتحدث أيضاً عن الأسباب والمسببات، لكننا لن نسأل جوزيه أنيسو من يكون أو ماذا يفعل في هذه الحياة؟ ولا من أين أتى أو إلى أين يذهب؟ ما يجب أن يُعرف عنه، يجب أن يُعرف عنه، وهذا التحوط وهذا التريث عن معرفة الأخبار يجب أن نطبقه بالنسبة لجوانا كاردا وعصاها الدردارية، وجواكيم زازا والحجر الذي قذف به إلى البحر، وبدرو أورثي والكرسي الذي نهض من جلسته عليه، فالحياة لا تبدأ عندما يُولد الأشخاص، لو كانت هذه حقيقة لكان كل يوم إضافة إلى تلك الحياة، الحياة تبدأ بعد ذلك، وكثيراً ما تبدأ متأخرة جداً، دون حساب تلك التي ما تكاد تبدأ حتى تنتهي، لهذا السبب صرخ الآخر، "آه، من يكتب حكاية ما كان يجب أن يكون".

والآن تلك المرأة، ماري جوافايرا هكذا يسمونها، اسم غريب، التي صعدت إلى غرفة الخزين في بيتها وعثرت على جورب قديم، من تلك الجوارب القديمة الحقيقية التي كانت تُستخدم لحفظ النقود، وتحفظ بها جيداً كما لو كانت خزانة فولاذية، ورمز الأمان، إنها اقتصادات مضحكة، وبما أنها عثرت عليه فارغاً، فقد بدأت في فك خيوطه، كنوع من شغل الوقت، كمن لا يجد ما يفعله ويريد شغل يديه، مرت ساعة، وساعة

اخرى، ولم يتوقف الخيط الصوفى الأزرق عن الانزلاق، ولكن الجورب لا يبدو عليه أنه يفقد شيئاً من حجمه، كما لو لم يكن كافياً الألفاظ الأربعة التي روينا قصتها، هذا يشير لنا أنه على الأقل مرة واحدة، أن المحتوى يمكن أن يكون أكبر من الإناء، في هذا البيت الهادئ الذى لا تصل إليه أصوات أمواج البحر، وإذا مرت الطيور فإن ظلها لا يقل شيئاً من ضوء الشباك، الكلاب موجودة لكنها لا تنبح، والأرض، لو كانت قد اهتزت، لا تهتز، والخيوط تحت أقدام المرأة أصبحت جبلاً لا يتوقف عن النمو، وماريا جوافيرا لا تدعى اريادنا، وهذه الخيوط لا تساعدنا على الخروج من الشرك، وربما ما يمكننا أن نتوصل إليه من خلالها هو أن نزداد ضياعاً. والنهاية، أين هى.



- ٢ -

ظهر الصدع الأرضى الأول فى سهل واسع من
الحجرى الطبيعى، تماماً كسهل الرياح، فى مكان ما
من جبال "البيريس" التى تقع فى أقصى شرق طرف
من السلسلة الجبلية، التى تنحدر ببطء باتجاه البحر
حيث تتجه الآن كلاب قرية ثيريرى المسكنة، علامة
مقبولة فى الزمان والمكان؛ لأن كل تلك الأشياء، وحتى
يثبت العكس، متعلقة ببعضها البعض، فتلك الكلاب،
كما يُقال أبعدت عن تأدية مهامها، ومُجبرة بالتالى
على البحث فى ذاكرة اللاوعى المتشعبة من أجدادها
العاملة فى الصيد، لتتمكن من صيد أى أرنب نائه،
أحد تلك الكلاب، يدعى أردنت بفضل سمعه المرهف
الذى تتمتع به تلك الفصيلة، شعر بانفجار الحجر،
وهمهم فقط لأنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك،
فاقترب من الصدع، وتشممه بأنفه ونفث شعره،
تعبيراً عن حب الاستطلاع أكثر منه تعبيراً عن

الخوف، والدوائر الحادة يمكنها أن تُذكر المراقب البشرى بأن خطأ مرسوماً بسن قلم حاد، يختلف تماماً عن ذلك الآخر المرسوم بعصا، أو مرسوم على التراب بإهمال وخفة، أو فى الطين، لولا تلك الاختلافات لكنا نُضَيِّع وقتنا، مع ذلك، بينما كان الكلب يقترب، كان الصدع يتسع أكثر ويزداد عمقاً، ويتقدم، فاتكأ بالحجر، حتى وصل إلى آخر السهل، وبعدها من هنا إلى هناك، يمكن لقبضة يد كاملة أن تدخله، وحتى الذراع بطوله وضخامته، لو لم تكن هناك أدوات أخرى يُقاس بها الحدث. دار الكلب أردنت حول الصدع قلقاً، لكنه لا يستطيع الهرب، لأنه كان واقفاً تحت تأثير سحر تلك الحية التى لا رأس لها ولا ذنب، والتى تختفى فجأة، دون أن يعرف أين عليه أن يبقى، إن كان فى فرنسا حيث مكانه، أم فى إسبانيا، البعيدة عنه بحوالى ثلاثة أرباع. لكن ذلك الكلب، بفضل الله، ليس من تلك التى ترضى بالواقع، وأثبت ذلك عملياً، فقد قفز باتجاه الهاوية، مع الاعتذار عن هذا التعبير المتطرف، فوجد نفسه فى هذا الجانب، لقد فضل جانب الهاوية، ولن نعرف أبداً ما هى الذاكرة التى تحرك روح الكلب، وأى أحلام، وأى تطلعات.

الصدع الثانى، ولكنه كان الأول المعروف عالمياً، بدأ على بعد كيلومترات عديدة، بالقرب من خليج فيثكايا، ليس بعيداً عن مكان له حكاية مؤلمة تتعلق بكارلوس الأكبر وأشباهه الاثنى عشر، ويُدعى المكان

رونزفيلز الذى مات فيه رولدان وهو ينفخ فى بوقه، دون أن يستجيب له لا أنخيلكا ولا دوراندا. وهناك، هبوط بطول سفح جبال أبودى على الجانب الشمالى الشرقى، يجرى نهر، إيراتى، الذى يُولد فى فرنسا ويصب فى إيرو الإسبانى، الذى يتجه بدوره إلى مقاطعة أراجون، التى تضم بدورها نهر الإيرو، والذى يحمل فى النهاية الماء ويدفع بالجميع باتجاه البحر المتوسط. فى عمق الوادى، وعلى جانب نهر إيراتى توجد مدينة يسمونها أوربايثيتا، ويوجد فى الجبل بحيرة، أو خزان مياه كما يقولون.

ساعة شرح ما يُقال هنا أو ما سيُقال، هو حقيقة مؤكدة ويمكن مقارنتها بأية خريطة، بشرط أن تكون تلك الخريطة دقيقة جداً، تبين أية معلومات مهما كانت عدم أهميتها الظاهرة؛ لأن أهمية تلك الخرائط هى هذا، إظهار كل ما يمكن تصفيره من مساحة، متوقعة أن كل شيء يمكن أن يحدث فيها. ويحدث، فقد تحدثنا عن عصا القدر، وأثبتنا أن حجراً، وإن كان بعيداً عن خط المد، يمكنه أن ينتهى إلى السقوط فى البحر أو العودة منه، والآن جاء دور أوربايثيتا، حيث، بعد الرجة الصحية الناتجة عن بناء الخزان، منذ سنوات مضت، عاد إليها الهدوء، مدينة هامشية فى نافرا، تنام بين الجبال، يعود إليها القلق من جديد. فقد أصبحت أوربايثيتا لعدة أيام مركزاً لاهتمام أوروبا، فقد اجتمع هناك أعضاء الحكومات والسياسيون والسلطات المدنية والعسكرية،

والجيولوجيون، والجغرافيون والصحفيون، والمتخصصون في المعادن، والمصورون، ومعدو ومنفذو برامج التليفزيون والسينما، والمهندسون من جميع التخصصات، والمراقبون والفضوليون. لكن شهرة أوربايثينا لن تستمر طويلاً، فقط لأيام قليلة، أقل قليلاً لم يمكن أن تعيشه زهور العليق، وكيف يمكن أن تستمر تلك إذا كانت ناتجة عن العليق، لكننا نتحدث عن أوربايثينا وليس عن أى شيء آخر، وستظل شهرتها حتى يمكن الإعلان عن مكان آخر أكثر شهرة، وهذا يحدث دائماً مع الأشياء الشهيرة.

في تاريخ الأنهار لم تقع أبداً حادثة كهذه، الماء الذى يجرى فى مجراه الأبدى يتوقف فجأة عن الجريان، تماماً كصنبور ماء تم إغلاقه بشكل مفاجئ، مثلاً، شخص يغسل يديه فى حوض، ويقوم بعد ذلك بفتح السدادة ويغلق الصنبور، فينخفض الماء تدريجياً، إلى أسفل، ويختفى، وما يتبقى من ماء فى فتحة الحوض الملساء سرعان ما يتبخر. نشرح الحدث بطريقة منطقية، اختفى ماء نهر إيراني كموجة تنسحب من على شاطئ البحر وتبتعد، ويبقى قاع النهر ظاهراً للعيان، أحجار، وطين، ووحل، وأسماك تتقاذف فاتحة أفواهها وتموت، ثم الصمت الفجائي.

لم يكن المهندسون فى المكان عندما وقع هذا الحدث العجيب، لكنهم تكهنوا بأن شيئاً غير طبيعي قد حدث، أشارت لوحات الإعلانات فى البنوك إلى أن النهر لم يعد يغذى الخزآن الكبير. استقل ثلاثة من

الفنيين عربة جيب لاستطلاع الحدث الغريبه وفي طريقهم، على حافة الخزان، تفحصوا فرضيات متعددة ومختلفة، ولم يضيعوا وقتاً في هذا على طول خمسة كيلومترات، وإحدى تلك الفرضيات كانت الانهيارات الأرضية التي قد تحول مجرى النهر، وأخرى أن تكون نتيجة عمل الفرنسيين، خيانة فرنسية، رغم الاتفاقية الثنائية الخاصة بالمياه الجارية واستغلالها، وأخرى، وتلك الأكثر راديكالية عن كل الفرضيات الأخرى، جفاف ماء العين التي تغذى النهر، وما إن كان معروفاً بأبدية جريان ماء تلك العين ليس صحيحاً. عند هذه النقطة انقسمت حولها الآراء. أحد المهندسين، رجل رزين، من تلك النوعية المتأمل، ويحب الحياة في أوريبايتا جداً، ويخشى أن يرسلوه بعيداً عنها، فيما كان الآخرون سعداء ربما انتظاراً لأن يرسلوا أحدهم إلى خزان التاخو الأقرب إلى مدريد، وشارع جران فيا، وانطلاقاً من نظرة كل منهم الشخصية وصلوا إلى أقصى نقطة من الخزان، حيث يوجد مصدر الماء، وهناك لم يجدوا النهر، فقط وجدوا خيطاً رقيقاً من الماء بلا قوة حقيقية قادرة على تحريك ساقية واحدة. "تري أين اختفى النهر بحق الشيطان؟"، قال هذا سائق الجيب، فكان تعبيراً دقيقاً ومحددأ. مندهشون وذاهلون، وحيرى، وقلقون أيضاً، عاد المهندسون الثلاثة إلى النقاش حول فرضيات محتملة تفسر هذا الحدث، ويعد أن تبين عدم الجدوى العملية للاستمرار في النقاش، عادوا إلى

مكاتبتهم فى الخزآن، ثم واصلوا طريقهم إلى أوربايثيتا حيث كان ينتظرهم الرؤساء، الذين وصلهم نبأ الاختفاء الغامض للنهر. وقعت حوارات عنيفة، عدم تصديق، ومكالمات هاتفية إلى بامبلونا ومدرید، وكانت نتيجة العمل المضنى أمراً بسيطاً للغاية، تلخص فى ثلاث نقاط متتالية ومتكاملة، "اصعدوا إلى أعلى النهر، واكتشفوا ما الذى يحدث، ولا تخبروا الفرنسيين بشئ".

قبل طلوع الشمس فى اليوم التالى، انطلقت القافلة باتجاه الحدود، دائماً بجانب أو على مرمى البصر من مجرى النهر الجاف، وعندما وصل المفتشون المجهدون، فهموا أنه لن يكون هناك أبداً نهر اسمه إيراتى. فقد كان الماء يسقط فى صدع أرضى لا يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار متجهاً إلى أعماق الأرض، هادراً كشلالات نياجرا بشكل مصغر. من الناحية الأخرى كانت هناك بلديات فرنسية، ومن الغباء التفكير فى أن الجيران، الخبثاء لم يعرفوا بالحدث، ربما على الأقل كان يجب أن يبينوا أنهم مندهشون وغير مصدقين مثل الإسبان على الجانب الآخر، فيصبحون جميعاً فى الجهل سواء. تحدث الجانبان، لكن الحديث لم يكن مطولاً ولا مُستغلاً بشكل جيد، لم يزد عن كونه تبادلاً للدهشة، ولم يساعد الجانب الإسبانى فى التوصل إلى فرضيات جديدة، فى النهاية، كان هناك غضب عام لا يجد إلى من يمكن توجيهه، ابتسم الفرنسيون بعدها بقليل، فى النهاية

أصبحوا هم سادة النهر حتى الحدود، ولا يتحتم عليهم تعديل الخرائط.

فى تلك الأمسية، طارت طائرات الهليكوبتر من البلدين لمسح المكان، والتقطت له صوراً، أسقطوا مراقبين بالحيال، وحملوهم على الشلال، تفحصوا ولم يجدوا شيئاً، فقط تلك الفوهة السوداء الواسعة وجانب من الكهف وبريق الماء. لتقديم شئ له أهميته، فإن المسؤولين فى أوربا يثبثا على الجانب الإسبانى، ومستولى لاروا على الجانب الفرنسى، اجتمعوا إلى جوار النهر، تحت خيمة أقيمت لهذه المناسبة وترقرف عليها ثلاثة أعلام: الثلاثى الألوان، والثنائى الألوان الوطنية، إضافة إلى علم نافرا المحلى؛ بهدف دراسة إمكانية الاستغلال السياحى لذلك الحدث الطبيعى، الذى يعتبر فريداً فى العالم، وكيفية استخدامه لصالح الطرفين. مع الأخذ فى الاعتبار قلة الإمكانيات، والشكل المؤقت للاجتماع، لم يصدر عنه أية وثيقة تحدد واجبات وحقوق كل طرف، ولكن تم الاتفاق على تشكيل لجنة رسمية. وخلال ذلك، وفى الساعة الأخيرة، جاء تعكير الصفو ليقطع من الاتفاق النسبى الذى تم التوصل إليه، وجاء ذلك بشكل يكاد يكون متوازياً من مدريد وباريس، ممثلى الدولتين فى اللجنة الدائمة لترسيم الحدود. عرض هؤلاء السادة شكوكاً خطيرة، أولاً يجب التأكد من الجانب الذى يوجد فيه الصدد، إن كان يتجه نحو الجانب الفرنسى أم إلى الجانب الإسبانى، بدا هذا تفصيلاً لا قيمة له، لكن،

بعد شرح الأسباب، تبين مدى حساسية الوضع، وتبين بما لا يدعو للشك، أن نهر إيراتي أصبح من الآن وبالكامل تحت السيادة الفرنسية، وتابعاً لمقاطعة البرانس السفلى، ولكن لو كان الصدع يفتح بالكامل في الجانب الإسباني، بمقاطعة نافرا، فإنه يجب دراسة الحالة بشكل أعمق؛ لأنه في هذه الحالة يجب التأكد من أن كل بلد من البلدين يقدم حصته بالتساوي، وإذا كان العكس، وتبين أن الصدع في الجانب الفرنسي، فإن الاستغلال السياحي يكون ملكاً لهم بالكامل، نظراً لاملاكهم كل الموارد الأولية، النهر والمجرى الجاف. وأمام الوضع الجديد، فإن مسئولى الجانبين، بعيداً عن تباين العقلیات، اتفقوا على البقاء على اتصال دائم حتى تتضح حقيقة الحدث. من ناحية أخرى، فإن إعلاناً مشتركاً تم تحريره بدقة، أعلن فيه وزيراً خارجية البلدين تأكيدهما على الاستمرار في إجراء حوار عاجل، يشمل كافة المجالات التي أشارت إليها اللجنة الدائمة لترسيم الحدود، التي تستشير بالطبع فرقاً من الفنيين المتخصصين في الجغرافيا الطبيعية.

حينها فقط، تطبيقاً للتباين الدولي والمهني، ظهر الجيولوجيون. فما بين أوريثيتا ولارو كان العديد منهم ومن جميع الاتجاهات، وإن لم يكونوا بالكثرة التي ذكروها، والآن بدأ يأتي الكثير من حكماء الأرض والأراضى، المتنبتين بحركات الأرض والحوادث، كل منهم يمسك شاكوشاً في يده، يهرسون أى حجر أو ما

يشبه الحجر. صحفي فرنسي، اسمه ميشيل، وغد، يقول لزميل إسباني، جاد يدعى ميغيل، الذي أعلن من قبل في مدريد أن الصدع كان بال - ت - أ - ك - ي - د إسبانياً، أو، جغرافياً ووطنياً يتبع نافرا، "إذاً يمكنكم أيها السادة الاحتفاظ به"، هذا ما قاله الفرنسي بفطرسية، "إذا كنتم تريدونه وتحتاجون إليه، نحن الفرنسيين - لدينا في سيرك جافيرن صدع ارتفاعه أربعمائة وعشرون متراً، ولسنا في حاجة إلى حفرة يدوية مفتوحة بالعكس". لم ينتبه ميغيل إلى الرد عليه بأنه أيضاً في الجانب الإسباني من البرانس، هناك الكثير من مساقط المياه، جميلة ومرتفعة جداً، لكن القضية مسألة أخرى، إن حفرة في الهواء الطلق ليست معجزة، فهي تبقى دائماً أمام أعين الناس، فيما أن صدع إيراتي يمكن رؤية بدايته ولكن نهايته غير معروفة، إنه كالحياة. مع ذلك، فإن صحفياً آخر، جيلقي عابر، كما هي حال الجيلقيين دائماً، هو من أطلق السؤال الذي كان لا يزال غير مطروح، "إلى أين تذهب المياه؟". كانوا حينها لا يزالون يناقشون، بشكل علمي وجاف، وجاء وقع السؤال على الجيولوجيين من الطرفين كوقع سؤال على طفل خجول، لم يسمعه سوى من كان يسجل الحدث الآن. وبما أن الصوت جيلقي، جاء هامساً ومترفاً فقد أسكتته الفطرسية القشتالية على الفور، لكن السؤال تكرر فيما بعد باعتباره منطلقاً من مَنْ اكتشفوه، فالشعوب الصغيرة لا يسمعون أحد، المسألة ليست

حالة من العنصرية، بل واقعاً تاريخياً، وأصبح حوار الخبراء غير مفهوم بالنسبة لمن يريدون فهم المسألة، لكن، والحال هكذا، فقد وضع أن هناك فرضيتين مركزيتين في الحوار، فرضية المتفرنسين، وغير المتفرنسين، كلاهما لا يتفقان، بل وسرعان ما يتعاديان، كعقيدتين متعارضتين، إحداهما توحيدية، والأخرى مشرقة. بعض التصريحات كانت تبدو مهمة، كالقول بالتغير الطبيعي، والذي يمكن أن ينتج عن التطور البنائي، أو التفكيك الناتج عن الاصطدام. كل هذا رغم أن دراسة تركيب السفح تؤكد أنه ليس قديماً جداً، جغرافياً بالطبع، ربما ارتبط كل هذا بالانحناء التي تبدو في الصدع. في النهاية، فإن جبلاً يضم كل هذه الآلاعب المثيرة ليس غريباً أن يجد نفسه مجبراً على الانقسام، والانهيال، أو كما في هذه الحالة، التصدع والانشقاق. وهذه ليست حالة السفح الكبير الممتد عبر جبال البيريس، ولكن هذا ما لم يشاهده الجيولوجيون؛ فقد كان بعيداً، في منطقة قاحلة، لم يقترب منها أحد، انطلق الكلب أردنت في أثر الأرنب ولم يعد.

بعد مرور يومين، كان أعضاء لجنة ترسيم الحدود في مهمة عمل على الطبيعة، يقيسون بأدوات القياس وفي أيديهم لوحات وحواشب يحسبون بها، ويطابقون حساباتهم بالصور الجوية، لم يكن الفرنسيون سعداء؛ لأن الشكوك حول وجود الصدع في الجانب الإسباني كانت قليلة، فقد كانت كما

حددها الصحفي ميغيل من قبل، إلى أن جاء خبر عن حدث جديد، ولم يعد يتحدث أحد عن أوربايشيتا، ولا عن النهر المقطوع إيراتي، وانتهت شهرة نافرا العالمية. فقد قرر رجال الإعلام، وبعضهم من النساء، الانتقال إلى البرانس الشرقية؛ لأنها كانت أفضل في سهولة المواصلات، وبها وسائل راحة أفضل، إلى درجة أنه خلال ساعات قليلة اجتمع فيها رجال السلطة في العالم كله، وبعض الناس جاءوا من تولوز ومن برشلونة. وازدحمت الطرق خلال فترة قصيرة، وعندما حاول رجال البوليس في هذا الجانب أو ذاك تحويل السير كان الوقت قد فات، هناك كيلومترات وكيلومترات من السيارات المتوقفة، كان الازدحام ميكانيكياً، وتطلب الأمر اتخاذ إجراءات حاسمة، دفع كل هؤلاء الناس إلى العودة باتجاه الطريق الدائري، ومخالفة الاتجاهات الممنوعة، واحتلال جوانب الطرق، لقد كان جحيماً، ومن هنا نتذكر أن الإغريق كانوا حكماء عندما حددوا وجود الجحيم في هذه المنطقة بالذات. ونظراً لحالة الطوارئ تم اللجوء إلى طائرات الهيلوكبتر، تلك الماكينات الطائرة، والطيور الضخمة القادرة على الهبوط في أى مكان، وعندها تحول الأمر إلى المستحيل، فقد كانت تهبط حتى تكاد تلامس سطح الأرض، ولم يكن الركاب في حاجة إلى سلال، قفزة صغيرة تكفى، ويدخلون بعدها إلى مركز العمليات، بين إبر التلقيح والضم وامتصاص الرحيق، وكم من المرات فاحت رائحة لحم محترق. يخرجون هاربين، خافضى الرعوس، ويذهبون لمعرفة ما يحدث،

بعضهم يصل مباشرة من النهر، بخبرة بنائية، لكنهم لا يعثرون عليه.

يقطع الصدع الطريق، فيتحول السهل إلى منطقة كبرى من التخزين، ويمتد مع ميل نحو الضيق على الجانبين، باتجاه الوادي، حيث ينتهي، ملتوياً باتجاه السفح الأعلى حتى يختفى بين الشجيرات. نحن الآن في مكان الحدود بالضبط، الحدود الحقيقية، الخط الفاصل، في الأرض الحرام الفاصلة بين نقطتي البوليس على الجانبين، الجمارك، والجمرك، بين العلم، والرأية. على مسافة حذرة، نظراً لإمكانية انهيار الحواف الأرضية للجرح، تبادل السلطات والخبراء كلمات لا معنى لها، ولا أثر، لا يمكن تسميتها حواراً في هذا الضجيج من الأصوات، ويستخدمون مكبرات صوت في محاولة لإسماع أصواتهم، بين شخصيات أخرى أكثر إعداءً، داخل أماكن العمل، يتحدثون بالتليفون، يتناقشون فيما بينهم، أو مع مدريد وباريس. ما إن هبط الصحفيون حتى هرولوا للتأكد من كيفية حدوث هذا، فيما يسجل جميعهم القصة نفسها، مع بعض الجهد في إجراء تغييرات طفيفة فيها، ناتجة عن تخيلات كل منهم، فتثريها أكثر، لكن، للحديث بكل بساطة، إن من أبلغ عن الحدث كان سائق سيارة، مرّ عندما كان الليل على وشك الهبوط، شعر بأن السيارة قفزت قفزة مفاجئة، كما لو كانت العجلات دخلت وخرجت من حفرة عرضية، فهبط لاستطلاع السبب، ربما هناك أعمال

حضر فى الطريق، دون اتخاذ احتياطات، ونسوا وضع الإشارات. كان الصدع لحظتها لا يزيد عن الربع عرضاً، وأربعة أمتار طولاً، ربما وصل إلى ذلك، كان الرجل، برتغالى الجنسية، اسمه زوسا، كان مسافراً برفقة زوجته وحمويه، عاد إلى السيارة وقال، "يبدو كما لو كنا فى البرتغال، انظروا، حفرة عميقة، كان يمكنها أن تكسر دواليب السيارة، وتكسر عمود محركها". لم تكن حفرة ولا كانت عميقة، لكن كلماته، وضعناها نحن هكذا، لأنها معبرة، وتساعد على الفهم، ونقولها بشكل مبالغ فقط للتخفيف من حدة الخوف والانفعال، لماذا؟ لأنها تمنح الحكاية درامية. المرأة، لم تلتفت كثيراً لما قاله الرجل، أجابت، "إذاً انظر"، اعتقد هو أنها ستقدم له نصيحة يتبعها، حتى لم تكن تقصد هى ذلك، كانت كلمات المرأة، صوتية أكثر منها توجيهاً قصيراً، كانت من تلك الأصوات التى تلعب أحياناً دور الإجابة، عاد هو إلى الخروج من جديد وفحص العجلات، لم تكن هناك خسائر ظاهرة، شكراً لله؛ لأنه هناك فى وطنه البرتغال سيكون بطلاً، سيجرون معه لقاءات فى التلفزيون، والإذاعة والصحافة. لقد كان أول من شاهد الصدع، "السيد زوسا، قص علينا رؤيته لتلك اللحظة الرهيبة". سيكررها مرات عديدة، وعليه أن يقوم دائماً بإنهاء الحكاية التاريخية بسؤال مشوق وتعليق غبى، يثير المستمع ويثيره هو شخصياً، كنوع من الشعور باللذة، "لو كان الصدع أكبر من ذلك، هل تعرف ما كان يمكن أن يحدث؟ كنا سقطنا فيه، هل تعرف هذا؟ وليعلم الله مدى عمقه"، وهو الأمر

نفسه تقريباً الذى سألـه الجـيلـيـقى، هل تذكرون، "إلى أين تذهب المياه؟".

إلى أين؟ هذه هى القضية. أول تحوط موضوعى هو الاطلاع على الجرح، معرفة العمق، وبعدها دراسته، تحديد ووضع الخطوات العملية والمناسبة لإغلاق الصدع، ليس هناك تعبير آخر أكثر مناسبة من ذلك، لهذا فإن الفرنسيين، هذا إذا ما فكر أحد أو طرأ على تفكيره، فكروا فى استغلاله لصالحهم بالكامل، والفحص الفورى الذى أجروه، سجل أنه يزيد قليلاً عن عشرين متراً، إنه عمق لا قيمة له أمام الأدوات الحديثة فى هندسة الطرق العمومية. من إسبانيا وفرنسا، من بعيد وقريب، جاءت ناقلات الخرسانة، والخلاطات، وتلك الماكينات الجميلة، التى تُذكر الأرض بحركاتها المتوازية، وتلقى بخرساناتها، وتتوالى، مفرغة تحقيقاً للهدف، كميات كبيرة من الحجارة الغليظة والأسمنت سريع التماسك. فى خضم العمل بالتعبئة جاء مراقب واقتراح وضع عوارض حديدية كبيرة، تماماً كوضع الشاش على الجرح، فتحمى الجوانب، وتساعد، كما يقولون، على الإسراع فى إغلاق الصدع. وافقت اللجنة الثنائية العاجلة على تنفيذ الاقتراح، فبدأت مصانع الحديد الإسبانية والفرنسية على الفور فى عمل الدراسات المطلوبة، على المزيج المعدنى، والسُـمـك ونوعية المادة، والعلاقة بين حجم الظافر الذى سينغرس فى الأرض والقضيب المستعرض، تفاصيل فنية لا يعرفها إلا

الخبراء، نذكرها هنا بشكل سريع. التهم الصدع سيل
الحجارة والخليط الأسمنتي كما لو كان نهر إيراني
يسقط في عمق الأرض، كان صدى العمق يُسمع، وتم
قبول فرضية وجود حفرة عملاقة في الأعماق، كهف،
نوع من المنزلاقات التي لا ترتوى. لو كان الأمر كذلك،
لأصبح لا قيمة للاستمرار، ويمكن إقامة جسر على
الصدع، وأيضاً إمكانية أن يكون هذا هو الحل الأسهل
والاقتصادي، لندعو الإيطاليين؛ لأن لديهم خبرة كبيرة
في عمل مجارى المياه. ولكن بعد عدد غير محدد من
الأطنان والأمطار المكعبة، أشار المقياس إلى أن العمق
وصل إلى سبعة عشر متراً، بعدها خمسة عشر، ثم
إلى اثني عشر، مستوى الخرسانة يرتفع، ويرتفع،
المعركة في طريقها إلى الكسب. تعانق الفنيون،
والمهندسون، والعمال، ورجال البوليس، وارتفعت
الأعلام، ومذيعو التليفزيون، عصبيون، كانوا يتلون
البيان الأخير، ويدلون بأرائهم، مبرزين الصراع
الرهييب، والتضامن الجماعي، والدولي، حتى البرتغال،
ذلك البلد الصغير، خرجت منه قافلة من عشر
ناقلات خرسانية، في طريقها، لتسافر عبر طريق
طويل، أكثر من ألف وخمسمائة كيلومتر مجهود كبير،
في النهاية لن تكون هناك حاجة إلى الخرسانة التي
تحملها، لكن التاريخ سيسجل هذا العمل الرمزي.

عندما وصلت الخرسانة إلى مستوى الطريق،
انفجرت الفرحة الجماعية العارمة، كما لو كانت
احتفالاً بعام قديم، ألعاب نارية وحلبات مصارعة.

وانطلقت فى الهواء أبواق السيارات التى تمكنت من الوصول إلى المكان بعد أن تم إصلاح الطريق، وأطلقت الناقلات أصواتها المحشرجة وأبواقها، وتطايرت طائرات الهليكوبتر صاعدة هابطة فوق الرؤوس، كنوع من استعراض قوة لا تبدو سماوية. وانطلقت كاميرات التصوير بلا توقف، واقترب مصورو التلفزيون، فى هدوء، وهناك تماماً على حافة الصدع الذى لم يعد كما كان، صوروا لقطات عن قرب للمساحة الأسمنتية غير المستوية، كتأكيد لسيطرة الإنسان على تقلبات الطبيعة. والمتفرجون، بعيداً عن ذلك المكان، يشاهدون فى رفاهية وهدوء البيوت، التقطوا المشاهد على الهواء مباشرة، والمذاعة عبر التلفزيون الإسباني، وتمكن المشاهدون من رؤيتها وهم يرقصون ويصفقون، وكيف كانت الاحتفالات بالحدث، كما لو كان فرحاً خاصاً بهم، تمكنوا من رؤية، أقول، دون قصد الآن بعيونهم، شهدوا كيف أن السطح الخرسانى الذى كان لا يزال رطباً وقد بدأ فى الانخفاض، كما لو كانت العجينة الضخمة تتقطع من أسفل، ببطء ولكن بلا توقف، إلى أن ظهرت من جديد أمام الأعين الحفرة المفتوحة على مصراعيها. الحفرة لم تتسع، وهذا يعنى أن جدرانها لا تمتد كالسابق إلى عمق عشرين متراً، بل أكثر بكثير، لا يعرف مداها إلا الله. عاد العمال، مرتعبون، لكن الواجب المهنى الذى تحول إلى إحساس مكتسب، حافظ على الكاميرات فى وضع الاستعداد، مرتفعة نعم، وتمكن العالم من مشاهدة الوجوه

مكفهرة، ويسيطر عليها الرعب، وكانت تُسمع الصيحات والصرخات، وأصبح الهروب عاماً، فى أقل من دقيقة ظهرت محطة التجمع خالية تماماً، بقيت ناقلات الخرسانة مهملة، بعضها تدور محركاتها هنا وهناك، والخلاطات لا تزال تدور، مليئة بأسمنت لم يكن مرغوباً فيه قبل دقائق، وتحول الآن إلى عديم الفائدة.

لأول مرة، هزة رعب عبرت شبه الجزيرة الأيبيرية بكاملها، وكل أوروبا القريبة. فى ثيريرى، قريباً جداً من هناك، هرول الناس إلى الشارع كما فعلت الكلاب من قبل، يقول بعضهم لبعض، "مكتوب فى القدر، عندما تنبح الكلاب ينتهى العالم"، والأمر ليس كذلك، لا شيء كان مكتوباً، ولكن دائماً لحظة وقوع الأحداث الكبرى تكون هناك كلمات كبرى، وتلك كانت مكتوبة، ولا نعرف أى نذير عليه أن يحتل المكانة الأولى فى هذه الكلمات الموجزة، نخاف أكثر من أى شخص آخر، ما كان على وشك الحدوث، بدأ سكان ثيريرى فى مغادرة المدينة فى جماعات باتجاه أرض أكثر صلابة، ربما لا تصل نهاية العالم أبعد من ذلك، فى بانيولز جنوب البحر، وميناء فنديس وكلورز، فقط كنوع من ذكر أسماء القرى القريبة من خط السفح، لم يبق أى كائن حى يسير على قدمين، الموتى، لأنه كان هناك موتى، بقوا هناك فى أماكنهم، بما يتمتعون به من هدوء لا يقلقه ما يقلق بقية البشرية، وإنه ما قال أحد عكس ذلك، إن فرناندو زار ريكاردو، الأول ميت

والثانى على قيد الحياة، كانت هجرة حمقاء لا أكثر.
لكن أحد هؤلاء الموتى، فى كولورز تململ بعض الشيء،
كما لو كان يشك، هل يذهب أم لا يذهب، إلى داخل
فرنسا هذا لن يحدث أبداً، هو فقط كان يعرف إلى
أين، وربما ننتهى نحن هنا إلى معرفة ذلك.

بين ما يقرب من الألف خبر، ورأى، وتعليق،
وأشهر من التصوير التى احتلت صحف اليوم التالى
والتليفزيون والإذاعة، مر تعليق قصير لأحد علماء
الزلازل المتحفظين، "أريد أن أعرف كيف يمكن أن
يحدث هذا كله دون أن تهتز الأرض؟"، وأجابه عالم
زلازل آخر ينتمى إلى المدرسة الحديثة، عملى
ومتساهل، "سنشرح الأمر فى حينه". حسناً والآن، فى
إحدى قرى جنوب إسبانيا، كان هناك رجل يسمع تلك
الخلاقات، خرج من بيته متجهاً إلى غرناطة، ليقول
لرجال التليفزيون إنه يشعر باهتزاز الأرض منذ ثمانية
أيام، وإن كان قد التزم الصمت حتى الآن، فذلك لأنه
فكر أن أحداً لن يصدقه، وإن كان جاء، شخصياً،
ليعرفوا كيف أن رجلاً بسيطاً يمكن أن يكون أكثر
حساسية من كل علماء الزلازل معاً. حتمّ قدره أن
يسمعه أحد الصحفيين وربما تعاطفاً معه، أو تحت
وقع الحدث الغريب، قام بتلخيص الخبر الجديد فى
أربعة أسطر، والخبر، رغم أنه غير مرفق بصورة، تمت
إذاعته فى نشرة الأخبار الليلية، مع ابتسامة خفيفة،
وفى اليوم التالى، قام التليفزيون البرتغالى، نظراً
لنقص الأخبار الخاصة به، باستغلال الخبر وتوسيع

الموضوع، واستمع فى الأستوديو إلى خبير متخصص فيما وراء الطبيعة، لم يصف شيئاً يوضح الحدث، وأهم ما جاء فى رأيه، إن الأمر يتعلق دائماً بمدى الحساسية.

سيتحدثون كثيراً عن الأسباب والنتائج، ودائماً باهتمام زائد، مع الالتزام بالمنطق، واحترام القيم، والتوقف عن إبداء الرأى، فتكون النتيجة أن الجميع لم يخرجوا من المأزق. وفى النهاية سيتم قبول الشك الطبيعى والمقبول. إن ذلك الخط على الأرض، الذى رسمته جوانا كاردا بعصاها الدردارية، يعتبر السبب المباشر لتصدع جبال البرانس، وهو ما كنا نحاول قوله منذ البداية. لكن فى الوقت نفسه لا نرفض الفعل الآخر كواقع، وهو أن يخرج جواكيم زازا بحثاً عن بدرو أورثى لأنه سمعهم يتحدثون عنه فى نشرة الأخبار الليلية، وذكر له ذلك.



أمٌ عاشقة، أوروبا منكوبة بأراضيتها المتطرفة، في الغرب، ينتشر الجرانيت بامتداد السفوح البرانسية، وتنتشر المنزلاقات، بعضها يقطع الطرق، وأخرى تقطع الأنهار، والمجاري، والمصببات تنحدر إلى ما لا نهاية. في أعالي الجبال المغطاة بالثلوج، يمكن من الجو، رؤية خط أسود وسريع شبيه بخط البارود، حيث ينزلق الجليد ويختفى، بهمهمة بيضاء كعودٍ صغير. طائرات الهليكوبتر تروح وتجيء بلا توقف، تراقب القمم والوديان، مليئة بالخبراء والمتخصصين في مختلف المجالات الممكن الاستفادة منها، جيولوجيون، فرضتهم طبيعة المهمة، رغم منعهم من العمل على الطبيعة، وخبراء في الزلازل، مندهشون، لأن الأرض تواصل تماسكها، دون حركة ولا حتى مجرد اهتزاز، وأيضاً متخصصون في البراكين، لا يخفون أملهم في حدوثها، رغم أن السماء خالية، ولا أثر لدخان أو نار، سماء

صافية ومستوية فيها زرقة أغسطس، فيما خط البارود لا يخفى على العين، إنه خطر لو انتبهنا إلى وجوده، بين هذا وذاك، إذا لم نكن قد احتطنا من قبل، فإن القوة البشرية لا تستطيع السيطرة على سفح ينشق كالرمانة، دون ألم ظاهر، ومن نحن لنعرف أنه لم يكن كذلك، فقط بعد أربع وعشرين ساعة، بعد أن ذهب بدرو أورثي إلى التلفزيون ليقول ما نعرفه، لم يعد ممكناً، عبور الحدود سيراً على الأقدام أو في السيارات، من الأطلنطي إلى المتوسط، وفي أراضي السهول الجانبية أصبحت البحار كل في جانب، وبدأت المياه تدخل في مجار جديدة، فوهات غامضة، خفية، في كل مرة أكثر ارتفاعاً، بتلك الجدران الهيولية، كالبنودول الرأسى، القطع أملس، والجوف من الحجر الأسود، والجرانيت، وهناك الكثير مما لا نستطيع ذكره؛ لقلة حيلة الراوى وتوفيراً للوقت. والآن هيا بنا نتعرف على الإجابة التى قدمها الجيليقي الذى سأل، "إلى أين تذهب المياه؟"، سنقول له، تذهب إلى البحر، كمطر خفيف جداً، فى شكل ذرات، من مساقط، طبقاً للارتفاع الذى يسقط منها وكمية المياه، لا، نحن لا نتحدث عن نهر إيراثى، إنه بعيد، ولكن يمكن المراهنة على أن كل هذا مطابق لما نعرف، ألعاب مائية، قوس قزح أيضاً، عندما تتمكن الشمس من الدخول إلى تلك الأعماق المظلمة.

غادر الناس بيوتهم، فى مساحة تصل إلى حوالى مائة كيلومتر على جانبي الحدود، انسحبوا إلى الأمان

النسبى للأراضى الداخلية، الحالة المعقدة الواحدة كانت حالة أندورّا، ذلك البلد، الذى نكاد ننساه، وهو أمر تخضع له البلاد الصغيرة كلها، مع أنه كان يمكن أن تكون أكبر من ذلك، فى البداية، لم يكن هناك شك فى نتائج تلك الصدوع، وكانت على الجانبين، وعلى كلا جانبي الحدود، وأيضاً لأن سكانها بعضهم إسبان، والبعض الآخر فرنسيون، وآخرون ينتمون إلى أندورّا، كل واحد اتجه حسب عقيدته الطبيعية، آسف لا، تحت وطأة الأسباب والمصالح الآنية، مع وجود خطر انقسام العائلات والمجتمعات الأخرى، فى النهاية، استقر خط الانقسام على الحدود مع فرنسا، الفرنسيون القلائل تم تهجيرهم فى عملية إنقاذ رائعة أطلقوا عليها اسم "Mitre d'Eveque"، اسم لم يعجب به قس أورجيل، الذى كان صاحب هذه التسمية بشكل عفوى، وإن كان سعيداً بالعملية نفسها، بالنظر إلى المستقبل، فسوف يكون الحاكم الأوحى لهذا البلد، الذى يوجد على الجانب الإسباني فقط، ولا يزال بعيداً عن السقوط فى البحر، فى ذلك الخلاء الناشئ عن التهجير العام، لم يعد يمر هناك سوى العسكريين تحت رقابة طائرات الهليكوبتر، وعلى استعداد لالتقاطهم عند حدوث أقل حركة جيولوجية، وبالطبع اللصوص الذين لا يمكن تجنب وجودهم فى تلك اللحظة، وجميعاً منعزلون، فالكوارث تُخرج دائماً من أحشائها بيض الثعابين، وفى هذه الحالة، يتم إعدامهم كالعسكريين تماماً، دون أدنى رحمة ولا تُقام لهم

جنازة، وهناك من كانوا يسيرون وذُكر العقيدة على شفاههم، كلّ طبقاً لإيمانه، كل إنسان له الحق في حب وحماية الله له، وإن كان في حالة اللصوص فإن عقيدتهم أن من غادر بيته ليس له الحق في الحياة واستغلالها، إنه حكم عادل جداً، والحقيقة قائمة، فكل واحد يقرر ما سيجده في الأمثلة حسب مصالحه.

يكمن هنا التأسف الأول، إن الذي نرويه هنا لم يكن كتاباً أويرالياً، لو كان الأمر كذلك لدفعنا باتجاه الكواليس تنغيماً لم يُسمع أبداً من قبل، عشرون مغنياً، ما بين غنائيين ودراميين من جميع الطبقات الصوتية، يفردون الأجزاء، جزءاً جزءاً أو معاً، متتالية أو متوازية، من يعرف، فإن اجتماع الحكومتين الإسبانية والبرتغالية، وقطع خطوط المواصلات والكهرباء، وإعلان المجموعة الاقتصادية الأوروبية، وموقف منظمة حلف شمال الأطلسي، وهروب السواح هلعاً، واحتلال الطائرات، واختناق المرور على الطرقات، ولقاء جواكيم زازا مع بدرو أورثي، وقلق الثيران في إسبانيا، وعصية الأفراس في البرتغال، وهلع شواطئ المتوسط، وتخبط المد والجزر، وهرب الأثرياء وأصحاب رموس الأموال، وقريباً لن نعثر على مطربين. تدور من حولنا الأرواح الهائمة، حتى لا نقول المتشككة، تريد أن تعرف أسباب كل هذه الأشياء المنفرقة، ونتائجها الخطيرة، والتي لن تقتنع بتفسير أن خطأ على السفح كان السبب في هذا كله، تسبب

فى تحويل الأنهار إلى شلالات ودفع بالبحر عدة كيلومترات إلى داخل اليابسة، بعد عدة ملايين من السنوات من انسحابها عنها. لأنه، وفى تلك النقطة النحاس فإن اليد تتشكك، كيف يمكنها أن تكتب، بطريقة هادئة، الكلمات التالية، والتي ستلزم الجميع لا محالة، خاصة فى الوقت الذى يكون فيه الأسهل التمييز، إن ما كان فى لحظة من الممكن فعله، حقيقة أم خيالاً. ولأنه، لا بد أن نُنهى ما بقى عالقاً، ببذل جهد كبير للتحويل بالكلمات ما يمكن تحويله فقط بالكلمات، لقد جاءت اللحظة للقول، إن شبه الجزيرة الأيبيرية انفصلت فجأة. بكاملها وقطعة متساوية، عشرة أمتار فجائية، من سيصدقنى، لقد سقطت جبال البرانس من أعلى إلى أسفل كما لو سقطت عليها بلطة غير مرئية، ولدت فى التصدعات العميقة، قاطعة الأرض حتى البحر، والآن نعم، والآن يمكننا أن نرى إيراتى ساقطاً، ألف متر، فى اللانهائى، سقوطاً حراً. مخترقاً الريح والشمس، كمروحة زجاجية أو ذيل طائر من طيور الجنة، إنه أول قوس قزح معلق على حافة الجحيم، أول دوار لباشق يطير بأجنحة مبتلة، ومصبوغاً بالألوان السبعة. وسنرى أيضاً أداة الرؤية، الجبل المنقود، والمنقار الشطوط، لألفى متر، ثلاثة آلاف متر من الانحدار الرهيب، ولا تصل الرؤية إلى أعماقه. مضرب بالمياه والمسافة، وبعدها تأتى السحب الجديدة عندما تتسع المسافة، هذا مؤكد تأكيد وجود القدر تماماً.

يمر الوقت، وتكاد الحقيقة لا تبين بين الحقائق، كانت واضحة من قبل ومحددة المعالم، وقتها، كانت هناك رغبة طموحة في معرفة الوقائع، فلنسأل شهود تلك الفترة، ونطلع على وثائق عديدة، صحف، وأفلام، وتسجيلات بالفيديو، أخبار، ومذكرات خاصة، ومخطوطات، خاصة العتيقة منها، ولنستجوب الأحياء، بحسن نية من ناحية، ومن ناحية أخرى نحاول أن نجعل الشيخ يعتقد فيما شاهد أو سمع في طفولته، ومن كل هذا نستطيع أن نستخرج الخلاصة، وأمام نقص الحقائق يمكن الادعاء بوجودها، ولكن الإيجابي الذي أمكن التوصل إليه هو أنه حتى لحظة انفجار خطوط التيار الكهربائي لم يكن هناك خوف حقيقي في شبه الجزيرة، رغم أنهم قالوا العكس، بعض الانزعاج نعم، لكن لا خوف، وهو شعور من نوع آخر. بالطبع هناك كثير من الناس يحتفظون في ذاكرتهم الحية بالمشاهد الدرامية، عندما اختفت الخرسانة عن أنظار الذين كانوا يصرخون، "الجيران، الجيران"، لكن الواقع أن الحدث كان مؤثراً على كل من كانوا هناك، الباقون شهدوه من بعيد، في البيت، في ذلك المسرح المنزلي الذي يدعونه التليفزيون، في المستطيل الزجاجي، فناء المعجزات حيث تمسح الصورة سابقتها دون أن تترك لها أثراً، كله في حجم مصغر، حتى العواطف، وأولئك المشاهدون ذوو الحساسية المفرطة، والحق يقال موجودون، هؤلاء لم يتقبلوا ابتلاع أو إخفاء ما وقف في حلوقهم، أولئك فعلوا ما اعتادوا

عليه عندما لا يستطيعون التحمل أكثر من ذلك، أمام الجوع في إفريقيا وكوارث أخرى، ففضوا أبصارهم. على هامش هذا، لا ننسى أنه في جزء كبير من شبه الجزيرة، في داخلها البعيد والعميق، حيث لا تصل الصحف ويكادون لا يفهمون التلفزيون، هناك ملايين، نعم، ملايين من الأشخاص الذين لم يفهموا ما كان يحدث، أو لديهم فكرة طفيفة عنه، مكونة من كلمات لا يفهم معناها بالكامل، أو، ولا حتى ذلك، فارق ضعيف جداً بين ما يعتقد أحدهم إنه يعرفه وما يجهله الآخر.

لكن عندما انطفأت جميع أنوار شبه الجزيرة الأيبيرية في وقت واحد، "الانطفاء" كما أطلقوا عليه في إسبانيا، و"السواد" كما قالت قرية برتغالية لا تزال تحت الكلمات، عندما اختفت عن وجه العالم مساحة خمسمائة وثمانون ألف كيلومتر، عندها لم يعد هناك شك، لقد حلت نهاية كل شيء. لحسن الحظ، إن انقطاع التيار الكهربائي لم يستمر لأكثر من خمس عشرة دقيقة، حتى تمكنوا من تشغيل توصيلات الطوارئ، التي شغلت قوى الطاقة المحلية، وهي قليلة في هذا الوقت من السنة، نحن في عز الصيف، عز أغسطس، والجفاف، لا توجد بحيرة واحدة، وقلة المفاعلات النووية، تلك المفاعلات النووية الملعونة، لكنه كان ضجيجاً أيبيرياً كالشياطين الطليقة، الخوف البارد، الساحرات مجتمعات، أي زلزال كان يمكنه ترك آثار أخلاقية أسوأ من ذلك. كان الوقت ليلاً، أو

فى بدايته، عندما كان معظم الناس قد عادوا إلى
 بيوتهم، بعضهم كان جالساً أمام التليفزيون، والنساء
 فى المطابخ لإعداد العشاء، أوضح أب أكثر صبراً،
 بشك، أن المشكلة حسابية، لا يبدو أنه كان مقنعاً جداً،
 لكن سرعان ما سيبدو تحليله صائباً، هذا الرعب،
 تلك الظلمة القاتمة، تلك البقة السوداء التى سقطت
 على أبيبيريا، "لا تمنع عنا النور يا الله، أعده وأعدك
 ألا أطلب منك شيئاً آخر حتى نهاية حياتى"، هذا ما
 قاله العصاة التائبون، وكثيراً ما يغالون فى الكلام. من
 يعيش فى الطابق الأرضى يمكنه أن يتخيل نفسه داخل
 بئر مغلقة ومن يعيش فى طابق علوى، يجد نفسه
 أعلى بكثير، على البعد لا يمكن رؤية ضوء واحد، بدا
 كما لو أن الأرض قد غيرت مكانها وتدور الآن فى
 فضاء بلا شمس. بأيدٍ مرتعشة أضيئت الشموع،
 والقناديل الكيروسينية المعدة لحالات الطوارئ، لكن
 ليس لمثل هذه الحالة، وشمعدانات من الفضة الثمينة،
 لأن البرونزية لاتصلح سوى للزينة، شمعدانات
 الصفيح، وقناديل الزيت المنسية، أضواء ضعيفة زرعت
 الظلال على الظلال وعكست أضواءها على وجوه
 مرتعبة، لا شكل لها كما لو كانت منعكسة على الماء.
 صرخت كثير من النساء، واقشعر بدن كثير من
 الرجال، وعن الأطفال يمكننا أن نقول إنهم بكوا
 جميعاً. مضت خمس عشرة دقيقة، كما لو كانت
 خمسة عشر قرناً، رغم أنه لم يعيش أحد قرناً ليقارن
 بها، عاد التيار الكهربائى، شيئاً فشيئاً، ضئيلاً، كل لمبة

كعين نائمة تلقى بنظرات مضطربة على من حولها،
وأخيراً عاد النور إلى طبيعته كما كان سابقاً.

بعد أن بدأ التلفزيون والإذاعة في العودة إلى
الإرسال بنصف ساعة، بدؤوا في تقديم أخبار الحدث،
فافتراضنا أن جميع خطوط الضغط العالي بين
إسبانيا وفرنسا قد انقطعت، سقطت بعض الأبراج،
بالطبع بعد أن نسى بعض المهندسين قطع التيار،
فأصبح من المستحيل خفضها. ومن حسن الحظ أن
الحرائق الناتجة عن انقطاع الكابلات لم تتسبب في
ضحايا، إنها طريقة أنانية في الكلام، لأنه لو كان
حقيقة لم يمت أى إنسان، فهناك ذئب واحد على
الأقل لم يتمكن من الهرب من النار، وانتهى إلى قطعة
من الفحم المشتعل. لكن انفجار الأسلاك كان نصف
الحقيقة وراء انقطاع النور، والنصف الآخر، رغم
التوضيحات المنمقة الكلمات، فقد ظل غامضاً، وأن
السبب لم يكن فقط بسبب الصدع الأرضي، لو كان
الأمر كذلك ما انقطعت الكابلات، إذاً ماذا يمكن أن
يكون قد حدث، إنها هكذا، شئ أبيض ونضعه
الدجاجة، ولكنه هذه المرة ليس البيضة، الكابلات
انقطعت بسبب الشد، والشد ناتج عن انشقاق الأرض
وابتعادها عن بعضها، أقول لك، أقول لك، سترى كيف
أنهم في النهاية سيضطرون إلى الاعتراف بالحقيقة.
بالضبط، ولكنهم لم يفعلوها حتى اليوم التالي، بعد أن
انتشرت شائعات كثيرة ولم يعد الأمر مجرد خبر لا
أكثر، بل شائعات حقيقية، ولم يعد مقبولاً أن تزداد
البلبلة، لكنهم لم يذكروا كل شئ، ولا بوضوح، تأكد

تلك كلمات محددة، التي تقول إن تغييراً في التركيب الجيولوجي للسهل البرانسي تحول إلى خط متواصل، وهو ناتج عن عمل فيزيقي، فقطع مؤقتاً المواصلات الأرضية، بين فرنسا وشبه الجزيرة، والسلطات تراقب الوضع عن كثب، ولا تزال الاتصالات الجوية قائمة، وكل المطارات مفتوحة وتعمل بكامل طاقتها، وأنه من الغد ستتضاعف حركة الطائرات.

لقد كانوا محددين جداً، بعد أن تأكد أنه لم يعد ممكناً إخفاء حقيقة أن شبه الجزيرة قد انفصلت عن أوزوبيا بالكامل، فقد غادر المئات من السواح بطريقة عاجلة، ولم يدفعوا حسابات الإقامة في الفنادق، والمطاعم والبنسيونات والشقق المفروشة، والمخيمات، والمحال التجارية، والبارات، وشكلوا اختناقاً مرورياً كبيراً، وازدادت المشكلة حدة بعد أن بدأ بعضهم يترك السيارات في أى مكان، مر وقت قبل أن يحدث هذا، لكنه كان كالبارود، فالناس بطبعهم بشكل عام متأنون في الفهم وقبول خطورة الوضع، مثلاً، فكرة أن السيارة لا تفيد فى شيء؛ لأن الطرق مع فرنسا مقطوعة. حول المطارات، كالسيول، كانت هناك كمية من السيارات من جميع الأحجام والأشكال والماركات والألوان تسد الطرقات والمسارات المؤدية إليها، أما الإسبان والبرتغاليون بعد أن أفاقوا من انقطاع التيار، سيطر عليهم الرعب دون سبب، مع أنه لم يمت أحد حتى تلك اللحظة، هؤلاء الأجانب، ما إن تخرجهم من روتينهم، حتى يصيبهم الجنون، إن هذا هو نتيجة

تقدمهم التكنولوجيا والعلمى الكبير، بعد إصدارهم هذا الحكم قرروا الاختيار، بين ترك السيارات لحالها، والأكثر راحة لهم. فى المطارات، هجم الناس على مكاتب الشركات الجوية، صرخات وهستيريا، فى محاولة للحصول على تذاكر، ومارسوا الرشوة التى لم يشاهدها أحد من قبل للحصول على تذكرة، كل شيء يُباع، وكل شيء يُشتري، حلى، ماكينات، ملابس، حجوزات مخدرات، يتم نقاشها فى العلن، "السيارة هناك فى الخارج، وهذا هو المفتاح والوثائق"، "إذا لم أجد مكاناً للسفر إلى بروكسيل سأسافر ولو إلى إستنبول، إلى الجحيم"، هذا السائح كان من التأثيين، كان فى القرية ولم يشاهد البيوت، الحملة بذكريات مكتظة، والحواسب توقفت عن العمل نتيجة الضغوط التى تتعرض لها، فتضاعفت الأخطاء حتى توقفت تماماً. لقد توقف بيع التذاكر، هجم الناس على الطائرات، إنه مشهد مخيف، الرجال أولاً لأنهم الأقوى، بعدهم النساء الضعيفات والأطفال الأبرياء، وهم ليسوا قلة، سُحقوا بين الباب والممر وسلم الدخول. سقط أول الضحايا، وبعدها التالية والثالثة عندما حاول أحدهم أن يفتح لنفسه طريقة حاملاً مسدساً وقتله رجال البوليس. بدأ تبادل لإطلاق النار، كانت هناك أسلحة أخرى بين الجموع وانطلقت، ليس مهماً أن نقول فى أى مطار حدثت هذه المأساة، هذا الحادث المؤسف وقع فى مكانين أو ثلاثة غير هذا، وإن كانت نتائجها أقل خطورة، مات هناك ثمانية عشر شخصاً.

فجأة، تذكر أحدهم أنه يمكن الهرب عن طريق البحر، فيبدأ سباق آخر للهروب. وازداد عدد الهاربين، فعادوا من جديد بحثاً عن سياراتهم المهجورة، بعضهم عثر على سيارته، آخرون لا، لكن ماذا يهم كل هذا، إذا لم تكن معهم مفاتيحها، أو أن المفاتيح لا تصلح لشيء، بعضهم قام بعمل توصيلات بين الكابلات، ومن لا يعرف تعلم، تحولت إسبانيا والبرتغال إلى جنة للصوص السيارات. عندما يصلون إلى الموانئ، يبحثون عن قارب بخارى أو حتى بمجاديف يحملهم، أو حتى قارب خشبي، جرار، مركب شراعى، وهكذا يتركون كل ما يملكون فى تلك الأرض الملعونة، يهربون بملابسهم التى يرتدونها وربما بأكثر من ذلك بقليل، مندبل قدر، ولاعة بلا غاز ولا تصلح لشيء، ربطة عنق لم تعجب أحداً، لم يكن شيئاً طيباً أن ننتهز الفرصة للسخرية من سوء حظ الغير، ذهبنا كقراصنة الشواطئ لسرقة الفرقى. الفقراء يركبون ما استطاعوا، أو حيث يسمحون لهم، بعضهم تركوهم فى إبيثا، مايوركا أو مينوركا، فى فوينتبنيتورا، أو فى جزر كابريرا أو كونيخييرا، كل لمصيره، وبقي سيئو الحظ منهم، ما بين جواتيمالا وجواتيبور، حقيقة إن الجزر لم تتحرك من مكانها حتى الآن، لكن من يستطيع أن يتوقع ما قد يحدث غداً، فقد كان مؤكداً أن جبال البرانس ثابتة إلى الأبد، والآن انظر ما يحدث. آلاف وآلاف هربوا إلى المغرب، هربوا من إقليم الغربى البرتغالى كما هربوا من الشواطئ الإسبانية، أولئك الذين كانوا

بالقرب من الجنوب الغربى، من كانوا فى الشمال
فضلوا الوصول إلى أوروبا لو أمكن هذا، لو سألنا كم
منهم يريدون الذهاب إلى أوروبا، يرفع القبطان
الفرنسى حاجبيه دهشة، ويبدى احتقاره، وينظر إلى
الهارب ويقدر إمكاناته هل تعرف حضرتك، أن أوروبا
فى المكان الذى فقد فيه المسيح عباءته، أى فى نهاية
العالم؟، لا فائدة من الرد عليه، يا له من تطرف، إنها
تبعد عشرة أمتار فقط، فى إحدى المرات تجرأ
هولندى واستخدم سفسطته، وتدخل سويدي معه،
فأجابوهما بعنف، "آه، إذا كانت عشرة أمتار فاذهب
سباحة"، وتعين عليهما الاعتذار وضاعفا لهما الأجر.
ازدهرت التجارة، واتفق الجميع، قامت الدول بعمل
جسور جوية لنقل مواطنيها بشكل جماعى، وحتى بعد
هذا العمل الإنسانى، هناك من كَوْن ثروة من بين
البحارة والصيادين، يكفى أن نذكر أنه ليس كل
المسافرين كانوا شرعيين، هؤلاء كانوا على استعداد
لدفع ما يُطلب منهم، لم يكن أمامهم طريق آخر،
الدوريات البحرية للبرتغال وإسبانيا كانت تحرس
الشواطئ بشكل مكثف، وفى حالة طوارئ، وتحت
سيطرة القوات البحرية لكلا البلدين.

كان هناك أيضاً سياح قرروا عدم السفر، تقبلوا
الانقطاع الجغرافى كقدر لا مفر منه، واعتبروه حكماً
قدرياً، وكتبوا لمائلاتهم، أو على الأقل كانت لديهم
النية لذلك، وجعلوهم لا يفكرون فيهم أكثر من ذلك،
فقد انحسر العالم عنهم، والحياة، أو كان الذنب

ذنبهم، كانوا بشكل عام ممن لا يملكون قدرات مادية، من أولئك الذي يؤجلون اتخاذ القرارات، يقولون دائماً، غداً، غداً، لكن هذا لا يعنى أنه لم يكن لديهم أحلام، أو رغبات، السيئ هو الموت قبل اتخاذ القرار. آخرون فضّلوا السكوت، وفقدوا الأمل، اختفوا ببساطة، ونسوا أو قرروا النسيان، الحقيقة أن كل واحد من هؤلاء يمكن أن تكون قصته رواية في حد ذاتها، حكاية ما تمكنوا فعله، حتى لو لم يصبحوا شيئاً، ستكون حكاية أخرى، فليست الحكايات كلها سواء.

هناك من كان يحمل على كتفيه واجبات ثقيلة، ولا يستطيع الهرب منها، إلى درجة أنه عندما تسير تجارة الوطن بشكل سيئ نتساءل على الفور، وهؤلاء ماذا يفعلون، ماذا ينتظرون، نفاد الصبر هذا فيه الكثير من الظلم، في النهاية هم مساكين، هم أيضاً لا يستطيعون الهرب من القدر، كل ما يستطيعونه أن يقولوا للرئيس ألا يعتمد عليهم، لكن وضعاً كهذا، سيكون عاراً عليهم، سيحاكم التاريخ المسؤولين الذين يتركون أماكنهم في تلك الأيام، التي تُفرق فيه المياه الجميع. كل واحد من جانبه، في البرتغال وإسبانيا، قرأت كل حكومة بيانات للطمأنينة، وأكدت أن الوضع ليس حرجاً، لغة غريبة، وأن كل الوسائل متاحة لإنقاذ الأفراد والممتلكات، وفي النهاية، توجه رئيسا الحكومتين إلى التليفزيون، لتهدئة الأحوال، وظهر هناك الملك أيضاً في إسبانيا، والرئيس هنا في البرتغال، وتكلما، أجاب البرتغاليون والإسبان على

النداء مجتمعين، نعم، نعم، إنها كلمات، فقط كلمات. وأمام عدم رضا الجماهير، اجتمعوا في مكان سرى بأعضاء من حكومتى البلدين، بشكل منفرد ثم مجتمعين، قضوا يومين من المباحثات المضنية، وتقرر فى النهاية تشكيل لجنة "أزمات"، هدفها الرئيسى تنسيق عمليات الدفاع المدنى بين البلدين، على أساس تقوية الإمكانيات الأساسية للبلدين، والأدوات الفنية والبشرية لمواجهة التحدى الجيولوجى الذى فصل شبه الجزيرة عن أوروبا عشرة أمتار، هذا إذا لم يتسع إلى أكثر من ذلك، قالوا ذلك فيما بينهم بشكل سرى، عندها سيكون الوضع خطيراً جداً، يمكن القول إنه بالنسبة للإغريق مجرد صدع، أو قناة أكبر قليلاً من كوريفنتو، الشهيرة، مع كل هذا، لا يمكننا أن ننسى أن مشاكل اتصالاتنا مع أوروبا، المعقدة تاريخياً، ستتأثر كثيراً، حسناً، فلنبن عدة جسور، قال أحد البرتغاليين، "بالنسبة لى، إن ما يزعجنى أن القناة قد تتسع كثيراً ويمكن للسفن أن تعبرها، خاصة ناقلات البترول، ستكون ضربة قاسية للموانئ الأيبيرية، وآثارها المهمة، ستكون عالمية، بالطبع هناك، كتلك التى نتجت عن افتتاح قناة السويس، أى يمكن القول إن شمال أوروبا وجنوب أوروبا سيكون لديهما اتصال مباشر، وسيفقد المرور بطريق الرأس قيمته، وسنبقى نحن لنرى مرور السفن"، الآخرون اعتقدوا أنهم فهموا أن السفن التى مرت هى التى تمر فى القناة الجديدة، مع ذلك، فقط نحن - البرتغاليين - فهمنا أنها سفن أخرى، محملة

بالظلال، والحنين، والهزائم، والأكاذيب والإحباطات، وعندما امتلأت حتى الحافة، صرخ أحدهم إلى الماء، لم يستجب له أحد.

خلال الاجتماع وطبقاً لما تم الاتفاق عليه مسبقاً، أصدرت المجموعة الاقتصادية الأوروبية بياناً رسمياً، من خلال كلمات يمكن أن يُفهم منها أن انفصال البلدين عن الغرب لا يؤثر على الاتفاقيات القائمة حالياً، خاصة أن المسافة الفاصلة لا تزيد عن بضعة أمتار، لو قارناها بالمسافة التي تفصل إنجلترا عن القارة، هذا إذا لم نتحدث عن أيسلاند وجيرولاند اللتين تبدو علاقتهما بأوروبا بعيدة بعض الشيء، هذا، كان واضحاً من الناحية الموضوعية، وجاءت نتيجة للنقاش الحاد داخل اللجنة، التي أبدت فيها بعض البلاد تحفظاتها، وهي إحدى الكلمات الصادقة من بين ما قيل، ووصلوا إلى حد التلميح بأن شبه الجزيرة الأيبيرية تريد الانفصال، تريد أن تبتعد، وأن السماح لها بالدخول كان خطأ من البداية. بالطبع كل هذا كان لعبة، في تلك الاجتماعات الدولية الصعبة التي يحاولون فيها قضاء الوقت بأية طريقة، لأنه ليس كل شيء هو العمل، العمل، لكن كل من ممثلي البرتغال وإسبانيا في اللجنة رفضا تلك التحركات غير المقبولة، والمثيرة والتي تعتبر مضادة للشعور الجماعي، ذاكرين، كل بلفته، معنى كلمة "أيبيرية"، فالأصدقاء يأتون عندما نحتاجهم. طُلب أيضاً من منظمة شمال الأطلنطي أن تصدر إعلاناً بالتضامن، لكن الإجابة،

وإن لم تكن سلبية، تم تلخيصها في جملة مائعة،
ننتظر ونرى Wait and see، وهو من ناحية أخرى ما لا
يعبر عن الحقيقة كاملة، مع الاعتبار، ربما، كان يمكن
إعلان حالة الطوارئ في القواعد العسكرية في باجا
وروتا وجبل طارق والفرول وتوريسخون دي أردوث
وكارتاخينا وسان خورخي دي بالينثويلا، دون أن نذكر
قواعد أخرى أقل أهمية.

تحركت حينها شبه الجزيرة الأيبيرية أكثر قليلاً،
مترين، كما لو كانت تختبر قوتها. تشهد على ذلك
الحبال، المربوطة من اتجاه إلى آخر، انقطعت كما لو
كانت مجرد خيوط، بعضها كان أكثر قوة وانتزع
الأشجار والأعمدة التي كانت مربوطة بها من أساسها.
ثم توقفت بعدها لفترة من الوقت، وشعور بمرور هبة
هواء، كما لو كان أول شهيق عميق لشخص استيقظ،
والكتلة المكونة من الحجر والطين، ومغطاة بالمدن
والقرى والأنهار والغابات والمصانع والحشائش البرية،
والحقول المزروعة، بناسها وحيواناتها، بدأت في
الحركة، كقارب يبتعد عن الميناء ويتجه مجدداً نحو
البحر المجهول.



- ٤ -

أشجار الزيتون تلك "قرطبلية"، أو "قرطفية"، أو "قرطبية"، ماذا يهم، تلك الأسماء الثلاثة تُستخدم، دون خلاف، هنا في الأراضى البرتغالية، والزيتون الذى تنتجه، من ناحية الحجم والجمال، يُطلق عليه هنا الزيتون الملكة، لكن لا نسميها قرطبية، رغم أننا أقرب إلى قرطبة من أى حدود أخرى. تبدو تلك أشياء تبعث على الاعتذار، وهى تافهة، مجرد تغييرات صوتية، مصطنعة شكلياً لفناء مسطح ينطلق بأجنحة موسيقية، عندما يكون من الأهمية الحديث عن تلك الأسماء الثلاثة خلال الجلوس تحت شجرة زيتون، أحدهم بدرو أورثى، والآخر جواكيم زازا، والثالث هو جوزيه أنايسو، ترى هل جمعتهم هنا أحداث خطيرة أم مجرد أنها الصدفة وحدها التى جعلتهم يجتمعون فى هذا المكان. لكن، القول إن شجرة الزيتون قرطبلية يمكن أن يكون مفيداً، على الأقل، للملاحظة إلى أى

مدى اقتنعوا بشكل كامل، مثلاً، عندما قال الإنجيليون إن المسيح لعن شجرة التين، يبدو أنه كانت تكفى المعلومة فقط، ولكنها فى الحقيقة لا تكفى، لا يا سيدى، لأنه، بعد مرور عشرين قرناً، لا نزال نجهل إن كانت تلك الشجرة الملعونة تنتج تيناً أبيض أم أسود، مبكراً أم متأخراً، من النوع الجاف أم من ذلك المسمى نقطة العسل، ليس هذا لأنه بسبب هذا النقص سنقل من قيمة العلوم المسيحية، لكن من المؤكد أن الحقيقة التاريخية ستأثر. هذه الزيتون قرطبلية، إذاً، وجلوس ثلاثة رجال تحتها، بعيداً عن الغابات، وبشكل خفى، هناك قرية عاش فيها بدرو أورثى، تلك المصادفة الأولى منها، إن لم تكن بالضبط؛ لأن لكليهما نفس اللقب، الشخص والقرية يحملان الاسم نفسه، مما لا يزيد ولا ينقص من احتمالات الحكاية، عن رجل يمكن أن يكون اسمه "رأس الثور" أو "المناخ السيئ" ولا يكون جزاراً أو رجل أرصاد جوية. لقد سبق أن قلنا إنها مصادفات، وتحايلات، لكنها بحسن نية.

كانوا يجلسون على الأرض، بينهم يتناغم صوت مشوق ينبع من راديو تكاد بطاريته تنفذ، وما كان يقوله المذيع هو ذاك، «طبقاً» للقياسات الأخيرة، فإن سرعة انفصال شبه الجزيرة استقر على سبعمائة وخمسين متراً فى الساعة، أى حوالى ثمانية عشر كيلومتراً فى اليوم، لا تبدو مسافة كبيرة، لكننا لو حسبنا بالحسابات التفصيلية، هذا يعنى أنه فى كل دقيقة نبتعد عن أوروبا ثمانية أمتار ونصف المتر، وإن

كنا نريد الابتعاد عن السقوط فى الجحيم، فإن الوضع يبدو مزعجاً"، "ومزعج أكثر لو قلنا إننا نبتعد بسرعة أكثر من سنتيمتر فى كل ثانية"، قال جوزيه أنابسو، رغم أنه سريع فى الحسابات العقلية فإنه لن يصل إلى الأرقام العشرية والسنتيمترية، طلب منه جواكيم زازا أن يصمت، يريد سماع المذيع، وكان ذلك مفيداً، طبقاً للمعلومات الواردة إلى إدارة تحرير الأخبار، ظهر صدع كبير بين شبه الجزيرة وجبل طارق، وهذا يعنى، مع الأخذ فى الاعتبار النتائج الخطيرة، أن الجبل سيبقى منعزلاً فى منتصف البحر، ولو حدث هذا لن نتهم البريطانيين، والذنب، نعم، سيكون ذنبنا نحن، ذنب إسبانيا؛ لأنها لم تستطع استعادة تلك القطعة المقدسة فى الوقت المناسب، وفات الوقت الآن، فقرر الجبل أن يتركنا بنفسه، قال بدرو أورثى، "إن هذا الرجل فنان فى الكلام"، لكن المذيع كان قد بدأ فى تغيير نغمة صوته، المشوية بالعاطفة، "وزع مكتب رئيس وزراء بريطانيا بياناً يقول فيه إن حكومة صاحبة الجلالة البريطانية تؤكد على ما تسميه حقوقها فى جبل طارق، والتي تأكدت بالفعل الذى لا يقبل الشك، فقد انفصلت الصخرة عن إسبانيا، وهو ما يترتب عليه اتخاذ قرار أحادى الجانب بالوقف النهائى لكل المباحثات حول الموضوع، وإشكالية، نقل السيادة"، قال جوزيه أنابسو، "هذا لا يعنى أن الإمبراطورية انتهت"، فى البيان أمام البرلمان طالبت المعارضة صاحبة الجلالة تسليح الجانب الشمالى للصخرة حتى تصبح

[illegible]

لم يكن مجرد السماع، جهاز راديو ببطاريات
يمكنك أن تنتقل به إلى أماكن مختلفة، ويجتمع هنا

بدرو أورثى وجواكيم زازا وجوزيه أنيسو. عرفنا منذ ثلاث دقائق أن بدرو أورثى يعيش فى القرية المتخفية وراء تلك الحوادث، وعرفنا من البداية أن جواكيم زازا جاء من شاطئ فى شمال البرتغال، وجوزيه أنيسو، نعرف الآن بشكل مؤكد، أنه كان يتنزه فى حقول ريباتيجو عندما اصطدم بالزراير، وربما كنا عرفنا على الفور لو أننا انتبهنا بشكل جيد إلى المشاهد الأولى. ينقصنا الآن أن نعرف كيف التقى الثلاثة، ولماذا يتقلون هنا بشكل خفى، تحت شجرة الزيتون، المكان الوحيد، بين الأشجار القصيرة التى تُثبَّت جذورها فى هذه الأرض البيضاء، وتنعكس الشمس على السهل كله، ويهتز الهواء، إنه الحر الأندلسى، رغم أننا بين الجبال، إلا أننا انتبهنا فجأة إلى تلك المواد المحيطة، وعدنا إلى العالم الواقعى، أو أن الواقع اقتحم علينا المكان.

بالتفكير الجيد، لا بداية للأشياء والأشخاص، ما بدأ فى يوم ما فقد بدأ من قبل، حكاية هذه الورقة، هى النموذج الأقرب إلى اليد، وحتى تكون حكاية حقيقية وكاملة علينا العودة إلى بدايات العالم، وأن نراهن على الجمعى بدلاً من الفردى، ورغم هذا نشك فى أن هذه البدايات لم تكن مجرد نقاط عابرة، منحنيات للانزلاق، مسكينة رعوسنا، المربوطة إلى تلك التجاذبات، إنها رعوس تثير الإعجاب رغم كل شئ، رغم كل الأسباب لديها قابلية أقل للجنون. عن غيرها.

إذا ليست هناك بداية، لكن كانت هناك لحظة خرج فيها جواكيم زازا من حيث كان، فى شاطئ بشمال البرتغال، ربما كان أفيش، شاطئ الحجارة المفلزة، وربما شاطئ أ. فير. أو. مار، ربما هذا أفضل، لأنه يحمل أكثر أسماء الشواطئ جمالاً بالنسبة لخيال الشعراء وكتاب الرواية غير القادرين على إبداع مثله. من هناك جاء جواكيم زازا بمجرد سماع أن شخصاً يُدعى بدرو أورثي من إسبانيا يشعر باهتزاز الأرض تحت قدميه، عندما لا تهتز الأرض، وطبيعياً جداً أن ينتبه من قذف الحجر الثقيل إلى البحر بقوته الضعيفة، خاصة إذا كان مثل هذا الحجر تسبب فى انتزاع شبه الجزيرة من أوروبا، بلا انفعال ولا ألم، كشجرة تسقط فى صمت، فقط بإرادة الله، كما يقولون. بدأ طريقه، بسيارته القديمة ذات الحصانين، دون أن يودع عائلته بشكل مؤلم، لأنه لم تكن له عائلة، ولا أبلغ رئيس المكتب حيث يعمل. لأن الوقت وقت إجازات، يمكنه السفر والعودة دون إذن مسبق، خاصة أنه ليس فى حاجة إلى جواز سفر عند عبور الحدود، مطلوب منه فقط إبراز الهوية الشخصية، وشبه الجزيرة كلها لنا. على الكرسي المجاور، يضع راديو ببطارية، يسليه بسماع الموسيقى، وثرثرة المذيعين، كان جهاز الراديو خفيض الصوت ومستتيماً كأغنية لسرير موسيقى، ومزعجاً بشكل مفاجئ، لأن هذا ليس وقتاً طبيعياً، فالأثير تقطعه الآن كلمات منفعة، والأنباء التى تصل من البرانس، والرحيل، ومرور البحر

الأحمر، وانسحاب نابليون. هنا، فى الطرق الداخلية،
المرور قليل، لا يمكن مقارنته بالمرور فى منطقة
الغربي، ذلك التشوش والارتجاف، فى لشبونة، على
طرقات الجنوب والشمال، ومطار بورتيللا الذى يبدو
كميدان محاصر، هجوم من النمل، أكلة الحديد
منجذبة إلى المغناطيس. سار جواكيم زازا بهدوء، عبر
طريق بيرا المظلل، باتجاه قرية تدعى أورثي، بمحافظة
غرناطة، فى إسبانيا، حيث يعيش الرجل الذى
يتحدثون عنه فى التلفزيون، "سأذهب لأعرف إن كان
حقيقة هناك علاقة لما حدث لى وهذا الشعور باهتزاز
الأرض تحت قدميه، الواحد منا عندما يبدأ فى
التفكير، ويربط الأشياء ببعضها، يكاد يخطئ دائماً،
ويصيب أحياناً، حجرٌ مقذوفٌ إلى البحر، تهتز
الأرض، وسهل ينشق"، كان جواكيم زازا يسير أيضاً
بين الجبال، وإن كان لا يمكنه مقارنتها بتلك، لكنه
يقلق فجأة، ولو حدث الأمر نفسه هنا، ما الذى سيشق
جبال أستريلا، وأن تغرق المونديجو فى الأعماق،
وأشجار الحور الخريفية بلا مرآة يمكنها أن تنظر
فيها، انقلب تفكيره شاعرياً، لقد مر الخطر.

فى تلك اللحظة توقفت الموسيقى، وبقراً المذيع
الأخبار، لا تختلف كثيراً، الجديد الوحيد، وبشكل
نسبى، يأتى من لندن، "ذهب رئيس الوزراء إلى مجلس
العموم ليؤكد، بشكل قاطع، أن السيادة البريطانية
على جبل طارق غير قابلة للنقاش، مهما كانت المسافة
الفاصلة بين شبه الجزيرة الأيبيرية وأوروبا"، وزاد

زعيم المعارضة تأكيداً رسمياً، هذا هو، "تعرض تعاوننا وتعاون أعضاء حزبنا لدعمكم في تلك اللحظة التاريخية"، لكنه أضاف إلى خطابه جملة ساخرة أضحكت أعضاء المجلس، قائلاً، "السيد رئيس الوزراء ارتكب خطأ خطيراً بإطلاق صفة شبه الجزيرة على الذى لا يشك أحد اليوم فى أنه، جزيرة، وإن لم تكن بالقوة التى عليها جزيرتنا، "بالطبع . "of course" صفق أعضاء الأغلبية وتبادلوا الابتسامات المتواطئة مع المعارضة. لتوحيد السياسيين على شئ ليس هناك أفضل من البحث عن قضية وطنية، تلك حقيقة لا تقبل النقاش. ابتسم جواكيم زازا أيضاً، يا له من مسرح، وفجأة انقطعت أنفاسه، لقد ذكر المذيع اسمه، "نرجو من السيد جواكيم زازا الذى يسافر فى مكان ما بالبلاذ، نكرر، نرجو من السيد جواكيم زازا، من فضلك، نطلب منه التكرم، أن يقدم نفسه على عجل إلى الحاكم المدنى الأقرب إلى مكان وجوده، ليعاون السلطات فى إيضاح أسباب الانقسام الجيولوجى الذى وقع فى البرانس، لأن السلطات المسئولة لديها الثقة فى أن السيد زازا لديه معلومات مفيدة للوطن، نكرر النداء، رجاء من السيد جواكيم زازا"، لكن السيد زازا لم يعد يسمع شيئاً، أوقف السيارة ليلتقط أنفاسه، والدم البارد، ويده ترتعشان إلى درجة أنه لم يعد قادراً على القيادة، أذناه تطنان كقوقعة. "يا الله، وكيف وصل إليهم موضوع الحجر، لم يكن هناك أحد على الشاطئ، على الأقل لم أشاهد أحداً، ولم يحدث

أحداً عن الموضوع، حتى لا يكذبوننى مؤكداً أنه كان هناك من يراقبنى، لكن من سيفتبه إلى شخص يلقى حجراً إلى الماء، شوفوا، لقد شاهدونى، يا لسوء الحظ، عندما وصلت تلك الحكاية إلى أسماع السلطات كان على الحجر أن يكون بحجمى، على الأقل، والآن ماذا أفعل؟ لن أستجيب للنداء، ولن أتقدم إلى أى حاكم مدنى ولا عسكري، تخيلوا أى حوار عبثى فى مكتب مفلق، والحاكم يسجل، سيد زازا، قذفت حضرتك حجراً إلى البحر، "نعم، قذفته"، كم تعتقد أنه يزن؟، "لا أعرف، ربما اثنان أو ثلاثة كيلوجرامات، أو أكثر، نعم، يمكن أن يكون كذلك"، ها أمامك بعض الأحجار، جريها وقل لى أيها أقرب إلى وزن الحجر الذى قذفته، "هذا"، "هيا نزنه، هكذا، حسناً، من فضلك تأكد بنفسك"، لم أفكر أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، خمسة كيلوجرامات وستمائة جرام"، "قل لى الآن، هل طرأ على ذهنك فى إحدى المرات أن تفعل هذا"، "أبداً"، "أنت متأكد"، "تماماً"، "ألا تعاني من اضطرابات عقلية أو عصبية، أو داء الصرع، أو مصاب بمرض السير أثناء النوم، أو أية تحولات من أنواع أخرى؟"، "لا يا سيدى"، "وفى عائلتك، هل يوجد أو وجدت حالات مماثلة؟"، "لا يا سيدى"، "سنقوم بعمل تجارب مغناطيسية، حاول الآن أن تجرب قوتك على هذا الجهاز"، "هنا، ما هذا؟"، "ميزان، اجذب بكل ما تستطيع من قوة"، "لا أستطيع أكثر من هذا، لم أكن أبداً بالقوة التى تتخيلها"، "يا سيد زازا، لا يمكن أن

تكون قد قذفت ذلك الحجر"، "أنا أيضاً أقول الأمر نفسه، لكنى قذفته"، "تعرف أنك قذفته، وهناك شهود، أناس يتمتعون بثقتنا، لذلك عليك أن تقول لنا كيف تمكنت من ذلك"، "لقد شرحت لك الأمر، كنت أسير على الشاطئ، شاهدتُ الحجر، رفعته وقذفته"، "هذا لا يمكن، الشهود أكدوا ذلك، هذا حقيقة، لكن الشهود لا يمكنهم معرفة من أين جاءتك القوة، وحضرتك نعم تعرف هذا"، "لقد قلت لك كل ما أعرفه"، "الوضع، يا سيد زازا خطير جداً، وأخطر من هذا، انشطار البرانس الذى لا يمكن تفسيره بالأسباب الطبيعية، لو كان الأمر كذلك لكنا فى حالة كارثة أرضية، ومن هذا المنطلق بدأنا فى دراسة الحالات الغريبة التى وقعت فى الأيام الأخيرة، وحالتك واحدة منها"، "أشك فى أن قذف حجر إلى البحر يمكن أن يكون سبباً من أسباب انشطار القارة"، "لا أريد الدخول فى جدل فلسفى عقيم، لكن أجبنى لو كنت ترى أية علاقة بين الفعل الذى ينتج عن ترك قرد مكانه على الشجرة قبل عشرين مليون سنة وتصنيع قنبلة ذرية"، "العلاقة هى، بالضبط، تلك العشرين مليون سنة"، "إجابة جيدة، لكن لنتصور الآن أنه من الممكن تكثيف الساعات الزمنية ما بين سبب، فى هذه الحالة قذف حجر، ونتيجته، وهى انشطار أوروبا، بكلمات أخرى، لنتخيل، إنه فى الأوضاع العادية، ذلك الحجر المقذوف إلى البحر لم ينتج عنه شيء حتى مرور عشرين مليون سنة"، "لكن، فى أوضاع أخرى، بشكل خاص فى الحالة غير العادية

التي ندرسها الآن، بالطبع ستظهر النتيجة بعد ساعات قليلة، أو أيام، "إنه مجرد تكهن، فالنتيجة يمكن أن تكون شيئاً آخر، أو مجموعة متوالية منها"، "إذا عليكم دراسة حالة أخرى غير عادية"، "هذا ما نفعله الآن، والإسبان أيضاً، مثل حالة ذلك الرجل الذي يشعر باهتزاز الأرض، في هذا الاتجاه، بعد دراسة حالات غير عادية، يمكننا التحول إلى حالات اعتيادية"، "حالات اعتيادية، ماذا تقصد بتلك الكلمة"، "اعتيادي هو عكس غير عادي، إنه التضاد، لنتحول من غير عادي إلى الاعتيادي لو كان مطلوباً هذا، علينا أن نكتشف الحالة"، "عليكم أن تدرسوا كثيراً"، "لقد بدأنا بالفعل، قل لي من أين أتيت بتلك القوة؟ لم يجب جواكيم زازا، لقد أخرس التخيل، لأن الحوار كان سيتحول إلى دوار، والآن عليه أن يكرر، لا أعرف، ويتكرر التالي فيما بعد، مع بعض التغيير، لكنه تغيير طفيف، رسمياً بشكل خاص، ولكن هنا عليه أن يكون حذراً، لأنه، كما تعرف، بهذا الشكل يمكن الوصول في النهاية، من الإناء إلى المحتوى، من رنين الكلمة إلى معناها.

حرك السيارة ذات الحصانين، "هيا"، ترى هل يمكن قول هذا لسيارة، فكر، لم يعد مجرد مسافر عادي يتجه نحو الحدود، لم يعد رجلاً بلا هوية ولا أهمية، الآن لم يعد كذلك، ربما يقومون في هذه اللحظة بطباعة إعلانات بصورته، وبياناته الشخصية، وعليها كلمة "مطلوب القبض عليه" Wanted بحروف

حمراء، بحثاً عن هذا الإنسان، نظر في المرأة فوجد سيارة بوليس على الطريق، كانت تسير بسرعة حتى بدت وكأنها تريد الدخول من النافذة الخلفية لسيارته. قال، "لقد رأوني"، أسرع قليلاً ثم عاد على الفور إلى سرعته الطبيعية، دون أن يفرمل، لم يعد في حاجة إلى ذلك، مرت سيارة البوليس مسرعة، ربما كانت في طريقها لتنفيذ مهمة محددة، لم ينظروا نحوه، لم يتكهن رجال البوليس بهوية من يسير أمامهم، سيارة بحصانين، هناك الكثير منها، يبدو تناقضاً حسابياً، لكنه ليس كذلك، عاد جواكيم زازا إلى النظر في المرأة، والآن ليرى نفسه، والتعرف على الراحة في عينيه، لم تعكس المرأة أكثر من ذلك، مجرد وجه، من الصعب التعرف على صاحبه، إن كان هو جواكيم زازا، هذا ما نعرفه نحن، لكن من هو جواكيم زازا، رجل لا يزال شاباً، تعدى الثلاثين بقليل، أقرب إلى الثلاثينيات منه إلى الأربعينيات، وسيأتي يوم لا يستطيع تجنبها، حاجبان سوداوان، عينان كستنائيتان بمسحة برتغالية، وخط أنف واضح، وتقاطيع تبدو عامة، سنعرف عنه أكثر عندما يستدير نحونا، وحتى تلك اللحظة، فكر، إنه مجرد نداء من الإذاعة، الأسوأ سيكون على الحدود، والأسوأ، هو لقبى، زازا، كان الأفضل لى اليوم أن أحمل لقب "زوسا" المعتاد، بحث فى يوم من الأيام فى القاموس إن كانت هناك كلمة زازا، لا زوسا، وما معناها، فعرف أنها شجرة ضخمة تنمو فى النوبة، اسم جميل، لامرأة، "نوبة"، بالقرب من

السودان، شرق إفريقيا، الصفحة رقم ثلاث وتسعين،
والليلة، أين سأنام، في فندق سيكون حتماً بعيد
المنال، لديهم الراديو طوال اليوم، جميع الفنادق
البرتغالية تفتح عينيها على كل من يطلب غرفة لقضاء
ليلة واحدة، إنه مكان غير آمن، من السهل تخيل
المشهد، "حسناً، نعم يا سيدى، لدينا غرفة جميلة
خالية، في الطابق الثانى، رقم مائتين وواحد، هيا يا
بمينتا، رافق السيد زازا"، وعندما أكون قد تمددت
لأستريح، وما أزال بفلابسى، يتصل المدير تليفونياً،
بعصبية، "لدينا ذلك الرجل، تعالوا على الفور".

أوقف ذات الحصانين على جانب الطريق، خرج
لإراحة ساقيه وإنعاش تفكيره، الذى لم يكن جيداً
عندما دفع به لارتكاب مخالفة، "عليك أن تبقى في
مدينة أكثر ازدحاماً، وليس بها وسائل الراحة تلك،
تبحث عن بيت دعارة، تمضى الليلة مع إحداهن،
هناك لن يطلبوا منك الهوية، ما دمت ستدفع، وإذا لم
تكن لديك رغبة في ملامسة اللحم، بسبب همومك،
على الأقل ستنام، وربما سيكون أرخص لك من أى
فندق"، أجاب جواكيم زازا على عرضه، "محال"، "الحل
هو النوم في السيارة، هناك في أى طريق جانبي"،
"وإذا خرج عليك بعض الصعاليك وسرقوك، أو أوغاد،
أو غجر، لو هاجموك وسرقوك، أو يقتلونك"، "هذا
المكان هادئ"، "وماذا لو جاء مشعل حرائق محترف
وأشعل النار في الأشجار؟ نحن الآن في زمن الحرائق،
وستحاصرك النيران وتموت متفحماً، إنها من أشنع

طرق الموت، طبقاً لما سمعتهم يقولون، هل تذكر موتى
محاكم التفتيش، عاد يقول جواكيم زازا، "محال، لقد
قررت، أن أنام في السيارة، وأسكت تفكيره، يسكت
دائماً عندما تكون الإرادة قوية. الوقت لا يزال مبكراً،
يمكن السير لأربعين أو خمسين كيلومتراً على تلك
الطرق المتعرجة، "لأتوقف بالقرب من تومار، أو
سانتاريم، على إحدى تلك الطرق الترابية التي تؤدي
إلى الحقول، التي تظهر عليها آثار عميقة لعجلات
العربات التي تجرها الثيران والتي تحولت الآن إلى
الجرارات، لا أحد يمر هناك ليلاً، يمكن إخفاء ذات
الحصانين في أى مكان، ويمكننى النوم حتى في الهواء
الطلق، فالجو حار"، هذه الفكرة ليست نابعة من
التفكير، لكنه لا يوافق عليها.

لم يتوقف في تومار، ولم يصل إلى سانتاريم،
تناول عشاءه متخفياً في قرية بالقرب من نهر التاخو،
سكان القرى فضوليون بطبيعتهم، لكن ليس إلى درجة
سؤال المسافر الغريب بشكل مباشر، "اسمع، ما
اسمك؟"، لو بقى هنا، حينها سيفعلونها، سيعرفون
حياته الماضية ويحددون مستقبله في وقت قصير. كان
التليفزيون يعمل عندما كان جواكيم زازا يتناول
طعامه، شاهد نهاية فيلم عن الأحياء المائية، وحراشف
سمكة ضخمة، وأسماك أبى موسى تتهادى، وحيات
تتعرج، وهلب سفينة قديم جداً، وبعدها بدأت
الإعلانات، بعضها سريع وبعضها الآخر بطيء بإحكام،
بأصوات أطفال يصرخون كثيراً، ومراهقين بنغمات

مذبذبة، أو نساء بأصوات أجشّة، وكل الرجال بحيوية مبالغ فيها، وينطلقون محددة المعالم، وفي النهاية قدموا نشرة الأخبار فارتعش جواكيم زازا، سيضيع لو بثوا صورة له، قرعوا النداء، ولكن لم تظهر الصورة، على أية حال هم لا يبحثون عن مجرم، فقط يطلبون منه، بإلحاح شديد وبطريقة محترمة، أن يبلغهم عن مكانه، ليقدّم خدمة للمصالح الوطنية العليا للبلاد، ولا يوجد مواطن صالح يمكنه أن يرفض مثل هذا الشرف بالقيام بعمل بسيط، تقديم نفسه إلى المسؤولين ليستجوبوه، كان في المطعم ثلاثة أشخاص غيره، زوجان من كبار السن، وعلى مائدة أخرى، رجل من أولئك الذين يقولون عنهم: تجار متجولون.

انقطع النقاش عندما قدموا أولى أخبار البرانس، واصل خنزير شخيرة لكن لم يكن يسمعه أحد، كل هذا في وقت واحد، وقف صاحب المطعم على كرسي ليرفع صوت الجهاز، وتوقفت عاملة المطعم عن العمل فاتحة عينيها عن آخرهما، ترك الزبائن أدوات الأكل إلى جوار الأطباق بحرص تام، ليسود الهدوء، على الشاشة طائرة هليكوبتر مُصورة من طائرة أخرى، تدخلان معاً في فوهة القناة المرعبة ليبينا الجدران المرتفعة، مرتفعة إلى درجة أن السماء تكاد لا تظهر في الأعلى، مجرد خط أزرق، قالت الفتاة، يا للهول، إنها تصيب بالدوار"، وقال صاحب المطعم، "اصمتي"، يبينون الآن على ضوء كشافات، الصدع العظيم، ربما يكون مدخل جهنم الإغريقية هكذا، الأسطورة لم تعد

كما كانت من قبل، يقول المذيع، "تلك المشاهد الدرامية، تم تصويرها رغم ما تمثله على حياة المصورين من خطر حقيقى"، عاد الصوت إلى حياديته، تحولت الطائرتان إلى أربعة، خيالات لخيالات، صاح صاحب المطعم "اللغة على الإيريال".

عندما انضبط الصوت والصورة من جديد، كانت طائرات الهليكوبتر قد اختفت وقرأ المذيع النداء الشهير، وتم توسيعه بشكل عام، "ترجو أيضاً من كل من لديهم معلومات عن حالات غريبة، ووقائع غير مفهومة، أو إشارات مشكوك فيها، أن يتصلوا فوراً بأقرب السلطات إليهم". حينها، بعد مشاهدة ذلك، ذكرت الفتاة ما يُقال هناك أنهم يتحدثون أن جدياً وُلد بخمس أرجل، أربعة سوداء وواحدة بيضاء، لكن صاحب المطعم أجاب، "حدث هذا منذ أشهر مضت، كثير من الجديان تُولد بخمس أرجل ودجاجات برأسين هذه أمور عادية، الجديد هو زراير مُعلم المدرسة"، سأل جواكيم زازا، أى مُعلم وأى زراير؟، "إنه مُعلم القرية، اسمه جوزيه أناسيو منذ أيام وسرب من الزراير تحوّم حول رأسه فى كل مكان يذهب إليه، مئات وربما أكثر، شاهدتها هذا الصباح عندما كنت فى طريقى إلى هنا، تحوّم على المدرسة، وتصدر أصواتاً مزعجة بأجنحتها وصراخها". فى تلك اللحظة تحدث الرجل الشيخ، "أعتقد أننا يجب أن نخبر العمدة عن حالة هذه الزراير، هذا ما أراه"، قال صاحب المطعم، "إنه يعرف ذلك، لكنه رجل غبى لا

يعرف ربط الأشياء ببعضها، المؤخرة واللباس، لو سمحتم لى التعبير بهذه الطريقة، "وماذا سنفعل؟"، "لنذهب غداً ونتحدث معه"، "فى الصباح، من المهم أن يتحدثوا عنا فى التليفزيون، إنه أمر طيب للتجارة والصناعة، لكن ليبقى هذا الأمر سرّاً بيننا، لا نقوله لأحد"، سأل جواكيم زازا، "وأين يسكن هذا المعلم؟"، وكان السؤال يبدو عابراً، لذلك فإن صاحب المطعم، المنشغل، لم يتمكن من منع الفتاة عن الكلام، قالت، "يعيش فى بيت قريب من المدرسة، إنه بيت المعلمين، سترى بالليل نوراً فى الشباك حتى وقت متأخر"، كان فى صوتها شيء من الخوف، عَنف صاحب المطعم الفتاة، "اسكتى، يا غبية، اذهبى لتطعمى الخنزير الجائع"، كان الأمر غريباً، من بين الأشياء الغريبة الأخرى، أن الخنزير لا يأكل فى مثل هذه الساعة، الخنازير بشكل عام تنام، وهذا العنف ربما يخفى وراءه قلقاً آخر، فى هذه المنطقة تكثر أيضاً إسطبلات الخيول والأفراس عادة ما تكون عصبية، فتضرب الأرض بحوافرها، وتدفع بالقش بعيداً، ربما يكون القمر السبب فى كل هذا، كان الحكم صادراً عن خبير فى الحيوانات.

دفع جواكيم زازا حساب العشاء، وألقى تحية مساءً، وترك بقشيشاً جيداً تعويضاً عن المعلومات التى قدمتها له الفتاة، لكن مؤكداً أن صاحب المطعم سيستولى عليه، منتهزاً الفرصة، وإن لم تكن تلك عادته، كرم الأشياء ليس أفضل شمائ لهم الشخصية،

هذا مرتبط أيضاً بحالاتهم النفسية وتناقضاتهم، غريب أن تتكرر، وهذه حالة الفتاة، التي عَنَفَها، لأنها لم تقدم الطعام لخنزير ليس جائعاً، فيقوم بمداعبتها فيما بين عينيها، الكلمة قشتالية، ولكنها كلمة مُستخدمة هنا لنقص في اللغة البرتغالية. ليلة جميلة، ذات الحصانين ترتاح بين أشجار الموز، وتُبرد إطاراتها بالمياه الجارية، المتسربة من النافورة، تركها جواكيم زازا في وضعها هذا، وذهب سيراً للبحث عن المدرسة والنافذة المضاءة، لا يستطيع الناس إخفاء أسرارهم رغم الكلمات التي يحاولون بها، فجأة تكشف عنهم كلمة، وانقطاع صوت من الكلمة فجأة يكشفها، أى مُشاهد لديه خبرة بالصوت والحياة يكتشف على الفور أن فتاة الحانة عاشقة. هذه المدينة ليست سوى قرية كبيرة، يمكن قطعها من أقصاها إلى أقصاها في أقل من ساعة، البيوت متقاربة، لكن جواكيم زازا ليس عليه أن يسير إلى جوارها، سأل صبيّاً عن مكان المدرسة، وما كان يمكنه أن يجد مرشداً أفضل منه، قال، "أذهب حضرتك في هذا الشارع، وعندما تصل إلى الساحة التي فيها الكنيسة، اتجه يساراً، بعدها، دائماً إلى الأمام، لن تكون لديك مشكلة، على الفور ستري المدرسة. والمعلم يعيش هناك"، "يسكن هناك؟"، "نعم يا سيدي، ستري النور في النافذة"، لكن لم يكن في كلمات الصبي ما يدل على الود، مؤكداً أن هذا الصبي ليس تلميذاً جيداً، والمدرسة بالنسبة له أول مظهر للمذنب، لكن رنت في صوته فجأة رنة سعادة.

الصبي لا يعرف الكراهية، وهو ما ينقذهم. وهناك كانت الزرايزر، لا يمكن أن تسكت أبداً، إذا لم يترك الدراسة مبكراً، يمكنه أن يتعلم تركيب الجمل دون تكرار الجمل الفعلية المتتالية.

كان في نصف السماء بعض الضوء، والنصف الآخر لم يكن قد أظلم تماماً، كان الهواء أزرق كما لو كنا لحظة طلوع الشمس. لكن الأنوار كانت مضاءة في البيوت، وتُسمع أصوات هادئة، لأناس متعبين، ويُسمع بكاء خفيف لطفل، حقيقة أن الناس غير منتبهة، تُلقى بهم إلى البحر في طوف ويواصلون حياتهم كما لو كانوا على أرض ثابتة إلى الأبد، يتكلمون تماماً مثل موسى يبحر في النيل بقفصه القشّي، ويلعب مع الفراشات، لحسن حظه أن التماسيح لم تشاهده. في عمق شارع ضيق، بين الأسوار، كانت المدرسة، لو لم يكن جواكيم زازا يعلم مسبقاً بوجودها لاعتقد أنها بيت كالبيوت الأخرى، في الليل كلها جدران، بعضها يبدو كذلك في النهار، كان الليل يهبط، لكن مصابيح الشارع ستنتظر بعض الوقت حتى تضىء.

حتى لا نُكذّب الفتاة العاشقة والطفل من المشاعر الخبيثة، كانت النافذة مضاءة، طرق عليها جواكيم زازا بأصابعه، لم تعد الزرايزر تصدر أصواتاً مزعجة، تبحث عن مكانها الليلي، بالعراك الاعتيادي، معارك الجيرة، لكن سرعان ما تسكن تحت أوراق شجرة التين الكبيرة التي هبطت عليها، في خفاء، سود في منتصف الظلام، لن يمر وقت طويل حتى يطلع القمر،

حينها يصحو بعضها بفعل أشعة الوضوح، ثم يعودون إلى النوم مرة أخرى، لم يكونوا يعرفون أنهم سيسافرون بعيداً. سأل صوت رجل من الداخل، "مَنْ؟"، أجاب جواكيم زازا، "من فضلك؟"، كلمات سحرية تُغنى عن كل معانى كلمات الكشف عن الهوية الرسمية، اللغة مليئة بتلك وغيرها من الكلمات ذات المعانى الصعبة، فتح النافذة، ليس سهلاً رؤية من يعيش بالداخل؛ لأنه في الاتجاه المعاكس للضوء، ولكن بالمقابل كان وجه جواكيم زازا بارزاً بالكامل، تحدثنا من قبل عن بعض ملامحه، نكشف عن الباقي، شعر كستنائي قائم، أملس، وجه نحيل، أنف عادي جداً، الشفاه تبدو غليظة فقط عندما يتكلم، آسف إن كنت أزعجتك في مثل هذه الساعة"، قال المعلم، الوقت ليس متأخراً، لكن كان عليه أن يرفع صوته؛ لأن الزرازير، تقافزت، رفعت أصوات الاحتجاج أو التحذير، بالضبط هم من جئت أتحدث إليك بشأنهم، "شأنهم، عن من تتحدث، عن الزرازير؟"، آه، وعن حجر قذفته أنا إلى البحر، أكثر ثقلاً من قدرتي على القذف، "ما اسمك؟"، "جواكيم زازا"، هذا الذى يتحدثون عنه فى الإذاعة والتليفزيون، "هو نفسه"، تفضل بالدخول.



تحدثنا عن الأحجار والزرازير، والآن يتحدثان عن القرارات التي اتخذناها. يقفان في الفناء الخلفى للبيت، يجلس جوزيه أنيسو على عتبة الباب، وجواكيم زازا على كرسي؛ لأنه الضيف، جلس جوزيه أنيسو وظهره للمطبخ، الذى يأتى منه النور، ومازلنا لا نعرف قسّمات وجهه، يبدو هذا الرجل كما لو كان يتخفى من شيء ما، وهو أمر غير صحيح، كم من المرات يحدث أن نظهر كما نحن وهو أمر لسنا فى حاجة إليه؛ لأنه لا يوجد هناك أحد ليرانا، وضع جوزيه أنيسو مزيداً من النبيذ الأبيض فى الكئوس، يشربان دون تبريد، كما يجب أن يكون حسب رأى خبراء الشراب، دون استخدام لأدوات التبريد الحديثة، ولكن فى هذه الحالة لأن بيت المعلم ليس فيه ثلاجة، "هل يكفى هذا؟"، قال جواكيم زازا، "يكفى لأنى شربت كثيراً أثناء العشاء"، أجابه جوزيه أنيسو، "هذا نخب الرحلة"،

وابتسم، تظهر أسنانه البيضاء، وهو أمر يجب أن نسجله، "إذا كان يجب على أن أذهب أنا لأبحث عن بدرو أورثي فهو أمر مفهوم، لأنني في إجازة، وليس لدى شيء خاص أعمله"، وأنا أيضاً، إجازتي الطويلة لا تنتهي حتى أوائل أكتوبر، عندما تبدأ الدراسة، وأنا أعيش وحيداً، "وأنا أيضاً أعيش وحيداً"، لم تكن نيتي أن آتي إلى هنا لأحمسك حتى ترافقني، وحتى أنا لا أعرفك"، أنا من يطلب منك أن تدعني أرافقك، لو تركت لي مكاناً في السيارة"، على الرحب والسعة، ولا أستطيع العودة في كلامي، تخيل ما يمكن أن يحدث لو عرفوا بغيابك، قد يبلغون البوليس من الفجر، سيعتقدون أنك قد مت ودُفنت، أو مشنوق على فرع شجرة، أو ألقوا بك إلى النهر، أو ألقيت بك أنا، بالطبع، سيشتبهون فيّ أنا، ذلك الغريب صاحب القوة الغريبة الذي جاء إلى هنا متخفياً، طرَح عدة أسئلة واختفى، كل شيء مكتوب في الكتب"، سأترك ورقة على باب البلدية أقول فيها إنه تعين على أن أذهب إلى لشبونة لأمر عاجل، أرجو ألا يسأل أحد عني في المحطة إن كنت قد اشتريت تذكرة أم لا".

بقيا صامتين لبضع دقائق، نهض بعدها جوزيه أنايسو، سار بضع خطوات باتجاه شجرة التين بينما كان يشرب ما تبقى من النبيذ، الزراير لا تتوقف عن الزقزقة والحركة، بعضها استيقظ على أثر الحوار بين الرجلين، بعضها الآخر ربما يحلم بصوت مرتفع بذلك الكابوس المزعج، الذي يصيب نوعها بالاعتقاد في

الطيران، طيور تائهة فى السرب، فى مناخ يقاوم ويوقف ضربات الأجنحة كما لو كانت ماء، تماماً كالإنسان عندما يحاول الجرى فى الحلم ولا يستطيع، قال جوزيه أنيسو، "تسافر قبل ساعة من ظهور خيوط الفجر الأولى، والآن يجب أن ننام"، وقف جواكيم زازا من على الكرسي، "سأبقى فى السيارة، سأمر لآخذك فجراً"، "لماذا لا تنام هنا، يوجد سرير واحد لكنه عريض، يكفيننا معاً". كانت السماء عالية، ومليئة بالنجوم التى تبدو قريبة كما لو كانت معلقة بخيوط غير مرئية، غبار زجاجى، غشاء من اللبن المتجمد، والنجمات الكبيرة كانت تعكس ضوءها بشكل درامى، الزهراء، والدب القطبى، وعلى وجهى الرجلين تسقط نقاط أمطار خفيفة باردة من النور الزجاجى الذى يلتصق بالجلد، تظل معلقة بالشعيرات، ليست هذه المرة الأولى التى يحدث فيها هذا، وفجأة صمت صوت الليل، وظهر ضوء القمر على رءوس الأشجار، وعلى النجوم الآن أن تنطفئ. حينها قال جواكيم زازا، "فى ليلة كهذه يمكننى أن أنام تحت شجرة التين، لو تترك لى بطانية"، "سأرافقك"، جمعاً بعض القش وكوماء وفرشاه، تماماً كما يفعلون مع المواشى، طرحا البطاطين، وناما على جانب منها وتغطيا بالجانب الآخر، كانت الزرايزر تزقزق مراقبة الأجساد الملقاة تحتها، "ترى ما هذا؟"، تحت الشجرة وعلى الأفرع الجميع مستيقظون، تحت قمر كهذا على النوم أن يقاوم كثيراً، يصعد القمر، يصعد بسرعة، قمة شجرة

التين تحولت إلى خليط من الأبيض والأسود، يقول جوزيه أنايسو، "تلك الظلال ليست كما كانت، لقد تحركت شبه الجزيرة قليلاً، بضعة أمتار"، الانعكاس لا يبدو كبيراً"، هذا ما لاحظته جواكيم زازا، سعيد بفهمه للتعليق، تحركت وهذا كان كافياً لتصبح الظلال مختلفة، هناك أفرع يلمسها ضوء القمر لأول مرة، بعد مضي بضع دقائق، بدأت الزرايزر تهدأ، وهمهم جوزيه أنايسو بصوت متقطع من تأثير النوم، كل كلمة تنتظر أو تبحث عن الأخرى، "فى يوم ما، السيد خوان سيجموندو، ذو اللقب الكامل، وفى رأى الخاص كامل الجمال، منحه أحد الفرسان جزيرة متخيلة، قل لى هل يوجد بلد آخر حدثت فيه مثل هذه الحكاية، النبيل، الذى تحول إلى فارس، وخرج إلى البحر بحثاً عن الجزيرة، أريد أن أعرف كيف يمكن البحث عن جزيرة متخيلة، هذا ولا فى العلوم، لكن تلك جزيرة أخرى، الأيبيرية، التى كانت شبه جزيرة وتركت شكلها، أنا أراها هكذا، بسخرية مشابهة، ربما اندفعت باتجاه أعماق البحر بحثاً عن البشر المتخيلين، يا لها من جملة جميلة، شاعرية، أنا لم أكتب بيتاً شعرياً واحداً فى حياتى، حسن، لو كان كل البشر شعراء لتوقفوا عن كتابة الشعر، وأيضاً لتلك الجملة أسرارها"، لقد شربنا كثيراً"، "أعتقد هذا"، صمت، سكون، وخفة لا نهائية، وهمهم جواكيم زازا، كما لو كان يحلم، "ماذا ستفعل الزرايزر غداً، ستبقى أم ستأتى معنا؟"، قال جوزيه أنايسو، "عندما نبدأ الرحلة سنعرف، دائماً

الأمر هكذا، والقمر ضائع بين أفرع شجرة التين، سيقضى الليلة كلها بحثاً عن الجزيرة.

قبل أن يشع ضوء النهار، استيقظ جواكيم زازا من سريره المصنوع من قش القمح وذهب معاً بحثاً عن ذات الحصانين، التي بقيت تستريح في حقل الموز القريب من الميدان، في المواجهة تماماً، وحتى لا يراها معاً أى مبكر صباحي، من أولئك الذين تعج بهم المناطق الزراعية، فقد قررا اللقاء عند مخرج القرية، بعيداً عن آخر البيوت، يذهب جوزيه أنايسو عبر طريق بعيدة، وطرق غير ممهدة، متخفياً بالظلال، أما جواكيم زازا، متخفياً أيضاً، عبر الطريق الرئيسي، فهو مسافر غريب لا يخاف، خرجا مبكراً ليستمتعا برطوبة الصباح وانتهاز اليوم بكامله، كما يفعل السائحون المبكرون عادة، فهم في أعماقهم إشكاليون وقلقون، يعانون من قصر الحياة، ينامون متأخراً ويستيقظون مبكراً، هذا ليس صحيحاً لكنه يطيل الحياة. موتور ذات الحصانين هادئ، ينطلق بنعومة الحرير، سمعه فقط قلة من السكان القلقين، واعتقد هؤلاء أنهم نائمون ويحلمون، وصوت الموتور يكاد لا يُسمع الآن، في سكون الفجر، سوى كهمهمة طلمية مياه، خرج جواكيم زازا من القرية، دار عند أول منحني، والثاني، بعدها أوقف ذات الحصانين وانتظر.

في الأعماق الفضائية لأشجار الزيتون تبدأ الجذوع في فرض وجودها، في الهواء بخار رطب وهلامي، كما لو كان الصبح خارجاً من بئر مياه

ضبابية، طائر يغنى الآن، أو ربما سراب سمعى، ولا حتى القبّرات تغنى هكذا مبكراً. مرّ الوقت وبدأ جواكيم زازا فى التفكير، "ربما ندم ولن يأتى، لكن لا أعتقد أنه من أولئك الرجال"، "ربما كان عليه أن يدور دورة أكبر من التى قررها، ربما كان هذا"، "وأيضاً يجب حساب الحقيبة، فالحقيبة ثقيلة، كيف لم أنتبه إلى ذلك، ربما كان يمكننى أخذها فى السيارة"، حينئذ، برز جوزيه أنيسو من بين أشجار الزيتون محاطاً بالزرايزر، عاصفة من الأجنحة كالطبل، صرخات حادة، من قال إنها مائتان فقط لا يفهم فى الحساب، إنها تذكرنى بسرب نحل أسود، نحل كبير، لكنها طرأت على ذهن جواكيم زازا هكذا نعم، إنها طيور هيتشكوك، الفيلم الكلاسيكى، وإن كانت تلك طيور ملعونة قاتلة، اقترب جوزيه أنيسو من السيارة بتجاه المصنوع من أجنحة تلك الطيور، جاء ضاحكاً، ربما لهذا يبدو أكثر شباباً من جواكيم زازا، معروف أن الجاذبية الأرضية تؤثر على الوجه، أسنانه بيضاء جداً، كما عرفنا من الليلة السابقة، فى مجموع وجهه لا تبرز أى تقاطيع مميزة، لكن هناك تناغماً فى وجنتيه الفائرتين، لا أحد مطلوب منه أن يكون جميلاً، وضع الحقيبة فى السيارة، وجلس إلى جوار جواكيم زازا، وقبل أن يغلق الباب، نظر إلى الخارج، ليرى الزرايزر، "هيا، أريد أن أعرف ماذا هى فاعلة، وما أنت ترى، لو كانت لدينا بندقية، بخرطوشى رش يمكننا عمل مذبحة"، "هل أنت صياد؟"، "لا، أنا أقول

ما سمعتهم يقولونه، "الحقيقة أنه ليس لدينا بندقية، ربما كان هناك حل آخر، سأنطلق بذات الحصانين بأقصى سرعة وأتركها خلفي، فالزرزور طائر قليل الطيران ولسافات قصيرة"، "فلنجرب". غيّرت ذات الحصانين سرعتها، وأسرعت في طريق مستو لمسافة طويلة، مستغلة السهل المسطح، وسرعان ما تركت الزراير في الخلف بعيداً. بدأ الفجر يصيب السماء بلون وردى باهت ووردى فاقع، كانت الألوان تسقط من السماء، وانقلب الهواء أزرق، الهواء، نقول جيداً، لا نقول السماء، كما استطعنا أن نتابع هبوط المساء، هذه الساعة متشابهة معها جداً، ساعة في البداية، وأخرى في النهاية، أطفالاً جواكيم زازا أضواء السيارة، خفف من السرعة، إنه يعرف أن ذات الحصانين لم تُصنع لتواجه مطبات كثيرة، طبقاً لمواصفاتها، إضافة إلى أننا لسنا في حاجة إلى ذلك، واستهلاك الموتور فلسفة مرفوضة، لا شيء أكثر من هذا، "حسناً، لقد انتهت الزراير"، هذا ما قاله جوزيه أنيسو، وفي صوته رنة أسي.

بعد ساعتين، توقفا في ألينتيخو لتناول بعض الطعام، تناولا قهوة بالحليب، وبسكويتاً جافاً بالقرفة، عادا بعدها إلى السيارة يناقشان همومهما، "السيئ ليس أنهم لن يتركوني أدخل إسبانيا، الأسوأ منه سيكون إلقاء القبض على"، "أنت غير متهم بارتكاب أية جريمة"، "سيخترعون أي شيء، ويلقون القبض على ليجروا تحرياتهم"، "لا تنزعج، من هنا وحتى

الحدود سنعثر على طريقة ما تمر بها"، كان هذا هو الحوار، وهو لا يفيد كثيراً لذكاء الحكاية، ربما وضعناه هنا لنوضح أن جواكيم زازا وجوزيه أنيسو يتحادثان بلا ألقاب، ربما اتفقا على ذلك خلال الطريق، "لنتبادل الحديث بلا ألقاب"، قال أحدهما، وكان الآخر موافقاً، "كنت أفكر في هذا قبل قليل"، كان جواكيم زازا يفتح باب السيارة عندما ظهرت الزرايزر، تلك السحابة الضخمة، بدت كسرب نحل يناور حول نفسه، ويصدر أزيزاً مرعباً، يبدو عليه الغضب، والناس هنا تحت، رفعوا رؤوسهم إلى أعلى، يشيرون إلى السماء، أكد أحدهم، "لم أشاهد في حياتي طيوراً بهذا العدد"، من عمره ما كان يبدو أنه تنقصه هذه الخبرة وخبرات أخرى، وأضاف، "إنها أكثر من ألف"، وكان محقاً، كانوا على الأقل ألف ومائتين وخمسين التي اجتمعت هذه المرة، قال جواكيم زازا، "لقد لحقوا بنا"، لكننا سنضربهم مسافة أخرى ونقضى عليهم مرة واحدة"، نظر جوزيه أنيسو إلى الزرايزر التي تطير في دائرة واسعة، منتصرة، نظر إليها نظرة فاحصة، مركزة، "هيا ببطء، من الآن فصاعداً علينا السير ببطء"، "لماذا؟"، "لا أعرف، لا أعرف، إنه إحساس، هذه الطيور لا تتركنا لسبب معين"، "لا تتركك أنت"، "موافق، ولهذا أطلب منك أن تسير ببطء، من يعرف ما الذي يمكن أن يحدث؟".

بعبور ألينتيخو تحت هذا المناخ الحارق، تحت سماء أكثر بياضاً منها زرقاء، بين بقايا الحصاد

البراقة، والأرض العارية، وأكوام القش المنثورة، والأزيز المتوالى، تصبح الحكاية كاملة، وربما أكثر إحكاماً من الأخرى، التى جرى حكايتها فى وقت وقوعها. حقيقة إنه خلال كيلومترات وكيلومترات لم نشاهد جسداً بشرياً، فقد تم جمع الحصاد، وكل هذا يحتاج إلى رجال ونساء، والآن لا نعرف شيئاً لا عنهم ولا عنهن، إنه قول حديث ينطبق عليهم. من روى حكاية، إذا لم يروِ أخرى فهذا علامة سيئة، الحرث قليل، خائق، لكن ذات الحصانين هادئة، والرغبة فى التوقف تحت الظل كبيرة، حينها خرج جواكيم زازا وجوزيه أناسو لإلقاء نظرة على الأفق، قضيا الوقت المطلوب، وأخيراً عادا، فى السماء سحابة وحيدة، تلك التوقفات ما كانت تحدث لو أن الزراير عرفت كيف تطير فى خط مستقيم، لكن، بسبب كثرتهم، ومناوراتهم الكثيرة، ما كان يمكن تفادى التفرق والابتعاد، بعضها يريد الراحة، وأخرى لشرب الماء أو قضم الفاكهة، ما إن يسيطر رأى معين حتى يختلط الأمر على المجموع ويخطئ الطريق. فى الطريق، إضافة إلى الحدآت والصيادين، وطيور أخرى أقل خطراً، كانت هناك طيور من أنواع أخرى، لكنها لم تنضم إلى الجمع، ربما لأنها لم تكن سوداء اللون، ولأنها متعددة الألوان، أو أن حياتها لها مصائر أخرى، دخل جواكيم زازا وجوزيه أناسو السيارة، وانطلقت ذات الحصانين على الطريق إلى الأمام، وهكذا، ما بين السير والتوقف، التوقف والسير، وصلا إلى الحدود. حينها قال جواكيم زازا،

وإذا لم يتركوني أمر"، "أنت عليك بالتقدم، ولنر ربما
تساعدنا الزرازير".

فى مثل كل حكايات الحوريات، والسحرة
والفرسان الجوالين، أو فى الحكايات الأخرى التى لا
تقل أهمية فى مغامراتها الساخرة، تلبية لرغبة الراوى
أو الآلهة والقوى الأخرى المساعدة، وبطريقة غير
طبيعية، فإن الحالة هنا أن جواكيم زازا وجوزيه
أنيسو توقفا أمام رجل البوليس، المعبر الحدودى فى
اللغة الفنية، ويعلم الله وحده مدى هلعهما وهما
يقدمان هوياتهما، عندما، مرت فجأة، زوبعة أو زخة،
لقد كانت الزرازير فى الأعالي سوداء، وأجسادها
كالبرق، تصفر وتصرخ، وهبطت حتى ارتفاع سقف
المعبر فى كل الاتجاهات، تماماً كزوبعة مجنونة،
احتذى رجال البوليس بأذرعهم، وهربوا للاحتباء فى
الداخل، وهبط جواكيم زازا من السيارة والتقط
الوثائق والهويات التى سقطت من رجال السلطات،
ولم ينتبه أحد إلى ما يجرى فى منطقة الجمارك،
وهكذا، كم من الطرق التى يعبر الناس بها الحدود
بشكل غير شرعى، ولكن لم يحدث مثل هذا من قبل،
يصفق هيتشكوك، إنه مُعلم فى هذه المادة، لقد تم
اختبارها على التو، وأصبح معلوماً أن رجال البوليس
الإسبان، تماماً كالبرتغاليين، لا يعرفون شيئاً عن عالم
الطيور بشكل عام والزرازير السوداء بشكل خاص، مرَّ
المسافران دون أدنى صعوبة، ولكن بقى فى الطريق
عشرات الطيور، لأنه فى الجمارك كان هناك بعض

من لديهم بندقية محشوة، وكان يمكن لأعمى أن يصيب بها، وربما حصل على جائزة كبرى، لكن هذا كان بلا فائدة لأنه فى إسبانيا، كما نعرف، لا يبحث أحد عن جواكيم زازا، لكن يمكن لسوء الحظ أن يقع بين يدى الحرس المدنى الأندلسى، لأن الزراير برتغالية المولد، مولودة وكبرت فى ريباتيوخو، وماتت هناك بعيداً، على الأقل يكون عند هؤلاء الحراس حس الكرم لدعوة زملائهم البرتغاليين لمشاركتهم فى أكلها، كنوع من التعايش السلمى بين رفاق السلاح.

الآن هم فى الأرض الأخرى من الرحلة، بمظلتهم من الطيور المرافقة، فى طريقهم إلى غرناطة وما حولها، وعليهم أن ينتبهوا إلى مفارق الطرق، لأن الخريطة التى يحملانها لا تشير إلى قرية أورثى، خطأ كبير فى حساسية مصممى الخرائط، يؤكد أنهم يتذكرون قراهم، هل تذكروا فى المستقبل ما معنى أن يبحث المسافر فى خريطة ليرى المكان الذى جاء فيه إلى العالم فيجد مساحة بيضاء، خالية، وتبدأ بذلك مشاكل خطيرة شخصية ووطنية. تمر على الطريق سيارات السيارات والبيجاسو، يتعرفان عليها على الفور من خلال الكلام ولوحات الأرقام، والقرية التى تقطعها ذات الحصانين يخيم عليها ذلك الهواء النائم الذى يقولون إنه خاص بأراضى الجنوب، والكسول كما يسمونهم فى الشمال، إنه احتقار شكلى وعرقى يطلقه من لم يعمل أبداً فى الظهيرة تحت مثل هذه الشمس الحارقة. حقيقة إن هناك فارقاً بين عالم

وآخر، جميعهم يعرفون أن الرجال فى المريخ خضر
البشرة، بينما على الأرض توجد جميع الألوان عدا
ذلك الأخضر.

من ساكن من سكان الشمال لا نسمع ما
سنسمعه، بل نتوقف لنتساءل عن ذلك الرجل الموجود
هناك، الذى يركب الحمار، ماذا يعتقد عن الحدث
العظيم من انفصال شبه الجزيرة الأيبيرية عن أوروبا،
سوف يشد الرسن، سووووو، ويجب بكل صراحة، كل
هذا تهريج"، لأن روكى لوثنانو يحكم على الظاهر، ومن
خلاله يتوصل إلى سبب خاص به وصالح للفهم، "تأمل
الجدية الرعوية لتلك الحقول، هدوء السماء، توازن
حجارة جبال سييرا مورينا واراثينا هى نفسها منذ
الميلاد، أو، ربما أبعد من ذلك، منذ أن ولدنا نحن".
"لكن التليفزيون بين أن جبال البرانس انشطرت
كالبطيخة"، نستخدم تصويراً قريباً من الفهم العادى،
"أنا لا أثق فى التليفزيون ما لا أراه بعينى لا أصدقه"،
ودون أن يهبط من ظهر حماره "روكى لوثنانو، ماذا
ستفعل؟"، "لقد تركت عائلتى تنشغل بحياتها وأنا
ذاهب لأرى الحقيقة بعينى". يريد أن يرى بعينه التى
لم تاكلها الأرض بعد، ويرجو أن يصل بالحمار إلى
هناك. "وعندما لا يستطيع حملى نذهب معاً سيراً
على الأقدام"، "ما اسم الحمار؟"، "الحمار ليس له
اسم، هل يطلقون عليها أسماء؟"، كان من قبل اسمه
بلاتيرو، وأنت فى طريقك للسفر"، "بلاتيرو وأنا"، هل
يمكنك أن تقول لى أين توجد قرية أورثى؟"، "لا يا

سيدي، لا أعرف، أعتقد أنها بعد غرناطة، أم، إذاً
أمامكما طريق طويل، والآن في رعاية الله، أيها السادة
البرتغاليون، أمامي طريق طويل أيضاً، وأنا ذاهب على
حمار، "من المحتمل أنه عند وصولك لن تستطيع أن
تري أوروبا"، "لو لم أرها إذاً لم تكن هناك أبداً"، في
النهاية، روكي لوثنو محق، لوجود الأشياء تكون في
حاجة لشيئين: أن يراها الإنسان، وأن يطلق عليها
اسماً.

نام جواكيم زازا وجوزيه أنيسو في الهواء الطلق،
تماماً كما فعل الفونسو الثالث، مليكنا، عندما هاجم
المسلمين، لكنه لم يستمر طويلاً، شمس ضعيفة، لقد
كان ليل الأزمنة، استيقظت الزرايزر على بعض
الأشجار، لأنه، لكثرتهم، لم يستطيعوا البقاء معاً، في
سرب واحد، كما تعودوا، تحدث جواكيم زازا وجوزيه
أنيسو عن الصور الخطرة والكلمات التي شاهدها
وسمعاها في التلفزيون، وأن تكون فينيسيا في خطر،
وأظهر الأمر بشكل سيئ، "ساحة سنان ماركوس، غارقة
في وقت لا ترتفع فيه المياه، شرشف سائل وأملس
تنعكس عليه، حتى أبراج الكاندرائية وأجراسها، كلما
ابتعدت شبه الجزيرة الأيبيرية"، يقول المذيع بصوت
متقطع وأجش، "يتركز الناتج المدمر للمد، من المنتظر
حدوث تأثيرات كبيرة في كل حوض المتوسط، مهد
الحضارات، ولذلك من المحتم إنقاذ فينيسيا"، يطالب
الإنسانية أن تنتج قنبلة هيدروجينية أقل، أو تصنع
غواصة نووية أقل، قبل فوات الأوان، كان جواكيم زازا

مثل روكى لوثنانو لم يشاهد أبداً جوهرة الأديراتيك، لكن جوزيه أنايسو يمكنه أن يؤكد وجودها، حقيقة أنهم لم يضعوا لها اسماً ولا ألقاباً، ولكنه شاهدها بعينه تلك، ولمسها بيديه، وقال، "يا لها من كارثة، لو ضاعت فينيسيا"، وأثرت تلك الكلمات المؤلمة فى جواكيم زازا بعنف، أكثر من تأثير حركة مياه القنوات، والتيارات المتلاطمة، وتقدم المد تحت القصور، والأرصفة الفارقة، المظهر المرعب لمدينة تفرق، تشبه أتلانتا، والكاتدرائية الفارقة، والعيون المائية العمياء، تضرب المطارق البرونزية الأجراس فيما لا توقف الطحالب التروس، فتصدر ترددات سائلة، ويدخل مسيح الكاتدرائية فى مناقشة دينية مع الآلهة التى حلت محل جوفى ونبتون الرومانيين، والبيسيدون الإغريقى. وعودة إلى المياه التى وُلِدوا فيها، ستبقى فينيسيا وإنفترت فقط، "الآلهة المسيحية لا ترى بينها امرأة واحدة، من يعرف ربما الذنب ذنبنا"، همهم جواكيم زازا، "لا تقيم نفسك بتحميل نفسك الذنوب عن كل شيء"، "أنا أتحدث عن فينيسيا"، "لو ضاعت فينيسيا فالذنب ذنب الجميع، بسبب الإهمال والمكاسب التى ضيعوها"، "أنا لا أتحدث عن تلك الأشياء، ولا يعنينى أن يضيع العالم كله من أجلها، أنا أتحدث عن ما فعلت أنا، قذفتُ حجراً إلى البحر"، "لا يوجد من يعتقد أن هذا كان سبباً فى انفصال شبه الجزيرة عن أوروبا"، "لو رُزقت فى يوم من الأيام بابن، فإنه سيموت لأنك لم تولد بعد، لن يعضيك أحد من

تلك الجريمة، فالأيدي التي تعمل وتنسج هي الأيدي نفسها التي لا تعمل ولا تنسج، من المؤكد عندما يحدث الخطأ، فالخطأ ينتج عن المؤكد، "طريقة سيئة في مواساة الحزين"، ليست مواساة، يا صديقي الحزين، فالإنسان حيوان لا يُواسى".

ربما كان جوزيه أنايسو محققاً، ربما كان الإنسان هو الحيوان الذي لا يستطيع، أو لا يعرف، أو لا يريد أن يكون مُواسياً، لكن بعض أفعاله، ليس لها أى معنى سوى أنها بلا معنى، ليس هناك أمل أن يأتى اليوم الذى يبكى فيه على كتفى إنسان، ربما عندها يكون الوقت قد فات، عندما لا يكون هناك وقت لشيء آخر. تحدث التليفزيون عن أحد هذه الأفعال فى نشرة الأخبار نفسها، وغداً ستحدث نشرات الأخبار بالتفصيل مع تعليقات الخبراء، والنقاد والشعراء، كانت القضية التى أدت إلى السحر، فى فرنسا، على شاطئ بالقرب من كولوير، قامت فرقة مدنية وأدبية إسبانية فى سكون الليل، وبلا خوف من نداء البومة وبلا غطاء خارجى، باقتحام المقبرة التى دُفن فيها أنطونيو ماتشادو قبل سنوات. أيقظوا رجال البوليس، الذى نبههم أحد الساهرين، فتتبعوا لصووس المقابر، لكنهم لم يتمكنوا من الإمساك بهم. حملوا الكفن بالبقايا فى زورق بخارى كان ينتظرهم على الشاطئ ومحركه يعمل فى صمت، وخلال خمس دقائق كانت السفينة القرصانية فى عرض البحر، رجال البوليس، من على الرمال، أطلقوا النار فى الهواء، فقط

لتخفيف حدة السأم عن أنفسهم. لا لأنهم اعتقدوا أنهم يحتاجون إلى تلك العظام الغنائية. تحدثوا إلى وكالة فرانك برس، حاول عمدة كواورى التقليل من أهمية الشاعر، ولمح إلى أنه لا يمكن لأحد أن يؤكد أن تلك البقايا لأنطونيو ماتشادو، بعد تلك السنوات، ولا أهمية من البحث عن عدد السنوات التي مرت، فقط ربما بسبب نسيان الإدارة التي كانت لا تزال هناك، مع الأخذ في الاعتبار المعاملة الخاصة التي لقيتها عظام الشاعر.

الصحفي، رجلٌ خبر الحياة، وغيبى متردد حتى إنه بدا غير فرنسي، أدلى برأيه، ولحسابه الخاص، "إن عبادة الأثر تحتاج إلى هدف ملائم، وحقيقتها ليست مهمة، فقط يكفى التشابه، انظر إلى كاتدرائية فالنسيا، التي كانت في زمن مد العقيدة، قيل إنها تحتفظ بالكأس التي شرب فيها السيد المسيح في العشاء الأخير، والقميص الذي ارتداه طفلاً، وبضع نقاط من لبن سيدتنا العذراء، وبضع شعيرات من رأسها، والمشط الذي كانت تتمشط به، وأيضاً قلقة من فيراكروث، قطعة لا شكل لها لأحد القديسين الأبرياء، اثنان من تلك الدنانير الفضية الثلاثين التي باع بها يهوذا نفسه، ولإنهاء القائمة، إحدى أسنان القديس كريستوبا"، بعرض أربعة أصابع وطول ثلاثة، حجم من المؤكد مُغالٍ فيه، يمكنها أن تُدهش من لا يعرف طبيعة هذا القديس". ترى أين سيدفن الإسبان الآن الشاعر ماتشادو؟، سأل جواكيم زازا، الذي لم يقرأ له شيئاً،

أجاب جوزيه أنايسو، "نعم، رغم هذين العالم وسوء الحظ، فكل شيء له مكانه، وكل مكان يطالب بالشيء الذى ينتمى إليه، والشيء الذى هو اليوم أنطونيو ماتشادو، سيدفن فى أى مكان من حقول مقاطعة سوريا، تحت شجرة من تلك التى يسمونها بالقشتالية شجرة البلوط، ونسميها نحن - البرتغاليين - الشجرة البلوطية، دون صليب ولا لوحة حجرية، فقط بعض التراب الذى لا يشبه حتى شكل الجسد الممدد"، ونحن، البرتغاليين - أى شاعر لنا لنذهب للبحث عنه فى فرنسا؟"، "هذا إذا كان قد بقى لنا أحدهم"، "ما أعرفه، إنه فقط ماريو دى سا-كارنييرو، لكن مع هذا لا يستحق مجرد المحاولة، أولاً لأنه لا يريد أن يأتى، وثانياً لأن مقابر باريس من الأماكن المحروسة جيداً، وثالثاً أنه بعد سنوات عديدة مرت على موته، فإن إدارة العاصمة لن تسمح بتحمل أخطاء مجموعة ريفية موصومة بأنها متوسطة. بخلاف هذا، ما الذى سيفيد إخراجهم من مقبرة لوضعه فى أخرى، إذا كان غير مسموح فى البرتغال بدفن الموتى بعيداً عن أماكنهم، فى الهواء الطلق، وعظامهم لن تبقى هادئة لو تركناها فى ظل شجرة زيتون فى حديقة إدواردو السابع"، "وإن كانت لا تزال هناك أشجار زيتون فى حديقة إدواردو السابع؟"، "إنه سؤال مهم، لكنى لا أعرف أن أجيبك عنه، والآن هيا ننام، غداً علينا أن نذهب بحثاً عن بدرو أورثى، رجل الأرض المهتزة". أطفئنا النور، وبقينا بعيون مفتوحة فى انتظار النوم،

لكن، قبل أن يأتى النوم، سأل جواكيم زازا، "وفينيسيا، ما الذى سيحدث لها؟"، بص يا صديقى، أسهل الأشياء بين كل الأشياء الصعبة فى العالم سيكون إنقاذ فينيسيا، يكفى إغلاق البحيرة، وربط الجزر فيما بينها حتى لا يدخل البحر فيها براحتة، وإذا كان الإيطاليون غير قادرين على القيام بهذا العمل وحدهم، عليهم أن يستعينوا بالهولنديين، فهم أناس قادرين على تجفيف فينيسيا فى غمضة عين"، علينا أن نساعدهم، نحن مسئولون"، نحن لم نعد أوروبيين الآن، "والآن حسناً، هذه ليست كل الحقيقة، حتى الآن نوجد فى المياه الإقليمية"، قال الصوت المجهول.

فى الصباح، بينما كانا يدفعان الحساب، كان المدير يخفف عن همومه، الفندق خال فى عز الموسم، شئ مؤسف، لم يلحظ جواكيم زازا وجوزيه أنيسو خلو الفندق من الزبائن لأنشغالهما بأشئائهما، والمغارات، لم يعد أحد يأتى لزيارات المغارات، كرر الفندقى متحسراً، "عدم حضور الناس لرؤية المغارات هو أسوأ كارثة". كان الفرح فى الشارع كبيراً، لم يشاهد شباب "رائيننا" فى حياتهم هذا العدد من الزرايزر معاً، حتى خلال زياراتهم التعليمية فى الحقول، وما إن تحركت ذات الحصانين البرتغالية، باتجاه أشبيلية، حتى ارتفعت الزرايزر طائرة كطائر واحد، دارت دورتين كوداع أو استطلاع للأفق واختفت خلف قلعة الرهبان. كان الصباح مضيئاً، يمكن لمسه بالأصابع، ويظهر اليوم أقل حرارة عن الأمس، لكن

الرحلة طويلة، من هنا إلى غرناطة أكثر من ثلاثمائة كيلومتر، وبعدها علينا أن نبحث عن أورثي، نرجو ألا يذهب بحثنا سدى ونعثر على الرجل"، هذا ما قاله جوزيه أنابسو، عدم العثور على الرجل احتمال طراً على باله الآن، "وعندما نعثر عليه، ماذا سنقول له؟"، بدأ الشك الآن عند جواكيم زازا. فجأة، بضوء النهار الجديد أو نتيجة أن الليل سيئ التفكير، كل تلك التفاصيل بدت عبثية، لا يمكن أن يكون انشطار قارة حقيقة لأن أحدهم قذف حجراً إلى البحر، حتى لو كان الحجر أكبر من قوة من قذفه، لكن الحقيقة التي لا تقبل الشك أن الحجر جرى قذفه وبدأت القارة في الانشطار، ويقول أحد الإسبان إنه يلحظ اهتزاز الأرض، وسرب طيور مجنون لا يترك معلماً برتغالياً في حاله، ويعلم الله أي أشياء أخرى وقعت أو ستقع فيما بعد في شبه الجزيرة هذه، "تحدثه عن حرك وعن زرايزري وهو يحدثنا عن الأرض التي اهتزت أو لا تزال تهتز"، "وبعدها؟"، "بعد ذلك، إذا لم يكن هناك ما يمكن مشاهدته، أو الشعور به، أو معرفته، نعود إلى بيوتنا، أنت إلى عملك، وأنا إلى المدرسة، كما لو كان كل هذا ليس سوى حلم، "بالمناسبة لم تقل لي حتى الآن ماذا تعمل؟"، "أنا موظف"، "وأنا أيضاً موظف، أنا معلم"، وبدأ الاثنان معاً في الضحك، وذات الحصانين، أعلنت، عبر مؤشراتنا إنه ينقصها البنزين. سيمونون في أول محطة وقود يلتقون بها، لكنهما انتظرا أكثر من نصف ساعة؛ لأن طابور السيارات كان يمتد بطول

الطريق، والجميع يريدون ملء الخزان. عادا إلى الطريق، جواكيم زازا قلق الآن، "الناس تخزن البنزين، ستفلق محطات الوقود أبوابها سريعا، وبعدها، يجب الانتباه إلى ذلك، إن البنزين منتج حساس، متبخر، عندما تكون هناك أزمة فهو أول ما يشير إلى الانزعاج العام، قبل سنوات كانت هناك حالة حصار على التموين، لا أعرف إن كنت لا تزال تتذكر أو سمعتمهم يتحدثون عن ذلك، وكانت الفوضى، أرى أننا قد لا نصل ولا حتى إلى أورثي"، "لا تكن متشائماً"، "لقد ولدتُ هكذا".

عبرا أشبيلية دون أن يتوقفا، وإن كانت الزراير تأخرت قليلاً احتفاء بالخيرالدا، التي لم تشاهدها من قبل. لو كانت نصف دسنة فقط لأمكنها أن تشكل تاجاً من الملائكة السوداء لتمثال الإيمان، لكنها عدة آلاف، بسقوطها عليها كوابل، حولته إلى صورة لا شكل لها يمكن أن يكون ما كان أو شيء عكسه، إنه رمز الزندقة. لم يستمر التحول طويلاً، لقد مرَّ جوزيه أنيسو بهذه الشوارع المتقاطعة، لتواصل، هذه الأمة المجنحة، في الطريق، كانت ذات الحصانين تشرب عندما تستطيع، بعض محطات الوقود تضع لافتة انتهاء الوقود، لكن العمال يقولون، غداً، هؤلاء من ذلك النوع المتفائل، أو ربما، ببساطة، قد تعلموا قاعدة الحياة المرفهة. الزراير لم يكن ينقصها الماء، بفضل الله، الذي هو سيدنا الرحيم بالطيور أكثر من الإنسان، وهما هو مصدر نهر الوادي الكبير،

والبحيرات، والخزانات، مياه أكثر من قدرة تلك المناقير الصغيرة لكل الطيور بطول تاريخ العالم. انتصف المساء عندما وصلا إلى غرناطة، تلهت ذات الحصانين، ترتج من المجهود، فيما جواكيم زازا وجوزيه أنابسو يتحققان من الطريق، كما لو كانا يحملان خارطة حقيقية للإبحار مفتوحة أمامهما، "سنعرف الآن أين ينتظرنا المصير؟".

فى المكتب السياحى، سألتهما الموظفة إن كانا أثريين أو أنثروبولوجيين برتغاليين، أن يكونا برتغاليين هذا واضح من لهجتهم، لكن أن يكونا أثريين أو أنثروبولوجيين، هنا، "لأن أورثى بشكل عام، يزورها أناس لهم هذه الصفات، لأننا منذ سنوات اكتشفنا بالقرب من هناك، فى لافنتا ميثينا، أقدم أوروبى معروف"، سأل جواكيم زازا، "أوروبى بكامل هيئته"، "لا فقط جمجمة، لكنها قديمة، عمرها ما بين المليون والمليون وثلاثمائة ألف سنة"، "هل مؤكد أنه رجل؟"، أراد جواكيم زازا أن يعرف بدقة شديدة، وهو ما أجابت عنه ماريا دولوريس بابتسامة متواطئة، "عندما يتعلق الأمر بأثر بشرى، هم دائماً رجال، رجل كارتاخينا، ورجل نينديرتال، ورجل ستينهم، ورجل سوانزكومب، ورجل جاوا"، "ألم يكن فى تلك الأزمنة نساء، ألم تكن حواء قد ولدت بعد، وبقيت بعدها كخادمة إلى الأبد؟"، "حضرتك ساخر"، "أنا لست أنثروبولوجياً بالدراسة وميلاً للنسوية بالفضب، أقول لك نحن فى الحقيقة صحفيان ونريد أن نُجرى مقابلة مع شخص يدعى بدرو أورثى، الذى شعر أن الأرض

تهتز"، وكيف وصل خبرٌ مثل هذا إلى البرتغال؟"، إلى البرتغال يصل كل شيء، نحن نصل إلى كل مكان"، هذا الجزء من الحوار مع جوزيه أنايسو، فهو رجل سريع البديهة، ربما جاء ذلك من كثرة تعامله مع التلاميذ، كان جواكيم زازا قد ابتعد قليلاً ليطالع لوحات الإعلانات وعليها صور فناء الأسود بالحمراء، وحدائق العريف، وتمائيل الملوك الكاثوليك، وكان يسأل نفسه إن كان من المفضل رؤية الأشياء الحقيقية نفسها بعد رؤية صورها، بهذا التفلسف حول الإحساس بما هو واقعي خسر جواكيم زازا بقية الحوار، ترى ماذا قال جوزيه أنايسو لماريا دولوريس حتى يضحكا هكذا، بهذا الشكل المرح، إذا كانت ماريا دولوريس لم تحول اسمها إلى لولا فلأن كل ضحكة منها تصبح فضيحة، لم يعد على وجه لولا أى ظل من الغضب النسوى، ربما لأن هذا الرجل من ريباتيخو كان أكثر من مجرد فك يتحرك، ضرر العقل وقمة المخ، وهذا تأكيد على أنه لا يزال هناك نساء فى زماننا هذا، ماريا دولوريس، موظفة سياحة؛ لأنه لم يكن لديها عمل كإنثروبولوجية، ترسم لجوزيه أنايسو الطريق الناقص على الخريطة، وتشير بنقطة سوداء إلى قرية أورثي، ولافتنا ميثينا بالقرب منها، والآن يمكن للمسافرين أن يواصلوا طريقهما، تماماً كصحراء قمرية، ولكن يبدو فى عينيها الحسرة لعدم قدرتها على الرحيل هى أيضاً معهما، وممارسة عملها برفقة الصحفيين البرتغاليين، خاصة مع ذلك الأكثر تحفظاً والذي ابتعد قليلاً ليطالع اللوحات الإعلانية، كم مرة علمتنا

تجارب الحياة أنه لا يجب علينا أن نحكم على المظاهر، كما يحكم الآن جواكيم زازا، إنه خطؤه، وانزعاجه، لو أننا بقينا هنا لبعض الوقت، سنجذب الأنثربولوجية، لنفرض له سوقية تعبيرة، الرجال، عندما يكونون معاً، لهم تلك التعبيرات الفظة، وجوزيه أنيسو مدعٍ ولكنه مخطئ أيضاً، فأجاب، من يعرف؟!

هذا العالم، ولن نتعب من تكراره، عبارة عن كوميديا من الأكاذيب، دليل آخر على هذه الحقيقة أنهم أطلقوا اسم رجل أورثى على عظمة عثروا عليها، ليس فى أورثى بالضبط، ولكن فى لافتنا ميثينا التى يمكنها أن تمنح اسماً لعلم الفراسة، لو لم يتعلق الأمر بالكلمة الأخرى "فتنا" (بيع) رمز وعلامة على عالم التجارة الغبى والفقير. غريب مصير الكلمات. لو كان ميثينا اسماً لامرأة، لأنها لم تستطع أن تكون رجلاً قبل ذلك، مثل تلك الجيلية الشهيرة التى أطلقت فى البرتغال اسمها على فيلا دى جيليقا، ربما كان قد وصل إلى ذلك المكان بعض إغريق مقدونيا، هرباً من جنون آتيل، كان عليهم إعادة كتابة مبحث أسماء البلاد، وحط هنا أكثر بعداً عن ثيريرى، فى قلب الجحيم، وما كان يحدث أبداً بعيداً كما هو الآن، حيث نبحر، وإن كان صعباً تصديق ما أرويه عليكم.



كان الشيطان أول من سكن في تلك الأماكن، وكانت قدماء التي أحرقنا الأرض وكلستا الرماد، ما بين الجبال، التي كانت حينئذ مرتعبة فتركها الخوف على هذه الحال حتى اليوم، آخز الصحراء التي كان يمكن للمسيح نفسه أن يسقط فيها تحت إغواء الشيطان، لو لم يكن قد تعلم من النص التوراتي في تلك الأماكن، ينظر جواكيم زازا وجوزيه أنايسو، "يا له من مشهد طبيعي"، لكن تلك الكلمة الجميلة تنتمي إلى عوالم أخرى، للغات أخرى، لا يمكن أن يُطلق اسم مشهد طبيعي على ما تراه العين هنا، لقد قلنا من قبل إنه سكن الجحيم ونشك في هذا؛ لأن ما بين تلك الصخور الملعونة من المؤكد يمكن العثور أيضاً على رجال ونساء، مع مواشيهم التي ترافقهم إلى أن تحين لحظة ذبحها وأكلها، بين البقايا والأوبئة، في هذه الصحراء التي كتب فيها الشاعر الذئ لم يذهب إلى

غرناطة أبداً. ها هي أرض أورثي، التي شريت الكثير من دماء المورييسكيين والمسيحيين، حدث هذا أيضاً في الزمن السحيق، ماذا يفيد الحديث عن الذين ماتوا من سنوات بعيدة، إذا كانت الأرض هي الميتة، والمدفونة بنفسها.

في أورثي، عثر المسافران على بدرو أورثي، يمتهن الصيدلة، متقدم في السن قليلاً عن ما تخيلاه، هذا لو كانا قد فكرا في ذلك، لكنه لم يكن أكبر سناً من جده المليونير، هذا لو افترضنا صحة استخدام تعبيرات المال لقياس الزمن، مع الأخذ في الاعتبار أن أحدهما لا يشتري الآخر، أو هذا يغير من قيمة ذاك. لم يظهر بدرو أورثي في التلفزيون، لم نكن نعرف أن الرجل قد فاق الستين، ضامر الوجه والجسد، وشعره أبيض كله تقريباً، لولا أنه حزم أمره على عدم التجميل الاصطناعي، كان يمكنه أن يستعيد شبابه، في حال معرفة ما يمكن لسلطة التجميل الكيميائي، الصبغة السمراء والشفراء، حسب الرغبة، في سرية المعامل. عندما دخل جواكيم زازا وجوزيه أنيسو من الباب، كان يملأ كبسولات بخلاصة الكينا المطحونة، أدوية عتيقة ترفض تركيز الأدوية الحديثة، لكن ماذا، بحس حكيم، لا يزال يحافظ على التأثير النفسي للابتلاع الصعب، إلا أنه ناجع بشكل سحري. في أورثي، مكان لا يمكن تحاشي المرور به في الطريق إلى لابنتا ميثينا، المرور بآثار الحفريات والاكتشافات، المسافرون نادرة، لا نعرف أين توجد جمجمة الجد

الأقدم فى التاريخ، ربما فى متحف ما هناك فى انتظار المسمى وقاعة العرض، عادة ما يشتري الزيون العابر أسبريناً، ومضادات الإسهال أو حبات تسهيل الهضم، أما سكان القرية فربما يموتون مع أول مرض دون المرور بمعاملة البحث عن دواء، وهكذا فإن الصيدلى هنا لا يمكنه أن يصبح ثرياً. ما إن أغلق بدرو أورثى الأمبولات، التى تبدو عملاً قيماً، بتبليل الأجزاء التى تصلح كغطاء بضغط الجانبين المعدنيين، المثقوبين، وهكذا تصبح الروشتة جاهزة، "هل تريدان كبسولة كينا؟"، هذا ما دفعه إلى أن يسألها، "ماذا تريدان يا سادة؟"، "نحن برتغاليان"، تأكيد زائد عن الحاجة، يكفى سماعهما لاكتشاف هويتهما، لكن، فى النهاية، إنها مسألة إنسانية، الحاجة إلى توضيح من يكونان قبل أن نقول ما جئنا من أجله، فى الغالب فإنه فى الحالات المهمة، والسفر مئات الكيلومترات فقط للسؤال، حتى لو كان السؤال بمثل تلك الكلمات المساوية، "يا بدرو أورثى تقسم بشرفك وبشرف الجمجمة التى عثروا عليها أنك شعرت باهتزاز الأرض فى الوقت الذى سجلت فيه مؤشرات الزلازل فى أشبيلية وغرناطة خطأ مستقيماً لم يُشاهد من قبل؟"، رفع بدرو أورثى يده وقال، بكل بساطة الصادقين والمحقين، "أقسم". "نود أن نتحدث معك على انفراد"، أضاف جواكيم زازا بعد أن بين جنسيتيهما، وبعدها، بما أنه لم يكن هناك غيرهما فى الصيدلية، قصاً عليه الأحداث الشخصية والعامة،

الحجر، والزرزير، وعبور الحدود، في قضية الحجر لم يستطيعا تقديم إثبات، لكن بالنسبة للطيور فالإثبات كان يتطلب فقط الإطلال من الباب والنظر، إنها هناك، في تلك الساحة، أو في تلك القرية من مبنى البلدية، كل سكان القرية يرفعون رؤوسهم إلى أعلى، مبهورين أمام المشهد الغريب، اختفى الدوران الآن، وهبطت الزرزير على القلعة ذات الأبراج السبعة، القلعة العربية، قال بدرو أورثي، "من الأفضل ألا نتحدث هنا، ادخلا العربية واخرجنا من القرية"، "إلى أية ناحية"، "استمرا إلى الأمام، باتجاه ماريأ، وسيرا ثلاثة كيلومترات بعد آخر البيوت، ستجدان هناك جسراً صغيراً، بالقرب من أشجار الزيتون، وانتظراني تحت أشجار الزيتون، سأصل حالاً"، بدا لجواكيم زازا أنه يستعيد حياته الخاصة، عندما انتظر جوزيه أناسو بعد آخر البيوت، قبل يومين، لكن الوقت وقتها كان فجراً.

كانوا يجلسون على الأرض، تحت شجرة زيتون قرطوبيلية، التي تنتج الزيت الأصفر طبقاً لما تقوله الأغنية الشعبية، كما لو كان هناك زيت آخر غير أصفر، بعضه يكاد يكون ضارباً إلى الأخضرار، ما كان يمكن إسكات أول كلمات جوزيه أناسو، "هذه الأماكن تثير الخوف"، وأجابه بدرو أورثي، "أسوأ من هذا كثيراً في لابنتا ميثينا، لقد ولدت أنا هناك"، كان حديثاً متكلفاً يشبه معناه المحدد لحكايته، حسب القارئ أكثر منه حسب القراءة، وإن كاني كل شيء يعتمد على ذلك،

ولكن هذا يجعل من الصعوبة لنا أن نعرف من قرأ وما الذى تمت قراءته، وكيف انتهى ما قرئ لمن قرأه، لم يفكر بدرو أورثي أن شرور الأرض لها علاقة بأنه وُلد هناك. بعد ذلك، عادوا إلى موضوعهم، تحدثوا مطولاً عن تجاربهم، رامى القرص وصاحب الزراير، وخبير الزلازل، وفى النهاية، قرروا أن كل تلك الحالات لها علاقة ببعضها البعض، ولا تزال لها علاقة ببعضها البعض، خاصة أن بدرو أورثي يؤكد أن الأرض لا تزال تهتز، "أشعر بها الآن"، ومد يده بإشارة التأكيد، تحت تأثير الغرابة لمس جواكيم زازا وجوزيه أنيسو اليد الممدودة، وشعرا، دون أدنى شك بالاهتزاز، والتذبذب، والطنين، ليس مهما أن يقول فضولى إنه الاهتزاز الطبيعى الناتج عن تقدم السن، فلا بدرو أورثي شائخ جداً، ولا يمكن الخلط بين اهتزاز واهتزاز، حتى لو أثبتت القواميس ذلك.

أى مراقب نظر من بعيد قد يتخيل أن الرجال الثلاثة يقسمون على الالتزام بشيء ما، حقيقى أنه فى لحظة ما تعانقت أيديهم، لا أكثر، كانت الأحجار من حولهم تزيد من حدة الحرارة، والأرض البيضاء تغشى البصر، والسماء فوهة فرن تلقى بالحمم، وحتى تحت الزيتونى القرطبولية، فى الظل، الزيتونات لا تكاد تبرز، لا تزال حتى الآن بعيدة عن خطر الزراير، حتى يحين ديسمبر، وعندها سترى كم غارة تهب عليها، لكن بما أن الزيتونى وحيدة فلا يُعتقد أن الزراير تأتى إلى مثل هذه المناطق، فتح جواكيم زازا الراديو، لأن

الصمت كان قد حل فجأة على الثلاثة، ليس غريباً، لقد تعارفوا قبل قليل، يُسمع صوت المذيع، أخن النبرات لأسباب مهنية ولنفاذ البطاريات. "طبقاً للمقاييسات الأخيرة فإن سرعة انتقال شبه الجزيرة وصلت إلى سبعمئة وخمسين متراً في الساعة"، أنصت الرجال الثلاثة، "وطبقاً للأنباء التي وصلت حديثاً إلى غرفة أخبارنا، ظهر صدع عميق بين منطقة لالينيا وجبل طارق"، واصل الكلام والكلام، الكلام، "سنعود إلى مزيد من الأخبار بعد ساعة من الآن، إلا إذا حدث طارئ"، في تلك اللحظة بالذات مرت مجموعة من الزراير، فووووو، وسأل جواكيم زازا، "إنها زرايرك"، لم يكن جوزيه أنيسو في حاجة للنظر ليجيب، "نعم إنها لي"، لأنه من السهل عليه التعرف عليها، كان يمكن لشيرلوك هولمز أن يقول، "إنها مسألة مبدئية يا عزيزي واطسون"، "لا توجد أسراب يمكن مقارنتها بها في هذه المنطقة"، وهو محق، الطيور قليلة في الجحيم، لا توجد سوى الليلية منها، ولأسباب تراثية.

تطلع بدرو أورثي إلى طيران السرب، أولاً لأسباب لا تزيد عن كونها فضولية، وبعدها لمعت عيناه ذات الزرقة السماوية والسحاب الأبيض، ولم يستطع وقف الكلمات الفجائية، وقال، "ماذا لو ذهبنا إلى الشاطئ لنشاهد مرور صخرة جبل طارق". يبدو هذا عبثياً، ولا معنى له، لكنه ليس كذلك، عندما نسافر في القطار نشاهد الأشجار تمر بينما هي ثابتة في

الأرض بجذورها، والآن لن نساfer فى قطار، نساfer
ببطء على طواف حجرى يسبح فى البحر، دون أن
يمسك بها شىء، الفارق فقط هو ما بين ما هو صلب
وما هو سائل، كم مرة نحدد فيها حياة كاملة لنغير
الحياة، نفكر فيها كثيراً، نحصل على دفعة ونتمهل،
وبعدها نتحرك على قضبان الزمن فى حركة دائرية،
كالدوامات التى تشق الحقول مثيرة الغبار، والأوراق
الجافة، دون معنى، إلى أقصى ما تصل إليه قوتها، من
الأفضل لنا أن نعيش على أرض من الأعاصير. فى
مرات أخرى تكفى كلمة واحدة، "هيا نذهب لنرى مرور
الصخرة"، نهضوا على الفور، على استعداد لبدء
المغامرة، ولم يعودوا يشعرون بحرارة الهواء، كصبية
فى فسحة يهبطون منحدرأ على الطريق، يضحكون.
كانت ذات الحصانين كجمرة، غرق الرجال الثلاثة فى
العرق فى دقيقة واحدة، لكنهم يكادون لا يشعرون
بالمشقة، فقد حدث أيضاً أنه من أرض الجنوب هذه
خرج رجال لاكتشاف العالم الآخر، وهم أيضاً، قساة،
متوحشون، غارقون فى العرق كالخيول، كانوا يتقدمون
فى دروعهم الحديدية، وخوذات الحديد على الرؤوس،
وسيوف من الحديد فى الأيدى، فى مواجهة عرى
الهنود، لا يغطيههم سوى ريش الطيور والألوان، إنها
صورة شاعرية.

لم يعبروا القرية مرة أخرى، لأن مرور بدرو
أورثى فى سيارة مع غريبين أمر مثير للريبة، إما أنه
مخطوف أو أن الثلاثة يتآمرون على عمل شىء،

والأفضل إبلاغ البوليس، لكن قد يقول شيخ من شيوخ أورثي، "لا نريد الحرس المدنى هنا". سلكوا طريقاً أخرى، عبر طرق غير معروفة على الخارطة الرسمية، تفتقر إلى وجود السيدة أبى الهول العاملة مكتب السياحة، لرسم هذه الطرق المكتشفة حديثاً، ترى أكانت أبا الهول أم عرافة، هذه الطرق لم يشاهدها أحد أبداً على علامات مفترق الطرقات، رغم أن هذه مثل تلك تنتمى إلى شبه الجزيرة. قال بدرو أورثي، "سأريكم لابنتنا ميثينا أولاً، مسقط رأسى"، قال الجملة كمن يسخر من نفسه أو يتخلص من حمل يؤله. مروا بقرية مهجورة اسمها فوينتى نوبيا (البئر الجديدة)، البئر كانت هنا منذ زمن وشاخت وجفت، وفى منحني من الطريق قال، "إنها هناك".

تنظر العيون، تحاول أن ترى، تشك فى عدم وجودها، لكنها لا ترى شيئاً، سأل جوزيه أنايسو، "هناك؟"، وكان محقاً فى شكه، فالبيوت غريبة ومتفرقة، وتتشابه مع لون الأرض، برج كنيسة مهدم، ومقابر لا تخطئها العين بالقرب من الطريق، وصليب وجدان بيضاء. تتحنى الأرض تحت الشمس البركانية كبحر متحجر مغطى بالتراب، إذا كان هذا موجوداً منذ مليون وأربعمائة ألف سنة فليس الإنسان بحاجة أن يكون عالم حفريات ليقسم إن رجل أورثي مات عطشاً، لكن تلك الأزمنة كانت شباب العالم، ذلك المجرى الذى يجرى هناك كان من قبل عريضاً وسخياً كنهري، وكانت هناك أشجار كبيرة، وحشائش أعلى من

قائمة إنسان، حدث كل هذا قبل أن يضعوا الجحيم هنا. في الموسم القادم، عندما تبدأ في الإمطار، ستنتشر بعض الخضرة في تلك الحقول الرمادية، أما الآن فإن الجوانب السفلية تعد الشيء الوحيد المزروع، ورغم هذا فإنه من الصعوبة بمكان، أن تجف الزراعة وتموت، ثم تُولد من جديد وتعيش، الإنسان هو الوحيد الذي لم يستطع تعلم دورة الحياة، بالنسبة له الحياة مرة واحدة ولا تتكرر. أصدر بدرو أورثي إشارة تحمل كل معاني بؤس القرية، "البيت الذي وُلدت فيه اختفى"، مشيراً بعدها إلى اليسار، باتجاه مرتفعات منحدرية. إنها كهف لوس روساليس، "هناك عثروا على عظام رجل أورثي"، نظر جواكيم زازا وجوزيه أنايسو باتجاه المشهد المسود، "قبل مليون وأربعمائة ألف سنة عاش هنا رجال ونساء أنجبوا رجالاً ونساءً، إنه القدر، والفاجمة، إلى اليوم، وبعد مليون وأربعمائة ألف سنة سيأتى من يقوم بحفريات في هذه المقبرة المسكينة، وبما أنه يوجد رجل أورثي، ربما يقدمون جمجمتك ويطلقون على الجمجمة اسم رجل لابنتا ميثينا". لا يوجد أحد، ولا يُسمع صوت نباح كلب، والزرزير اختفت، تمر قشعريرة طويلة بظهر جواكيم زازا، الذي لا يتمكن من السيطرة على قلقه، ويسأل جوزيه أنايسو، "ما اسم تلك الجبال التي في العمق؟"، "إنها سلسلة جبال ساجرا"، "وتلك، التي إلى اليمين؟"، "إنها جبال ماريا"، عندما مات رجل أورثي ربما كانت تلك آخر المشاهد التي احتفظت بها عيناه، سأل جواكيم

زازا، ترى ماذا كان يُسمى تلك الجبال عندما كان يتحدث مع رجال أورثي الآخرين، الذين لم يتركوا جماجم؟"، فى تلك الأزمنة لم يكن هناك شيء له اسم، قال جوزيه أنايسو، كيف يمكن النظر إلى شيء دون أن يضع له اسماً، هل يجب الانتظار حتى يولد الاسم. وقف الثلاثة ينظرون، فى صمت، وأخيراً قال بدرو أورثي "هيا"، لقد حان الوقت لترك الماضى فى هدوئه القلق.

لتمضية وقت الرحلة، كرر بدرو أورثي حكاية المغامرات التى عاشها، مضيفاً أدق تفاصيلها، وصل العلماء إلى حد توصيله، فى حضور المسئولين، إلى جهاز لقياس الزلازل، كانت فكرة يائسة إلا أنها كانت مفيدة، لأنه حينها أمكنهم إثبات حقيقة ما كان يقوله، سجلت إبرة الجهاز وعلى الفور اهتزازات الأرض، ثم سرعان ما عادت إلى خطها المستقيم بمجرد فصل المريض عن الماكينة. عمدة غرناطة، الذى حضر التجربة، قال، "ما كان غير قابل للإثبات تم إثباته"، لكن عالماً صحح، "ما لم يتم إثباته عليه الانتظار لبعض الوقت"، ثم تحدث بلا أسس علمية لكنهم استمعوا إليه جميعاً وأمنوا على رأيه. أرسلوا بدرو أورثي إلى بيته قائلين له أن يكون تحت طلب العلم والمسئولين، وألا يتحدث عن مواهبه العجيبة، وهو توجيه لا يختلف كثيراً عن تلك التى اتخذها البيطريان الفرنسيان حول الأسباب الخفية لاختفاء الأحبال الصوتية لكلاب ثيريرى.

وأخيراً استدارت ذات الحصانين نحو الجنوب، وبدأت تسير على طرق مطروقة، ولا يبدو أنه في تلك الطرق يمكن أن تفتقد الوقود، بنزين، سولار، لكنها سرعان ما وجدت نفسها مجبرة على تخفيف سرعتها، كان يتقدمها طابور لا ينتهي من السيارات الأخرى يسير ببطء، وعربات نقل، وخطوط أتوبيسات عامة، وموتوسيكلات، ودراجات هوائية، وفسيات، وعربات تجرها البغال، وحمير محملة بالبشر، لكن روكى لوثنانو لم يكن على أى واحد منها، وأناس يسرون على أقدامهم، كثيرون، بعضهم يستخدم الأوتوستوب، وآخرون يحتقرون وسائل النقل كما لو كانوا يكفرون عن ذنوبهم أو يفون نذراً، والتفسير الأكثر قبولاً إنهم يفون نذراً، الأمر لا يستحق سؤالهم عن وجهتهم، ليس مهماً أن يكون اسمهم بدرو أورثى ليكون لديهم التفكير نفسه ولا الرغبة نفسها ليروا مرور جبل طارق عن بُعد بعد انفصاليه، يكفى أنهم إسبان، ومن هؤلاء يوجد هنا الكثير. قادمون من قرطبة، من ليناريس، ومن خايين، ومن جواديكس، مدن رئيسية، وأيضاً من إيجيرا دي أرخونا، من التوكون، ومن بولار باخو، ومن خيسوس ديل مونتي، والمائيجاس، ويبدو أن جميع الأنحاء أرسلت ممثلين لها، أبدى هؤلاء صبراً كبيراً، إذا كان جبل طارق لن يكون لنا، فليذهب إلى البحر، حتى لا يكون للإنجليز. كان البحر البشري واسعاً مما دفع بوليس المرور إلى فتح ممر ثالث يهبط في المكان الذي يستطيعه، قليلون

من يتوجهون شمالاً، فقط لأسباب قاهرة، موت أو مرض، وحتى في حالتهم هذه ينظرون إليهم بتشكك، واشتباه، في أن لهم ميولاً إنجليزية، أو ربما يريدون إخفاء آلامهم لهذا الانشقاق الجغرافي والإستراتيجي.

لكن ذلك اليوم، كان بالنسبة للعامة، عيداً كبيراً، أسبوعاً مقدساً كالأسبوع المقدس الآخر، وكانت هناك حافلات تحمل تمثال المسيح، وعذراء تريانا، ومكارينا، وفرق موسيقية، تلمع آلاتها النحاسية تحت الشمس، وعلى ظهور الحمير فتيان يرتدون ملابس الرقص والألعاب النارية، لو اقترب منهم أحد يعود كبريت لانفجروا مثل كالفينيو، وطاروا إلى الطبقة الثانية أو الثالثة للهواء والنار، حيث تشيط لحية سانشو، نعم، نتيجة ثقته العالية بنفسه، وقبوله السخرية منه مرة أخرى. الفتيات يرتدين أفضل ما لديهن من فساتين وناضرات الوجوه، وبمناديل وشيلان، والشيوخ، عندما لا يستطيعون السير، يحملهم الشباب، ابن أنت اليوم، وغداً تصبح أباً، وما تفعله الآن سيفعلونه معك، تستمر المسيرة بأية طريقة، ويخف الجسد المتعب، الجميع في الطريق إلى الساحل، والشواطئ، والأفضل باتجاه أعلى المناطق المطلّة على البحر، حتى يمكن رؤية الصخرة الملعونة كاملة، مؤسف ألا يمكن سماع صراخ القروء لبعد المسافة، مشوشة لفقدانها رؤية الأرض.

كلما اقترب البحر، يصبح المرور أكثر صعوبة، فهناك من يغادر السيارة ويواصل الطريق على الأقدام، أو يطلب مكاناً من الذين يذهبون في عربة تجرها البغال

و على ظهر حمار، لأن هؤلاء لا يستطيعون ترك الحيوانات على طبيعتها، لأنها تحتاج إلى الرعاية، إرواء عطشها، تقريب القش والخروب من مخاطمها، وحتى رجال البوليس أنفسهم يتفهمون الوضع، فهم من أصول ريفية، وأوامرهم أن تبقى الشاحنات والسيارات على جانبي الطريق، ويمكن للحيوانات أن تواصل السير، ومسموح للدراجات النارية أيضاً، والدراجات الهوائية، والفسبات، والناقلات الخفيفة، وهى أدوات انتقال صغيرة الحجم تم اختراعها تحت إلحاح الحاجة. وفرق الموسيقى تسير على أقدامها، تُجرى بروفاتها على أولى مقطوعات الموسيقى الشعبية، موسيقى راقصة أكثر سرعة، أو موسيقى لوطنى متعظم يضرب على الطبل، لكن زملاءه أوقفوه عند حده، لأنهم لم يكونوا على استعداد لحرق عملهم دون مبرر. توقفت ذات الحصانين أيضاً، لقد كانت السيارة البرتغالية الوحيدة فى هذا الحفل، أى، اللوحة المعدنية البرتغالية، إن رؤية جبل طارق تائها فى البحر شيء لا يهمهم؛ لأن المهم التاريخى اسمه أوليفنسا، وهذا الطريق لا يؤدى إليها، هناك أناس تائهن، ونساء تبحثن عن أزواجهن، وأطفال يبحثون عن آبائهم، لكنهم جميعاً، لحسن الحظ، يلتقون فى النهاية، إذا لم يكن هذا اليوم مثيراً للسخرية، فإنه لا بد أن يكون مثيراً للدموع، سواء أراد الله أم أراد ابنه الطفل. وتسير أيضاً هناك كلاب تتشم، وقليل منها التى تنبح، هذا إذا لم يتعارك بعضها مع البعض

الآخر، ومن ثيربيرى، ولا كلب. وهناك حماران يبدو
أنهما طليقان، بلا صاحب بالقرب منهما، وانتهاز بدرو
أورثى وجواكيم زازا وجوزيه أنايسو الفرصة، وتبادلوا
عليهما، أحدهم يسير على قدميه والآخران يركبان،
لكن تلك الراحة لم تستمر معهم طويلاً؛ لأن الخمارين
كانا لجماعة من الفجر ذاهبين باتجاه الشمال، وجبل
طارق لا يهتمهم فى شيء، ولولا أن بدرو أورثى كان
إسبانياً، كان من الممكن أن يسيل الدم البرتغالى.

المخيم بطول الشاطئ لا نهاية له، إنه مهرجان
شعبى، آلاف وآلاف من البشر عيونهم مفروسة فى
البحر، وهناك من يصعد على الأسطح وفوق الأشجار
العالية، هذا لأننا لم نتحدث عن الآلاف الأخرى للذين
لم يرغبوا فى الاقتراب كثيراً، وبقوا، ينظرون عبر
المناظير والتليسكوبات، فى أعالي جبال كنتريبيفسا أو
على سفوح جبال سييرا نيفادا، نحن يهمنا فقط
الأشخاص الأكثر بساطة، الذين يلمسون الأشياء
للتعرف عليها، وهؤلاء ما كان يمكنهم الاقتراب أكثر
من ذلك، لكنهم فعلوا ما استطاعوا. جاء معهم جوزيه
أنايسو وجواكيم زازا وبدرو أورثى، بحب بدرو أورثى
الجارف والود الواضح للآخرين، يجلسون الآن على
الأحجار المظلة على البحر، يخيم المساء، وجواكيم زازا
هو من يقول، بشؤم كما اعترف، "ولو مر جبل طارق
فى الليل، ستصبح رحلتنا بلا فائدة"، رد بدرو أورثى،
"على الأقل سنرى الأضواء، وأعتقد أنه سيكون أجمل،
رؤية الصخرة تبتعد كسفينة مضاءة، حينها، نعم، يمكن

إطلاق الألعاب النارية لاستكمال المهرجان، بمطار، ودوائر، أو كما يسمونها هناك، فيما تختفى الصخرة في البعيد، تفرق في الليل المظلم، وداعاً، وداعاً لن أعود لرؤيتك مرة أخرى". لكن جوزيه أنابسو فتح الخارطة على ركبتيه، وضع بضع نقاط بالقلم الرصاص والورق، وكررها واحدة بعد الأخرى كنوع من التأكيد، وعاد للتأكد من مقياس رسم الخارطة، قارن العلاقة بين الرسم والواقع، وأخيراً قال، "جبل طارق، يا أصدقائي، لن يمر من هنا قبل عشرة أيام"، كانت مفاجأة غير قابلة للتصديق من جانب الرفاق، حينئذ قدم لهم العملية الحسابية، ولم يكن حتى في حاجة لتذكيرهم بقدرته كمعلم رسمي، إن علوماً كهذه، لحسن الحظ، في متناول كل من يفهم في الأرقام، "لو كانت شبه الجزيرة، أو الجزيرة، تسير بسرعة سبعمائة وخمسين متراً في الساعة، فإنها تقطع ثمانية عشر كيلومتراً يومياً، والآن، من رصيف الجزيرة الخضراء إلى هنا حيث نوجد، في خط مستقيم، المسافة مائتا كيلومتر تقريباً، أجروا عملية حسابية، وهو أمر سهل"، أمام تلك الحقيقة التي لا تقبل الشك، هز بدرو أورثي رأسه معلناً هزيمته، "ونحن جئنا إلى هنا، وجاء كل هؤلاء الناس؛ لأنهم اعتقدوا أن يوم المجد قد جاء، سنسخر اليوم من الصخرة الشريرة، والآن علينا أن نظل في الانتظار عشرة أيام، لا يوجد أي حريق يمكنه أن يبقى طوال هذه المدة". عرض عندها جواكيم زازا، "ماذا لو ذهبنا

للقاء الصخرة عبر الطريق الساحلى؟"، أجابه بدرو أورثى "لا، لا إنه أمر لا يستحق، تلك الأشياء تتطلب أن تجرى فى لحظتها المناسبة، حتى لا تقلل من الحماس، إنها الساعة الآن التى كان يجب أن يكون ماراً أمام أعيننا، الآن لحظة الحماس المتفجر، لقد كنا، لا، نحن مازلنا فى تلك اللحظة"، سأل جوزيه أنيسو، "إذا ماذا سنفعل الآن؟"، "هيا بنا، لن نبقى، لأنه بعد الحلم لا يمكن أن نعيش الحلم"، إذا متفقون، "نعود غداً"، "هكذا بسرعة"، يجب أن أعود إلى المدرسة، "وأنا إلى المكتب"، "وأنا إلى الصيدلية"، دائماً.

ذهبوا للبحث عن ذات الحصانين، لكن فيما كانوا يبحثون ويمر الوقت من المهم القول إن آلاف الأشخاص الذين لا يؤثرون فى هذه الحكاية، ولا حتى يمكنهم أن يكونوا ولو مجرد كومبارس فى خلفيتها، آلاف الأشخاص لن يتحركوا من هناك طوال تلك الأيام العشرة والليالى العشرة، سيأكلون مما فى حقائبهم، وبعدها عندما ينتهى اليوم الثانى سينتهى الغذاء، سيبحثون عن طعامهم مما تجود به تلك الأرض، سيطبخونه فى الهواء الطلق، على نيران كبيرة، كانت كالمناورات فى حقبة سابقة، وأولئك الذين تنتهى نقودهم لن يشعروا بالجوع، حيث يأكل واحد يمكن أن يأكل الجميع، نحن فى زمن الأخوة المطلوبة، إذا كانت ممكنة إنسانياً، يمكنها أن تصبح كذلك. فإن تلك الأخوة الرائعة لن يعيشها بدرو أورثى، ولا جوزيه

أنابيسو، ولا جواكيم زازا، أداروا ظهورهم للبحر، لقد حان وقت النظر إليهم بريبة من أولئك، الكثيرين، الذين يواصلون الهبوط باتجاه البحر.

فيما هبط الليل، وبدأت تشتعل أول الأضواء، قال جوزيه أنابيسو، "هيا"، جلس بدرو أورثي في المقعد الخلفي صامتاً، حزيناً، وبعينين مغلقتين، "إما الآن أو أبداً"، من الأفضل ألا نتذكر المثل البرتغالي، "إلى أين؟"، "ذهبي إلى الحفل"، حتى دون مساعدة علامات التعجب يمكن رؤية الفارق بين سعادة انتظار الإجابة الأولى وتعاسة تعب الإجابة الثانية، فقط تظهرا على قدر المساواة في الصفحة التي تكتبان فيها، "يمكنكما تناول العشاء معي؟"، خرجت تلك الكلمات من فم بدرو أورثي، إنه واجبه كمضيف، لم يعتقد جواكيم زازا وجوزيه أنابيسو أنهما في حاجة إلى الإجابة، هناك من يقول إن هذا سوء أدب، لكن من يقول هذا لا يعرف الكثير عن ذلك الذي يسمونه الطبيعة الإنسانية، آخر أكثر اطلاعاً سيقسم إن هؤلاء الرجال الثلاثة صاروا أصدقاء. عندما دخلوا أورثي كان الليل معتماً. الشوارع في تلك الساعة خالية تماماً، أوقفوا ذات الحصانين أمام باب الصيدلية، حسناً لقد تركوها تستريح، ستعود غداً إلى الطريق محملة بالرجال الثلاثة، طبقاً لما يقررونه داخل البيت، حول المائدة، أمام طعام بسيط في الأطباق، ولأن بدرو أورثي يعيش وحيداً، لم يكن هناك وقت لطعام أفضل. فتحوا التلفزيون، إنهم يقدمون الآن نشرة الأخبار كل ساعة،

شاهدوا جبل طارق، ليس فقط منفصلاً عن إسبانيا، بل بعيداً عنها بعدة كيلومترات، كجزيرة تحت رحمة الماء، لقد تحول، مسكين، يبدو كرأس خبز السكر، أو أشبه برصيف، بمدافعه الألف التي لا هدف لها ولا نفع. يمكنهم محاولة فتح ممرات من الجانب الشمالي، ربما يتم بذلك رآب صدع المجد الإمبراطوري، لكنه سيصبح بلا طائل، سواء كان خاصاً أم متشابهاً. كانت الصور مدهشة، ولا شك، لكنها لا تساوى شيئاً إزاء الانفعال الذى تركته مجموعة الصور التى التقطها القمر الصناعى، والتى تبين تطور الصدع بين شبه الجزيرة وفرنسا، يقشعر لها البدن ويقف لها شعر الرأس، إنها أكبر من قدرة الإنسان على التحمل، فذلك الصدع لم يعد قناة بل مياهاً مفتوحة، تبحر فيها السفن على هواها، فى بحار، هذا نعم، لم تكن تبحر هناك من قبل، بالطبع فإن حركة الإبحار لا يمكن ملاحظتها، لقد أصبحت السرعة فى هذا الوقت سبعمائة وخمسين متراً فى الساعة، وإن كانت غير ملحوظة بالعين المجردة، لكن، بالنسبة للمراقب، كما لو كانت قطعة حجر كبيرة تبحر فى رأسه، كان هناك أناس على وشك الإغماء. آخرون يشكون من الدوار. وكانت هناك صور ملتقطة من على طائرة الهليكوبتر التى لا تهدأ، تظهر الهوة البرانسية، منشطة كالرصااص، والتدافع الكبير للناس الذين يتجهون جنوباً، كهجرة فجائية، فقط لرؤية جبل طارق متجهاً إلى مياه الجنوب، خداع بصرى، نحن نعم نسير

تحت تأثير التيار، وأيضاً، هناك لقطة مقربة، يحدد فيها التحقيق التليفزيونى، سرياً من الزراير، بالآلاف، كسحابة دخلت مجال الرؤية، فاسودت السماء، "حتى الطيور تدخل فى قلق الإنسان"، هذا ما قاله المذيع، فيما يتم تعلمه فى التاريخ الطبيعى أن للطيور أسبابها الخاصة لتذهب إلى حيث تريد أو حيث تحتاج. إنها لا تتبع أحداً، لا أنا ولا أنت، جوزيه الجاحد، يقول، "لقد نسيتهم".

بثوا أيضاً صوراً من البرتغال، من الشاطئ الأطلنطى، والأمواج ترتطم بالصخور وتثير الرمال، وكان هناك أناس كثيرون ينظرون إلى الأفق، بتلك الهيئة المأساوية التى تبدو على من استعدوا منذ قرون لمواجهة المجهول ويخشون فى النهاية ألا يأتى، أو أن ما يأتى قد يكون عادياً ولا قيمة له مثل ما يأتى فى كل ساعة، إنهم هكذا، كما قال أونامونو، "الوجه الذى لوحته الشمس بين الكفين، والعينان مغروستان فقط على المكان الذى تنام فيه الشمس فى البحر الواسع، كل الشعوب التى يقع البحر غربها تفعل الشيء نفسه، هذا الشعب أسمر، ولا فارق آخر، سوى أنه أبحر". وبشكل خطابى هتف المذيع الإسبانى، "انظروا إلى البرتغاليين، بطول شواطئهم الذهبية، من كانوا بحارة أوروبا تخلوا عن كينونتهم؛ لأننا نبتعد عن الرصيف الأوروبى، لكننا ننفرس من جديد فى أمواج الأطلنطى، أى قائد بحرى يقودنا، وأى ميناء ينتظرنا؟"، وآخر صورة تبين صبياً صغير السن يقذف حجراً إلى

البحر، بذلك الفن الذى يلمس فيه الحجر سطح الماء ويقفز ثانية، والذى ليس فى حاجة إلى التعلم، وقال جواكيم زازا، "له قوة توازى عمره، لا يمكن لحجر أن يذهب أبعد من ذلك"، لكن شبه الجزيرة، أو سمها ما شئت، بدت كأنها تتقدم بقوة أكثر إلى البحر العميق، أمر غير معتاد فى مثل هذا الفصل". آخر خبر ذكره المذيع بشكل عابر، دون أن يعيره أى اهتمام، يبدو أن شعوراً بالقلق يسرى بين الناس، خرج كثيرون من بيوتهم، ليس فى الأندلس فقط، فهناك السبب معروف، إذا أخذنا فى الاعتبار أن معظمهم يتجه نحو البحر، ويُعتقد أنها حركة مفهومة بدافع الفضول، على أية حال نحن نؤكد لمشاهدى التليفزيون أنه لا يوجد على الشاطئ ما يستحق المشاهدة، كما شاهدتم بأنفسكم قبل قليل ما يفعل البرتغاليون، ينظرون جميعاً ولا يرون شيئاً، فلا نفعل مثلهم". حينها قال بدرو أورثى، "لو لى مكان بينكم، سأذهب معكم". بقى جواكيم زازا وجوزيه أنايسو صامتين، لم يفهما سبب أن يريد شخص إسباني الذهاب إلى أراضى وشواطئ البرتغال بعد النصيحة التى سمعها. السؤال جيد وملائم، وبما أن جواكيم زازا هو صاحب ذات الحصانين كان عليه أن يطرح هذا السؤال، وأجاب بدرو أورثى، "لا أريد أن أبقى هنا، على هذه الأرض التى تهتز دائماً تحت قدمى فيما يقول الناس إنها خيالات لا توجد إلا فى رأسى"، "من المؤكد أنك ستشعر بالشئ نفسه فى البرتغال، وسيقول الناس

نفس الشيء"، قال جوزيه أناييسو، "ونحن لدينا مشاغلنا"، "لن أكون عبئاً عليكم، يكفي أن تأخذاني وتتركاني في لشبونة، التي لم أذهب إليها مطلقاً، وسأعود في أي يوم آخر"، "وعائلتك، والصيدلية؟"، "العائلة لقد شاهدت ما إنني لا عائلة لدى، أنا الأخير فيها، أما مسألة الصيدلية، فلدي مساعد يمكنه أن يهتم بأمورها". لم يكن هناك ما يمكن مناقشته أكثر من ذلك، ولم يعد هناك سبب للرفض. "نحن يسعدنا أن ترافقنا"، قال هذا جواكيم زازا، "السين هو أنهم سيكتشفون وجودك على الحدود"، ذكره جوزيه أناييسو، "سأقول لهم إنني كنت في جولة في إسبانيا، ولا أعرف أنهم كانوا يبحثون عني، وإنني سأسلم نفسي للحاكم المدني، ولكن من المؤكد أنني لن أكون في حاجة إلى شرح أي شيء، ربما كانوا منتبهين لمن يخرج أكثر من انتباههم لمن يدخل"، قال جوزيه أناييسو، "يجب أن نمر من معبر حدودي آخر، بسبب الزراير"، وما إن قال هذا حتى فتح الخارطة على المائدة، كل شبه الجزيرة الأيبيرية مرسومة وملونة منذ الزمن الذي كانت فيه الأرض ثابتة، وجبال البرانس تمنعها من القيام بأية حركة صعلكة، بقي الثلاثة ينظرون في صمت إلى هذا المسطح من العالم كما لو كانوا لا يعرفونه، "كان إسترابون قد قال إن شبه الجزيرة لها شكل جلد ثور"، همهم بدرو أورثي بتلك الكلمات، ورغم هذه الليلة الحارة، شعر جواكيم زازا وجوزيه أناييسو برعشة، كما لو كانا يشاهدان أمامهما الحيوان

الخرافى الذى سيُذبح ويُسلخ ليُضاف إلى القارة الأوروبية، وقد أصبح مجرد نفاية يجب أن تنزف طوال جميع الأزمنة.

الخارطة المفرودة تبين الوطنين: البرتغال وإسبانيا. البرتغال مرصع، ومعلق، وإسبانيا مائلة باتجاه الجنوب، والأقاليم والمحافظات، والمناطق، وكذلك الحصى الكبير للمدن الكبرى، والتراب للوديان والقرى، لكن ليس جميعها، فى كثير من الأحيان لا يبدو التراب أمام العين المجردة، وكانت لافتنا ميثينا مثلاً واحداً على ذلك. تفرد الأيدى الورق وتمر عليه، تمر على ألينتيخو، وتواصل باتجاه الشمال، كما لو كانت تداعب وجهاً، من اليسار إلى اليمين، باتجاه دوران عقرب الساعة، ومسير الزمن. لاس بيرياس، وريباتيخو قبلها جميعاً، جاليثيا، أستورياس، بلاد الباسك، ونافرا، كاستيا وليون، أراجون، كتالونيا، فالنسيا، واكستريمادورا، من جانبنا ومن جانبهم، الأندلس، التى لا نزال نوجد فيها، والغربى، حينئذ وضع جوزيه أنايسو أصبعه على مصب نهر الجواديانا وقال، "تدخل من هنا".



- ٧ -

بعد محنة إطلاق الرصاص على الزراير في
معبر الروسال الحدودي، وبفضل الذاكرة الدموية،
كانت هذه المرة أكثر حذراً، فقد طارت في دورة كبيرة
باتجاه الشمال، وعبرت الحدود في المناطق الخالية،
والتي كان المرور من خلالها مفتوحاً، على بعد حوالي
ثلاثة كيلومترات من الجسر، الذي بنوه في هذه الأيام
التي نتحدث عنها، وأخيراً حانت الساعة، ولم يلفت
نظر البوليس على الجانب البرتغالي أن أحد
المسافرين اسمه جواكيم زازا، وبدا واضحاً أن لديهم
مشاغل أهم تستحوذ على روحهم السلطوية، تُرى ما
هي تلك المشاغل؟ سنعرف هذا من الحوار، سأل رجل
البوليس، "إلى أين تتجهون؟"، أجابه جوزيه أنايسو،
الذي كان أمام عجلة القيادة، "إلى لشبونة، لماذا؟"،
"ستجدون في طريقكم حواجز، نفذوا التعليمات التي

تتلقونها حرفياً، لا تتعجلوا السير أو تستديروا إلى الخلف، لأنه من الممكن أن يكلفكم ذلك غالياً، "هل حدث شيء سيئ؟ نرجو ألا يكون إقليم الغربى قد تركنا وذهب"، "قد يحدث هذا فى أى وقت"، "لقد فكروا دائماً أنهم مملكة مستقلة"، "لا، الحكاية شيء آخر، وأكثر خطورة، الناس تريد احتلال الفنادق، يقولون بما أنه لا يوجد سياح، فهم يريدون السكن فى أى مكان"، "لم نكن نعرف هذا، ومتى بدأ الاحتلال؟"، "أمس ليلاً". "هو ذا"، صرخ جوزيه أنابيسو، لو كان فرنسياً لقال، "هذا هو"، فكل إنسان لديه طريقته فى التعبير عن الدهشة التى يشعر بها الآخر أيضاً، لنسمع ما قاله بدرو أورثى بصوت زاعق، "عجيباً"، بينما بدت هذه الكلمة لجواكيم زازا مجرد صدى للتعبير الأول، "هو ذا".

أمرهم رجل البوليس بمواصلة المسير، وقال مجدداً، "احذروا الحواجز"، وتمكنت ذات الحصانين من عبور فيلا دى السانتو أنطونيو فيما كانت الطيور تُعلق على الحدث المدهش، ها أنتم ترون، من كان يصدق هذا، البرتغاليون نوعان مختلفان، بعضهم يذهبون إلى الشواطئ والجروف ليراقبوا الأفق الكئيب، وآخرون يتقدمون بجسارة لاحتلال القلاع الفندقية المحصنة بالبوليس، والحرس الجمهورى، وأيضاً، طبقاً لما هو مؤكد، محمية بالجيش نفسه، "لقد كان هناك جرحى"، عرفوا هذا فى مقهى قرروا التوقف فيه للاطلاع على المعلومات. عرفوا أن الوضع

خطير فى ثلاثة فنادق، أحدها فى البوفيرا، والآخر فى برايا دى روتشا، والثالث فى لاجوس، إلى درجة أن قوات حفظ النظام حاصرت المباني الثلاثة، التى تحصن فيها الدخلاء، وتمترسوا وراء الأبواب والشبابيك، وقطعوا المداخل، تماماً كالمسلمين المحاصرين، كالكفرة يلعنون الخنزير بلا ذنب، ولا يعيرون اهتماماً للنداءات ولا للتهديدات، يعرفون أن الغاز المسيل للدموع يتخفى وراء الراية البيضاء، لهذا لا يتحاورون، ولا يعرفون كلمة الاستسلام. كان بدرو أورثى مندهشاً، يكرر بصوت خفيض، "عجباً"، ويبدو على وجهه نوع من الكبرياء الوطنية، والحزن لأن الإسبان لم يكونوا هم من تولوا المبادأة.

حاولوا فى أول حاجز أن يحولوهم باتجاه كاسترو ماريم، لكن جوزيه أنايسو احتج قائلاً إن لديه صفقة تجارية مهمة فى سيلفيس ولا يمكن تأجيلها، ذكر سيلفيس حتى لا يثير الشبهات، "إضافة إلى أنه من الأفضل لى المرور عبر الطريق الداخلى"، أشار عليه رجل البوليس المسئول، "عليك بالطرق الأكثر إيفالاً لتفادى أى تعقيدات"، اطمأن إليهم بسبب الهيئة المسالمة للمسافرين الثلاثة واحتراماً لتعب ذات الحصانين، "لكن، أيها الضابط، هذا غير مقبول فى حالة مثل هذه، والبوليس فى حالة فوضى"، كانت تلك الكلمة الأخيرة فى غير محلها، "ونحن هنا مشغولون باحتلال بعض الفنادق، إن هذه ليست ثورة تستحق الطوارئ العامة، أحياناً ما تكون الجفاهير قليلة

الصبر، لا أكثر"، كان هذا التعليق من جانب جواكيم زازا، قليل الدبلوماسية، من حسن الحظ أن الملازم كان من ذلك النوع الذى لا يحيد عن كلمة قالها، طبقاً للتقاليد القديمة، لولا هذا لأجبره على الذهاب عبر كاسترو ماريم. مع ذلك، لم يسلم من الزجر العسكرى، "الجيش هنا تأدية لواجبه، هل تعتقد أنه شئ طيب أن نحتل الشيراتون أو الريتز بسبب سوء الأحوال المعيشية فى المعسكرات"، ربما كان تخبط هذا الضابط كبيراً حتى يضطر إلى تقديم إيضاحات لمواطن عادى. "حضرتك محق، سيدى الملازم، صديقى هكذا، يتكلم دون تفكير، رغم تحذيرى له"، "إذاً عليه أن يفكر، فهو كامل الأهلية"، أنهى العسكرى كلامه بشكل حازم. وبإشارة جافة سمح لهم بالمرور، لحسن الحظ لم يسمع ما قاله جواكيم زازا، وإلا انتهى الوضع بهم إلى السجن.

أوقفوهم أمام حاجز آخر، رجال الحرس الجمهورى كانوا أقل أريحية، فكان عليهم أن يسلكوا طرقاتاً ترابية حتى يعودوا من جديد إلى الطريق العام. كان جواكيم زازا غاضباً، ولديه أسبابه، فقد زُجر مرتين، "أنا أتقبل أن يقوم الملازم بادعاء الحزم، فهذا عمله، لكن أنت ليس لك أن تقول إننى لا أفكر فيما أقول"، "معدرة، كنت أحاول تجنب استمرار الجدل، كنت تسخر من الملازم وهذا خطأ، لا يجب أبداً أن تسخر من السلطات، إذا لم يفهموا السخرية، فمن الأفضل ألا تفعل، وإذا فهموها، فهو أسوأ"، طلب بدرو

أورثي شرحاً، متأنياً، لما حدث، وبتغيير نفمة الصوت وتكرار ما حدث تبين أن القضية كلها لم يكن لها أية أهمية، عندما فهم بدرو أورثي كل شيء، فقد تم فهم كل شيء.

بعد مفترق طرق بوليكي، في جزء من طريق خال، انتهز جوزيه أنايسو جانباً منبسطاً، وأطلق العنان لذات الحصانين، قاطعاً الطريق، صرخ جواكيم زازا، "إلى أين أنت ذاهب؟"، "لو تابعنا الطريق كالأطفال المطيعين لن نقرب أبداً من أى فندق، ونحن نريد أن نرى ما الذى يحدث هناك، وإلا"، أجاب جوزيه أنايسو فى قفزات، وهو يحاول السيطرة على عجلة القيادة، فيما كانت السيارة تقفز على الأرض المحروثة كالمجنونة، وكان بدرو أورثي فى المقعد الخلفى يقفز من جانب إلى آخر بلا رحمة، وجواكيم زازا الذى يضحك مقهقهة، يكرر بصوت متقطع، "جميل، جميل"، من حسن الحظ أنه على بعد ثلاثمائة متر عثروا على طريق مختبئ بين أشجار التين، خلف جدار متهدم، متفرقة أحجاره أو تآكلت بفعل الزمن، كانوا، بمعنى أو بآخر، فى مسرح العمليات، اقتربوا من البوفيرا بكل حذر، كلما أمكنهم ذلك مستغلين الطرق المنخفضة، أسوأ ما فى الأمر كانت السحب الترابية التى تثيرها ذات الحصانين، فقد كانت تبدو عديمة الخبرة للعب دور الطليعة الاستكشافية، لكن البوليس كان بعيداً، يغطى التقاطعات، ومفترق الطرق الرئيسية المتعددة، إضافة إلى أن قوات حفظ النظام

لم تكن بالعدد الكافى لتغطية جميع النقاط الإستراتيجية فى مقاطعة ثرية بالفنادق كثرائها بأشجار الخروب، لو كان هناك مجال للمقارنة. الحقيقة أنه لو أخذنا فى الاعتبار أن المدينة المقبلة هى لشبونة، فلم يكونوا فى حاجة إلى المغامرة فى تلك الطرق التى، تسيطر عليها الفوضى، لكن التأكد من المعلومات كان يستحق كل هذا، كم من المرات التى تم فيها اكتشاف أن القصة المحكية كانت قصة مبالغاً فيها، ربما كان الأمر متعلقاً فقط بحدث منعزل، أو بحدثين، والحواجز، فى النهاية، قد تكون تطبيقاً لنظرية أن الحذر يفترض أن الوقاية أفضل من العلاج. لكن تسربت الأنباء. فى وسط الغابة العارية، كان هناك رجال ونساء يتقدمون على الأرض الحمراء محملين بالأكياس والحقائب والصرر، والأطفال على الأذرع، تحت ضغط فكرة تحديد أماكن تواجدهم فى الفندق، بهذه الممتلكات المتواضعة وضمانة الأقارب من العائلة، الزوجة، والأبناء، بعد ذلك لو سار كل شىء بالشكل الصحيح، يرسلون فى طلب بقية الأقارب، ونظراً لنقص الممتلكات الثرية، لم يفكر أحد أن الفنادق تكثر فيها الأسر والطاولات، ولو أن الصناديق ليست بالعدد الكافى، فهناك الدواليب التى تحل محلها بشكل كاف.

كان الإعداد للمعركة يجرى على أبواب البوفيرا. ترك المسافرون ذات الحصانين فى المؤخرة، فى حماية الظلال، لأنه فى مثل هذه الحالات لا يمكن طلب

مساعدتها، هذه ميكانيكية، لا انفعالات لها، تذهب حيث يوجهونها وتبقى حيث يتركونها، لا يهملها أن تبهر شبه الجزيرة أم لا. لن تصبح المسافات أقل لأنها تتحرك، سبق المعركة مقدمة كلامية، تماماً كما كان يحدث في الماضي، في الحروب القديمة، بالتحديات، وإثارة حماس الجنود، والصلاة للعداء أو للقديس يعقوب، الكلمات جميلة دائماً عند البدء، ومشئومة نتائجها، في البوفيرا لم يفلح الخطاب الذي ألقاه رئيس الجماعات الشعبية الغازية، رغم حرارته، أيها الحراس والجنود، أيها الأصدقاء، افتحوا آذانكم، وانتبهوا إلى، أنتم، لا يجب أن تنسوا، أنكم أبناء الشعب مثلنا، هذا الشعب الذي ضحى كثيراً عند إقامة هذه الأشياء لكنه لا يملكها، يبني فنادق ولا يكسب ما يكفيه ليسكنها، جئنا إلى هنا مع أبنائنا وزوجاتنا، ولكننا لم نأت طلباً للجنة، فقط نريد سقفاً كريماً، سقفاً أكثر أمناً، غرفاً ننام فيها بالاحترام والاحتشام الذي يجب أن يُعامل به الإنسان، نحن لسنا حيوانات، ولا ماكينات، لدينا أحاسيس، والآن حسناً، هذه الفنادق فارغة الآن، مئات من الغرف، آلاف، أقاموا فنادق للسياح والسياح ذهبوا، ولن يعودوا، فيما كانوا هنا نحن تقبلنا وضعنا السيئ، والآن من فضلكم، دعونا ندخل، سندفع إيجاراً مساوياً لما كنا ندفعه في البيت الذي كنا نسكنه، لن يكون عدلاً أن تطلبوا منا أكثر من ذلك، ونقسم، بما هو مقدس وما هو ليس كذلك، إنه سيظل دائماً نظيفاً ومنسقاً، من أجل هذا

لن نعدم إطلاقاً نساء كزوجاتنا ولا حتى يصلوا إلى مستوى نعال أحذيتهن، أعرف هذا جيداً، الحق في جانبكم، يوجد أطفال، والأطفال يدمرون كل شيء، لكن هؤلاء سيكونون كماء الذهب، ماذا؟ كيف نعرف؟ في كل غرفة حمام، ودش ومغطس، وماء ساخن وبارد حسب الحاجة، وهكذا فإن النظافة لن تكلف كثيراً، وإن كان من الممكن أن يكون هناك بعض ابنائنا قد اعتادوا على القذارة، وأنهم لن يعتادوا على النظافة، أبناءهم أعدكم بأنهم سيكونون أنظف المخلوقات في العالم، القضية هي أن نمنحهم الوقت، هذا هو كل ما يحتاجونه، الوقت، ولديهم الوقت بما فيه الكفاية، والباقي لن يحتاج إلى أكثر من الحلم، هذا ما لم ينتظره أحد، أن يكون رئيسنا فيلسوفاً.

يمكن التكهن من ملامح الوجوه، ويمكن التأكد من ذلك من خلال بطاقات الهوية، أن الجنود حقيقة من أبناء الشعب، لكن قائدهم المتفطرس، إما أن يكون كذلك، وترك أصوله المتواضعة على مقاعد الدراسة في الأكاديمية العسكرية، أو ينتمى بالولادة إلى الطبقات العليا، والذين أقيمت فنادق الغري من أجلهم، من خلال إجابته قد لا نعرف أكثر من ذلك، "اخرجوا جميعاً وإلا أخرجتكم بضربكم على مؤخراتكم" هذا اللفظ يؤكد أن الكلام الرديء ليس حكراً على الطبقات الدنيا، الجنود يرون فيه، في البلدية، الأب العزيز والأم العزيزة، لكن الواجب، عندما ينادينا، فهو الأقوى، تقول الأم للابن الذي

يوشك على ضربها، "أنت نور عيني". لكن القائد المواطن صرخ بغضب، مغيّراً لهجة القنوط، "عصابة من لاحسى المؤخرات، خدم، من لا يعرفون ثدى الأم الذى أروضهم"، الحرية الشاعرية، اتهامات لا معنى لها، لها هدف محبط، فليس هناك ابن أو ابنه لديه هذه الذكرى، رغم وجود الكثير من السلطات، التى تؤكد أنه فى أعماق وعينا، نحفظ بتلك الذكرى فى سرية أو ذاكرة أخرى مرتعبة، وأن حياتنا، كلها، مبنية على هذا وعلى أشياء أخرى مرعبة.

لم يعجب قائد الجنود أن ينعتوه بلاعق المؤخرات، فصرخ، "إلى الأمام"، بينما كان يصدر أوامره، بجنون، فإن زعيم الغزاة صرخ أيضاً، "هيا إليهم، أيها المواطنون"، وتواجهوا جميعاً فى وقت واحد، جسداً لجسد، وبدأت معركة رهيبة، فى تلك اللحظة وصل جواكيم زازا وجوزيه أنايسو وبدرو أورثى، بفضول وبراءة، ووجدوا أنفسهم فى المعركة، الجنود فى حمى المعركة لم يفرقوا بين الممثلين والمتفرجين، يمكن القول إن الأصدقاء الثلاثة، ودون أن يعرفوا غرفهم، قرروا النضال فى سبيلها، رغم تقدم عمر بدرو أورثى، كافع كما لو كانت هذه بلاده، والآخرون فعلاً ما استطاعوا على أكمل وجه، وربما أقل مما يجب؛ نظراً لانتمائهما إلى جنس مسالم. كان هناك جرحى يزحفون أو يحملونهم إلى جانبى الطريق، نساء باكيات، تلعن، وأطفال يحتمون بالعربات، معارك مثل هذه كانت تجرى فى القرون الوسطى لذا يجب وصفها بأوصاف

ذلك الزمن. حجر مقذوف من بعيد ألقاه صبي اسمه "داوود" طرح الضابط "جوليات" أرضاً، الذي بدأ ينزف دماً من طرف ذقنه، لم يتمكن من حمايته بخوذته الحديدية، كان هذا نتيجة تخليه عن استخدام الخوذة والدرع، الأسوأ كان، خلال فوضى السقطه، هجم الغزاة على الجنود، مروراً من جانب إلى آخر ثم انطلقوا جرياً، في حركة تكتيكية عفوية لكنها عبقرية، وتفرقوا بين الحواري والممرات، فمنعوا العسكريين الذين يحاصرون الفندق المحتل، من تقديم العون للكتيبة المهزومة، لا يذكر أحد هزيمة منكرة مثل تلك منذ قديم الزمان، مدير الفندق، لا شك اختل عقله، أو تحول بشكل فجائي إلى جانب المصالح الشعبية، فتح الأبواب على مصراعيها قائلاً، "ادخلوا، ادخلوا، أنتم أفضل من بقائه خالياً".

أمام تلك التسهيلات في الاستسلام، وجد بدرو أورثي وجوزيه أنيسو وجواكيم زازا أنفسهم يحتلون غرفة في الحقيقة لم يناضلوا من أجلها، وتركوها بعد يومين لعائلة من العائلات الأكثر احتياجاً، مكونة من جدة عاجزة، ولديها جرحى ترعاهم. في تلك الفوضى التي لم تحدث من قبل فقد أزواج زوجاتهم، وأبناء فقدوا آباءهم، لكن نتيجة تلك الانقسامات المأساوية، وهو عمل لا يمكن لأحد أن يدعيه، وهو بحد ذاته إثبات مؤكد لجدية الحكاية، أن عائلة واحدة، مقسمة، لكنها مدفوعة بدينامكية كل جزء من أجزائها احتلت أجنحة في فنادق مختلفة، واحتاجت إلى عمل شاق

لجمع أفرادها تحت سقف واحد، قالوا إنهم كانوا فى حاجة إليه، بشكل عام انتهى بهم الحال إلى البقاء فى فندق بنجوم أكثر على لافتته. طلب ضباط البوليس، وقادة الجيش والحرس الجمهورى مزيداً من الدعم، طلبوا من لشبونة عربات مدرعة وتعليمات، والحكومة، دون أن تعرف لمن تتوجه، أصدرت أوامر وأوامر مضادة، هددت واستجدت، وتبين أيضاً أن ثلاثة وزراء استقالوا. فيما كان يحدث هذا، كان يمكن من شوارع البوفيرا وشواطئها رؤية العائلات المنتصرة فى نوافذ الفنادق، والشرفات المفتوحة والمضياء يجلسون إلى موائد الإفطار وعلى حشيات لينة، ورب العائلة يدق أول المسامير ويمد حبلاً سينشر عليها ملابس الأسبوع التى بدأت الأم، مترنمة، فى غسيلها فى المغطس. وحمّات السباحة مزدحمة بالمستحمين والمستلقين تحت الشمس، ولم يشرح أحد للصبية إنه عليهم الدخول تحت الدش قبل إلقاء أنفسهم فى المياه الزرقاء، ليس سهلاً أن ينسى هؤلاء الناس عادات أحيائهم العشوائية.

النماذج السيئة تنمو وتنتشر بشكل أسرع من التعاليم الطيبة، ولا يعرف أحد بأية طريقة سريعة تنتقل، فبعد ساعات قليلة تخطت الحركة الشعبية الحدود، وانتشرت فى إسبانيا، لكم أن تتخيلوا ما حدث فى ماربيا وتوريمولينوس، حيث الفنادق هناك كالمدن، وثلاثة منها يمكن أن تشكل مدينة كبيرة. عندما وصلت تلك الأنباء المزعجة إلى أوروبا، بدأت

تُسمع الصرخات، "إنها الفوضى، اضطراب اجتماعي، اعتداء على الممتلكات الخاصة"، ونشرت إحدى الصحف الفرنسية الواسعة الانتشار التي تساهم في تشكيل الرأي العام، على عرض صفحتها الأولى مانشيتاً غامضاً، "لا يمكن الهروب من الطبع"، هذا الحكم، هو في الحقيقة ليس جديداً، أصاب الهدف، وكان سكان أوروبا عندما يجرى بينهم حديث عما وقع في شبه الجزيرة الأيبيرية، يهزون أكتافهم ويقول بعضهم للبعض الآخر، "ماذا نفعل لهم، هؤلاء الناس هكذا، لا يمكن الهروب من الطبع"، الاستثناء الوحيد في الحكم العام جاء في صحيفة صغيرة ميكافيلية من نابولي حيث أعلنت، "حل أزمة السكن في البرتغال وإسبانيا".

خلال الأيام التي قضاها الأصدقاء الثلاثة في البوفيرا، حاولت شرطة مكافحة الشغب، مدعومة بمجموعة العمليات الخاصة، إخلاء أحد الفنادق بالقوة، لكن ردة الفعل المشترك والمنسق للسكان الجدد وملاك الفنادق، بعد أن قرر هؤلاء المقاومة حتى آخر غرفة، وتخوف أولئك من التدمير المعتاد الذي يخلفه المنقذون من ورائهم، أدّى إلى إلغاء العمليات، وتأجيلها إلى فرصة أخرى، بعد أن يتولى الزمن والوعود تخدير الحراسة. عندما واصل بدرو أورثي وجواكيم زازا وجوزيه أنيسو رحلتهم باتجاه لشبونة، كانت المباني المحتلة قد أنشأت لجاناً من السكان، تم اختيارهم ديمقراطياً، فكونوا خلايا متخصصة، للنظافة

والصيانة، والتنشيط الثقافى، والتعليم والتدريب المدنى، والرياضة، وفى النهاية، استخدام كل المتاح للتنسيق والعمل الجيد الذى تحتاجه أية جماعة. على الساريات الخاصة والمنصوبة عشوائياً كانت ترفرف أعلام ورايات من جميع الألوان، وأى شىء يخدم القضية، أعلام الدول الأجنبية، والنوادر الرياضية، والجمعيات المختلفة، فى ظل الرمز الوطنى، الذى كان يرفرف فى أعلى مكان، وكانت هناك أيضاً حشيات فى النوافذ، كنوع من الزخرفة.

لكن، أية عملية تنظيم غير متناغمة دائماً ما تولّد معارضة، وقيوداً أو اختلافاً، وبتطبيقاتها على هذه الحالة، يمكن القول إنه حتى أفضل الأشياء بالنسبة لجماعة ما ستجد من يرى سلبياتها، فالطريقة البدائية التى تم بها احتلال الفنادق كانت القطرة التى فاضت بالكأس، وكشفت عن القلق الذى يعيشه الأثرياء وأصحاب السلطة، كثير منهم هربوا مع السياح، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى غرق شبه الجزيرة بالحياة والممتلكات التى عليها، هذا لا يعنى بالطبع، أنهم كانوا غرباء فى بلادهم، وإن كانت هناك درجات من الانتماء لدى كل واحد تجاه وطنه الطبيعى والإدارى، كما بين التاريخ مرات عديدة.

والآن، فى ظل الإدانة العامة للأوضاع الاجتماعية، وأكثر من عامة وعالمية لو استثنينا الطريقة التى تعاملت بها تلك الصحيفة الصغيرة التى تصدر من نابولى، فقد بدأت هجرة ثانية، كثيفة، إلى

درجة أصبح مشكوكاً في أنه تم الإعداد لها بشكل مسبق، وظهر للعيان، أن الجراح التي كانت تبدو حتى ذلك الوقت من الممكن شفاؤها في أوروبا، فإن أحداً لم يتخيل أن يكون تركيب شبه الجزيرة قد حطم أكثرها قوة، فالحسابات المصرفية الكبرى تحولت فجأة إلى الحد الأدنى، حافظت على بقايا رمزية، حوالى خمسمائة اسكودو في البرتغال، وفي إسبانيا حوالى خمسمائة بيزيتة، أو أكثر قليلاً من هذا، تصفية الحسابات المصرفية، خلق صعوبات أمام الحسابات المغلقة على مواعيد محددة، وكل شيء آخر، كالذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، والحلى، والأعمال الفنية، والأسهم، كل ذلك ذهب مع الريح التي هبت على سطح البحار، في الاتجاهات الاثني والثلاثين لوردة الرياح، أما الأثاث المنقول للهاربين، فقد بقى على أمل الحصول على ما تبقى منه في يوم من الأيام، هذا إذا كان هناك وقت، وصبر. بالطبع لأن عمليات النقل الكبرى لا يمكن القيام بها في أربع وعشرين ساعة، لكن أسبوعاً واحداً كان كافياً لقلب كل شيء رأساً على عقب، ومن جانب إلى آخر، وبشكل جذرى، لقد تغير التركيب الاجتماعى للبلدين الأيبيريين. أى مراقب في حاجة إلى وقائع وأسباب، ويترك نفسه لينخدع بالظواهر السطحية، سيتوصل إلى نتيجة مفادها أن البرتغاليين والإسبان أصابهم الفقر فجأة، ما بين ساعة وأخرى، وطبقاً للغة الحسابات الخاصة والدقيقة، فإن ما حدث هو أن

الأثرياء ذهبوا، وعندما يغيب هؤلاء يظهر هذا على الفور فى الإحصائيات.

هؤلاء المراقبون الذين يمكنهم رؤية قمة الآلهة والإلهات حيث لا يوجد سوى سحب تمر، أو أولئك الذين يجدون أمام أعينهم جوبتر، ويسمونهم بخاراً فضائياً، لن نتعب أبداً من تذكيرهم أنه لا يكفى الحديث عن الظروف، وانقسامهم الثنائى القطبية ما بين المقدمات والنتائج، إذا لم يبذلوا مجهوداً عقلياً، فهم فى حاجة، نعم، إلى اعتبار أن العصمة من الخطأ توجد ما بين هؤلاء وأولئك، لنقلها حسب الحجم والترتيب؛ فالزمن، والطريقة، لو لم يتم قياس كل منهما وتفحصهما، فإننا سنقع فى خطأ الحكم المسبق. الإنسان كائن ذكى، لا شك فى هذا، ولكن ليس إلى الدرجة المطلوبة، وهذا إثبات واعتراف بالتواضع الذى يجب أن نواجه به أنفسنا أولاً، قبل أن يواجهونا به، تماماً كما هو البرّ بمفهومه الحقيقى.



- ٨ -

وصلوا إلى لشبونة مع هبوط المساء، فى تلك الساعة، التى تصب فيها السماء فى الأرواح رقة حزينة، وسنرى الآن كم كان محقاً ذلك العارف بالأحاسيس والتعبيرات الذى قال إن المشهد الطبيعى حالة من حالات الروح، ما لم يعرف أن يقوله لنا هو كيف كانت تبدو المشاهد فى تلك الأزمنة، التى لم يكن فى العالم ساعتها غير البشر، بأرواح لم تتعلم بعد الإحساس، وإضافة إلى أنها كانت مختلفة. بعد مرور الملايين، وبفضل الاكتمال، يمكن لبندرو أورثى التعرف فى كآبة المدينة الظاهرة على الصورة الحقيقية لحزنه الخاص. باعتياده على هذين البرتغاليين اللذين ذهباً للبحث عنه فى تلك المناطق المهجورة حيث ولد وعاش، والآن عليه أن ينفصل عنهما، كل فى طريقه، حتى العائلات لا يمكنها مقاومة الحاجة إلى الانفصال، فكيف لا يفعلها من تربطهم سوى صلة التعارف،

أصدقاء منذ فترة قصيرة جداً، وعلاقة رقيقة
الجدور.

كانت ذات الحصانين تقطع الجسر ببطء، طبقاً
للحد الأدنى المسموح به للسرعة؛ لتمنح الإسباني وقتاً
لتأمل جمال مناظر الأرض والسماء، وأيضاً لتأمل
العمل الهندسي الرائع الذي يجمع شاطئى النهر، ذلك
البناء، نقول تلك الجملة، إنها تعوضنا عندما
نستخدمها حتى لا نكرر كلمة جسر، ما كان سيجعلنا
نرتكب خطأ نحويّاً أو إسهاباً. فى الفنون المختلفة،
وبشكل خاص فن الكتابة، فإن أفضل الطرق بين
نقطتين، وإن كانتا قريبتين، لم يكن أبداً، ولن يكون
مطلقاً، الخط الذى يسمونه مستقيماً، أبداً ومطلقاً،
طريقة حازمة للإجابة عن الشكوك، بإسكاتها. كان
المسافرون مستغرقين تماماً فى تأمل جمال المدينة
ومأخوذين بذلك العمل المعجز، فلم ينتبهوا إلى القلق
الذى انتاب الزراير فجأة. تملكتهاشوشة الارتفاع،
فحفت القوائم المرتفعة التى كانت ترتفع من الماء
لتكون دعائمات للسماء، فى هذا الجانب من المدينة
ذات الأحجار النارية، هناك يوجد البحر، والشمس،
وتحت يوجد نهر كبير يمرُّ، كتيارٍ من الحمم الحارقة
تحت الرماد، غيّرت الطيور وجهتها بشكل مفاجئ،
بضربات أجنحة سريعة، ومتكررة، كما لو كانت الأرض
تدور حول الجسر، فتحول الشمال شرقاً وبعدها
جنوباً، والجنوب غرباً ثم شمالاً، فى أى مكان من
العالم نكون لو درنا تلك الدورات المعقدة؛ ترى عن أى
شئ نبحث لو رحلنا. لقد قيل إن البشر، حتى

الوصول إلى تلك الأشياء ينظرون إليها ولا يفهمونها،
ولا حتى هذه المرة سيفهمون معناها .

كانوا يسيرون في منتصف الجسر، همهم بدرو
أورثي قائلاً، "يا لها من مدينة جميلة"، كلمات مثل
تلك، رقيقة، ليست في حاجة إلى إجابة، ما لم تكن
بتواضع، "ليست سيئة"، لا يزال لديهم الوقت الكافي
ليتركوا بدرو أورثي في فندق، ويواصلوا الرحلة، على
الأقل حتى قرية ريباتيخو حيث يسكن جوزيه أنيسو،
ويمكن لجواكيم زازا أن يمضي الليل، تحت شجرة
التين لو أراد، لكن ليس من الأفعال المقبولة ترك
الزائر، فاتفقوا معاً على أن يمضي البرتغاليان يوماً أو
اثنتين، ليتعرف الإسباني على المدينة بطريقة يستطيع
أن يقول إنها مدينته، عندما يعود إلى أورثي، سيردد
كلماتنا البريئة وزهونا القديم، "من لم ير لشبونة لم يرَ
شيئاً جميلاً"، شكراً لله أن أعطانا في اللغة البرتغالية
الروى، ولم يأخذ منا حمايته.

لم يكن مع جواكيم زازا وجوزيه أنيسو القليل من
المال، كانا قد جمعا ما معهما استعداداً للمغامرة عبر
الحدود، وأمكنهما الاقتصاد، كما نعرف، النوم مرات
تحت نجوم السماء، وأخرى في بيت الصيدلى
الأندلسي، وفي الفريسي، استفادوا من الوضع
الفوضوي، فلم يطلب منهم أحد حساب الإقامة. في
لشبونة، حيث دخلنا قبل قليل، لم يكن قد حدث هجوم
واحتلال الفنادق سوى في بعض المناطق المتاخمة
للمدينة، أما الباقي منها والتي تقع في وسط المدينة،

فقد كانت محمية بعاملين: أولاً لأنها فى العاصمة، وكما هو معتاد فى كل البلاد، فهو المكان الذى يحتوى عادة على أكبر عدد من قوى السلطة أو القمع، وثانياً بفضل حالة الخجل التى تطبع المواطن، التى يعانى منها فى كثير من الأحيان، وينكمش تحت خشيته من حكم جاره عليه، والعكس، إن نقطة الماء تشوش العدسة والعين التى تراقبها من خلفها. ونظراً لنقص النزلاء، فقد أغلقت معظم الفنادق أبوابها بحجة إجراء إصلاحات، كان هذا هو التعليل، إلا أن بعضها كان لا يزال يواصل عمله، بأسعار المواسم المنخفضة والمخفضة، إلى درجة أن بعض أرباب العائلات كثيرة العدد فكروا فى ترك بيوتهم التى يعيشون فيها، والتى كانوا يدفعون فيها إيجارات مرتفعة، والذهاب للسكن فى الميريديان أو الفنادق المشابهة. لكن المسافرين الثلاثة لم يطراً على تفكيرهم فعل هذا الشيء، لهذا سكنوا فى فندق متواضع، فى آخر شارع روا دو الكريم، على اليسار من الشارع، هبوطاً، اسمه لا يهم ذكره فى هذه الحكاية، لقد ذكرنا واحداً من قبل وهذه المرة لن تكون هناك حاجة لذلك.

الزرايزير هى مجرد زرايزير، والبشر خفيفو العقل وبهم طيش يقولون عنهم إنهم كذلك، ما يعنى أن هؤلاء وأولئك لا يميلون إلى التفكير فى أفعالهم التى يقومون بها، وغير قادرين على توقع أو تخيل أبعد من اللحظة الراهنة، وهذا شيء لا يتعارض مطلقاً مع شهامة بعض تصرفاتهم، ويصل بهم الأمر إلى حد التضحية

بالحياة، وأمكن الاطلاع على هذا خلال فصل الحدود، عندما سقطت العديد من الأجساد الرقيقة، وسُفحت دماؤها الذكية من أجل قضية لا تهمها، علينا أن نتذكر أننا نتحدث عن الطيور لا البشر، لكن الطيش أو خفة العقل هو أقل شيء يمكن الحديث عنه عند الحديث عن آلاف الطيور التي تذهب، بلا حذر، لتقف على أسطح أحد الفنادق، لافتة نظر الجمهور والبوليس، وعلماء الطيور، والذين يعشقون الطيور المقلية، ويكشفون بذلك عن وجود الرجال الثلاثة، الذين رغم عدم إحساسهم بارتكاب أية جريمة، تحولوا هدفاً مزعجاً للسلطات. لأن شيئاً غير معروف للمسافرين قد حدث، فإن الصحافة البرتغالية، في الصفحة الثابتة التي تخصصها للوقائع الغريبة، رددت صدى الهجوم الذي لا يُقاوم الذي شنته الزراير على حرس الحدود الغافل، مذكرة، كما كان مُنتظراً، ما ذكرناه نحن من قبل، بفيلم هيتشكوك عن حياة الطيور.

أذاعت الصحافة والإذاعة والتلفزيون على الفور الحدث المدهش الذي حدث على رصيف سودري، وأرسلوا مراسليهم ومصورينهم وحاملي كاميرات الفيديو إلى المكان، أمرّ ربما ما كان له نتائج كبيرة، بعيداً عن إثراء غرابة مدينة لشبونة، ولكن نعم أثرت في الروح المنهجية، ولم لا نعترف، فالروح العلمية لأحد الصحفيين دفعته إلى أن يتساءل عن إمكانية وجود علاقة بين الزراير التي كانت في الخارج، على السطح، ونزلاء الفندق، سواء كانوا مقيمين بشكل دائم

أم بشكل مؤقت، ويوجدون بالداخل أيضاً. غافلين عن
 الخطر الذى كان يحلق على رؤوسهم، كان جواكيم زازا
 وجوزيه أنايسو وبدرو أورثى، كل واحد فى غرفته،
 ينظمون القليل من الحقائق التى كانوا يسافرون بها،
 وسيكونون فى الشارع بعد دقائق قليلة، سيذهبون أولاً
 للتنزه عبر المدينة فى انتظار أن تحين ساعة العشاء.
 والآن حسناً، فى تلك اللحظة بالذات، فإن الصحفى
 الماكر كان يراجع دفتر المقيمين، ويقرأ الأسماء
 المسجلة، وهنا حرك اثنان من تلك الأسماء تروس
 ذاكرته بشكل خاص، جواكيم زازا وبدرو أورثى، ما كان
 يمكنه أن يكون صحفياً جيداً لو مرا عليه دون أن يثيرا
 انتباهه، وهو شيء ربما كان يحدث مع اسم آخر،
 ريكاردو ريبس مثلاً، لكن الدفتر الذى كان فيه هذا
 الاسم مسجلاً، قبل سنوات عديدة، موجود فى
 أرشيف الطابق السفلى، مغطى بالتراب، فى صفحة
 ربما لن تعود لرؤية النور أبداً، ولو رآته، لن يكون
 ممكناً قراءة الاسم؛ لأن السطر سيكون محوواً، أو
 الصفحة بكاملها، بفعل تأثير الزمن، المحو. لقد كان
 هذا حتى هذا اليوم لأن ذروة فن الصيد كانت قتل
 أرنبين بطلقة واحدة، ولكنه سيرتفع الآن ليصبح ثلاثة،
 ومن هنا لا بد من تعديل الأمثلة الشعبية، بحيث ما
 يُقرأ اثنين، سيُقرأ ثلاثة، وربما لن نتوقف عند الرقم
 ثلاثة.

هبطوا استجابة لطلب مكتب الاستقبال، وبعد أن
 اتخذوا وضعهم فى البهو وجدوا أنفسهم أمام مرآة

الحقيقة الكبرى، فلم يكن أمام جواكيم زازا وبدرو أورثي مفرأ من تلبية نداء الصحفيين ليؤكداه هويتهم، ولكل منهما حكايته، من قذف الحجر إلى البحر، وراصد الزلازل الحى. "لكن هل صاحب الزراير موجود، إن تجمع هذه الزراير الكثيرة هنا فى وقت واحد ليس صدفة؟"، لاحظ الصحفي الذكى، وحينها قرر جوزيه أنيسو أن يتضامن مع صديقيه وإحقاقاً للحق، قال، "الزراير تتبعنى أنا"، أكثر الأسئلة الموجهة لجواكيم زازا تطابقت فى مرجعيتها، مع الحوار الذى دار بينه وبين الحاكم المدنى الذى تخيله، وهو ما يعفينا من العودة إلى ذكره هنا، ولن نذكر كذلك إجاباته عليها، لكن بدرو أورثي الذى أمكنه أن يكون فى بلاده متنبئاً حقيقياً، فقد تحدث مطولاً عن ما حدث له فى حياته مؤخراً، وأنه نعم يا سيدى، لا يزال يشعر بأن الأرض تهتز، بشكل مكثف وعميق، كما لو كانت قشعريرة تصعد جسده خلال العظام، وأنهم أخضعوه فى غرناطة وأشبيلية ومريد لكثير من التجارب، واقعية وأخرى ثقافية، من خلال أجهزة إلكترونية وميكانيكية، وأنه هنا على استعداد للخضوع لمثلها ولتجارب أخرى لمعرفة الحقيقة لو كان العلماء البرتغاليون يعتقدون أنها مناسبة. خلال ذلك كان الليل قد هبط، والزراير التى كانت السبب فى هذا الاستجواب قد بدأت تتجمع وتتفرق بين أشجار الحدائق القريبة، بعد انتهاء الأسئلة الفضولية ذهب الصحفيون والكاميرات والأضواء، لكن الهدوء لم يعد

إلى الفندق، فالعاملون والعمال كانوا يتذرعون بأى شئ للذهاب إلى الاستقبال لإلقاء نظرة على وجوه أصحاب هذه الأعاجيب.

مرهقون نتيجة الانفعالات المستمرة، قرر الأصدقاء الثلاثة عدم الخروج، وتناول العشاء فى المكان نفسه، كان بدرو أورثى منزعجاً من نتائج الثرثرة التى استسلم لها، "بعد أن حذرونى من عدم الكلام عن حالتى، ها أنتم ترون، لن يرتاحوا فى إسبانيا، عندما يعرفون هذا، ربما لو بقيت هنا لأيام أخرى، قد ينسونى"، كان جوزيه أنايسو يشك فى هذا، "سينشرون إجاباتنا فى الصحافة غداً، وربما كان التليفزيون يبيث نبأ وجودنا فى هذه اللحظة، والإذاعة لن تسكت، إنهم لا يتعبون"، وقال جواكيم زازا، "رغم هذا، من بيننا - نحن الثلاثة - أنت أفضل حالاً، يمكنك أن تقول إنه لا ذنب لك فى أن تتبعك الزراير، فأنت لا تصفر لها ولا تقدم لها طعاماً، لكن نحن فى مأزق، ينظرون إلى بدرو أورثى كما لو كان كائناً غريباً، والعلماء البرتغاليون سينتهزون الفرصة، أما بالنسبة لى أنا، فلن يتركونى فى سلام بموضوع الحجر"، قال بدرو أورثى، "أنتم معكم السيارة، اذهبوا غداً مبكراً، أو حتى اذهبوا هذه الليلة نفسها، أنا سأبقى، وإذا سألونى أين ذهبتما، سأقول لهما لا أعرف"، قال جوزيه أنايسو، "لقد فات الوقت الآن، فما أن يظهر الخبر فى التليفزيون فلن نعدم أحداً من القرية يتصل بالسلطات ليقول لهما إنه يعرفنا، وإننى معلم المدرسة،

وأنه كان يشك في، فهو الآن في قمة الفرح، ثم أضاف، "من الأفضل أن نظل معاً، نتحدث قليلاً، وفي النهاية سيصيبهم التعب".

تماماً كما فكروا، فقد تضمنت نشرة الأخبار التليفزيونية الأخيرة، تحقيقاً صحفياً متكاملأ، ظهرت فيه الزراير تمارس دوراتها، أمام واجهة الفندق، وكان المدير يدلى بتصريحات نعرف أنها كاذبة، كما سنكتشف ذلك على الفور، "إنه أول أضخم حدث في تاريخ هذا المكان السياحي"، فيما كان الأعجائب الثلاثة، بدرو، وجوزيه، وجواكيم، يجيبون عن الأسئلة.

كما هي العادة فإنه لإقناع الجمهور، لا بد من البحث عن شخص له حيثية للقيام بهذا الدور، أحضروا خبيراً في الاستوديو، في هذه الحالة كان خبيراً في فرع من فروع الطب الحديث، علم النفس الديناميكي، الذي قال من بين آراء أخرى عن خلفية المسألة، أنه لا يستبعد فرضية أن الأمر مجرد ثرثرة، فقال، "معروف، أنه في لحظات الأزمات مثل هذه، سنجد دائماً ما يظهر دجالون، أشخاص يروون حكايات أو يحاولون انتهاز سذاجة الجماهير، يكون هدفهم في أحيان كثيرة إثارة البلبلة السياسية المباشرة، أو يعملون في خدمة مشروعات تهدف إلى السيطرة على السلطة على المدى البعيد"، علق جواكيم زازا، "ماذا يعتقد هؤلاء، أننا عملاء؟"، وعلق المذيع، "والزراير، ما رأيك بالنسبة للزراير"، هذه بالطبع ظاهرة فريدة وغامضة، إما أن الشخص الذي تتبعه

يحمل شيئاً مثيراً لا يُقاوم، أو يحتمل أننا أمام حالة تنويم مغناطيسى جماعى، "ليس سهلاً تنويم الطيور؟"، "بالعكس، تنويم دجاجة يمكن أن يكون بقطعة جبن، ويمكن لطفل أن يفعل هذا"، "لكن الفين، ثلاثة آلاف زرزور فى وقت واحد، كيف يمكنهم الطيران لو كانوا منومين؟"، "لاحظ أن السرب، الذى يشكل كل طير جزءاً منه، هو فى حد ذاته عنصر تنويم، عنصر ونتيجة فى الوقت نفسه"، "معذرة إن ذكرت حضرتك بأنه من الصعب على بعض مشاهدينا فهم اللغة التقنية جداً التى تتحدث بها"، "إذاً، سأحاول أن أكون أكثر وضوحاً، أقول إن المجموعة كلها يمكن أن تكون وحدة منومة"، "لا أثق تماماً فى أنهم الآن أكثر فهماً، على أية حال نشكر حضورك فى استوديوهاتنا، فلا شك أن هذه القضية ستظل تشغلنا، وستكون هناك فرصة لمناقشتها بشكل موسع"، قال الخبير "أنا تحت أمركم"، لم يُعجب جواكيم زازا بهذا الكلام، وقال، "هذا الشخص أبله"، أجابه جوزيه أنيسو، "فى الحقيقة يبدو كذلك، لكن هناك حالات مطلوباً فيها سماع رأى البلهاء باهتمام"، أما بدرو أورثى، فلم يفهم شيئاً، كانت هذه المرة الأولى التى لم يتمكن فيها من فهم اللغة البرتغالية بالكامل، هذا إذا أخذنا فى الاعتبار المعنى الحرفى للكلمة، فكما يقولون، كان حواراً طيباً الذى جرى بين فيرياتي ونون ألفاريث بيريرا، بطلان تاريخيان من هذه البلاد نفسها. فيما كانوا يتناقشون فى البهو حول هذه الأوضاع الخطيرة،

كان مدير الفندق في مكتبه، يستقبل وفداً من أصحاب المطاعم المجاورة الذين جاءوا يعرضون عليه صفقة، كم تريد مقابل أن تسمح لنا بنصب شباك صيد على أسطح الفندق، فالزراير حتماً ستعود إلى هنا، ولو وضعنا شباك الصيد على الأشجار، ستكون في متناول الجميع، وفي هذه الحالة لن تكون مفيدة، هؤلاء الرجال يعتقدون أن معنى الأشياء هو ألا يكون لها معنى خاص بها، تشكك المدير، وتخوف من تحطيم الأسطح، وفي النهاية قرر، عرض رقماً، قال الآخرون "كثير"، وظلوا يناقشون الثمن.

في صباح اليوم التالي، جاء وفد آخر، مكون من أشخاص يتحدثون لغة رسمية، ويرتدون ملابس متأنقة، طلبوا من جواكيم زازا وبديرو أورثي أن يرافقاهم بأمر من الحكومة، كان من بين هذه المجموعة المهمة مستشار من السفارة الإسبانية، حيا بدرو أورثي، لكن بطريقة جافة، كما لو كان شرفه الوطني قد تعرض للإهانة. يريدون القيام بتحقيق سريع معهما، مسألة بسيطة، أسئلة روتينية تُضاف إلى الملف الضخم الخاص بانفصال شبه الجزيرة، انفصال لا مناص عنه إذا أخذنا في الاعتبار استمرار الابتعاد، المشثوم، كما يمكن أن يُقال بهذه الطريقة. لكنهم لم يلقوا بالاً إلى جوزيه أنابسو، مؤكداً أنهم اعتقدوا أن لديه قدرات خاصة تقارن بقدرات عازف ناى هاميلين، إضافة إلى أن، الزراير اختفت، ذهبت للتعرف على سماوات المدينة، معاً، لم يسقط في

شباك الصيد المنصوبة على السطح سوى أربعة من
طيور الحجل ليس لها علاقة بالأمر، لكن القدر وضع
حداً مختلفاً لنهاية حياتها، "يا له من قدراً"، سأل
صوت ساخر، وبفضل هذا التدخل غير المنتظر عرفنا
أنه ليس هناك مصير واحد أمام كل ما تعلمناه من
الأغنيات وأغاني الفادو الشعبية، "لا أحد يستطيع
الهروب من مصيره، بل يمكن أن يسقط على رؤوسنا
مصير شخص آخر"، وهذا ما حدث مع طيور الحجل،
التي لحق بها مصير الزراير.

بقى جوزيه أنيسو هادئاً في الفندق، في انتظار
عودة رفيقيه، طلب الصحف، كانت المقابلات كلها
منشورة على الصفحة الأولى، ومرفقة بصور خاصة
وعناوين درامية، "الغاز تتحدى العلم"، "القدرات
المجهولة للعقل"، "ثلاثة رجال خطرين"، "سر فندق
براجنسا"، لقد كانت وساوسنا كبيرة جداً وفي النهاية
كما تقول الصحافة الطائشة، "هل سيتم تسليم
الإسباني لبلاده؟"، فكر جوزيه أنيسو، في أى وضع
حرج وضعنا أنفسنا، هذا ليس عنواناً صحفياً. مرت
الساعات، وجاء موعد الغداء، ولا خبر عن جواكيم
زازا وبدرو أورثي، إن كانا معتقلين، أم في السجن، قلقٌ
يُفقد أى شخص الرغبة في الأكل، "أنا لا أعرف حتى
إلى أين أخذوهما، يا لى من غبى، كان يجب أن
أسألهم، كان يجب أن أذهب معهما، ولا أتركهما،
أهدأ، ربما لو كنت أريد ما كانوا سيتركوننى أذهب،
وربما ليس صحيحاً، ليس هكذا، لقد كنت سعيداً

لأنهم تركوني، إن الجبن أسوأ من الأخطبوط،
فالأخطبوط، كلما انكمش مد أذرع أكثر، الجبن
تتكش له الأذرع، بهذا الجفاء كان واضحاً أن جوزيه
أنيسو كان غاضباً من نفسه، من يعرف هل هو جاد
مع نفسه أمام عواطفه وأفكاره، ربما، كما فى أحوال
الحياة، كان يجب الانتظار لمعرفة ما يحدث. أول ما
فعله أنه ذهب إلى المدير ليعرف منه إن كان قد سمع
آية كلمة تكشف الحقيقة، أى عنوان، أى اسم، لكن
الفندقى أجابه بلا، لا يا سيدى، ولا يعرف أى من
أولئك السادة، وإنه رآهم لأول مرة، سواء كانوا
البرتغاليين أم الإسباني، اتقدت فى تلك اللحظة فكرة
فى ذهن جوزيه أنيسو، الذهاب إلى السفارة، من
المؤكد أن السفارة تعرف، لكن جاءت فكرة أخرى، عادة
ما لا تأتى وحدها، إنها الصحافة، بالطبع، يكفى أن
يتوجه إلى إحدى تلك الصحف وسيكتشف الحقيقة
فى ساعات قليلة، الحاجة أم الاختراع، فى هذه
الحالة اسمها حرص الأب، ولكن الأمر ليس دائماً على
هذه الطريقة.

صعد جوزيه أنيسو إلى غرفته بخفة، كان يريد
تغيير حذائه، وتنظيف أسنانه، هذه الأفعال المعروفة
ليست ضد الروح المتوثبة، انظر إلى عطيل، الذى كان
مزكوماً ولم يفتبه لما كان يفعل، عطش بغباء قبل أن
يقتل ديدمونة، التى كانت هى أيضاً، رغم شعورها
المأساوى، لم تقفل الباب بالمفتاح، لأن الزوجة لا يمكن
أن ترفض للزوج طلباً، حتى لو كانت تعرف أنه

سيقتلها، إضافة إلى هذا فإن ديدمونة كانت تعرف أن الغرفة لها ثلاثة جدران فقط، والآن في هذه الدراما فإن جوزيه أنيسو وحده، يفرش أسنانه بالفرشاة ويلقى بالماء من فمه عندما سمع طرقاتاً على الباب، سأل، "من؟"، رغم عدم تشابه الصوت، فإن نبرته تشي بالسعادة المنتظرة، سيرد عليه جواكيم زازا، "ها قد حضرنا"، لكن الكذبة استمرت لحظة قصيرة، إنها الموظفة، "هل تسمح لي؟"، "لحظة من فضلك"، أنهى عملية النظافة، وغسل يديه وفمه، تمضمض، وذهب ليفتح. كانت الموظفة مجرد عاملة بسيطة بالفندق، بعلامات مميزة وخاصة كانت تلك اللحظة الوحيدة في حياته التي احتك بها بشكل سريع، وفقط خلال الزمن الذي تطلبه إبلاغه رسالة، إن وجود جوزيه أنيسو ووجود رفيقيه، الحاضر والمستقبل، يحدث أحياناً في المسرح وفي الحياة، نحن في حاجة إلى شخص يترك الباب فقط ليقول لنا، "في البهو توجد سيدة تسأل عنك"، فوجئ جوزيه أنيسو، شكله يشي بتعبير الدهشة، "عني أنا؟"، وتضيف العاملة ما رأت أنه مطلوب منها قائلة، "سألت عنكم أنتم الثلاثة، لكن بما أن الآخرين غير موجودين"، قد تكون صحفية، فكر جوزيه أنيسو، وقال، "سأهبط حالاً"، ابتعدت العاملة كمن تتسحب من الحياة، لسنا في حاجة إليها مرة أخرى، ولا حتى بمجرد الوجود، جاءت وطرقت الباب، أبلغت الرسالة، لا أحد يعرف لماذا لم يبلغوا الرسالة بالتليفون، ربما لأن الحياة تحب أن تمنح

للمدrama معنى من وقت لآخر، ربما لو رن التليفون نفكر، "من يكون؟"، ونمنح التفكير صوتاً ليسأل، "من يكون؟"، لو طرّقوا الباب سنسأل، "تري من يكون؟" نحن نعرف أنها كانت العاملة، لكن السؤال كان قد حصل على نصف إجابة، وربما قد لا يصل إلى هذا، لهذا فإن جوزيه أنايسو ظل يفكر خلال هبوطه السلم، "تري من تكون؟"، نسي إمكانية أن تكون صحفية، بعض أفكارنا تبدو هكذا، مهمتها أن تشغل ، مقدماً، حيز أفكار أخرى تدفع إلى التفكير أكثر.

سيطر الهدوء الكامل على الفندق، كما لو كان بيتاً خالياً خرجت منه الحياة القلقة، لكنه لم يصب بعد بشيخوخة الإهمال، لا تزال هناك أصداء خطوات وأصوات، وبكاء، وهمهمة وداع تتواصل في آخر الممرات. كان موظف الاستقبال واقفاً، خلف المكتب وإلى جانبه خزانة المفاتيح وصناديق الرسائل والفواتير، كان يكتب في دفتر أو ينقل منه أرقاماً إلى ورقة، رجل نشط، حتى لو لم يكن بين يديه عمل. عندما اقترب منه جوزيه أنايسو أشار برأسه نحو صالة الانتظار، وأجابه جوزيه أنايسو بإشارة مماثلة، علامة على التأكيد، "نعم أعرف"، هذا ما كان يريد قوله، الأول، كانت هناك امرأة تنتظره. توقف جوزيه أنايسو عند مدخل الصالة، شاهد امرأة شابة، فتاة، مؤكداً أنها هي، لا يوجد أحد غيرها، رغم أنها كانت في الجانب المظلم إلا أنها كانت تبدو لطيفة، جميلة، ترتدى بنطلوناً وجاكete زرقاء، بلون أشبه بالأزرق

النيلى، يمكن أن تكون صحفية ويمكن ألا تكون كذلك، لكن إلى جانب الكرسي الذى تجلس عليه كانت هناك حقيبة سفر وعلى ركبتيها عصا لا هى بالكبيرة ولا بالصغيرة، ما بين المتر والمتر ونصف، المظهر يضيف بالتشوش، امرأة ترتدى مثل هذه الملابس لا يمكن أن تسير فى شوارع المدينة بعصا فى يدها، ألا تكون صحفية؟ ، فكر جوزيه أنيسو، لكن لا توجد أمامها أى من أدوات عملها، كتيب، قلم، أو آلة تسجيل.

وقفت المرأة، وهذه الحركة لم تكن متوقعة، طبقاً للإتيكيت وجسناً الأخلاق على المرأة أن تنتظر فى مكانها وعلى الرجال أن يقترحوا منها ويحيوها، وحينها تمددن أيديهن أو تقدمن وجناتهن، طبقاً لحالة الثقة أو درجة العلاقة أو نوعيتها، ويفهم من ابتسامة السيدة، إن كانت مهذبة، أم لمحة أم متواطئة، أم كاشفة، طبقاً للحالة. هذه الإشارة، وربما ليست الإشارة بل البقاء هناك، على بعد أربع خطوات، سيدة تقف منتظرة، أو بدلاً من ذلك، الوعى المفاجئ الذى جعله ينسى الوقت قبل أن يقدم على الخطوة الأولى، إنها حقيقة كانت المرأة شاهدة عليها، لكن من دقيقة سابقة، كان جوزيه أنيسو والسيدة غريبين، من هذا الجانب لا، هنا، لأنهما سيتعارفان الآن، أو تعارفا بالفعل. هذه الحركة، هذه الحركة التى لم تقل من قبل كل شيء، كانت سبباً فى تحريك ألواح الأرضية، كحركة سفينة تحت ضربات الأمواج، بطيئة وواسعة، هذا التعبير لا يُقارن بالاهتزاز الذى يتحدث عنه بدرو

أورثي، لأنه لا يهز عظام جوزيه أنايسو، لكن جسده بالكاد شعر به، وأن شبه الجزيرة، إن كانت لا تزال يسمونها هكذا بحكم العادة وسهولة التعبير، بالفعل وبالطبيعة فهي تبهر، ولا يعرف هذا غير المراقبة الخارجية، ويعرفها الآن بحسه الخاص. هذا بسبب هذه المرأة، أن لم يكن فقط منذ اللحظة التي جاءت فيها، وكلما حسبوا الساعات والأحداث التي تجرى فيها، جوزيه أنايسو الذي بالكاد يكون متطوعاً باجتناب الطيور المجنونة، تقدم نحوها، وتلك الحركة، في نفس الاتجاه، تندمج مع قوة الدفع، دون معارضة أو مقاومة، فإن صورة الطوف الذي هو فندق بارجانسا، في تلك اللحظة الراهنة، تبدو كمقدمة السفينة، مع الاعتذار لعدم مناسبة الكلمات. فنحن نحاول التعبير بقدر ما يمكننا.

"أصدقائي ليسوا هنا"، قال جوزيه أنايسو، "لقد جاء بحثاً عنهما هذا الصباح بعض العلماء ليجروا لهما بعض التجارب، لقد بدأ الانزعاج يصيبني بسبب تأخيرهما، كنت على وشك الخروج، بحثاً عنهما"، لم يكن يشعر جوزيه أنايسو بكل هذه الكلمات ليقول ما تحتاجه المناسبة، لكنه لم يكن قادراً على إيقافها، أجابت هي، صوتها رقيق، منخفض لكنه واضح، "ما جئت من أجله يمكن قوله لك كما يمكن قوله لأي شخص آخر أو لثلاثة، وربما بهذه الطريقة أستطيع أن أشرح لك ذلك بشكل أفضل"، "عيناهما لهما لون سماء جديدة، ما معنى سماء جديدة، ما لونها، من أين

جاءته هذه الفكرة"، إنها أفكار جوزيه أنيسو، وبصوت مرتفع قال، "تفضل بالجلوس، من فضلك، لا تبقى واقفة". جلست هي، وجلس هو، "حضرتك اسمك جوزيه أنيسو، أنا اسمي جوانا كاردا"، "تشرفيننا"، لم يتصافحا، سيكون الأمر غريباً فهما الآن جالسان، لكي يفعلا هذا كان يجب عليهما الوقوف من على كرسيهما، وهو ما سيبدو أكثر إثارة للسخرية، أو ربما سيكون هو المثير للسخرية، إنها جميلة، شعرها أسود تقريباً، لا يبدو متنسقاً مع لون عينيها، ذات لون يشبه لون السماء الجديدة نهاراً، ولون السماء الجديدة ليلاً، لكن إن كان هذا اللون أو ذاك فهو جميل، "هل يمكنني أن أفيدك في شيء؟"، بهذه الطريقة المهذبة ترجم فكرته عملياً. "لا أعرف إن كان يمكننا أن نتحدث هنا؟"، هممت جوانا كاردا، "نحن وحدنا، لن نسمعنا أحد"، "لكن الفضول هنا كثير، انظر"، بطريقة غير طبيعية كان موظف الاستقبال يتمشى أمام باب صالة الانتظار، يذهب ويحجى، متظاهراً بالانشغال، كمن لا يجد عملاً ويحاول أن يخلقه، إذا كان ذلك مفيداً له، نظر إليه جوزيه أنيسو بحفاء ولكن بلا فائدة، إن خفض الصوت سيزيد من الشبهات حول الحوار، "لا أستطيع دعوتك إلى غرفتي، من ناحية فهو غير مقبول؛ لأنه غير مسموح للنزلاء دعوة زوار في الغرف"، "هذا لا يهمني، لست في حاجة إلى الدفاع عن نفسي، من المؤكد أنك لا تفكر في مهاجمتي"، "هذا ليس تفكيري، خاصة بمشاهدتك مسلحة"،

ضحكا معاً، لكن الضحكة كان فيها شيء من الافتعال، شيء من الكآبة، فى الحقيقة فإن الحوار أصبح الآن أكثر حميمية خاصة أنهما لم يتعرفا إلا قبل ثلاث دقائق فقط، وبالكاد يعرف كل منهما اسم الآخر. قالت جوانا كاردا، "على أية حال هذه العصا تصلح فى حالة الطوارئ، لكنى لم أحضرها لهذا السبب، فى الحقيقة فإن العصا هى التى جاءت بى إلى هنا، هذا الاعتراف المفاجئ والغريب، محال الهواء، وازن الضغوط، المناخية والدموية، كانت جوانا كاردا تمسك بالعصا على ركبتيها، وتنتظر الإجابة، وأخيراً قال جوزيه أنيسو، "من الأفضل أن نخرج من هنا، لنحدث فى الشارع، أو فى مقهى أو حديقة لو كان هذا أفضل لك". حملت هى الحقيبة، أخذها هو من يدها، "يمكننا أن نتركها فى الغرفة مع العصا"، "العصا لن أتركها، ولا الحقيبة، ربما لا أعود إلى هنا مرة أخرى"، كما تريد، من المؤسف أن حقيبتك صغيرة جداً ولا يمكننا وضع العصا فيها"، أجابته جوانا كاردا، "ليست كل الأشياء تولد من أجل أشياء أخرى"، وهو ما بدا واضحاً أنها تتطوى على قليل من الفلسفة.

عند الخروج، قال جوزيه أنيسو لموظف الاستقبال، "إذا وصل أصدقائى، قل لهما إننى سأعود على الفور"، أجاب الموظف دون أن يرفع عينيه عن جوانا كاردا، "حاضر يا سيدى، اطمئن"، لكن لم يكن فى نظره أى جشع، كانت تطل منها غمامة شك، كتلك التى يمكن رؤيتها فى نظرة كل العاملين فى

استقبال الفنادق. هبطا السلم، الداخلى، وكان عند آخر حاجز السلم تمثال من الحديد المصهور، المقولب، على هيئة فارس أو كومبارس أوبرا، التمثال موضوع فى مكانه المعتاد يحمل بالونة تضاء بالتيار الكهربائى، ويمكن رؤية مثلها فى أى طريق ساحلى برتغالى أو جيليقى، فى سان فيثينتى أو الأسبيتشل، أو لاروكا، وفينيسيرى وأماكن أخرى أقل أهمية، ليس لأنها مهمة لديها عمل أقل كحاجز لكسر الأمواج، مع ذلك فإن مصير هذا الفارس أو كومبارس الأوبرا أن يكونا مجهولين، ربما فى يوم ما فى الزمن قد تقع عليه عين شخص مهتم، لم يتمهل أمامه لا جوانا كاردا ولا جوزيه أنايسو، ربما لأنهما مشغولان بأشياء أخرى أكثر خطورة، رغم أننا لو سألناهما، ربما لا يعرفان أى تلك الأشياء أكثر أهمية. من كان فى تلك اللحظة فى رطوبة مدخل الفندق، لا يمكنه أن يتخيل أن درجة الحرارة فى الشارع مرتفعة جداً. نحن فى شهر أغسطس، لو كنا لا نزال نتذكر، المناخ لم يتغير رغم ارتحال شبه الجزيرة لمسافة ليست بالقليلة مثل مائة وخمسين كيلومتراً، متخطية السرعة التى حافظت عليها بثبات منذ أن أذاعت ذلك الإذاعة الوطنية الإسبانية، قال جوزيه أنايسو، "لم يعض سوى خمسة أيام ونشعر كأنها سنة، وكما كان مُنتظراً، السير بالحقيبة فى هذه الحرارة والعصا فى اليد، لم يكن مرغوباً، سنتعب فى خمس دقائق، الأفضل أن ندخل مقهى، نجلس ونتناول مرطباً، "من الأفضل أن نذهب

إلى حديقة، على كرسي منعزل، فى ظل شجرة، "هنا توجد حديقة، إنها ساحة دون لويس، ربما تعرفينها"، "أنا لا أعيش فى لشبونة، لكنى أعرفها"، آه لا تعيشين فى لشبونة"، ردد جوزيه أنيسو بلا أهمية تذكر. كانا يهبطان عبر شارع روا دو الكريم، يحمل هو الحقيبة والعصا، قد يفكر المارة أشياء ليست طيبة له لو لم يحمل الحقيبة وسيقولون عنها أشياء غير محترمة لو حملت هى العصا، إنها حقيقة لأننا جميعاً مراقبون لغيرنا بلا رحمة، ونظراتنا مليئة بالخبت لو كان هذا مطلوباً، وربما أكثر مما يجب. اكتفت جوانا كاردا بالرد على جوزيه أنيسو بأنها وصلت اليوم، فى القطار، وأنها ذهبت إلى الفندق مباشرة، ما عدا ذلك سنعرفه الآن.

كانا جالسين، لحسن الحظ، فى ظل بعض الأشجار، "ما الذى أتى بك إلى لشبونة؟ لماذا تبحثين عنا؟"، قالت هى، "يبدو أنه حقيقة أنك وصديقك لكم علاقة بما يحدث الآن"، "يحدث لمن؟"، "أنت تعرف جيداً ما أقصده، لشبه الجزيرة، ولانفصالها عن البرانس، لهذه الرحلة التى لم تحدث أبداً من قبل"، "أنا أيضاً أحياناً أفكر فى هذه العلاقة، وأن لنا علاقة به بالفعل، وأنه يحدث بسببنا، لكن فى أحيان أخرى أفكر أننا جميعاً مجانين"، "إن كوكباً يدور حول نجم بهذه الطريقة، يدور، ويدور، الآن ليل، والآن نهار، الآن برد، والآن حر، وفضاء يكاد يكون خالياً حيث لا توجد أشياء ضخمة لا اسم لها إلا الأسماء التى نطلقها

عليها، وزمن لا يعرف أحد حقيقة ما هو، كل هذا يجب أن يكون من فعل مجانيين"، سأل جوزيه أنايسو، "هل أنت فلكية؟"، وتذكر ماريما دولوريس، الأنثروبولوجية في غرناطة، "فلكية أنا؟، أبدأ"، آسف لهذا التسرع، كلنا نعاني من انفلات أعصابنا بعض الشيء، والكلمات لا تقول ما نريد أن نقول من خلالها، نتحدث بقليل أو كثير، معذرة"، "اعتذارك مقبول"، "قد يبدو لك أنني متشكك لأنه لم يحدث لي شخصياً أى شىء، عدا مسألة الزرايزير، رغم"، "رغم ماذا؟"، "قبل قليل في الفندق، عندما شاهدتك في الصالون شعرت كما لو أنني كنت في سفينة، وكانت هذه المرة الأولى التي أشعر بها بهذا الشعور"، "وأنا شاهدتك كما لو كنت تأتي من بعيد جداً"، "المسافة بيننا لم تتعد ثلاث أو أربع خطوات".

نحن جئنا من كافة الاتجاهات، هبطت الزرايزير فجأة على أشجار الحديقة. ظهر من الشوارع القريبة أشخاص يجرون، وينظرون إلى أعلى، ويشيرون بأصابعهم، قال جوزيه أنايسو، بقلق، "إنها هنا من جديد، والأسوأ أننا لن نستطيع أن نواصل الحديث، وكل هؤلاء الناس من حولنا". في تلك اللحظة انطلقت العصافير من جديد في سرب واحد، غطى الحديقة ببقعة ظل كبيرة، الناس يصرخون، بعضهم يصرخ مهدداً، وآخرون متلذذون، وآخرون يصرخون من الخوف، نظر جوزيه أنايسو وجوانا كاردا دون أن يفهما ما يحدث، حينها بدأت الكتلة الكبيرة تتطاير،

تشكلت فى هيئة إسفين، على هيئة جناح، على هيئة سهم، وبعد أن دارت ثلاث دورات سريعة، خرجت الزرايزر منطلقة باتجاه الجنوب، عبرت النهر، واختفت فى الأفق البعيد. الفضوليون والمهرجون الذين تجمعوا، أطلقوا صيحات الإعجاب والدهشة، وأيضاً صيحات خيبة الأمل، بعد دقائق قليلة بقيت الحديقة خالية، بدأ الشعور بالحرارة مجدداً، كانا وحيدين، رجل وامرأة، وبينهما عصا من فرع شجرة دردار وحقيقية سفر. قال جوزيه أناسو، "أعتقد أنها لن تعود أبداً"، وقالت جوانا كاردا، "وأنا سأحكي لك الآن ما حدث لى".



بعد التعرف على خطورة الأشياء المحكية، فإن
الحذر أوجب عدم سكن جوانا كاردا فى ذلك الفندق
الشهير، الذى لا تزال على أسطحه شباك الصيد
تنتظر، بلا فائدة، أن تأتى الزراير. كان القرار ذكياً،
لأنه يمكنه تأكيد نظرية التشوش مرة أخرى، ذلك
الذى يتضمنه المثل حول طلبة الصيد والأرانب، لأنها
فى هذه الحالة ستسقط مع الثلاثة المشتبه فيهم، هذا
إذا لم يكن قد أتهموا كمجرمين بالفعل، إن وجود امرأة
تمارس الفنون الغيبية. لو أعدنا صياغة ما كُتب فى
كلمات أقل زخرفة ومن خلال جمل مخففة، فإن هذا
دفع جوانا كاردا إلى السكن فى فندق أبعد قليلاً، فى
فندق بورخيس، فى قلب حي التشيادو، ومعها حقيبتها
وعصاها الدردارية، من المؤسف أنها ليست مركبة من
أجزاء فيمكن طيها، مما يجعلها محط أنظار من تمر
بهم، وفى استقبال الفندق، كان عليها أن تتقبل سخرية

أحد العاملين وترد على تعليقاته حول الفوارق بين عصا وأخرى، فقد أجابت جوانا كاردا بالصمت، في النهاية لا يوجد أى قانون يمنع نزيراً من أن يصطحب إلى غرفته فرع شجرة بلوط، وبالطبع فإن فرعاً نحيفاً، لا يصل طوله إلى مترين، سهل حمله في المصعد، وإذا تم وضعه في ركن الغرفة يكاد لا يظهر.

تحدث جوزيه أنيسو وجوانا كاردا كثيراً، حتى بعد مغيب الشمس، تخيلوا، لقد قلبا الموضوع على جميع الأوجه التي يمكنهما عملها وانتهيا إلى نتيجة مؤداها، إذا لم يكن هناك شيء طبيعي، فإن الأحداث وقعت كأنما كانت هناك حالة طبيعية جديدة حلت محل الحالة الطبيعية القديمة، ولكن بلا اهتزاز ولا ارتجاج أو تغيير في الألوان، التي من ناحية أخرى، لو حدثت فإنها لن توضع شيئاً. الخطأ خطؤنا نحن، وبسبب الميل نحو الدراما والتراجيدية، والحاجة إلى ارتداء الصنادل والإشارات المبالغ فيها، سقطنا في السحر، مثلاً، أمام لحظة الولادة، فإن ضجة الشهيق والبكاء والصراخ، تدفع الجسد أن ينفث مثل حبة تين ناضجة ويقذف جسداً آخر إلى الخارج، وهذا يسحر، نعم يا سيدي، ولكن ما رأيناه لم يكن أقل سحراً، لأن القذف الساخن داخل المرأة، والسابق القاتل، وبعدها التصنيع البطيء لكائن ينمو تلقائياً، حقيقة أن هناك مساعدات خارجية، ولكن هذا يكون بعيداً جداً، وهذا ما يُكتب، مع عدم القدرة على تجاهل ما حدث حينها، وأيضاً علينا أن نعترف، فإن كانت لا تعرف الكثير عن

ما يحدث الآن. لا تعرف جوانا كاردا، ولا تستطيع أن تقول أكثر من هذا، لقد كانت هذه العصا على الأرض، ورسمتُ بها خطأً على التراب، فإذا كانت هذه الأشياء تحدث لأننى فعلت هذا، من أكون أنا لأؤكد هذا، وهذا ما يجعلنا فى حاجة إلى أن نذهب لنرى، تناقشا وعادا إلى النقاش حتى حل الليل عندما انفصلا، هى إلى فندق بورخيس فى أعلى الشارع، وهو إلى برانجنسا فى أسفل الشارع، ذهب جوزيه أنيسو متحسراً لأنه لم يسأل عن صديقيه، إنه ناكراً للجميل، كان يكفيه ظهور امرأة حكّاءة لحكايات خيالية ليقضى المساء بطولة مستمعاً إليها، لنحيد بالجملة قليلاً، ربما لإقناعه، بأنه ليس الحل كثيراً من الأشياء، ولنقله على طريقتنا. عند مدخل الفندق رفع جوزيه أنيسو عينيه، لم يجد أثراً للزراير، لقد مر ظل قاتم سريع كما لو كان لمسة فطنة، إنه وطواط يصطاد ذبابه أو غبش ليلى. الكومبارس يحمل البالونة مضاءة، يقف هناك ليحى الداخل، لكن جوزيه أنيسو لم يلق عليه ولو نظرة سأم، سيقضى ليلة سيئة ما لم يكن بدرو أورثى وجواكيم زازا قد عادا.

تُرى هل عادا، ينتظران فى صالة الانتظار، جالسان فى نفس الكرسيين اللذين كان قد جلس عليهما جوانا كاردا وجوزيه أنيسو، وإن لم يكن هناك من يؤمن بمثل هذه التوافقات، رغم أن التوافقات هى أكثر ما يحدث الآن، فى هذا العالم، حتى لو لم تكن توافقات خاصة ومنطقية للعالم، توقف جوزيه أنيسو

فى مدخل الصالون، وبدا له كما لو أن كل شىء يتكرر، ولكن ليس الآن، وقف ثابتاً على الأرض الخشبية، مسافة الخطوات الأربع هى نفسها مسافة الأربع خطوات، لم يكن هناك فراغ ولا قفزة ما بين الحياة والموت، تحركت السيقان بشكل عفوى، وبعدها تحركت الأفواه لتقول ما هو منتظر منها، سأل جواكيم زازا، "هل ذهبت للبحث عنا؟"، لكن سؤالاً بسيطاً لا ينم عما يجب أن يجيب عليه جوزيه أنايسو ببساطة، "نعم أو لا"، كلتا الكلمتين حقيقة، وكلاهما تكذب، صعب جداً شرح المسألة، لهذا وضع لنفسه سؤاله الخاص، وهو سؤال شرعى وطبيعى كالسؤال الآخر، "يحق الشياطين أين كنتما كل هذه الساعات؟"، يبدو واضحاً أن بدرو أورثى متعب، وهذا ليس غريباً، إنها السن، مهما يقول المتصلبون، فالسن لها أحكامها، ولو كان شاباً ما كان له أن يخرج من بين أيدي الأطباء أكثر صحة منه، اختبار بعد آخر، تحليلات، أشعات، اختبارات صوتية فى الأذنين، الكشف على قاع العين، موجات كهرومغناطيسية، ليس غريباً أن تثقل جفونه كالرصاص، يقول، "إننى أموت من النعاس، كاد هؤلاء الخبراء البرتغاليون أن يقتلوني"، تقرر هناك أن بدرو أورثى لن يخرج من غرفته حتى ساعة طعام العشاء، وحينها سيهبطون لتناول شربة دجاج وصدر دجاج، رغم أن شعورهم بالجوع ليس كبيراً، يشعرون كما لو كانت المعدة مليئة من سواكل الأشعات، أبدى جواكيم زازا ملاحظة، "لكنك أنت لم يجرؤوا معك أشعة المعدة"،

”بالطبع لا، ولكنى أشعر كما لو فعلوها معى”، كانت ابتسامة بدرو أورثى خافتة كوردة ذابلة. قال جوزيه أنايسو، ”يمكنك أن تبقى لتستريح، فجواكيم وأنا سنذهب لتناول العشاء فى أى مطعم، سنتحدث عما جرى، وعند عودتنا سنطرق على بابك، لنطمئن عليك”، ”لا تطرقا الباب، من المؤكد أننى ساكون نائماً، ما أحتاجه الآن هو النوم اثنتى عشرة ساعة دفعة واحدة، إلى اللقاء فى الصباح”، وإنسحب مجرّجراً قدميه. ”يا له من رجل مسكين، ترى فى أية مغامرات وضعناه”، قال هذا جوزيه أنايسو. ”وأنا أيضاً طحنونى بالأسئلة والاختبارات، ولكن ليس هناك مقارنة بما فعلوه معى، يذكرنى هذا بقصة قرأتها قبل سنوات، عنوانها (برى بين أيدى الأطباء)، من تأليف رودريجيث ميجيس”، ”بالضبط”.

وهما فى الشارع قررا القيام بنزهة بذات الحصانين، كان الوقت مبكراً لتناول العشاء، ويمكنهما تبادل أطراف الحديث بكل راحة. بدأ جواكيم زازا الحديث، ”لقد كان التشوش شاملاً، أمسكوا بنا لأنه ليس لديهم شئ آخر، يعنى، من الآن فصاعداً سيكون لديهم الكثير، مؤكد أنه بإذاعة الخبر فى التلفزيون، بالأمس واليوم فى الصحف، هل قرأت مانشيتات هذا المساء؟ إنهم مجانين، ستهمز على رؤسهم سيول من البشر يقسمون إنهم أيضاً يشعرون باهتزازات الأرض، وأنه بسحب جرة من النهر خرجت حورية، وأن الببغاوات المنزلية تصدر أصواتاً غريبة”، ”هذا يحدث

دائماً، فالخبر ينتج أخباراً، لكن من المؤكد أن طيورنا لن نراها بعد الآن"، "لماذا، ماذا حدث؟"، "أعتقد أنها اختفت"، "هكذا ببساطة، وبدون أى سبب، بعد أن تبعتك فى الشمس والظل طوال أسبوع كامل"، "هذا ما يبدو"، "هل رأيتهما؟"، "نعم رأيتهما، كانت تعبر النهر باتجاه الجنوب ولم تعد"، "وكيف عرفت أنها ذاهبة نهائياً، هل كنت فى نافذة الغرفة"، "لا، ذهبت إلى حديقة بالقرب من هنا"، "إذاً بدلاً من هذا كان يمكنك أن تذهب بحثاً عنا لتعرف ما حدث لنا"، "كانت هذه فكرتى، وبعدها ذهبت إلى الحديقة وبقيت هناك"، "كنت تستمتع بنسيم المساء"، "كنت أتحدث مع امرأة"، "آه، هيا، يا لك من صديق طيب أنت، نحن نعانى وأنت خرجت للبحث عن الحب، بما أنك لم تستطع أن تدغدغ عالمة آثار غرناطة، جئت هنا لتعوض"، "لم تكن عالمة آثار، كانت أنثروبولوجية"، "لا فارق"، "هذه فلكية"، "اللجنة"، "الحقيقة أنا لا أعرف من تكون، مسألة أنها فلكية نتيجة شيء قلته لها"، "حسناً، الحكاية حكايتك، وليس لى أن أتدخل فى حياة الآخرين"، "بالطبع لك أن تتدخل، ما حكته لى له علاقة كبيرة بما يحدث معنا"، "آه، هل كانت واحدة من قاذفات الحجارة"، "لا"، "إذاً هى تشعر بالاهتزازات"، "لا تزال بعيداً عن الحقيقة"، "هل الكنارى غير ألوانه"، "انظر يا صديقى، بسخريتك هذه لن تصل إلى الحقيقة"، "معذرة، لأنى متعب، فلا أستطيع أن أنزع من رأسى أنك لم تأت بحثاً عنا"، "لقد قلت لك إن

هذه كانت نيتي، لكن ظهرت المرأة في الوقت الذي كنت أستعد فيه للخروج، كنت سأبدأ بسفارة إسبانيا، ظهرت وقالت إن لديها حكاية تريد أن تحكيها، جاءت ومعها عصا في يدها، ومعها حقيبة صغيرة، ترتدي بنطلوناً وجاكناً أزرق، شعرها أسود، وبشرتها بيضاء، لون العينين لا أعرف بالضبط، من الصعب وصفها، "يا لها من تفاصيل مهمة لحكاية شبه الجزيرة، لم يعد ينقص سوى أن تقول إنها جميلة"، "إنها جميلة بالفعل"، "شابة"، "يمكننا أن نقول كذلك، إنها شابة، وإن لم تكن في طور المراهقة"، "ما أفهمه، أنك وقعت في حبها"، "هذا أكثر من الحقيقة، لكني شعرت أن الأرض تميد بي"، "لم أسمع بهذا التعبير من قبل"، "أهدأ"، "إلا إذا كنت قد شربت كأساً أكثر من المطلوب ولا تتذكر شيئاً"، "أهدأ"، "إذاً نعم، لنهدأ ونرى، ماذا كانت تريد المرأة ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط، وأي عصا كانت تلك؟"، "العصا من شجر الدردار"، "لا أعرف الكثير عن هذا النبات، ماذا تعني الدردار؟"، "قريبة من عائلة شجيرات البلوط، ولو تسمح لي بملحوظة بهذه المناسبة، لك طريقة ممتازة في الاستجواب"، انطلق جواكيم زازا ضاحكاً، "يمكن أن أكون قد تعلمتها اليوم من هؤلاء الأساتذة الأفاضل الذي أسأموني، معذرة، استمر في حكاية المرأة تلك، هل لها اسم معين، إضافة إلى ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط"، "اسمها جوانا كاردا"، "لقد عرفنا، لنذهب إلى الموضوع مباشرة، تخيل أنك نعثر على

عصا ملقاة فى الطريق، وتضييماً للوقت أو دون أى سبب محدد، ترسم بها خطأ على الأرض"، "أنا فعلت هذا مرات عديدة فى طفولتى"، "وماذا حدث؟"، "لا شىء، عادة لا يحدث أى شىء، وفى الحقيقة، إنها خسارة، تخيل أن ذلك الخط جرى رسمه، ولأسباب سحرية أو شىء من هذا القبيل، فيحدث صدع فى البرانس، وتنقسم جبال البرانس من أعلى إلى أسفل، وتبدأ شبه الجزيرة الأيبيرية فى الإبحار إلى أعماق البحر"، "هذه الجوانا مجنونة"، "كانت هناك واحدة، لكن هذه لم تأت إلى لشبونة لتقول لنا إن شبه الجزيرة انفصلت عن أوروبا، لأنها رسمت خطأ على الأرض"، "شكراً، ويا إلهى، ولا يزال حتى الآن هناك جدية فى هذا العالم"، "ما تقوله إن الخط لا يختفى، لا بالهواء، ولا حتى بإلقاء الماء عليه، ولا بخدشه، ولا كنسه بمكنسة، ولا بالمشى عليه بالقدمين"، "إنها أشياء بلهاء"، "ليس كما تصبح أنت أكبر قاذف أثقال فى جميع الأزمنة، ستة كيلوجرامات تقذفها إلى مسافة خمسمائة متر، ولا حتى هرقل، رغم أنه نصف إله، يمكنه أن يتخطى رقمك القياسى"، "تريد أن أصدق أن الخط المرسوم فى الأرض، على التراب، ألم يكن فى التراب؟ أليس كذلك؟ ويظل رغم الرياح، والماء، والمكنسة"، "ولو أدخلت فيه فأساً، يعود إلى حاله، إنه أمر مستحيل"، "لم تقل شيئاً جديداً، أنا قلت ذات الكلمات قبلك، وجوانيتا ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط، لم تفعل شيئاً سوى أن تجيب"، "فقط تذهب

لترى هناك أو فقط تذهب لترى، لا أعرف جيداً، صمت جواكيم زازا، وكانا حينها يمران أمام الصليب المعقوف، يا له من رمز ديني يختفى فى هذه الكلمات المكشوفة، وقال جوزيه أنيسو، "كل هذا عبث لو لم يكن يجرى بالفعل"، وسأل جواكيم زازا، "لا يزال يجرى فى الحقيقة؟".

كان لا يزال هناك بعض ضوء النهار، كافٍ لرؤية البحر حتى الأفق، من هذا المرتفع الذى ينزلق باتجاه كايشاس مما يجعله يغطى كل مناطق المياه العميقة، ربما لهذا السبب همهم جوزيه أنيسو، "إنها أشياء أخرى"، أما جواكيم زازا الذى لم يستطع معرفة عن أى أشياء أخرى يتحدث، سأل، "من؟"، "المياه، تلك المياه، إنها مختلفة، هكذا يتغير شكل الحياة، يتغير دون أن نلاحظ، كنا ساكنين واعتقدنا أننا لم نتغير، خداع، خداع صافٍ، كنا نسير مع الحياة"، كان البحر يضرب جوانب الطريق بقوة، لم يكن مفاجئاً، وأيضاً تلك الأمواج أمواج أخرى، معتادة على التحرك بحرية، بلا شهود، عدا عند مرور قارب صغير، وليس الحوت المعاصر، الذى يشق المحيط، قال جوزيه أنيسو، "تتعشى هناك، فى منطقة باسو دى أركوز، نعود بعدها إلى الفندق، لنرى كيف حال بندرو"، "يا له من رجل مسكين، كانوا على وشك القضاء عليه"، تركا ذات الحصانين فى شارع جانبي، وانطلقا بحثاً عن مطعم، لكن قبل أن يدخلوا قال جواكيم زازا، "خلال الاختبارات والتحقيق سمعت شيئاً لم أفكر فيه أبداً،

كانت كلمة واحدة لكنها كانت كافية، إن من قالها ربما اعتقد أنني لم أكن واعياً، "ماذا؟"، "حتى الآن، فإن شبه الجزيرة، أنا أعرف أنها لم تعد شبه جزيرة، لكن بحق الشياطين كيف نسميها، إنها كانت تتحرك في خط مستقيم، ما بين خطى طول ٢٦ و ٤٣"، "وماذا يعنى هذا؟"، "ربما كنت معلماً جيداً في مواد أخرى، لكن في الجغرافيا يبدو أنك لست كذلك"، "لا أفهم؟"، "ستفهم لو تتذكر أن جزر الأزور توجد في ما بين خطى طول ٣٦ و ٤٠، "اللجنة"، "سمها ما شئت، سمها ما شئت، إن شبه الجزيرة ستترطم بالجزر"، "بالضبط"، "ستكون أسوأ كارثة في التاريخ"، "ربما نعم، وربما لا، وكما ذكرت قبل لحظة، إن كل هذا يصبح عبثاً لو لم يكن يجرى، والآن هيا نتعشى".

جلسنا إلى المائدة، اختارنا أطباق الطعام، كان جواكيم زازا جائعاً، فانقض على الخبز، والزبد، والزيتون، والنبيد، بشكل كانت ابتسامته تطلب المائدة، "إنها آخر عشاء للمحكوم عليه بالإعدام"، بعدها بدقائق فقط سأل، "وفتاة العصا، أين هي الآن؟"، "إنها تنزل في فندق بورخيس، في التشيادو"، "اعتقدت أنها من لشبونة"، "هي لا تعيش في لشبونة، هذا ما قالته لي، لكنها لم تقل أين وأنا لم أسألها، فكرت أنه يمكننا أن نذهب معها"، "لماذا؟"، "لنرى الخط على الأرض"، "أنت أيضاً لديك شكوك"، "أعتقد أن لدى شكوكاً، لكنى أعتقد أن رؤيته بعيني ولسه بيدي"، "أنت كالرجل راكب الحمار بيلا تيرو، على طرق جبال سيرا مورينا

وأراثينا"، "لو أنها كانت تقول هي الحقيقة، أكثر من رؤيتنا لروكي لوثنانو، الذى لن يرى سوى الماء عندما يصل إلى وجهته"، "كيف تعرف أن اسمه روكي لوثنانو، لم أذكر أننا سألناه عن اسمه، عن اسم حمارة نعم سألناه، لكن اسمه هو؟"، "قد أكون حلمت به"، "وهل يزيد بدرو أن يرافقنا"، "رجل يشعر بأن الأرض تهتز تحت قدميه فى حاجة إلى رفقة"، "كيف شعور الإنسان بالأرض تميد تحت قدميه، "ليرحمنا الله". المسكينة ذات الحصانين بدأت تبدو صغيرة لتحمل كل هؤلاء الناس، أربعة أشخاص بحقائقهم، ولو كان مجرد تجربة، لقد بدأت السيارة المسكينة تشيخ، لا أحد يستطيع أن يهرب من مصيرة"، "أنت حكيم"، "من حسن الحظ أنك اقتنعت"، "كان يبدو أن رحلاتنا انتهت، وكل منا سيذهب إلى بيته، ويمارس الحياة اليومية"، "سنذهب إلى الحياة اليومية، لنرى ماذا ستعطينا"، "مادامت شبه الجزيرة لم ترتطم بالآزور"، "ولو كانت تلك النهاية، وحتى يحدث هذا فإن حياتنا مضمونة".

أنهوا عشاءهم، عادوا فى طريقهم بهدوء، بالخطوة القصيرة لذات الحصانين، كان المرور قليلاً على الطريق، ربما بسبب نقص الوقود، من حس حظهم أن موتور السيارة منخفض الاستهلاك، "هذا لا يعنى أننا بعيدون عن أن نجد أنفسنا على الطريق بلا معين، حينها ستكون الرحلة قد انتهت فعلاً"، ألقى جواكيم زازا بتلك الملاحظة وفجأة تذكر، "من هنا قلت

أن الزرازير قد رحلت نهائياً"، "يمكن لأي إنسان أن يفرق بين مع السلامة، وإلى اللقاء"، لكن لماذا؟"، "لا أعرف ماذا أقول، لكن هناك تطابقاً، الزرازير ذهبت بمجرد ظهور جوانا"، "جوانا، آه، هل هذا اسمها؟"، "كان يمكنك أن تقول تلك المرأة، الفتاة، البنت، هكذا يتم التعبير عن الخجل الذكوري عندما ينطق اسم امرأة يبدو هذا أكثر حميمية"، "مقارنة بحكمتك أنا أكون في قمة السذاجة، لكن كما قارنت منذ قليل، ذكرت أنا اسمها بكل طبيعية، دليل على أن حميميتي ليس فيها شيء بهذه المسألة"، "عدا إذا كانت أكثر ميكافيلية مما تظهر عليه، محاولاً التدليل على العكس مما تفكر أو تشعر حتى أصدق أن ما تشعر به أو تفكر فيه تحاول أن تريدني أن أدلل عليه، لا أعرف إن كانت قد اتضحت فكرتي أم لا؟"، "لا ليس واضحاً، لكن لا يهم، الوضوح والغموض لهما الظل نفسه والنور نفسه، ما هو غامض واضح، وما هو واضح غامض، وعندما تكون هناك حقيقة ما يمكنها أن تقول الكلمة الحقيقية المعبرة لما تشعر أو تفكر، أرجوك ألا تصدقها، ليس لأنك لا تريد، ولكن لأنه ليس ممكناً"، "إذاً لماذا يتحدث الناس كثيراً"، "لأنه الشيء الوحيد الذي نستطيع فعله، الكلام والكلام، ولا حتى مجرد كلام، كلها تجارب أو محاولات"، "ذهبت الزرازير وجاءت جوانا، ذهبت رفقة وأخرى جاءت، يمكنك أن تقول إنك رجل محظوظ"، "هذا غير واضح حتى الآن".

فى الفندق كانت هناك رسالة من بدرو أورثى لجواكيم زازا، رفيقه فى المشاكل، "لا توقظونى"، وأخرى تليفونية من جوانا كاردا، لجوزيه أنيسو، كل شىء كان حقيقياً، لم تكن تحلم"، من خلف كتف جوزيه أنيسو جاء صوت جواكيم زازا ساخراً، "السيدة ذات العينين اللتين لا أعرف بالضبط، تؤكد أن كل شىء حقيقى، وبالتالى، لا تضيع الوقت حالماً بها هذه الليلة". صعدا السلم باتجاه الغرف، قال جوزيه أنيسو، "غداً، مبكراً، سأهاتفها لأقول لها إننا سنذهب معها لو وافقت أنت على ذلك"، "وهو كذلك، ولا تهتم كثيراً بما أقوله لك، فى أعماقى، معروف، أن ما يدفعنى إلى الحديث هو الحسد"، "الحسد على الظواهر تضییع للوقت"، "حكمتى تهمس لى أن المظهر، ليس كذلك، ولهذا يجب أن يحكى كل منا للآخر"، "ليلة طيبة، يا حكيم"، "أحلام سعيدة، يا رفيقى".



فى سرىة تامة؁ ودون إثارة للشبهات بين سكان
البلدين؁ أعدت الحكومتان ومؤسساتهما العلمىة
تحقيقاً حول الحركة البارعة التى تجرُّ شبه الجزيرة
إلى عمق البحر باستمرارىة غامضة وثبات لا ينقطع.
لمعرفة كيف ولماذا تصدعت جبال البرانس؁ وهى
الفكرة التى كانت قد أُسْتُبعِدَت من قبل؁ كان أملاً
ضائعاً استمر لأيام قليلة. رغم المعلومات المتراكمة
الذى تم جمعها؁ فإن أجهزة الحاسوب؁ الثابتة؁ كانت
تطلب مزيداً من المعلومات أو تعطى إجابات متناقضة
جداً؁ مثل ما حدث فى معهد ماسشويستس الشهير؁
الذى احمرت وجوه مبرمجيهِ خجلاً من الإجابة التى
قدمتها أجهزتهم؁ "نتىجة تعرض زائد لأشعة الشمس"؁
تخلوا؁ فى البرتغال؁ ربما لاستحالة ذلك؁ حتى اليوم؁
لم يتم تنقية لغة الاستخدام اللىومى من بعض
المصطلحات المهجورة؁ أقرب النتائج التى أمكننا

الحصول عليها كانت، "ذهاب الإبريق كثيراً إلى النافورة يؤدي في النهاية إلى كسره"، كناية تفيد فقط لمزيد من التشويش على الأرواح، لأن الموضوع لا علاقة له بالإبريق، ولا بالنافورة، لكن ما أمكن كشفه هو عنصر واحد، بطبيعته، وحسب حدوثه، لا يمكن أبداً معرفة نهايته، وهو ناتج الأحداث الجارية، فهو شيء مثل "نقطة، نقطة يمثل الحوض"، وهي صيغة، للغرابة، لم تعبر عنها أجهزة الحاسوب أبداً، ولكن ما بين هذه والأخرى مؤكد أن هناك تشابهاً، في الحالة الأولى ثقل الماء في الإبريق، وفي الحالة الثانية لا يزال يتعلق الأمر بالماء، لكن نقطة، نقطة، في سقوط حر، إنه الزمن، هو العنصر الآخر المشترك.

إنها فلسفات شعبية يمكننا الحديث عنها إلى ما لانهاية، لكنها لا تهم علماء الجيولوجيا ولا علماء المحيطات في قليل أو كثير، استجابة للأرواح الأكثر بساطة، فإن القضية يمكن تلخيصها في سؤال مبدئي، في عبقريته يمكنه أن يذكرنا بذلك الجيليقي الذي كان بالقرب من نهر إيراني عندما كان هذا النهر ينحدر إلى أعماق الأرض، إذا لم تكن قد خانتكم الذاكرة، "إلى أين يذهب الماء؟"، أراد أن يعرف، سنطرح هذا السؤال الآن بطريقة أخرى، "ما الذي يحدث مع المياه في جوف الأرض؟"، هنا، بأقدام ثابتة على الأرض، والنظر إلى الأفق، أو عبر الهواء، كما يفعل المراقبون الذين يواصلون دون كلل، فإن شبه الجزيرة تبدو قطعة من الأرض المتماسكة، تؤكد على

الفاعل، تبدو كما لو كانت تبهر على سطح الماء"، لكن من الواضح أنها لا تستطيع الإبحار، لأنه من أجل أن تُبهر يجب أن تكون قد انفصلت في الأعماق أيضاً، وهي حالة ستدفع بها حتماً إلى الارتكاز على الأعماق مجدداً، لأنه، حتى لو افترضنا أن عناصر قانون الدفع يمكن أن تتحقق ولن يطرأ عليها تغيير كبير، فإن تفتت الماء والتيارات البحرية ستتحرك تدريجياً وتخفف من سمك الطبقة المبحرة حتى تقضى على سطحها تماماً"، وبالتالي، ونتيجة احتكاك الأجزاء، علينا أن نفكر في أن شبه الجزيرة تنزلق على نفسها، على عمق مجهول، كما لو كانت قد انقسمت بشكل أفقي إلى مسطحين، جزؤها السفلي يشكل جزءاً من الأرض، والعلوي، كما شرحنا من قبل، ينزلق ببطء في أعماق الماء، بين سحابات من الطمي والأسماك المرتبة، وتصبح بذلك مبحرة في الأعماق، في مكان ما من المحيطات، تماماً كالهولندي الطائر وذكرياته الحزينة. النظرية لها جاذبية خاصة وبها غموض، وبقليل من التخيل يمكنها أن تشكل فصلاً ساحراً في رواية مثل، "عشرون ألف فرسخ من رحلة تحت الماء". لكن تلك كانت أزمنة أخرى، والعلم اليوم أكثر صرامة، وإذا لم يكن من الممكن اكتشاف ما الذي يدفع شبه الجزيرة للتحرك على أعماق الماء، فليذهب من يذهب ليرى بعينه، ليرى المعجزة، ويصور انزلاق هذه التشكيل الحجري الضخم، ويسجل ربما هذا الصوت الذي يشبه صرخة الحوت، هذا الصرير، وهذا التمزق الأبدي. إذًا لقد حانت ساعة الغطاسين.

معروف، أنه لا يمكن الغطس إلى أعماق سحيقة أو لمدة طويلة، سواء أمكن لصياد اللؤلؤ أو الإسفنج، أو الأعشاب المرجانية، الفوص حتى خمسين متراً، بل وحتى سبعين، ويمكنه أن يحبس الهواء لثلاث أو أربع دقائق، لأنها مسألة تتوقف على التدريب والحاجة. المسألة هنا تتطلب أعماقاً أخرى، والماء أكثر برودة، وحتى مع حماية الجسم بتلك الملابس الكاوتشية التي تغير شكل جسد أى إنسان، سواء رجلاً كان أم امرأة، وتحوله إلى ذلك الشكل الخرافى الأسود بخطوط وأطراف صفراء. حينها لا بد من اللجوء إلى زجاجات الهواء المضغوط، وأحدث التقنيات التي تهدف إلى استخدام ألف وواحد من الأمان، ويمكنهم الوصول إلى أعماق تصل إلى مائتين أو ثلاثمائة متر. من هذا العمق إلى ما هو أسفل لا يجب المجازفة، ولذلك يجب إرسال الآلات الموجهة إلكترونياً، مدعمة بكاميرات التصوير والكاميرات التليفزيونية، وأجهزة حساسة، ومجسات لمسية وعالية التردد، كل الأجهزة المناسبة لتحقيق الهدف المنشود.

بحرص شديد، وفى الساعة نفسها، للحصول على أفضل نتائج لعمليات المراقبة، بدعوا فى عمليات على شواطئ الجنوب والغرب، تحت غطاء مناورات بحرية فى إطار برنامج تدريبى لمنظمة حلف شمال الأطلسى، تجنباً لنتائج الإعلان عن اختبارات جديدة وما يمكن أن يدفع إلى إثارة حركة جديدة من الذعر، لأنه حتى الآن وبشكل غامض، لم يخطر على بال أحد

أن شبه الجزيرة تنزلق على ما كان يمثل قاعدتها منذ آلاف السنين. لقد حانت ساعة الكشف عن أن العلماء يخفون قلقاً مزعجاً، نتج لسوء الحظ عن تلك الفرضية نفسها القائمة على فرضية القطع الأفقى العميق، ويمكن تلخيصه فى تساؤل جديد مرعب لبساطته، "ماذا يحدث لو مرت شبه الجزيرة فى طريقها بفراغ فى الأعماق، لأنه فى هذه الحالة، سنختفى الطبقة السطحية المتواصلة التى تدعم الحركة؟"، باللجوء، كما هى العادة دائماً، كنوع من الفهم الجيد للوقائع، إلى تجربتنا الخاصة، وفى هذه الحالة تجاربنا كسباحين، سنفهم تماماً ما يعنيه هذا لو تذكرنا ما يحدث، من رعب وكرب، عندما تفقد القدم موضعها بشكل مفاجئ عندها لن تجدى الخبرة السباحية. عند فقدان شبه الجزيرة لقدم، أو لأقدام، فإن الغرق سيكون الغطس المحتوم، وبالتالي الفوص والفرق، والاختناق، من كان يصدق هذا، أنه بعد قرون عديدة من الحياة البائسة، محكوم علينا بأن نلقى مصير قارة أتلانتا.

نوفر بعض التفاصيل التى سيكشف عنها فى يوم من الأيام من لهم اهتمام بالحياة البحرية، والتى تعتبر فى هذه اللحظة سراً كاملاً، توج فقط فى سجل القبطان، ومذكرات وسجلات سرية للغاية، وبعض الوثائق المشفرة. نكتفى بالقول بأن الشكل القارى تم فحصه بدقة، وبلا فائدة تذكر. لم يتم العثور على أى صدع ولو صغير، عدا الصدوع القديمة، ولا أى

احتكاك غير طبيعي سجلته الميكروفونات. بعد أن فشلت هذه الفرضية، لم يكن سوى الجحيم. أنزلت رافعة المهندسين المدربين على تحمل الضغط العالي، وهؤلاء فى أعماق البحر الصامتة، بحثوا، وبحثوا ولم يجدوا شيئاً. الفواصة أرشميدس، إحدى عجائب البحث فى الأعماق، تحركت تحت إدارة أصحابها الفرنسيين، هبطت إلى أقصى أعماق فى المنطقة المحيطة بالقاعدة السطحية، باستخدام الكشافات واللواقيط والمجسات الإلكترونية، والموجات الصوتية من مختلف الأنواع، ومسحت أفق ما تحت الماء بالموجات الصوتية لالتقاط صورة عامة، بلا فائدة. والجروف الطويلة، والانزلاقات الرأسية، والمساقط القائمة تبدو بعظمتها، ومحتفظة بجلالها الأصلي، كانت الأجهزة تسجل، بكثير من الضربات والأضواء التى تشتعل وتطفئ، بين التيارات الصاعدة والهابطة، تصور أسماكاً، وتجمعات السردين، ومستعمرات الميرلوثة، وجيوش التونة، وعوامات الجمبرى، وأسماك السيف. لو كانت أرشميدس تحمل فى باطنها معملًا مجهزاً بكل ما يحتاجه من مذيبات ومحللات وغيرها من الكيماويات، لفصلت العناصر الطبيعية الذائبة فى المياه المحيطية، من يعرف، بالترتيب التنازلى كمياً ولتقديم المساعدة الثقافية لمجتمع لا يتصور إن كانت هناك أشياء أخرى فى البحر الذى يسبحون فيه، من الكلور والصوديوم والمغنسيوم، والفوسفور، والجير، والبوتاس، والنتروجين والحديد والنيكل والمنجنيز

والتيتان والضحمة، والفضة والذهب، يا لهذا الثراء، يا إلهي، ويقولون إنه يندر وجودها على اليابسة، لكن من يتمكن من الوصول إلى الأعماق يمكن أن يشرح ما يحدث، أمام أعين الجميع، يحدث هذا، ويؤكد. عالم أمريكي متشائم ومعه علماء آخرون مشهورون، وصل تطرفه إلى حد المطالبة على سطح السفينة العلمية، ما بين الرياح والآفاق، "أعلن أنه من المستحيل أن تتحرك شبه الجزيرة"، لكن عالماً إيطالياً، أقل خبرة لكنه مدعّم بالحنكة التاريخية والعلمية، همهم، وإن لم يكن صوته منخفضاً لا يسمعه ذلك الكائن الذي يسمعه الجميع، "Eppur si muove" بأيدي خالية، وجافة بفعل الملح، اكتفت السلطات بإصدار بيان يقول إنه تحت رعاية الأمم المتحدة بدأ إجراء اختبارات حول التأثيرات السلبية لحركة شبه الجزيرة على أنواع الأحياء المائية. هذا ليس لأن الجبل تمخض عن فأر، ولكن لأن المحيط أنجب سمكة صغيرة.

سمع المسافرون الأخبار عند الخروج من لشبونة، ولكنهم لم يهتموا بها كثيراً؛ لأن الخبر جاء بين أخبار أخرى متعلقة بابتعاد شبه الجزيرة، وما هي الأهمية، التي يمكن أن تكون لأي من الأخبار الأخرى. يعتاد الإنسان على كل شيء، والشعوب اعتيادها أسهل وأسرع. ففي النهاية كما لو كنا نساfer على سفينة هائلة الحجم، كبيرة إلى درجة أنه يمكن الحياة عليها ما تبقى من العمر دون رؤية المؤخرة أو المقدمة، لم تكن شبه الجزيرة تشبه سفينة عندما كانت مربوطة

إلى أوروبا، وكان هناك كثير من الناس لا يعرفون عن الأرض أكثر من المنطقة التي ولدوا فيها، قل لي إذاً، من فضلك، أين يكمن الاختلاف. الآن أصبح جواكيم زازا وبدرو أورثي أحراراً من ثورة التحليل العلمى وليس هناك ما يخافانه من السلطات، يمكن لكل منهما أن يعود إلى بيته، وأيضاً جوزيه أنايسو، الذى هجرته الزراير فجأة، لكن تلك المرأة التى ظهرت، تسببت فى أن يعود كل شىء إلى البداية، هناك شىء من ناحية أخرى، يحدث دائماً، ولم يكن دائماً بطريقة جذرية. كان ذلك بعد لقاء فى هذه الحديقة نفسها، التى كان فيها بالأمس جوانا كاردا وجوزيه أنايسو، عندما قرر الأربعة، وبعد فحص ودراسة الأحداث، أن يجتمعوا للسفر إلى المكان الذى أشارت إليه برسمها خطأ على الأرض، إنه خط مثل كل تلك التى رسمها أى شخص طوال حياته، لكنه فريد فى شكله، لو صدقنا العنصر والشاهد، لأنهما موجودان فى شخص واحد، جوانا كاردا التى لم تكشف عن اسم المكان ولا حتى أقرب مدينة إليه، اكتفت بتعليمات عامة، "هيا إلى الشمال، عبر الطريق السريع، بعدها سأبين لكم الطريق". يحذر شديد تنحى بدرو أورثي مع جوزيه أنايسو جانباً ليسأله إن كان يرى أنه من المفيد القيام بتلك المغامرة دون تمعن فى النتائج، تحت تأثير امرأة طائشة تحمل عصا فى يدها، ألا يمكن أن يكون ذلك مصيدة، عملية خطف، حيلة معدة بأحكام، "من يكون؟" أراد جوزيه أنايسو أن يعرف، إجابة بدرو

أورثي، "لا أعرف من يكون؟، ربما يريدون أخذنا إلى
معمل لأحد العلماء المجانين، من أولئك الذين يظهرون
في الأفلام، مثل فرانكنشتين، أو أى من أشباهه"
بابتسامة، علق جوزيه أنايسو، "هناك أسباب كثيرة
للحديث عن الهجرة الأندلسية"، "مخكم يفلئ بقليل من
الماء"، أجابه بدرو أورثي "لا ليس لأن الماء قليل، ولكن
لأن النار حامية"، "لا تنزعج، ما كان يجب أن يحدث
سيحدث"، واقتريا من جديد من الآخرين، اللذين كانا
قد بدءا مناقشة هكذا، "لا أعرف كيف حدث، كانت
العصا على الأرض، أخذتها ورسمت الخط"، "ألم
تفكرى بعدها أنها ربما تكون عصا سحرية؟"، "حتى
تكون عصا سحرية اعتقدت دائماً أنه كان يجب أن
يكون حجمها أكبر من ذلك، ودائماً ما سمعت أن
العصا السحرية مصنوعة من الفضة والبلور، بنجمة
لامعة في أعلاها"، "هل كنت تعرفين أن العصا فرع
شجرة دردار"، "أنا أكاد لا أعرف الكثير عن الأشجار،
لكن، لأجل هذا، فإن مسواك أسنان كان كافياً لإحداث
نفس النتيجة"، "لمَ تقولين هذا؟"، "ما يجب أن يحدث،
يحدث، لا يستطيع أحد أن يمنع حدوثه"، "أنتِ
تعتقدين فى الكوارث؟"، "أنا أعتقد فيما يجب أن
يحدث"، "إذاً كما قال جوزيه أنايسو هذا الصباح لبدرو
أورثي، فهو أيضاً يؤمن به". فى الصباح، كانت الريح
خفيفة كما لو أن شخصاً يعبث بالهواء، ولم يكن يشئ
بأن النهار سيكون حاراً. قال جوزيه أنايسو، "هيا"،
فأجابوا جميعاً، "هيا"، بمن فيهم جوانا كاردا التى
جاءت بحثاً عنهم.

الحياة مليئة بأحداث صغيرة تبدو قليلة الأهمية، وأخرى تحتل في لحظة معينة مجال الاهتمام، وفيما بعد، نقوم بتحليلها على ضوء نتائجها، ومن الممكن أن تنتهي بعض تلك الأشياء التي احتلت أحداثاً مهمة أو على الأقل، كحلقة تربط ما بين مجموعة من الأحداث المتوالية والمهمة، مثال، ما كان هناك مكان لتلك الضجة، التي تبدو مبررة ظاهرياً، إنها ناتجة عن التنظيم الأفضل لحقائب أربعة أشخاص في سيارة صغيرة مثل ذات الحصانين. استحوذت تلك العملية الصعبة على انتباه الجميع، وكل منهم يدلى برأى أو نصيحة بهدف المساعدة، لكن المسألة، أن هذا التزام، الذي يحدد ربما الاستعداد الوقتى لموضع كل واحد من الأربعة في السيارة، وهو إلى جوار من ستسافر جونا كاردا؟. بالطبع من الواضح أنها ستجلس إلى جوار جواكيم زازا، لأنه هو الذى سيقود ذات الحصانين، فى بداية أية رحلة عادة ما يقود السيارة هو صاحبها، نقطة غير قابلة للنقاش ومتعلقة بوضعه، والسائق البديل حين تحين اللحظة، سيكون جوزيه أنيسو؛ لأن بدرو أورثى، بسبب العمر تماماً، ولأنه يعيش فى بلاد غير بلاده، ومهنته خلف المكتب، ولم يغامر إطلاقاً فى تعقيدات القيادة الميكانيكية، والبدالة والعتلة، أما جونا كاردا من المبكر سؤالها إن كانت تعرف القيادة أصلاً. بعرض حيثيات المشكلة، فإن هذين الاثنين يجب أن يسافرا فى المقعد الخلفى، وبالطبع يكون فى الأمام، قائد السيارة ومساعدته. لكن

بدر و أورثي إسباني، وجوانا كاردا برتغالية، ولا أحد منهما يتحدث لغة الآخر، إضافة إلى أنهما تعارفا قبل قليل، ربما يختلف الأمر بعد قليل، عندما يكونان أكثر ألفة. المكان إلى جانب قائد السيارة، ولكن المتطيرين والتجربة يؤكدون أنه مقعد الموت، مع أنه يعتبر عادة مكاناً مميزاً، ولهذا السبب كان يجب عرضه على جوانا كاردا، على يمين جواكيم زازا، فيما يجلس الرجلان في المقعدين الخلفيين، ونعتقد أنه لن يكون سيئاً التفاهم بينهما بعد المغامرات العديدة التي عاشاها معاً. لكن عصا الدردار أكبر من أن تكون في الأمام، ولا يمكن أن تتفصل عن جوانا كاردا لأي سبب من الأسباب، كما فهموا جميعاً. ليس هناك من حل بديل، سوى أن يجلس بدر و أورثي في الأمام، وذلك لسببين واضحين، وكلاهما ممتاز: الأول، كما تبين من قبل، لأنه مكان مميز، وثانياً، لأنه في النهاية فإن بدر و أورثي الأكبر سناً بين جميع من هم هنا، وهو الأقرب إلى الموت، وذلك تنفيذاً، مع قليل من الدعابة السوداء، لما نسميه قانون الحياة الطبيعي. لكن ما لم يتم حسابه حقيقة، وأكثر من كل تلك الأسباب، أن جوانا كاردا وجوزيه أنيسو يريدان أن يكونا معاً في المقعد الخلفي، وبشيء من التملل والتوقف والشروذ الظاهري الذي مثله البعض. "إذاً هيا بنا كل في مكانه".

لم يكن في الرحلة ما يستحق، وهذا ما يقوله عادة الرواة المتسرعون عندما يعتقدون أنه يمكنهم

إقناعنا بعد مرور عشر دقائق أو عشر ساعات لم يحدث ما يستحق الإشارة إليه أو ذكره. من الناحية الانتقائية يصبح أكثر صحة، وأكثر أمانة، أن يُقال هكذا، ليست كل الرحلات، أياً كان طولها أو وجهتها، سيحدث فيها ألف حدث، وألف كلمة، وألف تفكير، ومن يقول ألف يمكنه أن يقول عشرة آلاف، لكن الحكاية تسير ولهذا سمحت لنفسى بالاختصار، وسرت مائتى كيلومتر فى ثلاثة أسطر، كما لو كان أربعة أشخاص فى سيارة قطعوها صامتين، دون تفكير أو حركة، متظاهرين، أن تلك الرحلة لم يكن بها شيء. فى حالتنا هذه، مثلاً، سيكون من المستحيل ألا نعثّر على أى معنى لمسألة أن جوانا كاردا، بكل طبيعية، تجلس إلى جوار جوزيه أنايسو عندما احتل هو مقعد جواكيم زازا، الذى رغب فى الاستراحة من القيادة، ولا نعرف بأية حركات رياضية، تمكنت هى من الجلوس فى الأمام واضعة عصا الدردار أمامها، دون أن تعيق القيادة أو تمنع الرؤية. ويصبح بلا فائدة أن نقول الآن إنه بعودة جوزيه أنايسو إلى المقعد الخلفى، ذهببت معه جوانا كاردا، وهذا ما فعلته دائماً، حيث يوجد جوزيه توجد جوانا، دون أن يشرح أى منهما السبب، وربما كانا يعرفان، ولا يجروءان على قوله، فكل حركة لها مذاقها الخاص، ومذاق هذه اللحظة لم يستتفد بعد.

سيارات قليلة مهجورة على الطريق، وتلك، دون تغيير، لم تكن كاملة، تنقصها الدواليب، أو الفوانيس،

المرايا الجانبية، باب واحد أو جميع الأبواب، المقاعد، بعض السيارات تبدو وقد انكمشت ولم يبقَ منها سوى الهيكل، كسرطان بحر وقد أمتصت عظامه. من المؤكد أن هذا حدث بسبب نقص البنزين، كان المرور قليلاً، من وقت لآخر تمر سيارة. وأيضاً تبدو للعيان بعض المظاهر الغريبة من وقت لآخر، كرؤية مرور عربية يجرها حمار على الطريق السريع، أو مجموعة من راكبي الدراجات الذين تقترب أقصى سرعة مسموح لهم بها من الحد الأدنى للسرعة التي تظهر على الإشارات الموزعة على الطريق بلا فائدة، فهم غائبون عما يحدث في الواقع من حولهم. وأيضاً كان هناك أناس يسيرون على أقدامهم، بشكل عام يحمل كل منهم كيساً على ظهره، أو يحمل كيسين مربوطين من أفواههما ومعلقين على الكتفين، كخارجين، وتحمل النساء أقفاصاً على رؤوسهن وكثير من الأفراد كانوا يسافرون وحدهم، وأيضاً كانت هناك عائلات تبدو متكاملة، بشيوخها وشبابها، ومراهقيها. فيما بعد عندما تعين على ذات الحصانين الخروج من الطريق السريع، فإن تناقص المشاة كان يقل عدداً حسب أهمية الطريق. حاول جواكيم زازا ثلاث مرات أن يسأل الأشخاص: إلى أين هم ذاهبون؟، فكانت الإجابة دائماً واحدة، "إلى هناك، لرؤية العالم". لا يستطيعون تجاهل أن العالم، العالم القريب، أصبح اليوم أصغر مما كان من قبل، وربما لهذا السبب نفسه أصبح ممكناً تحقيق الحلم في التعرف عليه كله؛ وعندما

سأل جوزيه أنابسو، "وبيتك، وعملك"، يجيبون بهدوء، "البيت هناك، والعمل سيمكن إصلاح الأمور فيه، إنها أشياء تنتمى إلى العالم القديم ولا يجب أن تعقد الحياة فى العالم الجديد". ها أنتم ترون، بسبب الحذر أو بانشغالهم بحياتهم الخاصة، فإن الناس لا يجيبون عن السؤال، مع أنه من الأجمل الإجابة عنه، فريما يقول بدرو أورثي، "تذهب مع هذه السيدة لرؤية خط رسمته على الأرض بهذه العصا، أما بالنسبة لمسألة العمل، شكل كئيب سيكون، لقد تركت مرضاى بلا رعاية"، أما جواكيم زازا يقول، "حسناً، يا رجل، حسناً، الموظفون ما أكثرهم، ولن يحتاجوا إلى، إضافة إلى هذا، فأنا أستمتع بإجازة أستحقها"، وجوزيه أنابسو، "حالتى نفسها تقريباً، لو عدت الآن إلى مدرستى لن أجد التلاميذ، وحتى يحين أكتوبر فالوقت لى وحدى"، وجوانا كاردا، "عن نفسى لن أتحدث، إذا لم أكن قد تحدثت حتى الآن مع هؤلاء الذين أسافر معهم، وبالطبع لن أتحدث مع الغرباء".

كانوا قد مروا بمدينة بومبال عندما قالت جوانا كاردا، "هناك فى الأمام طريق يؤدي إلى سوري، لنواصل من هناك"، منذ أن تركوا لشبونة كانت تلك أول إشارة نحو وجهة محددة، حتى الآن كانوا كما لو يسافرون فى وسط ضباب كثيف، أو لملاءمة هذا الظرف الخاص مع الأوضاع العامة، يبدو عليهم كما لو كانوا بحارة سذجاً قدامى، "فى بحر نحن، والبحر يأخذنا، إلى أين يأخذنا البحر؟". كانوا على وشك أن

يعرفوا، لم يتوقفوا فى سورى، دخلوا عبر طريق ضيقة تتقاطع وتتشعب إلى ثنائيات وثلاثيات، وتبدو فى بعض الأحيان وكأنها تستدير حول نفسها، إلى أن وصلوا إلى قرية اسمها مُعلن على لافتة عند مدخلها، إيريرا، وحينها قالت جوانا كاردا، "هنا".

جوزيه أنابسو الذى كان يقود فى تلك اللحظة، فرمل بشكل فجائى، كما لو كان الخط موجوداً هناك، فى منتصف الطريق وكان على وشك أن يدوسه، ليس لأن خطراً كان على وشك محو الإثبات العجيب، الذى لا يُمحى كما تقول جوانا كاردا، ولكن نتيجة ذلك النوع من الخوف المقدس الذى يرتكبه حتى أكثر المتشككين عندما ينكسر الروتين اليومى كخيطة كنا نتركه ينزلق فى اليد، بثقة وبلا مسئولية، سوى الحفاظ عليه وإطالة الخيط المشار إليه، واليد أيضاً إلى أطول مسافة ممكنة. نظر جواكيم زازا من حوله، شاهد بيوتاً، وأشجاراً على الأسطح، وحقولاً مسطحة، ويمكن التنبؤ برؤية مستنقعات، وحقول الأرز، والمونديجو الناعم، الأجمل من حبة الأناناس البرى. لو كان هذا تفكير بدرو أورثى، فإن من الأفضل لرواية دون كيخوته أن تتخلى عن وجهه الحزين، الذى هو وجهه والذى من صنعه، عارياً، قافزاً كمجنون بين صخور سلسلة جبال سييرا مورينا، ولكن من غير المعقول الربط بين تلك الفصول الخاصة بالفارس المرتحل، ولهذا فإن بدرو أورثى، عند خروجه من السيارة، ووضع قدميه على الأرض، اكتفى باختبار، أن الأرض

لا تزال تواصل الاهتزاز. استدار جوزيه أناسو حول ذات الحصانين، وفتح الباب الآخر بفروسية، وتظاهر بعدم رؤيته ابتسامة جواكيم زازا الساخرة، وأخذ من جوانا كاردا عصا الدردار ومد يده ليساعدها على النزول، قدمت هي يدها له، تضم كل منهما الأخرى بأكثر مما يجب لتأكيد صلابة الارتكاز، وإن لم تكن تلك المرة الأولى، فإن المرة الأولى، والوحيدة حتى الآن، كانت في المقعد الخلفي، كانت دفقة عاطفية، ومع ذلك لم يقولوا ساعتها ولن يقولوا الآن، ولا كلمة مسموعة أو هامسة يمكنها أن تكون مساوية للضغط على كلمة الآخر.

إنها لحظة تقديم الاستفسارات، وهذه حقيقة، لكن لحظة أخرى، كانت في حاجة إلى سؤال جواكيم زازا، كقبطان السفينة عند فتح الرسائل الملكية ويخشى أن يجد ورقة بيضاء، فأجابت جوانا كاردا، "والآن، لنذهب في هذا الطريق، وفي أثناء السير سأحدثك عما تبقى قوله، ليس لأن هذا مهم جداً للأسباب التي جاءت بنا إلى هنا، ولكن لن يكون هناك معنى أن أظل مجهولة بالنسبة لمن تبعونى حتى الآن"، "كان يمكنك أن تقولى هذا من قبل، فى لشبونة، أو خلال الرحلة"، كانت تلك ملاحظة جوزيه أناسو، "لماذا؟، إما أن تأتوا معى لأنكم فقط صدقتم كلمتى، أو أن تلك الكلمة كانت فى حاجة إلى كلمات أخرى لإقناعكم وحينها لن يكون لها قيمة"، "وكجائزة بأننا صدقناها"، "أنا من يجب عليه اختيار الجائزة

واللحظة التي يجب أن أقدمها فيها". على هذا لم يرغب جوزيه أنيسو أن يجيب، تظاهر بعدم المبالاة، وبدأ في النظر إلى خط بعيد جداً من أشجار الحور، ولكن سُمعت مهمة جواكيم زازا، "يا لها من فتاة"، ابتسمت جوانا كاردا، "فتاة، أنا لست كذلك، ولا حتى امرأة مسترجلة كما يعتقد البعض"، "أنا لم أذكر مسترجلة"، "متسلطة، متعالية، مفرورة، متحكمة"، "حسناً، قولى غامضة وكفى"، "ولماذا هذا الغموض، لأنه ما كان لي أن أجيء إلى هنا بأحد لا يصدق دون أن يرى، ولا حتى أنتم، الذين لا يعتقدون في الآخرين"، "والآن أنت من يقدم لنا خدمة"، "المحظوظ هو أنا، كان يكفيني فقط أن أقول كلمة واحدة"، "أرجو ألا تحتاجي إلى المزيد من الكلمات". هذا الحوار بكامله كان بين جوانا كاردا وجواكيم زازا، أمام تعسر فهم بدرو أورثي، وعدم الصبر الذي لم يستطع جوزيه أنيسو أن يخفيه، لأنه شعر بمسئوليته عن إخراج نفسه من الحوار. لكن ذلك الوضع الغريب، انظروا جيداً، لا ينتج عنه سوى تكرار الاختلافات التي توجد بين الأوضاع التي تتكرر، إنها عودة إلى غرناطة، عندما تحدثت ماريا دولوريس مع برتغالي وفضلت أن تتحدث مع آخر، وفي الحالة التي أمامنا الآن، لا يزال هناك وقت لإيضاحه بشكل كامل، ومن يعطش لن يعدم الماء.

الآن هم في الطريق، يا له من طريق ضيق، كان على بدرو أورثي أن يسير في الخلف، والآخرين يشرحون له بعد ذلك ما قيل، هذا إذا ما كان حقيقة

أن الإسباني مهتم بحياة البرتغاليين. بدأت جوانا كاردا حديثها، "لا أعيش في تلك القرية، إيريا، بيتي كان في كويمبرا، وأنا هنا منذ شهر واحد فقط، بعد انفصالي عن زوجي، وأسباب الانفصال، ماذا يفيد الآن الحديث عن الأسباب، أحياناً يكفى سبب واحد، وفي أحيان أخرى حتى لو جمعنا كل الأسباب، هذا إذا لم تكن حيوانكم قد علمتكم هذا، مساكين، وأقول حيوات كل منكم، لا حياة واحدة؛ لأن لنا أكثر من حياة، ولحسن الحظ أنها تقتل الواحدة منها الأخرى، وإلا ما كان يمكننا أن نعيش". قفزت مجرى عريضاً، وتبعها الرجال، وعندما تجمعوا من جديد في مجموعة واحدة، كانوا يسرون على أرض لينة ورملية، الأرض التي تركها المد، واصلت جوانا كاردا حديثها، "أعيش مع بعض الأقارب، أريد أن أفكر، ولكن ليس لإجراء الحساب المعتاد، ربما كان قرارى صحيحاً، أو ربما كان خطأ، ولكن ما حدث قد حدث، ما كنت أريده هو أن أفكر في الحياة، لأي شيء أعيشها، وماذا فعلت بها، نعم، لقد وصلت في النهاية إلى نتيجة وأعتقد أنه لا يوجد غيرها، لا أعرف ما الحياة؟"، كان واضحاً على وجهي جوزيه أنايسو وجواكيم زازا أنهما في حيرة، والمرأة التي جاءت إلى المدينة وفي يدها عصا مدعية أعمالاً مستحيلة تبين أنها فيلسوفة ريفية، ومن النوع السلبي أو الأكثر تعقيداً، من ذلك المستوى الخاص الذي يقول نعم عندما يريد أن يقول لا، وتقول لا بعد أن قالت نعم. جوزيه أنايسو المدرب مهنياً كمعلم، كان

الأكثر قدرة على تفهم التناقضات، وهذا لم يكن حالة جواكيم زازا، الذى يكاد لا يشعر بها، من هنا كان الغضب مضاعفاً. واصلت جوانا كاردا، التى توقفت الآن ؛ لأنها وصلت بالقرب من المكان الذى أرادت أن تأخذ الرجال إليه، فلا يزال لديها ما تقوله، أشياء أخرى كان يمكنها أن تنتظر فرصة أخرى، "إذا كنت قد ذهبت إلى لشبونة بحثاً عنكم، لم يكن هذا بسبب الأحداث الغريبة التى يبدو أنها مترابطة، ولكن رأيت أنكم أشخاص بعيدون عن منطق العالم الظاهري، وهو ما أشعر به أيضاً، سيكون الأمر سيئاً بالنسبة لى لو قررتم عدم الحضور معى إلى هنا، لكنكم جئتم، ربما يكون هناك شيء له قيمة، أو ربما تكون له فيما بعد، بعد أن فقد كل شيء قيمته، والآن، هيا رافقونى".

مكان خال بعيد عن النهر، دائرة من أشجار الدردار لا تبدو أبداً أنها كانت مزروعة، أماكن مثل هذه تبدو أقل غرابة مما يتخيله الإنسان، ما إن نضع أقدامنا فيه حتى نشعر أن الزمن قد توقف، الصمت يسكت هنا بطريقة أخرى، يمكن الشعور بالنسيم على الوجه بكامله وفى اليدين، لا، ليس فى الأمر شعوضة وسحر، فهو ليس مكاناً للاستلهاام والأدعية، ولا يمثل مدخلاً إلى كون آخر، إنه التأثير الناجم عن هذه الأشجار المتراصة على هيئة دائرة، وهذه التربة التى لا يبدو أن أحداً لمسها منذ بداية الكون، جاء الرمل وحده وجعلها أكثر ليونة، لكن التربة العضوية من تحته ثقيلة، إنها خطأ الذين زرعوا الأشجار بهذه الطريقة،

أنهت جوانا كاردا شرحها، كنت آتى إلى هنا لأفكر فى حياتى، ولا أعتقد أنه فى العالم هناك مكان أكثر هدوءاً من هذا، ولا أكثر اضطراباً، الأمر واضح، لكن لو لم تأتوا إلى هنا ما كان يمكنكم فهم هذا، فى يوم ما قبل أسبوعين بالضبط، وبينما كنت أقطع هذا المكان من أقصاه إلى أقصاه لكى أجلس فى ظل إحدى هذه الأشجار، عثرت على هذه العصا، كانت على الأرض، لم أكن قد رأيته من قبل، وكنت هنا فى اليوم السابق، ولم تكن موجودة، كأن أحداً جاء ليضعها هنا عن عمد، ولم تكن هناك أية آثار لأقدام، الآثار التى تشاهدونها آثار أقدامى أنا، أو آثار قديمة لأشخاص مروا من هنا منذ وقت طويل جداً، كانوا على حافة المكان، ومازالت جوانا كاردا تستحوذ على اهتمام الرجال، وكانت تلك آخر كلماتها، "أخذت العصا، وشعرت بأنها حية كما لو كانت الشجرة نفسها التى نُزعت منها، وما زلت أشعر بها كذلك حتى الآن، عندما أتذكر تلك اللحظة بالتحديد، وبحركة صبيانية أكثر منها صادرة عن امرأة رزينة، رسمت خطأ ليفصلنى نهائياً عن كويمبرا، وعن الرجل الذى عشت معه، خطأ يقسم العالم نهائياً إلى نصفين، إنه هنا".

تقدموا إلى داخل الدائرة، اقتربوا، كان الخط هناك، حياً، كما لو كان قد رُسم الآن، التراب على الجانبين، الطبقة السفلى رطبة رغم الشمس القوية، هم الآن صامتون، لا يعرف الرجال ما يقولون، وليس لدى جوانا كاردا ما تضيفه إلى كلماتها، قررت أن

تتخذ موقفاً خطراً يمكن أن يتحول إلى سبب للسخرية من كل حكايتها العجيبة. جرّجرت إحدى قدميها على الأرض، ماحية الخط كمسطرة بناءً، تدوس وتضغط، كما لو كانت تدنس شيئاً مقدساً. فى اللحظة التالية، وأمام أعين الجميع المندهشة، عاد الخط من جديد، يستعيد شكله الذى كان عليه من قبل، والتراب الصغير، وذرات الرمال تعود إلى التجمع من جديد، تنتظم، وتعود إلى مكانها، ويظهر الخط. ما بين الجزء المدمر والباقي، من جانب إلى آخر، لا توجد علامة على تباعد التأثير، أولاً وثانياً. تقول جوانا كاردا بصوت خفيض مع قليل من الانفعال، كنسته، وألقيت عليه الماء، وكان دائماً ما يظهر من جديد، لو أردتم اختباره، لقد وصل الأمر إلى أننى وضعت عليه أحجاراً، وعندما رفعتها، عاد كل شيء إلى مكانه، جربوا، جربوا إذا لم تكونوا مقتنعين". انحنى جواكيم زازا، غرز أصابعه فى الأرض اللينة، نزع حفنة من التراب، وألقى بها بعيداً، وعلى الفور عاد الخط إلى حاله. وجرب جوزيه أنيسو، لكنه طلب من جوانا كاردا أن تعطيه العصا، ورسم بها خطاً عميقاً إلى جانب الأول، بعدها داس عليه بكل عرضه. الخط الجديد لم يعد كما كان. قال جوزيه أنيسو لجوانا كاردا، "افعل الآن مثلى"، انفرس طرف العصا فى الأرض، وتم سحبه حتى صنع جرحاً طويلاً، وانفلق على الفور كجرح التئم، وهكذا ظل، قال جوزيه أنيسو، "المسألة ليست فى العصا ولا فى الشخص، السر فى اللحظة،

اللحظة هي الأساس"، حينئذ قام جواكيم زازا بفعل ما كان يجب عليه فعله، رفع عن الأرض أحد الأحجار التي وضعتها جوانا كاردا، كان الحجر من ناحية الوزن والحجم يتشابه مع الحجر الذي قذف به إلى البحر، وبكل قوته، قذف به بعيداً، إلى حيث يمكن لقوته أن تصل، سقط الحجر بالطبع في المكان الذي كان يجب أن يسقط فيه، على بعد خطوات، إنها هذه القوة البشرية فقط.

حضر بدرو اورثي التجارب لكنه لم يشارك فيها، ربما لأنه اكتفى بأن الأرض لا تزال تهتز تحت قدميه، أخذ العصا من جوانا كاردا وقال، "يمكنك أن تكسريها، أو ترميها، أو تحرقها؛ لأنها لم تعد ذات فائدة، عصاك، وحجر جواكيم زازا، وزير جوزيه أنابسو، قاموا بفعل شيء في وقت محدد، ولن تصلح أي منها الآن لعمل أي شيء مجدداً، نحن الرجال والنساء أيضاً نصلح لفعل شيء مرة واحدة، وجوزيه أنابسو محق، لأن الأهمية تكمن في اللحظة، نحن نكاد لا نصلح لشيء"، أجابته جوانا كاردا، "الأمر هو كذلك، لكن هذه العصا ستظل معي إلى الأبد، فالحظات لا تعلن عن نفسها عندما تأتي". ظهر كلب من بين الأشجار، من الناحية الأخرى، نظر إليهم بهدوء وبعدها عبر المنطقة الخالية، حيوان ضخم وممتلئ، شعره أسدي، فبدأ تحت بقعة من ضوء الشمس كما لو كان مشتعلاً بنار حية. بقلق، قذفه جواكيم زازا بحجر، من تلك الأحجار العادية، "لا أحب الكلاب"، لكنه لم

يصبه. توقف الكلب، لم يكن خائفاً، ولم يكشر عن أنيابه، توقف فقط لينظر، ولا حتى نبج. عند وصوله إلى الأشجار أدار رأسه نحو الخلف، من بعيد كان يبدو أضخم، ثم ابتعد، ببطء حتى اختفى. أراد جواكيم زازا أن يداعبهم ليخفف من عصبيته، "احتفظي بعصاك يا جوانا، يمكن أن تحتاجي إليها إذا جاء إلى هنا حيوان مفترس بهذا الحجم"، من تحركاته، هذا لا يبدو متوحشاً.

عادوا على نفس الطريق، عليهم الآن أن يتوصلوا إلى حل لبعض المسائل العملية، مثلاً، هل الوقت متأخر للعودة مرة أخرى إلى لشبونة؟ أين يمكن للرجال أن يناموا؟ قال جواكيم زازا، "الوقت ليس متأخراً، حتى لو ركبنا الحمير يمكننا أن نصل إلى لشبونة عند حلول العشاء"، قال جوزيه أنيسو، "بالنسبة لي أفضل أن أبقى هنا في فيجيراس دافوز أو في كويمبرا، سنعود غداً إلى هنا مرة أخرى، ربما تحتاج جوانا إلى مساعدة"، كان في صوته رغبة جامحة، قال جواكيم زازا، "لو أردت..."، لكن بقية الجملة انتقلت من الكلمات إلى النظرة. "أفهمك جيداً، تريد أن تفكر هذه الليلة، تريد أن تقرر ماذا ستقول غداً. فاللحظات حين تحين لا تنبئ عن مقدمها؟".

يسير بدرو أورثي وجواكيم زازا في المقدمة، وكانت للمساء عذوبة كبرى تجعل الحلق ينقبض بعاطفة غير موجهة لأحد، فقط إلى الضوء، إلى السماء الباهتة، إلى الأشجار التي لا تتحرك، إلى هدوء النهر الذي

يستشعر وجوده ليظهر بعيداً، كمرآة مسطحة تقطعها الطيور ببطء شديد. كان جوزيه أناسو يمسك بيد جوانا كاردا بين يديه، ويقول، "نحن في هذا الجانب من الخط، معاً، ترى إلى متى؟"، وتجيبه جوانا كاردا، "لم يبقَ الكثير لنعرف".

عندما وصلوا إلى السيارة شاهدوا الكلب من جديد، أمسك جواكيم زازا من جديد بحجر، لكنه لم يقذفه به. لم يتحرك الكلب رغم التهديد، اقترب منه بدرو أورثي، مد له يده علامة على السلام، كما لو أراد مداعبة شعره. ظل الكلب ساكناً، ورأسه إلى أعلى. كان في فمه خيط صوفى مبلل أزرق اللون، مرر بدرو أورثي يده على ظهره، ثم عاد باتجاه زملائه، "هناك لحظات تعلن عن نفسها عندما تحين، الأرض تهتز تحت أقدام هذا الكلب".



"الإنسان يفترض والكلب يمتلك"، هذا المثل الشائع كان يصلح في الزمن القديم كما هو في العالم المعاصر، يجب علينا أن نحدد من يملك في النهاية اتخاذ القرار، ليس الله مسئولاً دائماً عن القرارات، كما يعتقد الناس بشكل عام. هناك بعد أن اتخذوا موقف الوداع، يتجه الرجال إلى فيرجيرا دي فوز لأنها الأقرب، والمرأة إلى أولئك الأقارب المضيفين لها، لكن ما إن خفضت ذات الحصانين من فراملها وبدأت في التحرك، شاهدوا جميعاً، وسط دهشة عامة، أن الكلب وقف أمام جوانا، بمنعها من التقدم. لم ينبح ولا كشر عن أنيابه، ولم يأبه بتهديد العصا، التي لم تكن سوى مجرد تهويز. فكر السائق جوزيه أنايسو أن محبوبته في خطر، أوقف السيارة بشكل عنيف، وقفز إلى الأرض، وانطلق في حركة دراماتيكية غير مبررة،

كما سيتضح على الفور، إلا أن الكلب، ببساطة، رقد على أرضية الطريق. اقترب بدرو أورثي، وجاء أيضاً جواكيم زازا، كان هذا يخفى نفوره تحت مظهر التداعى، وسأل، "ماذا يريد هذا الحيوان؟"، لكن لا أحد عرف كيف يجيبه، ولا حتى هو نفسه، بدرو أورثي، كما فعل من قبل، اقترب من الحيوان، مرر يده على مقدمته، بطريقة مداعبة، أغمض الكلب عينيه تحت تأثير المداعبة، نحن نتحدث هنا عن الكلاب وليس عن البشر الذين يمارسون الأحاسيس، ثم وقف، نظر إلى البشر واحداً بعد الآخر، منحهم الوقت ليفهموا وبدأ في السير. سار حوالى عشرة أمتار، وتوقف، وقف في وضع من ينتظر.

علمتنا التجارب، وأيضاً الأفلام والروايات التي تمتلئ بمثل هذه الحالات، مثل الكلب ليسى، مثلاً، الذى كان يجيد تلك التقنية بإتقان، وتقول لنا الخبرة إن الكلب يفعل هذا دائماً عندما يريدنا أن نتبعه. في الحالة الراهنة، كان واضحاً أنه أوقف طريق جوانا كاردا ليجبر الرجال على النزول من السيارة، وإذا كانوا الآن معاً، فهو يحاول أن يبين لهم الطريق الذى يجب أن يسلكوه حسب فهمه ككلب، هذا لأنه، نرجو المَعذرة عن هذا، كان يريدُهم أن يبقوا معاً. ليس مطلوباً أن يكون ذكياً كالإنسان ليفهم هذا، إنه كلب ببساطة وبطريقة طبيعية يعرف كيف يتواصل. لكن البشر، في أحيان كثيرة خدعوا، وتعلموا أن يكونوا مجربين، يريدون التأكد من كل شيء من خلال الطلب،

وهى الطريقة الأسهل، وعندما، كما فى هذه الحالة، وصلوا إلى مستوى ثقافى متوسط، فإنهم لا يكتفون بتجربة ثانية تماماً كالأولى، بل يدخلون عليها تبديلات لا تغييراً جذرياً على المعلومات الأساسية، مثلاً، ذهب جوزيه أنايسو وجوانا كاردا إلى السيارة، وبقي على الأرض بدرو أورثي وجواكيم زازا، لنرى الآن ماذا سيفعل الكلب. قام الكلب بما كان يجب عليه أن يفعل. الكلب، الذي يعرف تماماً أنه لا يستطيع إيقاف حركة السيارة، لن يتوقف أمامها؛ لأن فى هذا موت محقق ولا يوجد سائق واحد عاشق للحيوانات يندفع إلى حد التوقف ليمنحه بضع دقائق أخيرة، أو حتى سحب جسده حتى جانب الطريق، قطع الكلب طريق جواكيم زازا وبدرو أورثي كما قطع من قبل طريق جوانا كاردا. ثالث وآخر التجارب عندما دخل الأربعة إلى داخل ذات الحصانين، وبدأت السيارة فى التحرك، ولأن القدر أراد أن تكون ذات الحصانين فى الاتجاه الصحيح، وقف الكلب أمامها، وهذه المرة لا ليمنعها من الانطلاق، ولكن ليفتح لها الطريق. كل هذه التحركات حدثت دون حضور فضولين، لأنه كما حدث فى مرات سابقة منذ بداية الرواية، فإن فصولاً معينة حدثت عند الدخول أو الخروج من القرى والمدن، وليس بداخلها كما يحدث بشكل عام، وهذا يستحق ولا شك تفسيراً، لكننا لسنا مؤهلين لتقديمه، فعليكم بالصبر.

فرمل جوزيه أنايسو السيارة، توقف الكلب، ونظر، وأخيراً لخصت جوانا كاردا الموقف، "يريدنا أن

نذهب معه إلى مكان ما. أمضوا بعض الوقت حتى فهموا شيئاً كان يبدو واضحاً منذ أن عبر الحيوان الأرض الخالية، يمكننا القول إن اللحظة أعلنت عن نفسها في ذلك الوقت، لكن البشر ليسوا دائماً في حالة انتباه لتلقى الإشارات. وحتى بعد أن تبددت الشكوك، لا يزال يحاول تعلم الدرس، وهو ما يفعله جواكيم زازا، الذي يسأل، لماذا علينا أن نتبعه، أي سخرية في أن يتبع أربعة أشخاص كلباً غريباً، لا يحمل في عنقه حلقة أو علامة معدنية تبين هويته، اسمي بيلوتو، إذا عشر عليّ أحدكم، هذا عنوان أصحابي، السيد فلان بن فلان، أو فلانة، من المكان الفلاني، قال جوزيه أنابسو، لا تتعب نفسك، هذه الحكاية عبثية مثل غيرها التي وقعت لنا والتي يبدو أن لها معنى، "وما زلت أشك إن كان لجميعها أي معنى، قال بدرو أورثي، لا يهم أن تكون المعاني كاملة، لا معنى لأية رحلة سوى أن تنتهي، ونحن ما زلنا في منتصف الطريق، أو في بدايته، من يعرف، قل لي أي معنى حصلت عليه لأقول لك أي معنى أمكنك أن تحصل عليه، "حسناً، والى أن يأتي ذلك اليوم، ماذا سنفعل؟". خيم الصمت. هبط المساء بينما يبتعد النهار ويترك من خلفه ظلالاً بين الأشجار، وتغير صوت غناء الطيور. رقد الكلب أمام مقدمة السيارة، على بعد ثلاث خطوات، وضع رأسه على القدمين الأماميتين الممتدتين، ينتظر دون أن يُبدى قلقاً. وحينها بدأت جوانا كاردا تقول، "أنا على استعداد أن أذهب

إلى حيث يريد أن يأخذنا، لو كان قد جاء من أجل هذا، سنعرف عندما نصل إلى المقصد، تنفس جوزيه أنايسو بعمق، لم تكن تنهيدة الارتياح، وإن كان فيها شيء من التخفف، "وأنا أيضاً" كان هذا هو كل ما قاله، وأضاف بدرو أورثي، "وأنا"، أنهى جواكيم زازا الحوار، "إذن إذا كنتم جميعاً تريدون، فلن أكون أنا الشرير الذي يدفعكم إلى الذهاب سيراً على الأقدام خلف بيلوتو، سنذهب جميعاً معه، على الأقل قد تفيد الإجازة في شيء".

القرار هو أن تقول نعم أو لا، نفخة من الهواء إلى الخارج، بعدها فقط تأتي الصعوبات، في الجانب العملي، كما تقول خبرة الشعب الكبرى، التي حصل عليها عبر الزمن والصبر ليتحملها، مع قليل من الأمل وأقل من التغيير. فلنتبع الكلب، نعم يا سيدي، ولكن مطلوب معرفة كيف، خاصة أن المرشد لا يعرف كيف يشرح ما يريد، ولا يمكنه أن يكون في داخل السيارة، استديروا إلى اليمين، استديروا إلى اليسار، إلى الأمام دائماً حتى الإشارة الضوئية الثالثة، إلى جانب هذا، وهو ما يبدو الأخطر، كيف يمكن أن يدخل هذا الحيوان بحجمه هذا خاصة أن كل المقاعد مشغولة، دون أن نذكر الحقائق وعصا الدردار، رغم أن هذه تأكد من أنها لا تؤذي أحداً، فهي إلى جوار جوانا كاردا وجوزيه أنايسو. وبالحديث عن جوانا كاردا، لا تزال حقيبتها غير موجودة، إضافة إلى وضعها في السيارة يجب الذهاب لإحضارها، وأن تشرح لأقاربها

رحيلها المفاجئ، لا يمكن أن يظهر ثلاثة رجال أمام الباب، وذات الحصانين والكلب، وتقول، "سأذهب معهم"، حينها سيكون صوت الحقيقة العارية، امرأة لم تكذ تنفصل عن زوجها لا يجب أن تشرح أسبابها لأحد، خاصة في هذه القرية الصغيرة التي هي إيرا، بلدة صغيرة، الانفصال يمكن ألا يُنظر إليه في المدينة باعتباره أمراً سيئاً، وربما يعلم الله كم من المعاناة الجسدية والمشاعر التي يجب بذلها قبل الحصول عليه.

غابت الشمس، هبوط الليل لن يتأخر كثيراً، هذه ليست ساعة للبء في رحلة إلى المجهول، وسيكون سيئاً أن تختفي جوانا كاردا دون أن تقول شيئاً، لقد قالت لأقاربها إنها مسافرة إلى لشبونة لتحل مشكلة، ذهبت في قطار وعادت في آخر. صعوبات كهذه تبدو كعقد صعبة، لا يمكن أن تحلها صعوبات المجتمع ولا الأسرة. خرج بدرو أورثي من السيارة، ما إن رآه الكلب يقترب حتى وقف، وهناك في منطقة الظل الخفيف، بقيا يتحدثان معاً، ربما هذا ما يمكننا قوله فقط؛ لأننا نعرف أن هذا الكلب غير قادر ولا حتى على النباح، ما إن انتهى الحوار، حتى عاد بدرو أورثي إلى السيارة وقال، "أعتقد أنه على جوانا أن تذهب إلى البيت، وسيبقى الكلب معنا، عليكم أن تقررروا أين يمكننا أن ننام، ولنتفق على المكان الذي سنلتقي فيه غداً صباحاً. لم يشك أحد في صدقه، فتح جواكيم زازا الخارطة وخلال ثلاث ثوان قررروا أن يبقوا في

مونتي-أو-فيليو، في بنسيون متواضع، وسأل جواكيم
 زازا، "وإذا لم تكن هناك بنسيونات"، قال جوزيه
 أنايسو، "نذهب إلى فيجييرا، وإن كنت أعتقد أنه من
 الأفضل أن نذهب إلى فيجييرا لننام وغداً صباحاً أنتِ
 تأتيين في الأتوبيس العام وننتظر أمام باب الكازينو،
 في الجراج"، مفهوم أن تلك التعليمات موجهة إلى
 جوانا كاردا، التي تلقتها دون أن تشك في موقف من
 أصدرها إليها. قالت جوانا كاردا، "مع السلامة، إلى
 اللقاء في الصباح"، وفي آخر لحظة، وعندما كانت
 قدمها على الأرض، عادت مرة أخرى وقبلت جوزيه
 أنايسو في شفتيه، هذا ما أقوله، هكذا بلا موارد،
 ولم تكن قبلة على الخد أو فرقة من بعيد، كانت
 القبلتان فرقتين، الأولى بالسرعة والثانية بالتلاحم،
 لكن هذه الأخيرة تركت انطباعاً مستديماً، وهو أمر لا
 يحدث إلا إذا كان لقاء الشفاء لذيذاً جداً، عندها
 ستستمر. ماذا سيقول الأقارب في إيرا لو عرفوا ما
 حدث الآن هنا، "أنتِ امرأة غير حكيمة، كنا نعتقد أن
 المذنب الوحيد هو زوجك، يا لصبره عليك، رجل
 تكادين لا تعرفينه سوى بالأمس فقط، وتقبلينه الآن،
 كان يجب أن تتركه هو ليأخذ المبادأة، وهو ما يجب
 أن تفعله المرأة، لأنه في النهاية، تكون طريقة محترمة،
 إضافة إلى أنك قلت إنكِ ذاهبة وستعودين في اليوم
 نفسه، لقد قضيت الليل في لشبونة، خارج البيت،
 وهذا ليس شيئاً مقبولاً، لا، إن ما فعلته مشين، لكن
 ابنة العم ما إن نام الجميع حتى تركت السرير

واقترت من جوانا لتسألها عن الأحوال، وهي تقول إنها لا تستطيع أن تعرف بالضبط، إنها الحقيقة، تتساءل جوانا كاردا، "لم فعلتُ أنا هذا؟" فيما كانت تبتعد في الضوء الخفيض تحت ظلال الأشجار، ويداه خاليتان، فتمكنت من رفعها إلى شفيتها، كمن يحافظ على الروح، لقد بقيت الحقيقة في السيارة، وعلامة على مكان باقي الحقائق تركت عصا الدردار محروسة جيداً، تحت حراسة ثلاثة رجال وكلب، ذاك المدعو بدرو أورثي، دخل السيارة وأراح جسده في المكان الذي كانت تحتله جوانا كاردا، عندما كانوا جميعاً ينامون في فيجيرا دافوز، كانت لا تزال المرأتان تتحدثان في أحد بيوت إيرا، تحت ستر الليل. قالت ابنة العم، "ادفع عمري لأذهب معك، فأنا متزوجة من زوج سيئ".

جاء اليوم التالي معبقاً، لا يمكن الثقة في الطقس، عصر الأمس كان يبدو انعكاساً للجنة، نظيفاً ورقيقاً، والأشجار تهز أفرعها برقة، والأرض ناعمة كجلد السماء، لا أحد يمكنه القول إن النهر نفسه كان تحت السحاب المنخفض، إنه البحر في شكله الرغوي، لكن الشيوخ يهزون أكتافهم، ويقولون، "اليوم الأول من أغسطس، هو اليوم الأول من الشتاء"، من حسن الحظ أن هذا اليوم جاء متأخراً ما يقرب من الشهر، وصلت جوانا كاردا متأخرة، لكن جوزيه أنايسو كان في انتظارها في السيارة، حدث هذا لأن الرجلين الآخرين حاولا أن يتركا المجال للعاشقين بالانفراد والحديث

قبل أن يبدعوا جميعاً في رحلتهم، في أي اتجاه لا أحد يعرف حتى الآن. أمضى الكلب الليلة تحت غطاء السيارة، ولكنه ينتزه الآن على الشاطئ برفقة بدرو أورثي وجواكيم زازا، محتكاً برأسه في ساق الإسباني، ويبدو واضحاً أنه يفضل رفقته عن أي شيء آخر.

في الجراج، لم تكن ذات الحصانين شيئاً ظاهراً، بين السيارات الأخرى الأكبر حجماً، هذه واحدة، بخلاف ذلك، كما شرحنا من قبل، كان الصباح فظاً، لا أحد كان يتسكع هنا، وهذه الثانية، إذاً ليس هناك ما هو أكثر طبيعية في أن يتعانق جوانا كاردا وجوزيه أنايسو كما لو كانا منفصلين من سنة، تعانقا طويلاً وبشوق كبير، لم تكن ومضة واحدة بل أكثر، وقليل من الكلام؛ لأنه من الصعب الكلام أثناء التقبيل، ولكن أخيراً، وبعد بضع دقائق، تمكنا من التفاهم، قال جوزيه أنايسو بصدق، "أنا معجب بك وأعتقد أنني أحبك"، "وأنت أيضاً تعجبني، وأنا أعتقد أنني أحبك، ولهذا قبلتك بالأمس، لا، لا ليس الأمر كذلك تماماً، ما كان لي أن أقبلك لو لم أشعر بأنني أحبك، لكنني أستطيع أن أحبك أكثر"، "أنت لا تعرفين عنى شيئاً"، "إذا كان علينا أن نتعرف قبل أن نحب فالحياة كلها لا تكفي لذلك"، "هل تشكين في أن يستطيع شخصان أن يعرف كل منهما الآخر"، "وأنت، هل تعتقد أن هذا ممكن"، "أنا من طرح السؤال"، "قل لي أولاً ما معنى كلمة يعرف"، "ليس معنى قاموس"، "ولو كان لديك فلن تعرف منه سوى ما كنت تعرفه من قبل"، "إن القواميس

لا تقول سوى ما يمكن أن يكون مفيداً للجميع، "إنني أكرر سؤالتي، ما معنى كلمة تعرف؟"، "لا أعرف"، "ومع ذلك يمكنك أن تحب"، "يمكنني أن أحبك"، "دون أن تعرفني"، يمكن القول بنعم، "هذا الاسم أنيسو من أين جاءك؟"، "كان أحد أجدادي يدعي أنيسو، لكنهم غيروا اسمه في القرية إلى أنيسو، ومع مرور الزمن انتهى الأمر بأن أصبح لقب العائلة، وأنت؟، لماذا اسمك كاردا؟"، "كان لقب أسرتي في القديم هو كاردو، لكن إحدى جداتي تزلت ووجدت نفسها مسئولة عن العائلة بعد رحيل زوجها، وبدأ الجميع يطلقون عليها كاردا، كانت تستحق لقبها الشخصي كامرأة"، "كنت أعتقد أن لقبك جاء من كاردا دي بريجو"، "ربما يكون ذلك صحيحاً حالياً، وربما يكون شيئاً آخر، ذهبت ذات مرة لأبحث في القاموس عن لقبتي فوجدت أن كلمة كاردا تعني أيضاً أداة لتقطيع اللحم، يا للشهداء البؤساء، لقد أحرقوهم وقطعوا رؤوسهم ومزقوا لحمهم"، "هل هذا ما ينتظرني؟"، "لو استعرت لقب كاردو فلن تكسب شيئاً في التبديل"، "هل أنت دائماً هكذا تمارسين الطعن"، "لا، لا هذا لا ينطبق على اللقب الذي أحمله"، "من تكونين إذًا؟" "أنا، ومد جوزيه أنيسو يده ولس وجهها وهمس، "أنت"، وقامت هي بفعل الشيء نفسه، وكررت بصوت خفيض، "أنت"، وامتلات عيناها بالدموع؛ ربما لأن حياتها الحزينة الماضية كانت لا تزال تؤلمها، وهي راغبة الآن في التعرف على حياته، "هل أنت متزوج، لديك أطفال،

ماذا تعمل؟"، كنتُ متزوجاً، وليس لدي أطفال وأعمل معلماً". تنفست بعمق، ربما كانت تلك تنهيدة ارتياح، لأنها قالت مبتسمة، "من الأفضل أن نبحث عن هؤلاء المساكين إنهم يموتون برداً"، قال جوزيه أنايسو، "عندما تحدثت مع جواكيم زازا عن أول لقاء لنا وأراد أن أخبره عن لون عينيك لم أستطع، وقلت له إنها لون سماء جديدة، ثم قلت له إنها عيون لا أعرف بالضبط، واحتفظ هو بالتعبير ولم يعد يسميك إلا هكذا"، كيف؟"، السيدة ذات العيون التي لا أعرف بالضبط، وإن كان لا يجازف بقول ذلك في حضورك"، "إنني أحب هذا الاسم"، وأنا أحبك أنتِ، والآن علينا أن ننادي عليهما".

ذراع يشير، وآخر يجيبه من بعيد، يأتي بدرو أورثي وجواكيم زازا على الرمال ببطء، فيما الكلب الضخم اللطيف يسير بين الاثنين. قال جواكيم زازا، "الطريقة التي يهز بها الذراع، تؤكد أن لقاءهما كان مفيداً"، أي مستمع لهذه الكلمات وله خبرة بالحياة يمكنه أن يعرف معناها، من نعمة تلك الكلمات، يتبين أن إحداها تشئ بالغيرة، والأخرى تعكس أحاسيس نبيلة، متخفية بالحسد، أو الفطرسية، لمن يفضل تعبيراً أكثر هدوءاً. سأل بدرو أورثي، "يبدو أن الفتاة تعجبك؟"، مفكراً، "لا، ليس هذا، أو ربما يمكن أن يكون الأمر كذلك، لكن مشكلتي أنني لا أعرف من أحب ولا ماذا أفعل لأواصل هذا الحب؟". بعد هذا التصريح السلبي جداً، لم يعرف بدرو أورثي بماذا

يجيب. دخلوا السيارة، ألقوا تحية الصباح، وأعربوا عن السعادة باللقاء، وأهلاً بالرحلة، وإلى أين ستأخذنا هذه المفامرة، وجُملاً محفوظة ومرحة، الأخيرة منها كانت خاطئة، كان من الأفضل أن تكون هكذا، إلى أين سيأخذنا هذا الكلب؟، أدار جوزيه أنايسو المحرك، وبما أنه كان على عجلة القيادة فعليه أن يواصل الطريق، ناور للخروج من الجراج، من هنا أولاً، ودورة إلى اليمين، ودورة إلى اليسار، خلال تلك اللحظات كان يحاول أن يعطي الكلب وقتاً للدوران حول نفسه، فيما كان يبدو الكلب ميكانيكياً، وبعدها اتجه شمالاً، والخيط الأزرق معلق في فمه.

كان هذا اليوم هو اليوم الشهير الذي أصبحت فيه أوروبا بعيدة جداً، فقد قاربت المسافة التي تفصلها عن شبه الجزيرة حوالي المائتي كيلومتر، طبقاً لآخر القياسات المعلنة. في هذا اليوم رأت أوروبا أنها اهتزت من أساساتها وحتى سقفها بتشنج له طبيعة نفسية واجتماعية، هدد هويتها المنكرة جذرياً، هدد جذورها الذاتية، وجنسياتها، والتي تشكلت على مدى قرون بجهد كبير. الأوروبيون، منذ أول حكوماتهم وحتى شعوبهم العوام، سرعان ما اعتادوا على هذه الحال، وحتى يُشتبه في وجود شعور خفى بالراحة، رغم نقص أراضى الطرف الغربي، فإذا كانت الخرائط الجديدة، التي تم تداولها بسرعة لتحديث ثقافة الشعوب، لها تأثير بصري مزعج، فإن لهذا التأثير أسبابه الجمالية، وذلك الشعور بعدم الرضا

الذي تسبب فيه من قبل، والذي لا يزال يؤثر فينا نحن حتى الآن، كان فقدان أذرع فينوس دي ميلو، مؤكداً أن هذا هو اسم الجزيرة التي عثروا فيها عليه. هكذا إن ميلو لم يكن اسم الفحات، لا يا سيدي، ميلو هي الجزيرة التي أكتشفت فيه المسكينة، ونبتت من الأعماق مثل لاثارو، ولكن لم تكن هناك معجزة تعيد إليها ذراعيها من جديد.

بتواصل القرون، هذا لو كانت تتواصل، فإن أوروبا لن تتذكر اليوم الذي أنت فيه كبيرة الحجم ولها تداخلات مع أعماق البحر، تماماً كما لا نستطيع نحن أن نتخيل أن فينوس بدون ذراعين. بالطبع لا يمكن تجاهل الآثار المدمرة التي ستصيب البحر المتوسط في المستقبل، نتيجة المد العالي، والمدن الساحلية التي دُمرت جوانبها القريبة من البحر، والفضائق التي كانت تمتد سلالها حتى الشاطئ، لم يعد لها شواطئ ولا حتى سلالم، وفينيسيا، فينيسيا تحولت إلى بحيرة راكدة، إنها قرية عائمة مهددة بالغرق، لقد انتهت السياحة الجميلة، يا أولادي، لكن، لو عمل الهولنديون بسرعة، في أشهر قليلة فإن مدينة الداغو، مقر طيور إيطاليا، يمكنها أن تعود إلى فتح أبوابها مجدداً للجمهور المتشوق، وبمظهر أفضل، ودون أن يخيم عليها خطر الغرق؛ وذلك لأن أنظمة التوازن المائي المستطرفة، والجسور، والبوابات، وصمامات الماء والتفريغ، ستحافظ على مستوى دائم من المياه، والآن أصبح على الإيطاليين مسئولية تقوية أساسات المدينة

الفاطسة حتى لا تفرق في الوحل، الخطوة الصعبة،
اسمح لي أن أقول، جرى تنفيذها، وعلينا أن نشكر
أحفاد ذلك الفتى البطل، الذي تمكن فقط بأنامل
أصبعه أن ينقذ مدينة هارلم من المحو عن الخارطة
غرقاً في الوحل.

بحل مشكلة فينيسيا، فإن بقية مشاكل البحر
المتوسط ستجد حلاً. كم من الحروب والأوبئة مرت
من هنا، والزلازل والحرائق، ودائماً ما تُولد تلك
الأرض من رمادها وترابها وتحول العذاب المرّ إلى
حياة ممتعة، من الحضارات البربرية إلى ملاعب
الجولف والحمّام، واليخوت والسيارة المكشوفة على
رصيف الميناء، إن الإنسان هو الكائن الأكثر قدرة على
التكيف، خاصة إذا كان متجهاً نحو الأفضل. ولو أنه
غير مثير الاعتراف به، فإن بعض الأوروبيين، سعدوا
برؤيتهم لبعض الشعوب الأوروبية الأخرى مبحرة في
أعماق المحيط دون وجهة معينة، إلى حيث ما كان
يجب أن يأتوا أبداً، ويخلق هذا راحة لهم، أخيراً بدأنا
نعرف ما هي أوروبا، وإن كنا نعرف أن بها أجزاء
سيأتي يوم تغادرها بشكل أو بآخر. ونراهن على أننا
في مستقبل قريب سنصبح بلداً واحداً، يحمل خلاصة
الروح الأوروبية، تلخيصاً، أوروبا تعني سويسرا.

لكن، إذا وُجد مثل هؤلاء الأوروبيين، هناك أيضاً
يوجد من أولئك، العنصر القلق، خميرة إبليس، التي
ليس من السهل اختفاؤها، مهما كان تعب التنبؤ بذلك،

هذا العنصر الذي يتبع القطار بعينيه وهو يمر ويمتلئ حزناً على الرحلة التي لن يقوم بها أبداً، العنصر الذي لا يحتمل رؤية عصفور في السماء دون أن يحلم بالطيران، هو الذي ما إن تختفي السفينة في الأفق، حتى يخرج من النفس شهقة ارتياح، متذكراً المعشوقة التي كانت بالقرب، والتي لا يعرفها إلا بوجودها في البعيد. كان هؤلاء الأشخاص الذين لا يقبلون بالأمر الواقع وتجربوا على كتابة تلك الكلمات المشينة، علامة على حكم ظاهر، كلنا أيبيريون، كتبها على ركن من الحائط، بخوف، كما لو كان لا يستطيع التعبير عن رغبته، ولا يستطيع إخفاءها. وكما حدث، يمكن قراءتها، باللغة الفرنسية، فيمكن الاعتقاد أنه من فرنسا، لكن هذه مسألة قابلة للنقاش، أمكن أن يكون من بلجيكا أو من لوكسمبورج. وانتشر هذا الشعر الأولي، وسرعان ما ظهر على واجهات البنايات الكبرى، وعلى مداخلها، وعلى أسفلت الشوارع، وممرات المترو، وعلى الجسور والممرات المائية، واحتج الأوروبيون الأوفياء المحافظون، هؤلاء الفوضيون مجانين، ودائماً ما يحدث هذا، وتحميل المسؤولية للفوضوية.

لكن الشعر عبر الحدود، وبعد أن عبرها، أمكن التأكد من أنه ظهر أيضاً في بلاد أخرى، بالألمانية، والإنجليزية، وفي الإيطالية، وفجأة تحول إلى خيط من البارود يشتعل في كل الأماكن بأحرف حمراء، وسوداء، وزرقاء، وخضراء، وصفراء، وبنفسجية، نار لا

يبدو أنه من الممكن إطفائها، وباللغتين الهولندية والفلانكو، وبالسويدية، والفنلندية، والدنمركية، والإغريقية، وظهرت أيضاً، وإن كان بشكل خجول، بالبولندية، والبلغارية، والروسية، والرومانية، والسلوفاكية. لكن القمة أو الظاهر، والنهائي، بكلمة لن نستطيع أن نستعيدها، وحدث هذا على جدران الفاتيكان وأعمدة الكنيسة، وعلى أراضي ميدان سان ميغيل، وعلى القبة، وبأحرف زرقاء ضخمة على أرضية ميدان القديس بطرس ظهرت الكلمة باللغة اللاتينية، كما لو كانت حكماً إلهياً، واستعادة للحب من جديد، فيما البابا، كان في نافذة إقامته يبارك الدهشة الخالصة، ويرسم الصليب في الهواء، بلا فائدة، ولم يكن من السهل محوها؛ لأن تلك الأحرف مكتوبة بألوان ثابتة، ولا يكفي حتى عشر مدارس لاهوتية كاملة للعمل على محوها، مسلحين بالفرش، والصنفرة، والحجر الكاشط، وبمساعدة مواد الإذابة، لا يزال أمامهم عمل حتى انعقاد المجلس الكنائسي القادم.

ما بين ليلة وضحاها وجدت أوروبا نفسها مغطاة بهذه الشعارات. والتي لم تكن في البداية سوى نوع من التفريغ النفسي لحالم، انتشرت حتى تحولت إلى صرخة، احتجاج، مظاهرة في الشوارع. تمت مواجهة هذه المظاهرة في بداياتها بلا مبالاة، ولكن تعبيراتها والهدف منها سرعان ما أقلقا السلطات في مواجهة عملية لا يمكن اعتبارها هذه المرة مجرد مناورة من

الخارج، حتى في حالة وجود هذه المناورة في الخارج أيضاً، وهذا الوضع وفر على الأقل عملية البحث والتقصي في أي خارج يمكن أن يكون، وإن كان محدداً بشكل خاص. بدأت تنتشر عادة تعليق ملصقات على ياقات الملابس، أو أكثر حرية، بتعليقها في الأمام والخلف، والسيقان، وفي كل أجزاء الجسد وبكل تلك اللغات، وأيضاً باللهجات المحلية، ومختلف اللكنات، وأخيراً بلغة الإسبرانتو، وإن كانت هذه من الصعب فهمها. لمواجهة هذه النيران قررت الحكومات الأوروبية اتخاذ المبادأة بتنظيم حلقات نقاش وموائد مستديرة في التلفزيون، وبمشاركة رئيسية للأشخاص الذين هربوا من شبه الجزيرة بعد حدوث الانفصال وبدا أنه نهائي، وليس أولئك الذين كانوا هناك كسواح، هؤلاء المساكن، الذين لا يزالون تحت تأثير الصدمة، بل من الاصطلاء تماماً، الذين رغم ارتباطاتهم التراثية والثقافية وممتلكاتهم والسلطة، أداروا ظهورهم لهذا التحول الجغرافي واختاروا الثبات الفيزيقي للقارة. قام هؤلاء الأشخاص برسم الصورة السوداء للواقع الأيبيري، ونصحوا بكثير من العطف ومعرفة الوضع، نصحوا الثائرين بألا يعرضوا الهوية الأوروبية للخطر، وانتهوا إلى نتيجة من خلال تداخلاتهم في الحوار بجملة نهائية، وأعينهم في مواجهة أعين المشاهدين، وبطريقة صريحة جداً، "افعلوا مثلي، واختاروا أوروبا".

لم تكن النتيجة حاسمة، عدا في المظاهرات ضد التمييز الذي تعرض له المؤيدون لشبه الجزيرة، الذين

بالنسبة لهم لو لم تكن شعارات الديمقراطية التعددية سوى كلمات جوفاء، ما كانوا قد سمحوا لهم بالظهور في التليفزيون للتعبير عن وجهة نظرهم، هذا إذا كانت لهم وجهة نظر. الاحتياط مفهوم، لأن الأسباب التي تعرضوا لها في الحوار تشكل رأياً بين الشباب، لأنهم هم من قاموا بتلك الأعمال الأكثر قوة، لأنه كان يمكنهم أن يقدموا المزيد من الحجج المقنعة لاحتجاجاتهم، سواء في المدرسة كما في الشارع، وفي الأسرة، وهو ما لا يجب أن ننساه. يمكن طرح المناقشة حول ما لو لم يكن الشباب لديهم مبرراتهم هل كان يمكنهم التخلي عن احتجاجاتهم، ولو تحت تأثير سكون الذكاء، بعكس ما كان خلال قرون من قناعات. يمكن مناقشة ذلك، لكنه أمر لا يستحق، لأنه خلال ذلك جرى قذف الحجارة على مبنى التليفزيون، وسرقة المحال التي تباع أجهزة التليفزيون رغم صرخات الباعة. في تلك المحال، "ما ذنبي أنا؟"، لكن البراءة النسبية لم تفلح في إيقافهم، كانت اللمبات تنفجر، وتمزقت الكراتين في الشوارع، وأُحرقت، وتحولت إلى رماد. جاء البوليس، هجم، فتفرق المتظاهرون وخلال تلك اللعبة مرت ثمانية أيام، وحتى ذلك اليوم الذي نحن فيه، عندما خرج هؤلاء من فيجييرا دافوز، خلف الكلب، ثلاثة رجال وامرأة، أحدهم، لم يكن قد كان بعد، أو رغم أنه لم يكن هو إلا أنه كان، ومن كانت له تجارب في الحب والهجر قد يفهم هذا الكلام المبهم. بينما كان يسافر هؤلاء شمالاً،

قال جواكيم زازا، "لو مررنا عبر بورتو سنبقى جميعاً في البيت"، مئات وملايين من الشباب في كل القارات خرجوا إلى الشارع في الساعة نفسها، لم يكونوا مسلحين بالحجج بل بالعصى وجنازير الدراجات، والمطاوى، والقبضات الحديدية، والرماح، والمقصّات، كما لو جنّوا من الغضب، وأيضاً من الإحباط والألم، ويصرخون، "نحن أيضاً أيبيريون"، بنفس الإحباط الذي دفع بالتجار إلى البكاء، "ما ذنبنا نحن؟".

بعد أن تهدأ النفوس، خلال أيام أو أسابيع، سيأتي الأطباء النفسيون وخبراء علم الاجتماع ليؤكدوا، أنه في الأساس، فإن هؤلاء الشباب لم يكونوا أيبيريين بالفعل، ولكن ما فعلوه، هو تحقيقاً للحلم المستحيل؛ ليعيشوا حياتهم، التي تبدأ في طور الشباب من تهور وعنف، لأنهم لم يستطيعوا التعبير بشكل آخر. فيما شاركوا في معارك في الشوارع والبيادر هذا إذا لم نذكر بشكل متقن، فإن عدد الجرحى الذين يعدون بالمئات، إضافة إلى ثلاثة أو أربعة قتلى، رغم أن السلطات حاولت إخفاء هذه الأحداث المؤسفة بإذاعة الأنباء الغامضة والمتضاربة، لم تعرف أمهات أغسطس أبداً كم عدد الأبناء المختفين، لسبب بسيط أنهن لم تفلحن أبداً في تنظيم أنفسهن، دائماً ما كانت هناك من تبقيين خارج الإجماع، مشغولات بالبكاء حزناً، أو لحماية الابن الذي تبقى لهن، أو تحت أب الابن المختفى لإنجاب ابن آخر، لهذا فإن الأمهات يخسرن دائماً. قنابل مسيلة للدموع، وسيارات إطفاء

بخراطيم، هراوات، دروع وخوذات، أحجار منتزعة من أرضية الطريق، وحواجز، ورماح من أسوار الحدائق، كانت تلك بعض الأسلحة المستخدمة من طرف أو آخر، كانت هناك أشياء جديدة، لها آثار مقنعة لكنها أكثر إيلاماً، تمت تجربتها هنا من جانب مختلف فرق البوليس، فالحروب كالكوارث، لا تأتي وحدها أبداً، أولها للتجريب، وثانيها للإلتقان، وثالثها ما يمكن استخدامه بشكل نهائي، ولكل منها نتيجة طبقاً لمن يقولها، ثالثاً وثانياً وأولاً. بالنسبة لقصيري الذاكرة والذكريات فقد بقيت آخر الجمل التي أطلقها ذلك النابه الهولندي، الذي أصيب بطلقة مطاطية، نتيجة خطأ في الصناعة جاءت أكثر قوة من الطلقة المصنوعة من الصلب، وحتى لا يسيطر الحدث على الحكاية خلال قراءتها فإن كل بلد يقسم إن هذا الفتى كان ابنها، فيما الطلقة، لا تزال تبحث عن صاحب لها، ولم تكن الجملة مهمة فقط بهدفها الموضوعي، بل لجمالها، ورومانتيكيته، وشبابها المدهش، أما بالنسبة للبلاد سواء رغبت في ذلك أم لا، خاصة إذا تعلق الأمر بقضايا خاسرة، مثل هذه. وأخيراً، أنا أيبيري، وبما أنه قال ذلك، فقد انتهى. هذا الفتى كان يعرف ما يريد، أو يعتقد أنه يعرف، ماذا يريد، لأنه لم تكن هناك قضية أفضل، تحتل هذه مكان تلك، لم يكن مثل جواكيم زازا، الذي لا يعرف من يحب، إلا أنه لا يزال حياً، ريثما تحين الفرصة، لو أنه كان يقظاً لانتهازها.

الصباح أضحى مساءً، والمساء يصير ليلاً، في هذا الطريق الطويل المحاذي للبحر يجري الكلب

لاثاريو بخطواته الواثقة، ليس كلب صيد، وبعيداً عن أن يكون كذلك، حتى ذات الحصانين، رغم أنها منهكة القوى إلا أنها تستطيع أن تسير أسرع بكثير كما أثبتت في الأيام الأخيرة، أبدى جواكيم زازا الذي كان يقود قلقه، "بهذه السرعة لن نحقق شيئاً، لو حدث عطل ميكانيكي إضافة إلى الإرهاق حينها كان الله في عوننا"، والراديو، ببطارياته الجديدة، أعلن نبأ الأحداث الأوروبية الفاجعة، والتي تقول إن هناك ضغوطاً على الحكومتين البرتغالية والإسبانية لوضع حد لذلك الوضع، كما لو كان في أيديهما القدرة على القيام بمثل هذا التمرد، وكما لو كان التحكم في شبه جزيرة تسير حسب التيار تماماً كقيادة سيارة ذات حصانين. رفضت الحكومتان هذه الاحتجاجات بإباء، بكبرياء ذكورية من جانب الإسبان، وبرقة أنثوية من جانب البرتغاليين، دون إطراء جنس عن آخر، وأعلننا أن رؤساء وزراء الحكومتين سيلقيان خطاباً ليلاً، كل من بلاده، وبالطبع في وقت متفق عليه سلفاً، أحدث موقف البيت الأبيض المتعقل ارتباكاً، الذي عادة ما ينتهز الفرصة للتدخل في شئون العالم عندما يرى له مصلحة في ذلك. كما يؤكد البعض، فإن الأمريكيين ليسوا مستعدين للتورط قبل أن يعرفوا إلى أين سينتهي كل هذا، حرفياً. ومع ذلك، وصل الوقود من الولايات المتحدة، صحيح أنه حدث بطريقة غير منتظمة، لكن يجب أن نكون ممتنين لهم لأننا ما زلنا نجد البنزين في المناطق النائية، محطة بها وأخرى لا،

لو لم يكن الأمريكيون، وفي ظل إصرار مسافرينا على تتبع الكلب، لاضطروا إلى السير على الأقدام.

عندما توقفوا لتناول الغداء، ظل الحيوان خارج المطعم، دون احتجاج، فقد فهم أن رفاقه الآدميين بحاجة إلى الطعام. بعد انتهاء الطعام خرج بدرو أورثي قبل الآخرين، كان يحمل بقايا الطعام، لكن الكلب لم يرغب في الأكل، وسرعان ما اتضح السبب، كانت هناك علامات من الدم الرطب في شعره وحول فمه، قال جوزيه أنايسو، "كان يصطاد"، لاحظت جوانا كارداس، "لكنه لا يزال يحتفظ بالخيط الأزرق"، قال جواكيم زازا، "إن هذا الفعل كان أكثر فريدة من الآخر، لأن كلبنا، لو كان هو الذي نعتقد أنه هو، مضى عليه أسبوعان في هذه الحياة الطليقة، وإذا كان قد عبر شبه الجزيرة على قدميه، من جبال البرانس إلى هنا، ويعلم الله إلى أين أكثر من ذلك، ما كان يعثر على من يملأ طبقه أو يلهيه بعظمة. أما بالنسبة للخيط الأزرق، ربما كان يتركه على الأرض ثم يعود إلى التقاطه، كصياد يحبس أنفاسه عندما يطلق النار، وبعدها يعود إلى التنفس من جديد، بشكل طبيعي". أهلاً بكم في النهاية، "أيها الكلب الجميل، إذا كنت قادراً على حراستنا كما تعتنى بنفسك، نعلن طاعتنا الكاملة لك". حرك الكلب رأسه، حركة تعلمنا ترجمتها، هبط بعدها إلى الطريق وبدأ في السير من جديد، دون أن ينظر إلى الخلف. المساء كان أفضل من الصباح، الشمس ساطعة، وهذا الكلب الشيطان، أو

هذا الشيطان الكلب، عاد إلى قفزاته التي لا تكل،
الرأس منخفضة، والفم ممدود إلى الإمام والذيل
بامتداد الجسد، الشعر أشقر غامق، سأل جوزيه
أنيسو، "تري إلى أي نوع ينتمي هذا الكلب؟"، أجاب
بدر أوريثي، "لولا الذيل يمكن أن يكون نتاج تزاوج ما
بين كلب صيد وكلب رعي"، أسرع قليلاً، لاحظ ذلك
جواكيم زازا، بسعادة، وجوانا كاردا، ربما حتى لا تظل
صامتة، قالت، "تري أي اسم وضعتموه له، فالיום أو
غداً سيتم طرح مشكلة اختيار الاسم".



-١٢-

تحدث رئيس الوزراء البرتغالي، فقال، "أيها البرتغاليون، خلال الأيام الأخيرة، وبشكل مكثف خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، تحولت بلادنا إلى هدف لضغوط يمكننى أن أصفها بلا موارد بأنها غير مقبولة، مارستها ضدنا كل الحكومات الأوروبية تقريباً، خاصة تلك التى شهدت اضطراباً خطيراً فى الأمن العام، ونحن لا نتحمل أية مسئولية عنها على الإطلاق، فالمظاهرات التى احتلت الشوارع خرجت للتعبير عن تضامنها مع بلدان وشعوب شبه الجزيرة، وهو ما يكشف عن التناقض الخطير، الذى تتخبط فيه حكومات أوروبا، التى لم نعد ننتمى إليها، وفى مواجهة الحركات الاجتماعية والثقافية لتلك البلاد، التى ترى فى المغامرة التاريخية التى وجدنا أنفسنا فيها، وعداً بمستقبل أكثر سعادة. ولتلخيص الموقف فى كلمات قليلة، إن تلك الجماهير ترى الأمل فى

إعادة الشباب للإنسانية، إن هذه الحكومات بدلاً من مساندتنا طبقاً لأبسط قواعد حقوق الإنسان، وبدلاً من أن تعبّر عن الضمير الثقافي الأوروبي الحقيقي، فضلت أن تحولّنا إلى كبش فداء للصعوبات الداخلية التي تواجهها، ووجهت إلينا إنذاراً غريباً تطالبنا فيه بوقف انجراف شبه الجزيرة، مع أنه كان يجب الحديث عن الإبحار وليس الانجراف، وذلك التزاماً بالدقة في ذكر الحقائق واستخدام المصطلحات. وما يجعل هذا الموقف أكثر إيلاماً ومدعاة للحزن أننا نبتعد عما يسمى حالياً بالسواحل الغربية لأوروبا مسافة سبعمائة وخمسين متراً في كل ساعة، وما هي حكومات أوروبا، التي لم تؤكد أبداً في الماضي أنها تريدنا فعلاً، تُصدر لنا أمراً بأن نقوم بشيء هو في الحقيقة لا يريدونه، إضافة إلى أنه أمر غير قابل للتحقيق، فهم يعرفون ذلك، فإذا كانت أوروبا مكاناً للتاريخ والثقافة، بكل تأكيد فإنها خلال الأيام الصعبة هذه أثبتت تخلفاً في حسن التصرف والرأي السديد، ويقع علينا نحن، أن نحافظ على هدوء وأمن الأقوياء العادلين، ونحن كحكومة شرعية دستورية، نرفض هذه الضغوط بشدة وأية تدخلات من أي نوع أياً كان مصدرها، معلنين أمام العالم أن المصلحة العليا للبلاد هي مرشدنا، وبشكل عام، مصلحة شعوب وبلدان شبه الجزيرة، وإنني أؤكد ذلك بكل ثقة ورسمياً. نظراً إلى أننا عملنا معاً على مستوى حكومتى البرتغال وإسبانيا، وسنستمر في العمل معاً لدراسة واختيار

التدابير الواجب اتخاذها وصولاً إلى نهاية سعيدة للأحداث التي تسبب فيها صدع جبال البرانس التاريخي، وهناك كلمة شكر واجبة نوجهها إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي مكنتنا من المحافظة على مستوى معقول من التزود بالوقود والمواد الغذائية التي كانت توفرها أوروبا من قبل، في إطار علاقات الوحدة الأوروبية، إن مثل هذه القضايا بالطبع كانت ستتم معالجتها في ظروف طبيعية وعبر القنوات الدبلوماسية المختصة، لكن في ظل موقف يمثل هذه الخطورة، رأت الحكومة التي أتولى رئاستها ضرورة أن يعلم الشعب كله بما يجري وبشكل مباشر، معبرة عن ثقتها في كرامة البرتغاليين الذي سيعرفون كيف يتراصون صفاً واحداً كما فعلوا في مناسبات تاريخية أخرى عديدة، خلف ممثليهم الشرعيين، وحول رمز الوطن المقدس، وهم يقدمون في لحظة شديدة الصعوبة والخرج تاريخياً صورة شعب متحد ومصمم، عاشت البرتغال".

سمع المسافرون الخطاب عندما كانوا يقترحون من بورتو، دخلوا مقهى يقدم أيضاً أطعمة سريعة، ويقوا هناك لبعض الوقت يشاهدون في التلفزيون صوراً للمظاهرات الكبرى ومواجهة البوليس لها، يقشعر البدن لرؤية هؤلاء الشباب الأنقياء رافعين اللافتات والأعلام المكتوب عليها بلغة كل بلد، تلك الجملة الشهيرة. سأل بدرو أورثي، "لماذا، يهتمون بنا إلى هذا الحد؟"، وجوزيه أنايسو كان يكرر، أطروحة

رئيس الوزراء بشكل مباشر، دون أن ينتبه، ويقول، "إنهم منزعجون خوفاً على أنفسهم"، من المؤكد أنه ما كان يمكنه أن يعبر عن نفسه بأفضل من هذا. أنهوا طعامهم وخرجوا، التهم الكلب هذه المرة بقايا الطعام التي قدمها له بدرو أورثي، وتحركت ذات الحصانين، وإن كانت بطريقة أكثر بطئاً حتى أصبح المرشد يكاد لا يبين أمامها بشكل جيد، قال جواكيم زازا، "عند نهاية الجسر سنحاول إقناع الكلب ليدخل السيارة، نضعه في الخلف، بين جوانا وجوزيه؛ لأنه لا يمكننا السير في المدينة كما كنا نفعل حتى الآن، ومن المؤكد أنه لا يريد مواصلة الرحلة ليلاً".

كانت تكهناته حقيقية وتم تنفيذ رغبة جواكيم زازا، ما إن انتبه إلى ما يريدونه منه، حتى دخل الكلب، ببطء وتثاقل وانبطح على سيقان المسافرين في المقعد الخلفي، أراح رأسه على ذراع جوانا كاردا، لكنه لم ينم، كانت عيناه مفتوحتين، تنزلق عليهما أضواء المدينة كانزلاقها على مسطح من الزجاج الأسود. قال جواكيم زازا، "سنبقى في بيتي، عندي سرير كبير وكنبة سرير يمكنها أن تسع اثنين بشكل مريح نسبياً، شخص من الثلاثة"، بالطبع كان يشير إلى الرجال، "عليه أن ينام في المقعد، حسناً، سأنام أنا، فأنا صاحب البيت، أو قد أذهب للنوم في بنسيون موجود بالقرب من هناك". لم يجب الآخرون، وهي طريقة صامتة علامة على الموافقة، أو ربما يفضلون تقرير ذلك فيما بعد، بهدوء، المسألة الأصعب، بدأت تظهر

الآن على السطح، صعوبة، يبدو أن جواكيم زازا فعلها عمداً، فقط ليستمتع بها، وهو قادر على ذلك. لكن لم تكن قد مضت دقيقتان حتى كانت جوانا كاردا تقول بصوت واضح، "نحن سننام معاً"، الحقيقة هي أن العالم سيضيع لو لم تأخذ النساء بزمام مبادرة من هذا النوع، في زمن مضى كانت هناك قواعد، إذا عدنا دائماً إلى البداية، كانت هناك نظرات حارة ومثيرة دائماً من جانب الرجل، وإرخاء للجفون من جانب المرأة، ملقبة بنظرة إغراء من خلف الرموش، وبعدها، وحتى أول احتكاك بين اليدين، فإن الأشياء تحدث مع بعضها جيداً، وكانت هناك رسائل، ولحظات غضب سريعة، وتصالح، وإشارات بالمنديل، وسعال دبلوماسي، وبالطبع فإن النتيجة النهائية واحدة، الوصيفة راقدة في السرير، وفوقها الرجل اللطيف، بزواج أو بدونه، لكن أبداً، أبداً لن تكون هذه النهاية، هذا عدم احترام أمام رجل مسن، ولا يزالون يقولون إن الأندلسيات تجرى في عروقهن دماء ساخنة، خذوا هذا السؤال إلى بدرو أورثي، الموجود معنا هنا، لم تقلها واحدة من قبل أكثر وضوحاً، "نحن سننام معاً". "لكن الزمن تغير جداً، آه نعم نحن موجودون هنا"، لو أن جواكيم زازا أراد أن يسخر من مشاعر الآخرين، فإن الحوار جاءه جاداً، وربما كان بدرو أورثي قد سمع الحوار خطأ، فكلية "معاً" لا تقول المعنى نفسه بالإسبانية كما في البرتغالية، لم يفتح جوزيه أنيسو فمه، ماذا كان يمكنه أن يقول هو،

سيكون في وضع سيئ لو وضع نفسه للعب دور الإغواء، وأسوأ لو أبدى رد فعل مستنكر، لذلك من الأفضل الصمت، ليس هناك حاجة إلى التفكير كثيراً لفهم أن جوانا كاردا أمكنها أن تقول كلمات مثيرة، لنتخيل مدى الوقاحة لو أنه نطقها هو دون أن يسألها أولاً، وحتى بهذه الطريقة، ولو كانت مجرد سؤال، فهناك مواقف تتخذها المرأة وحدها، بالطبع حسب الحالة واللحظة، هذا هو، اللحظة، تلك الثانية المحددة الموضوعية بين ثانيتين يتسببان في وقوع الخطأ والكارثة. يدا جوانا كاردا وجوزيه أنيسو كانتا معاً على ظهر الكلب، شاهدهما جواكيم زازا بطرف عينيه عبر المرأة، كانا يبتسمان، وأخيراً انتهت اللعبة نهاية سعيدة، "هذه الجوانا لها شخصية قوية"، وشعر جواكيم زازا مجدداً بوخز الحسد، لكن الذنب، كما اعترف من قبل، ذنبه، لأنه لا يعرف من يمكنه أن يحب.

لم يكن البيت قصراً، به غرفة نوم صغيرة، داخلية، وصالة أصغر حيث توجد الكنبه سرير، ومطبخ، وحمّام، إنه بيت شخص أعزب، ورغم هذا فهو محظوظ، فليس عليه أن يبحث عن غرف للإيجار. كان مخزن الطعام خالياً، وإن كان الجوع قد أشبع خلال التوقف الأخير. شاهدوا التليفزيون في انتظار أخبار جديدة، لم تحدث حتى الآن ردود فعل في وزارات الخارجية الأوروبية، مع ذلك، حتى لا يظهرون عدم اكتراثهم، ظهر في نشرة الأخبار الأخيرة

رئيس الوزراء من جديد، وقال، "أيها البرتغاليون"، والباقي نعرفه أيضاً، وقبل أن يذهبوا إلى النوم عقدوا مجلس حرب، ليس بهدف اتخاذ قرارات، لأن تلك القرارات كانت في يد الكلب الذي ينعس عند أقدام بدرو أورثي، ولكن ليعرض كل منهم وجهة نظره، قال جواكيم زازا، "ربما تكون نهاية الرحلة هنا"، آملاً في ذلك، قال جوزيه أنيسو، فيما كان يفكر في شيء آخر، "أو ربما في الشمال"، وأضافت جوانا كاردا، التي كانت تفكر في الأمر نفسه، "أعتقد أن نهايتها في الشمال"، لكن بدرو أورثي من قال الكلمة النهائية، "هو يعرف"، بعدها تتأهب، وقال، "أنا في حاجة للنوم".

الآن لم تعد هناك حاجة إلى التردد حول من سينام مع من؟ فتح جواكيم زازا الكنبه سرير بمساعدة بدرو أورثي، انسحبت جوانا كاردا بهدوء، فيما بقي جوزيه أنيسو بعض الوقت، في حالة من البلادة، كما لو كان لا علاقة له بالمسألة، لكن ضربات قلبه كانت تنبض بقوة في صدره منذرة، وكانت تتردد الضربات عند فم المعدة، تهز البيت من أساساته، وإن كانت هذه الاهتزازات لا تشبه الأخرى في شيء، وأخيراً قال، "تصبحون على خير، إلى اللقاء صباحاً"، وانسحب. من الأفضل القول إن تلك الكلمات لم تكن أبداً على مستوى اللحظة. غرفة النوم في الجانب نفسه، هناك نافذة عالية، بالقرب من السقف كطريقة لإطالة دخول ضوء النهار، وليس عليها ستارة، ومفهوم ما يحدث لو كان هناك قليل من الحياء، فالبيت يسكن فيه أعزب،

حتى لو كانت لدى جواكيم زازا مثل هذه الانحرافات، فهو لن يتلصص على نفسه، نقول إنه على أية حال قد يكون مثير جداً، بغض النظر عن الجانب التربوي، من أن نكون من وقت لآخر متلصصين على أنفسنا، ربما لا نحبه. من خلال ذكر هذا لا نريد أن نقول إن بدرو أورثي وجواكيم زازا يفكران في ارتكاب بذاءات بهذه الخطورة، لكن تلك النافذة، تبدو الآن مجرد خيال نافذة، تكاد لا تُرى من الصالة المظلمة، لكنها مثيرة للتشوش، تُجمد الدم، كما لو كان كل شيء هنا غرفة واحدة، قمرة سفينة، عنبر نوم، فيما كان جواكيم زازا راقداً على ظهره، لم يكن يريد أن يفكر، لكنه رفع رأسه عن المخدة ليخلق صمتاً ويمكنه أن يتنصت بشكل أفضل، فمه جاف، وقاوم ببطولة الرغبة في النهوض والذهاب إلى المطبخ ليشرّب كوب ماء، وفي الطريق يمكنه أن يتنصت على الهمهمات. أما بدرو أورثي، من جانبه، فقد نام على الفور من تأثير التعب، واتجه بوجهه باتجاه الخارج، وترك ذراعه يسقط على ظهر الكلب، الذي رقد هناك، اهتزازات الواحد منهما هي اهتزازات الآخر، وربما كان النوم أيضاً. لم تصل من غرفة النوم أية حركة، ولا حتى كلمة مبهمّة، ولا حتى شهيق، أو أنة مكتومة، فكر جواكيم زازا، يا له من صمت، وبدا له غريباً، فلم يتخيل أبداً إلى أي حد يمكن أن يكون غريباً، ولن يعرف أو يتخيله أبداً، أن تلك الأشياء عادة ما تظل سرّاً لمن يمارسها، دخل جوزيه أنايسو في جوانا كاردا واستقبلته هي، دون أية

حركة أخرى، كان قوياً هو، وناعمة هي، وظلا هكذا،
الأصابع تضغط على الأصابع، والشفاه ملتصقة في
صمت، فيما الموجة العنيفة تهز منتصف الجسد، دون
أية مهمة، وحتى آخر ذبذبة، وحتى الدفع الأخير،
لنقولها هكذا، بلطف، حتى لا يتهمونا بالاستعراض
أكثر من اللازم، في وصف مشاهد جماع، كلمة رديئة
من حسن الحظ تم نسيانها اليوم. غداً، عندما
يستيقظ جواكيم زازا، سيفكر أن هذين الاثنين انتظرا
بصبر، ليعلم الله المجهود الذي بذلاه، لأن الله يحب
إعلاء الجسد، الانتظار حتى ينام الآخرين، إنه
مخطئ؛ ففى نفس اللحظة التى دخل فيها النوم، للمرة
الثانية كانت جوانا كاردا تستقبل جوزيه أنايسو، والآن
لن يكونا صامتين كما كانا من قبل، بعض الانتصارات
قد لا تتكرر. قال أحدهما، "مؤكد أنهما نائمان الآن"،
وهكذا تمكن الجسدان من إفراغ شهوتيهما، فقد كانا
فى حاجة إلى ذلك.

كان بدرو أورثى أول من استيقظ، فقد لامس فمه
المتعب أصبع الفجر الرمادى، حلم لحظتها أن امرأة
تقبله، أم كم ناضل من أجل أن يظل الحلم ويستمر،
لكن عينيه تفتحتا، وكانت شفاه جافتين، ولم يترك أى
فم علامة من اللعاب الحقيقى على شفتيه، الرطوبة
الخصبة. رفع الكلب رأسه، لعق قدميه، ونظر بتركيز
فى بدرو أورثى فى ظلام الصالة الثقيل، كان من
المستحيل معرفة مصدر الضوء المنعكس على عينيه.
دغدغ بدرو الحيوان، ولعق هذا يده المعزوقة مرة

واحدة. استيقظ جواكيم زازا على أثر الحركة، لم يكن واعياً في البداية بالمكان الذي يوجد فيه، حتى لو كان بيته الخاص. ربما بسبب السرير الذي كان نائماً فيه، والرفقة. فيما بدرو أورثي راقد ورأس الكلب على صدره، قال، "بدأ يوم جديد، ترى ماذا يخبئ لنا؟"، وقال جواكيم زازا، "ربما غير الكلب رأيه، لنرَ إن كان قد فقد الاتجاه بعد النوم، هذا يحدث كثيراً، ما إن ينام الواحد منا حتى تتغير الأشياء، نحن سيان في هذا ونتعرف كل منا على الآخر". في هذه الحالة لا يبدو أن شيئاً قد تغير. نهض الكلب، ضخماً، وممتلئاً، وسار حتى الباب المغلق. كان شكله الخارجى يظهر غير واضح، حدود جسده، وبريق عينيه، قال جواكيم زازا، "إنه ينتظرنا، من الأفضل تنبيهه إلى أن الوقت لا يزال مبكراً"، لبي الكلب نداء صوت بدرو أورثي، ورقد دون مقاومة، كان الرجلان يتحدثان بصوت خفيض جداً، قال جواكيم زازا، "سأذهب لسحب رصيدى الذى لى فى البنك، ليس كثيراً، وسأطلب قرضاً"، "وعندما تنتهى هذه الأموال"، "ربما تنتهى المغامرة قبل انتهاء الأموال"، "يعلم الله ما ينتظرنا؟"، "سنعثر على طريقة للعيش، لو كان ضرورياً، بالسرقه"، قال هذا جواكيم زازا ضاحكاً، "ربما لن نكون فى حاجة إلى الوصول إلى ارتكاب أشياء خارجة على القانون، وهنا أيضاً فى بورتو يذهب جوزيه أنابسو لقرع البنك؛ حيث يحتفظ برأس ماله الكبير"، كان مع بدرو أورثي بعض البيزيتات، أما

عن جوانا كاردا لا نعرف شيئاً عما تملكه، فهي على الأقل لا تبدو مثل أولئك الذين يعيشون على الإحسان أو على حساب الرجل. الشك الحقيقي في عثورهم على عمل للأشخاص الأربعة، لأن العمل في حاجة إلى المداومة، والإقامة الثابتة، والاستمرارية، فإذا كان مصيرهم الأول هو السفر خلف كلب وربط مصيرهم بمصيره الذي لا يعرفون عنه شيئاً، لكن ليس هذا هو الوقت الذي تتكلم فيه الحيوانات لو تكلمت، ويمكنها القول أين تريد أن تذهب، فما بلك إن كانت تنقصها الأحبال الصوتية.

ساعة الرحيل، وقف الأربعة في البيت ينظرون إلى الكلب في حالة من الحيرة، كمن ينتظرون الأوامر، هناك شك فيمن يأمر ومن يتلقى الأمر بجدية. قال جواكيم زازا، "أرجو بعد الخروج من بورتو أن يثق فينا كما وثق عند دخوله"، وفهم الآخرون سبب هذه الملاحظة، فلنتخيل لو أن الكلب كان أميناً على سلوك طريق الشمال. ففي المدينة ماذا يفعل لو اضطر إلى دخول الشوارع ذات الاتجاه الواحد، عندها ستكون الواقعة مع رجال البوليس، والحوادث، والاختناقات المرورية، ويتجمع سكان بورتو للسخرية من هذا الاستعراض، لكن هذا الكلب ليس كلباً عادياً، ومشكوكاً في أصوله، جذور شجرة نسبه تصل إلى الجحيم، وكما يعرف كل فرد، فالمكان الذي تؤدي إليه المعرفة القديمة الموجودة من قبل، والحديثة والمستقبلية، ستتبع الطريق نفسه. لذلك، وربما لأن

بدرو أورثى عاد إلى آلاعيه، وهمس فى أذنه بكلمات لم نتمكن من معرفتها، دخل الكلب إلى السيارة بشكل طبيعى جداً، كما لو كان معتاداً على السفر بهذه الطريقة طوال حياته. لكن من الملاحظ أنه هذه المرة لم يضع رأسه على ذراع جوانا كاردا، ولكنه نظر بانتباه إلى جواكيم زازا الذى يقود السيارة عبر منحنيات وتقاطعات الشوارع، فى جميع الاتجاهات، من يراهم يمرون ويجد تسلية فى مراقبتهم، قد يقول، "إنهم متجهون نحو الجنوب"، ثم يصحح ما قاله من قبل، "إنهم يذهبون باتجاه الغرب"، أو، "إنهم يتجهون نحو الشرق"، وهى الجهات الرئيسية أو الأصلية، لكن حتى لو استعرضنا وردة الرياح بالكامل، لن نستطيع الخروج من بورثو ولا من الارتباك.

هناك اتفاق بين الكلب وهؤلاء الأشخاص، أربعة كائنات عاقلة تسمح أن تقودها غريزة حيوانية، إلا إذا كانوا جميعاً منجذبين إلى مغناطيس فى الشمال، أو يسحبهم طرف خيط أزرق توهم لهذا الذى فى فم الكلب ولا يتركه. خرجوا من المدينة، معروف أن الطريق، رغم المنحنيات، تسير فى الاتجاه الصحيح، أبدى الكلب علامات على أنه يريد الخروج، يفتحون له الباب وها هو هناك، مستعيداً حيويته بعد الراحة الليلية والطعام الجيد الذى قدموه له. خطواته سريعة جداً، وترافقه ذات الحصانين بسعادة، لم تعد فى حاجة إلى كبح سرعتها. الطريق لم يعد الآن موازياً للبحر، يسير فى أرض داخلية، لهذا السبب لا نرى

الشاطئ الذى حصل فيه جواكيم زازا على قوة أكبر من قوة شمشون فى ساعة من حياته، وهو نفسه قال، "خسارة ألا يرغب الكلب فى السير بمحاذاة الشاطئ، كان يمكننى أن أبين لكم مكان ما جرى لى مع الحجر، وما كان لشمشون نفسه المذكور فى الإنجيل أن يفعل ما فعلت"، لكنه صمت تواضعاً، لأن الأعجب لا يزال ما حدث مع جوانا كاردا هناك فى حقول إريرا، والأكثر إلغازاً الاهتزازات التى يشعر بها بدرو أورثى، إذا كان مرشدنا هنا على الأرض من الفصيلة الكلبية القادمة من العالم الآخر، ماذا يمكننا أن نقول عن آلاف الزراير التى رافقت جوزيه أنايسو لفترة طويلة، وغادرته فقط فى اللحظة التى بدأت فيها طيراناً آخر.

الطريق يصعد إلى أعلى، ويصعد بعدها مرة أخرى، ويصعد دائماً، وعندما يهبط فقط لينخفض قليلاً، تلك التلال ليست عالية جداً، لكنها تصيب قلب ذات الحصانين بالتعب وتدفعها إلى اللهاث فى الصعود، والكلب فى الأمام، بلا كلل. توقفوا ليتناولوا طعام الغداء فى مطعم صغير على حافة الطريق، واختفى الكلب مرة أخرى بحثاً عن صيده، وعندما عاد كانت الدماء على فمه، لكننا نعرف السبب من قبل، وليس هناك أى سر، إذا لم يكن لك من يملأ لك طبقك، عليك أن تفعل ما تستطيع. وفى الطريق من جديد، دائماً باتجاه الشمال، فى لحظة قال جوزيه أنايسو، متوجهاً بحديثه إلى بدرو أورثى، "لو سرنا

على هذا النحو سندخل إسبانيا، نعود إلى أرضك"،
"أرضى هى الأندلس"، "أرضك، بلادك سيان"، "لا، قد
لا نعرف وطننا، لكننا نعرف أرضنا"، "هل زرت جيليقيا
من قبل؟"، "لم أذهب إلى جيليقيا أبداً، جيليقيا أرض
الآخرين".

سنرى إن كانوا سيدخلون إسبانيا، لأنهم سينامون
الليلة فى البرتغال. ذهب جوزيه أنايسو وجوانا كاردا
إلى بنسيون كزوج وزوجة، بدرو أورثى وجواكيم زازا،
توفيراً للمال بقيا معاً فى غرفة واحدة، والكلب كان
عليه أن ينام فى ذات الحصانين، حيوان قوى الجسم
قد يثير الرعب فى قلب صاحبة النزل. "لا أريد رؤية
مثل هذا فى البيت، ليبق فى الشارع لأنه مكان انتظار
الكلاب، ما ينقصنى هو أن يملأ بيتى بالحشرات"،
احتجت جوانا كاردا، "هذا الكلب نظيف ولكن بلا
نتيجة، النقطة الأساسية لم تكن هذه. "استيقظ بدرو
أورثى فى منتصف الليل، واثقاً أنه سيجد باب الشارع
غير مغلق بالمفتاح، والحقيقة أنه لم يكن كذلك، وذهب
لينام ساعتين فى السيارة، محتضناً الكلب، وإذا لم
يكن عاشقاً لأسباب مفهومة بحكم الطبيعة، فالصدقة
أفضل تعويض. عند دخول بدرو أورثى السيارة اعتقد
أن الكلب نبج بصوت خفيض، لكنها تخيلاته هو، وهى
تخيلات تطراً علينا عندما نحب شيئاً بشكل كبير،
فالجسد الحكيم رحيم بنا، يختلق من نفسه ما يشبع
رغباتنا، والحكم هو هذا، أم أنكم تعتقدون شيئاً آخر،
"لو كان الأمر كذلك، قل لى كيف يمكننا أن نكون

قادرين على تحمل متاعب الحياة، هذا التعليق لصوت مجهول يتحدث من وقت لآخر.

عندما عاد بدرو أورثى إلى غرفته، جاء الكلب من خلفه، وبما أنه كان ممنوعاً من الدخول، فقد تمدد أمام عتبة الباب وبقي هناك، لا توجد كلمات لوصف الرعب والصرخات التي انطلقت مع أشعة الصباح الأولى، صاحبة البنسيون المبكرة جاءت لافتتاح يوم العمل الجديد، فتحت المصاريع لتدخل رطوبة الفجر، ما بدر من الكلب كان مجرد تتأوب من لم ينم جيداً، ولكن حتى التثأوب يجب الحذر منه عندما تبرز الأنياب القوية واللسان الأحمر اللامع، كما لو كان ينضج بالدم، كان الغضب بعدها عارماً إلى درجة أن خروج النزلاء كان طرداً أكثر منه انسحاباً سلمياً، وتقدمت ذات الحصانين، وتكاد تقترب من الناصية، ولا يزال صوت الصراخ مستمراً ضد الوحش الصامت، بل كان ذلك أسوأ مما ذكرناه، الكلب الذى ينبج لا يعرض، حقيقة أن هذا الكلب لم يعرض بعد، لكن لو كانت قوة الشكوى من الأسباب المباشرة للصمت، فليحررنا الله من الحيوان. استمر المسافرون فى طريقهم ساخرين مما حدث، "لو كنت مكان تلك المرأة لأصبت بالذعر أيضاً، وأنتم لا تحاولوا إظهار شجاعتكم، خاصة أنه ما يجب أن يكون الإنسان شجاعاً رغم أنه"، النصيحة وصلت الأعماق، وازن كل واحد من الرجال ما حدث سراً، حول جبنهم، والحالة الأكثر إثارة كانت حالة جوزيه أنيسو، الذى قرر أن

يبلغ جوانا كاردا بما يشعر فى أول فرصة، الحب لن يكون كاملاً ما لم يتم الحديث عن كل شيء، والأسوأ عندما ينتهى الحب، فإن المُعترف سيندم، وليس غريباً أن يخون الآخر الثقة، ولنرَ كيف سيتم الأمر بين جوانا كاردا وجوزيه أنيسو حتى لا يحدث هذا بينهما هذه المرة.

لم تكن الحدود بعيدة، وكما هو معتاد من فضائل المرشد الاستكشافية، لم يلاحظ المسافرون الطريقة العجولة التى اختار فيدل أو بيلوتو، لا بد من أن يأتى يوم يختارون فيه أحد هذين الاسمين، طريقاً خاصاً، إنه مفترق لعدة طرق، ورغم خبرة الحيوان الذى من المؤكد أنه سلك هذا الطريق من الشمال إلى الجنوب، مع أنه لا أحد يمكنه أن يؤكد ذلك، فإن الخبرة قد لا تفيد كثيراً أمام اختلاف وجهات النظر، والتى من حسن الحظ أننا لا نتجاهلها، فكل شيء متعلق بها. معروف بالطبع أن البشر يعيشون محاطين بالكثير من المميزات، ولكن عن المميزات يكاد لا يعرف النصف، وعن النصف المعروف، فالأكثر عمومية هو الخطأ، لأنهم يريدونه أساساً، بالقوة الغاشمة، أن يكون الله سيدنا، إنه خلق هذه وتلك على هيئته، بالنسبة لهذه الحالة ليس مهماً من الذى أنشأها، فالغريزة تقود هذا الحيوان، لكننا لا نعرف ماذا ولا من يرشد هذه الغريزة، ولو أننا عثرنا فى يوم من هذه الأيام على تفسير لهذه المسألة الغريبة، فالأكثر احتمالاً أن يكون التفسير معتمداً على الظواهر، إلا إذا كان يمكننا أن

نستخرج من التفسير تفسيراً وهكذا إلى ما لا نهاية، وحتى نصل إلى اللحظة التي لا يكون هناك شيء في حاجة إلى التفسير من الذي تم تفسيره، من هنا نفترض أنه لن يكون في النهاية سوى الفوضى، لكننا هناك لا نتعامل مع تكوين الكون، ماذا نعرف عن هذا، فنحن نتعامل هنا مع الكلاب فقط.

أما عن البشر، من أولئك الذين يتبعون الكلب باتجاه الحدود التي تقترب، سيفادرون الأراضي البرتغالية مع حلول المساء، وفجأة، وربما حتى الآن لأن الظلام بدأ يقترب، حينها سينتبهون إلى اختفاء الحيوان، فيشعرون جميعاً كأطفال تاهوا في الغابة، "والآن ماذا نفعل؟"، انتهز جواكيم زازا الفرصة ليشوه أمانة الكلب، ولحسن الحظ ظهرت خبرة الحياة من فم بدرو أورثي الجاد، "مؤكد أنه ذهب لعبور النهر سباحة وسينتظرنا على الجانب الآخر"، لو كانت الناس منتبهة بالفعل للوجود والتفاعل الكيميائي، لفهموا على الفور، ونشير هنا إلى جوزيه أنايسو وجواكيم زازا، إن أسباب الكلب يمكن أن تساوى تماماً أسباب آلاف الزرايزر، إذا كان فيدل قد جاء من الشمال ومر من هذا المكان، ربما لا يريد تكرار التجربة، دون طوق في رقبتة، ربما يكون مُشتَبهاً فيه بالسعار، ويطلقون عليه الرصاص لقتله.

طالع رجال البوليس الأوراق الثبوتية بعدم اهتمام، وأمروهم بمواصلة الطريق، يبدو أن العمل قليل لدى هؤلاء الموظفين، حقيقة أن الأشخاص، كلما

أُتيحت لنا الفرصة لنعرف، يسافرون كثيراً، ولكن سفرهم أكثر داخل الحدود، كما لو كان الخوف يمنعهم من الابتعاد عن البيت الكبير، وهو الوطن، حتى لو غادروا البيت الصغير، البيت البائس الذى يعيشون فيه. على الطرف الآخر من نهر المينيو فإن الغضب لا يختلف، رغم وضوح شرارة من الفضول الخفيف، لأن مع هؤلاء البرتغاليين إسبانياً من جيل آخر، لو كانوا فى فترة عبور فيها الكثير من الدخول والخروج ما كان لهم أن ينتبهوا لوجود هذا الرجل. سار جواكيم زازا كيلومتراً واحداً، وأوقف ذات الحصانين على حافة الطريق، "لنتنظر هنا، لو أن الكلب، كما يقول بدرو، يعرف ما يفعل، سيأتى بحثاً عنا". لم ينتظروا طويلاً، بعد عشر دقائق ظهر الكلب أمام السيارة، مبتل الشعر. كان بدرو أورثى محقاً، ونحن، لو لم نشك قليلاً، كان يمكننا أن نبقى على الشاطئ لمشاهدة العبور الثمين، الذى نَصِفُه بلذة كبيرة، وبعدها، بدلاً من هذا التقاطع الحدودى بحرس لكل منهم زيه المختلف، "واصل"، "مر"، وتم تلخيص الفصل فى هذا، وحتى برق الفضول لم يكن سوى اختلاق مسكين ليزخرف مادة الموضوع بعض الشيء.

اختلافات أخرى أفضل ستأتى الآن لتزيين ما تبقى من الرحلة، بفارق يومين وليلتين، هن كن ينمن فى خانات ريفية، فيما هم يسIRON على طريق قديمة، باتجاه الشمال، ودائماً نحو الشمال، أراضى جيليقيا والضباب، بأمطار خفيفة تعلن عن مقدم الخريف، هو

فقط ما يمكن أن يُقال، ولم نكن في حاجة إلى اختلاقه. ما عدا العناق الليلي بين جوزيه أنابسو وجوانا كاردا، وأرق جواكيم زازا الممتنع، ويد بدرو أورثي على ظهر الكلب، هنا تركوا الحيوان يدخل إلى الغرف والنوم هناك. وفي أيام الطريق، بمواجهة الأفق الذي لا يريد الاقتراب. عاد جواكيم زازا إلى القول بأن كل هذا جنون، السير خلف كلب غبي حتى نهاية العالم، دون معرفة السبب، وهو ما أجابه عليه بدرو أورثي بشيء من الجفاء، "هذا لن يكون حتى نهاية العالم، لأننا سنصل إلى البحر أولاً". لوحظ أن الكلب متعب، يسير منخفض الرأس، وهبطت نواراة الذيل، وباطن الأقدام، رغم الجلد القوي، متألمة من كثرة احتكاكها بالأرض والأحجار، وبعد ذلك في الليل سيذهب بدرو أورثي للكشف عليه ويرى التجمعات الدموية، ليس غريباً أن يجيب جواكيم زازا بهذا الجفاء، الذي كان يراقب باهتمام ويقول، برنة الاعتذار، "قليل من ماء الأكسجين يفيد"، قوله هذا كمن يريد تعليم راعي الكنيسة الصلاة، عن فنون الصيدلة يعرف بدرو أورثي ما يفيض، ولهذا ليس في حاجة إلى من يعلمه. لكن، بهذا فقط، تم الصلح.

عندما وصلوا بالقرب من سانتياجو دي كومبوستيلا انحرف الكلب باتجاه الشمال الشرقي. يبدو أن وجهته قريبة، ويمكن ملاحظة هذا في القوة المحددة لخطواته الآن، وفي ثبات أقدامه، ووضع الرأس، وانتصاب ذيله، كان على جواكيم زازا أن يزيد

من سرعة ذات الحصانين ليرافق سير الكلب،
والاقتراب منه، حتى كاد يلمس الحيوان، زعقت جوانا
كاردا، "انظروا إلى الخيط الأزرق". رأوه جميعاً.
الخيط لا يبدو هو نفسه. الآخر، كان قدراً ويمكن أن
يكون أزرق أو بنياً أو حتى أسود، لكن هذا كان يلمع
بلونه الخاص، أزرق ليس سماوياً ولا بزرقة البحر،
ترى مَنْ لونه، وَمَنْ غسله، وهل هو نفسه، ووضعه مرة
أخرى في فم الكلب، قائلاً، "هيا". بدأ الطريق يضيق،
يكاد يكون طريقاً ملتصقاً حول التلال. الشمس على
وشك السقوط على البحر الذي لا يظهر من هناك،
الطبيعة خبيرة في تركيب المشهد المناسب للحالة
البشرية، خلال هذا الصباح وحتى المساء كانت السماء
ملبدة بالغيوم وحزينة، يهطل المطر الجيليقي الخفيف،
ضوء قمرى يهبط الآن على الحقول، والكلب يبدو
كجوهرة لامعة، حيوان ذهبي، حتى ذات الحصانين لا
تبدو عليها علامات التعب التي نعرفها، وفي الداخل
كان المسافرون كائنات جميلة، يضرب الضوء وجوههم،
وتبدو عليهم السعادة. نظر جوزيه أنايسو إلى جوانا
كاردا وانتفض عندما رآها جميلة جداً، حرك جواكيم
زاذا المرأة إلى أسفل ليشاهد عينيه لامعة، وبدرو
أورثي يتأمل يديه المعروقتين، ليستا شائختين، لا، كما
لو خرجتا للتو من عملية كيميائية، عادت خالدة، ولو
مات باقي جسده.

توقف الكلب فجأة. كانت الشمس تحتك بحافة
التلال، يمكن التنبؤ بالبحر على الجانب الآخر، يهبط

الطريق بمنحنيات، ويبدو أن هضبتين تخنقانه هناك في الأسفل، لكنه خداع البصر والمسافة. في الأمام، في منتصف السفح، بيت كبير، معماره بسيط، يبدو كما لو كان خالياً منذ زمن، رغم علامات الزراعة في الحقول المحيطة به. جزء من البيت غارق في الظلال، ويخفت الضوء شيئاً فشيئاً، كما لو كان العالم على وشك الإغماء والعزلة. أوقف جواكيم زازا السيارة. خرجوا جميعاً. للصمت صوت يُسمع، ذبذبة نهاية الصدى، ربما هذا ليس سوى رجع ضربات الأمواج البعيدة على الجروف، إنه أفضل تفسير، صدى ضربات الأمواج يظل يتردد حتى داخل القواقع، ولكن هذه ليست حالتنا هنا، ما يُسمع هنا هو الصمت، لا يجب أن يموت أحد قبل أن يعرفه، الصمت، هل سمعته، يمكنك أن تذهب، أنت تعرف الآن كيف هو. لكن تلك اللحظة لم تأت بعد لأي من الأربعة. يعرفون أن نهاية رحلتهم في ذلك البيت، فقد جاء بهم الكلب العجيب إلى هنا، وقف صامتاً كتمثال، في الانتظار. كان جوزيه أنايسو إلى جوار جوانا كاردا لكنه لا يلمسها، يفهم أنه لا يجب أن يلمسها، وهي تفهم هذا أيضاً، هناك لحظات حتى الحب يجب أن يفقد معناه، اعذرونا إن كنا نلخص النتائج إلى لا شيء تقريباً، والذي كان في مواقف أخرى هو كل شيء. كان بدرو أورثي آخر من هبط من السيارة، وضع أقدامه على الأرض فشعر باهتزازاتها بشكل مرعب، يمكن هنا أن تنكسر جميع إبر أجهزة رصد الزلازل، وتلك التلال

تبدو كما لو كانت تتماوج مع موجات البحر التي تتراكم على بعضها، مندفعة بفعل الطواف الحجري، مندفعة باتجاهها كانعكاس للتيارات القوية التي تقطعها.

غابت الشمس. حينئذ تماوج في الهواء خيط أزرق، يكاد لا يبين من شفافيته، كما لو كان يبحث عن دعم، لمس الأيدي والوجوه، أمسك به جواكيم زازا، كانت مصادفة، إنه القدر، لنترك تلك الفرضيات على حالها، رغم وجود أسباب كثيرة لعدم تصديق لا هذه ولا تلك، والآن ماذا سيفعل جواكيم زازا، لا يستطيع الرحيل في السيارة ويده تمسك بالخيط في الخارج، خيط يرفعه الهواء، لا يرافق انحناءات الطريق، "ماذا أفعل بهذا؟"، لكن الآخرين لا يمكنهم أن يجيبوا، الكلب، نعم، خرج عن الطريق وبدأ في هبوط المنحدر الخفيف، سار جواكيم زازا من خلفه، رافعاً يده بالخيط الأزرق كما لو كان يلمس أجنحة أو صدر طائر على رأسه. عاد جوزيه أنيسو إلى السيارة مع جوانا كاردا وبديرو أورثي، وانطلق بها، ببطء، وعيناه معلقتان دائماً بجواكيم زازا، وبدأ في هبوط الطريق، لم يكن يريد أن يصل قبله، ولا بعده بكثير، التناغم الممكن بين الأشياء يعتمد على التوازن والوقت الذي تحدث فيه، لا قبلها بكثير، ولا متأخراً عنها، من هنا ليس صعباً الوصول إلى الإتيقان.

عندما توقفوا في الباحة المواجهة للبيت، كان جواكيم زازا قد وصل إلى عشر خطوات من الباب،

كان مفتوحاً. شق الكلب شهقة تشبه شهقة البشر ورقد ماداً رقبته على قدميه الأماميتين. أخرج بأظافره قطعة الخيط، وألقى بها إلى الأرض. من أعماق البيت المظلمة خرجت امرأة. تحمل في يدها خيطاً، هو نفسه الذي يمسك به جواكيم زازا. هبطت المرأة الدرجة الوحيدة للباب، وقالت، "ادخلوا، يبدو عليكم التعب"، كان جواكيم زازا أول من تقدم، يحمل طرف الخيط الأزرق ملفوفاً حول ساعده.



- ١٣ -

روت ماريا جوافابرا الحكاية، "فى يوم من الأيام فى ساعة كهذه الساعة، وكان النهار لا يزال كما هو الآن، ظهر الكلب، كان يبدو عليه أنه جاء من مكان بعيد جداً، شعره قنر، وأقدامه تنزف، جاء وضرب الباب برأسه، فتحت معتقدة أنه أحد هؤلاء المتسولين الرحل من مكان إلى آخر، وما إن يصلوا حتى يخطبوا الباب ويقولوا، "حسنة لهذا المسكين يا سيدتى"، ولكن ماذا رأيت، الكلب، كان يلهث كما لو جاء جرياً من آخر الدنيا، والدماء تلوث الأرض تحت أقدامه، والأكثر إثارة للدهشة أننى لم أشعر بالخوف، رغم أن الحال كان يستدعى ذلك، من لا يعرف طبع الكلاب يعتقد أنه أمام حيوان متوحش، مسكين، وهكذا ما إن رآنى حتى انبطح على الأرض، كما لو كان ينتظرنى ليستريح، كما لو كان يبكى، كمن يريد أن يتكلم ولكنه لا يستطيع، وخلال الفترة التى قضاها هنا لم أسمعه

ينبح أبدأ". قالت جوانا كاردا، "له ستة أيام معنا ولم ينبح"، "أدخلته البيت، وطببته، إنه ليس كلباً ضالاً، يبدو هذا من شعره، ويبدو أن أصحابه كانوا يغذونه جيداً، كانوا يعتنون به، ولمعرفة الفارق يكفى مقارنته بالكلاب الجيلية، تُولد موتى من الجوع وتموت جوعاً بعد حياة من الجوع، وتُعامل بالعصا والحجر، لذلك فإن أى كلب جليقى لا يستطيع رفع ذيله، يخفيه بين فخذه على أمل ألا يلفت النظر، إنه كلب سريع"، قال بدرو أورثي، "هذا لا يعنى"، قال جوزيه أنايسو، "من يستطيع أن يعرف من أين جاء؟ وربما لا نعرف أبدأ، ربما لا يكون لهذا أهمية، لكن ما يدفعنى إلى التفكير هو أنه جاء بحثاً عنا ليأتى بنا إلى هنا، ولا يمكن ألا يجعلنا هذا نطرح السؤال: لماذا؟"، "لا أعرف، كل ما أعرفه أنه ذهب ذات يوم وقطعة من الخيط بين أنيابه، نظر إلى كمن يريد أن يقول، "لا تخرجى من هنا حتى أعود"، واتجه إلى أعالي التلال، من المكان الذى هبط منه الآن"، سأل جواكيم زازا، بينما كان يفك الخيط عن ساعده، ولا يزال الطرف الآخر فى يد ماريما جوافيرا، "أى خيط هذا؟"، أجابت وهى تطوى الخيط بين أصابعها، "أنا أيضاً أريد أن أعرف؟"، وظلت تجذب الخيط حتى أصبح أشبه بوتر جيتار مشدود، لكن لا يبدو أنه لا هى ولا هو انتبها إلى أنهما مشدودان بهذا الخيط، والآخرى، نعم كانوا ينظرون، لكنهم سكتوا عن الإعلان عن الأفكار التى شعروا بها، "لأن الشيء الوحيد الذى فعلته أنا هو فك جورب

قديم، من تلك التي كانت تستخدم لحفظ النقود، وفكه قد يعطيني ملء كف من الخيوط، إلا أن هذا أعطاني صوفاً يكفى مائة شاة، ومن يقول مائة يقول ألفاً، ترى ما تفسير هذا؟، قال جوزيه أنايسو، "حامت من خلفي ألفان من الزراير"، وأضاف جواكيم زازا، "قذفت حجراً إلى البحر فسقط بعيداً جداً"، وانتبه إلى أنه كان يبالغ، وقال بدرو أورثي، "الأرض اهتزت ولا تزال تهتز".

وقفت ماريّا جّوافيرا لتفتح باباً، وقالت، "انظروا"، كان جواكيم زازا إلى جوارها، لكن لم يكن الخيط ما جذبه، شاهدوا سحابة زرقاء، من لون أزرق يميل إلى القتامة حتى يصبح في منتصفه أسود تقريباً. وقالت لجواكيم زازا، "لو تركت الباب مفتوحاً تخرج دائماً قطع مثل هذه، مثل تلك التي صعد بها هذا إلى الطريق، وجاءت بك حتى هنا"، أما المطبخ الذي اجتمعوا فيه فقد بقي خالياً، عدا هذين الاثنين مشدودين بالخيط الأزرق، والسحابة الزرقاء تبدو كما لو كانت تتنفس، وتُسمع طرقعات الخشب في المكان حيث يجرى تسخين حساء الخضراوات مع قطع اللحم، نوع من الطعام الجيليقي الخفيف.

ما كان يمكن لجواكيم زازا وماريّا جّوافيرا أن يبقيا مشدودين إلى بعضهما هكذا أكثر من الوقت اللازم لمنح هذا الاتحاد معنى واضحاً، لذلك أخذت هي الخيط كله؛ وعندما وصلت إلى ساعده دارت من حوله كما لو كانت تربطه مرة أخرى بشكل خفي، ثم

وضعت الكرة الصغيرة بين نهديها، لا يمكن أن يشك أحد فى معنى هذه الإشارة سوى أبله، ابتعد جوزيه أنابسو عن النار، التى تحرق، وقال، "رغم أنه يبدو عبثياً، سننتهى إلى الاعتقاد بأن هناك علاقة ما بين ما حدث لنا وانفصال إسبانيا والبرتغال عن أوروبا، مؤكد أنك استمعت إليهم يتحدثون عن هذا"، نعم، لكننا لم نشعر هنا بأى شىء، لو عبرنا التلال وهبطنا إلى الشاطئ سنرى البحر نفسه دائماً، "بثه التليفزيون"، "ليس لدى تليفزيون"، "والإذاعة بثت الخبر"، "الأخبار ليست سوى كلمات، ولا يمكن أن نعرف إن كانت الكلمات أخباراً أم لا".

أمام هذا الحكم المتشكك انقطع الحوار لبضع دقائق، ذهبت ماريا جوافايرا لإحضار الأطباق من على الرف، أخرجت الحساء من على النار، طبق الحساء ما قبل الأخير كان من نصيب جواكيم زازا، والأخير كان لها. وفجأة انتبه الجميع إلى نقص ملعقة، لكن لا، كانت هناك ملاعق كافية للجميع، لهذا لم يكن على ماريا جوافايرا أن تنتظر حتى ينتهى جواكيم زازا من تناول الحساء. حينها أراد أن يعرف إن كانت تعيش بمفردها؛ لأنه حتى تلك اللحظة لم يشاهدوا أى شخص آخر فى البيت، فأجابته هى بأنها أرملة منذ ثلاث سنوات، والأرض يزرعها أجريون باليومية. "أنا هنا بين البحر والتلال، ليس لى أبناء ولا أسرة، إخوتى هاجروا إلى الأرجنتين، وأبى مات، وأمى مجنونة بمستشفى فى لاكرونيا، أشخاص وحدهم

مثلى فى هذا العالم قلة". قال جوانا كاردا، "كان يمكنك أن تتزوجى مرة أخرى"، لكنها ندمت فيما بعد على هذا الرأى، لأنه ما كان لها الحق أن تقول ذلك؛ فهى التى انفصلت عن زوجها قبل أيام قليلة وترافق رجلاً آخر، "كنتُ متعبة، وامرأة فى مثل سنّى، لو عادت إلى الزواج مجدداً سيكون ذلك بسبب الأرض، التى أملكها، الرجال هنا يأتون ليتزوجوا الأرض، وليس المرأة"، "أنت لا تزالين شابة بعد"، "كنتُ شابة"، ما إن قالت هذا حتى اتجهت نحو المدفأة، لتبدو أفضل إلى جوار الضوء، وكانت تنظر إلى جواكيم زازا من أعلى اللهب، كما لو كانت تقول له، "هذه أنا، انظر إلىّ جيداً، لقد جئت إلى الباب مشدوداً بخيط طرفه الآخر فى يدي، ولو أردت يمكنك أن أسحبك إلى سريرى، وأنا متأكدة أنك ستأتى، لكنى لن أكون جميلة أبداً، إلا إذا حولتنى أنت إلى أجمل امرأة فى الوجود، وذلك عمل لا يقدر عليه سوى الرجال، ويستطيعون فعله، المؤسف أنه لا يستمر إلى الأبد".

كان جواكيم زازا ينظر إليها من الجانب الآخر من النار، وبدأ له أن النيران المتراقصة تغير ملامح وجهها، الملىء أحياناً بالتجاعيد، وبعدها أملس بالظلال، لكن ما لا يتغير هو بريق عينيها السوداوين، ويبدو أن دمعة معلقة تحولت إلى شريط من النور الصافى. فكَرّ، "ليست جميلة، ولكنها ليست دميمة، يداها نحيلتان ومتعبتان، ولا يمكن مقارنتهما بيدي موظف مكتبى يتمتع بإجازة، غداً، هذا إذا لم أكن قد

فقدت حساب الزمن، يجب أن أعود إلى العمل، لكن لا، هذا لا يمكن، كيف يمكنني أن أترك هنا جوزيه وجوانا وبدرو والكلب؟ ليس لديهم أى سبب يجعلهم يرافقوننى، ولو أخذت ذات الحصانين سيواجهون صعوبات كبيرة فى العودة إلى بلادهم، وربما لا يريدون، الشيء الوحيد الحقيقى الذى يوجد على ظهر الأرض هو أننا هنا جميعاً معاً، كانت جوانا كاردا وجوزيه أنايسو يتحدثان بصوت خفيض، ربما عن حياتهما، وربما عن حياة كل واحد منهما، أراح بدرو أورثى يده على رأس بيلوتو، ربما كانا يقيسان درجة اهتزازات وزلازل لا يشعر بها غيرهما، فيما أنظر أنا وأواصل النظر إلى ماريا جوافايرا التى لها طريقة فى النظر، ليس النظر، وإنما الكشف عن عينيها، ترتدى ملابس قاتمة، أرملة شفاها الزمن ولكن لا تزال مسوَّدة بالعادات والتقاليد، من حسن الحظ أن عينيها تلمعان، وهناك توجد السحابة الزرقاء والتى تبدو غريبة عن هذا البيت، وشعرها كستنائى، وجسدها مستدير والشفاه غليظة، والأسنان، التى رأيتها قبل قليل، بيضاء، شكراً لله، هذه المرأة حقيقة جميلة وأنا لم أنتبه إلى ذلك، كنت مشدوداً إليها دون أن أعرف من تكون، على أن أقرر، أعود أم أبقى هنا، ولو عدت إلى العمل متأخراً بضعة أيام فلن يحدث شئ، فى حالة الفوضى هذه من سينتبه إن كان الموظفون قد عادوا أم لا، يمكن التعلل بصعوبة المواصلات، تبدو الآن عادية، لكنها الآن أكثر جمالاً، والآن، والآن، إلى

جانب ماريا جوافايرا فإن جوانا كاردا لا تساوى شيئاً،
التي لى أجمل بكثير، يا سيد جوزيه أنيسو، هل تعتقد
أنه يمكن مقارنة امرأتك المدنية والفاخرة بهذه
المخلوقة البرية التي تعرف أى ملح يأتى مع الرياح
عابرة التلال، ومؤكد أن جسدها أبيض تحت هذه
الملابس، لو أمكننى الآن، يا بدرو أورثى سأقول لك
شيئاً، "أى شئ تريد أن تقول؟"، "الآن أعرف من التي
أحب"، "مبروك، هناك من تأخر أكثر منك ليقرر، أو
ربما لم يعرف أبداً من يحب"، "هل تعرف أحداً؟"،
"مثلاً، أنا"، وبعد أن أجاب هكذا قال بدرو أورثى
بصوت عالٍ، "سأذهب للتزّه مع الكلب".

الوقت الآن ليس ليلاً كاملاً، لكن المناخ كان بارداً،
باتجاه التل الذى يخفى البحر هناك طريق يبدأ بعد
قليل فى الصعود المتوالى حسب الجرف، يساراً ويميناً،
ويتوالى حتى يضيع فى الأفق غير المرئى الذى لا
تستطيع الأعين اختراقه. لن يمر وقت طويل فى هذا
الوادى حتى يصبح ليله أسود، ليس صحيحاً تماماً أن
نقول إن الوادى الذى تعيش فيه ماريا جوافايرا لياليه
شديدة السواد، لذلك لم يكن مهماً أن تتقطع خطوط
الكهرباء مع أوروبا المتحضرة والمتقنة، حتى يصبح
كذلك. خرج بدرو أورثى من البيت لأنهم؛ لم يكونوا فى
حاجة إليه هناك، تقدم دون أن ينظر خلفه، أولاً
بسرعة بقدر ما سمحت له قوته، وبعدها، ببطء تحت
ضغط التعب، لم يشعر بأى خوف من هذا الصمت بين
تلك القمم الجبلية، فهو رجل ولد وترى فى الصحراء،

على تراب وحجارة، حيث يمكن العثور بشكل عادي على بقايا حصان، أو ساق لا تزال بها الحدود، هناك من يقول إنه ولا حتى فرسان يوم القيامة كان يمكنهم أن يعيشوا هناك، فحصان الحرب مات في الحرب، وحصان الوباء مات بالوباء، وحصان الجوع مات جوعاً، فالموت هو ملخص وجود كل الأشياء ونهايتها، أما نحن فما يخدعنا هو ذلك الخط الفاصل بين وجودنا أحياء، والذي يتقدم نحو ما نسميه المستقبل فقط؛ لأنه يجب أن نطلق عليه اسماً، ونأخذ منه الكائنات الجديدة بلا توقف، ونترك خلفنا كائناتنا القديمة التي كان علينا أن نطلق عليها أسماء الموتى حتى لا يعودوا من الماضي.

أصبح قلب بدرو أورثي عجوزاً ومتعباً. والآن عليه أن يستريح بشكل متكرر وكل مرة لوقت أطول، لكنه لن يتوقف، يشجعه صبر الكلب. يشير كل منهما للآخر، كما لو كانت إشارات مفهومة بينهما دون حاجة إلى فك شفرتها؛ لأنه يكفي فقط فعل الوجود، جانب الحيوان يحتك بسمانة ساق الرجل، ويد الرجل تداعب الجلد الداخلى الناعم لأذن الكلب، العالم مسكون بصدى الخطوات، وتنفسها، بالاحتكاكات، والآن نعم، يمكن من خلف التل سماع هدير البحر العنيف، في كل مرة أكثر قوة، وأكثر وضوحاً، حتى يظهر أمام الأعين السطح الشاسع، يشع خافتاً تحت انعكاس ليلة بلا قمر نجومها غريبة، وتحت، كخط حى يفصل الموت عن الليل، البياض العنيف للزبد.

المتجدد المتوالى. والأحجار التى تحتك بها الأمواج أكثر سواداً، كما لو كانت الحجارة هناك أكثر تركيزاً وغارقة فى المياه منذ بداية الزمن. تأتى الرياح من البحر، جزء منها نفخة طبيعية، والجزء الآخر، قليل، من أثر حركة شبه الجزيرة على المياه، ليس أكثر من لهاث، كما هو معروف، ومع ذلك لم يُعرف إعصار مماثل منذ أن كان العالم عالماً.

يقيس بدرو أورثى حجم المحيط فيكتشف فى تلك اللحظة أنه صغير، لأنه عندما يتنفس بعمق تتمدد الرئتان كثيراً، حتى يمكنها أن تسع كل بحار العالم مرة واحدة، تاركة للطوف الذى يرسم طريقه نتوءات صخرية بين الأمواج. لم يعد يعرف بدرو أورثى إن كان إنساناً أم سمكة، فينزل البحر، يسبقه الكلب لاستطلاع واختبار الطريق، هذا كشاف ماهر ومفيد جداً، لأنه ما كان باستطاعة بدرو أورثى أن يعثر بمفرده على مدخل ومخرج فى متاهة الأحجار هذه قبل طلوع النهار، وأخيراً، بلغا السفح الذى يميل نحو البحر بانحدار خفيف، حيث تصيب ضوضاء الأمواج بالصمم، لو أن القمر صعد الآن بين منخب البحر وتحت السماء المظلمة، فلن يعتقد أى إنسان أنه قد يموت من الخوف والوحدة، ولا يكون قادراً على الموت سعادة، لم يعد بدرو أورثى يشعر بالبرد، الليل أقل إظلاماً، وهناك عدد كبير من النجوم. عاد الكلب راكضاً بعد أن ابتعد للحظة، لم يُعلمه أحد أن يجذب صاحبه من سرواله، لكننا عرفنا من قبل أنه قادر على

التواصل، وسيتعين على بدرو أورثي مشاركته اكتشافاته، غريق لفظه البحر إلى الساحل، أو صندوق كنز، أو بقايا من قارة أتلانتا، أو حطام من الهولندي الطائر، إنها ذاكرة تخضع لوسواس قهري، وعندما وصل الساحل الرملي، لم يجد سوى أحجار بين الأحجار، ولكن بما أن هذا الكلب لا يضل ولا يُضل، فقد اعتقد بدرو أورثي أنه لا بد وأن يكون هناك شيء مهم، حينها لاحظ أن قدميه شخصياً تقفان على هذا الشيء، إنه حجر ضخيم، له شكل يقرب من شكل السفينة، وهناك آخر، طويل ونحيل كالصاري، وحجر ثالث يبدو كدفة مكسور مقبضها، ولأنه تخيل أن الضوء ضعيف جداً فقد خدعه، اختبر محيط الصخور بيده، وسرعان ما تأكد، هذا الجانب المرتفع والمدبب هو مقدمة السفينة وذلك الجانب الآخر المربوط هو مؤخرتها، الصاري لا يمكن الخلط بينه وبين أي شيء آخر، والدفة لا يمكن أن تكون، مثلاً، سيفاً عملاقاً لو لم تكن كذلك، حقيقة، أين هي، سفينة حجرية. إنها ظاهرة جيولوجية، حقيقة، يعرف بدرو أورثي عن الكيمياء بما فيه الكفاية ليفسر لنفسه الاكتشاف، إنها سفينة خشبية قديمة قذفت بها الأمواج أو تركتها الدوامات، وسقطت بين تلك الجروف منذ أزمنة سحيقة في القدم، ثم غطاها الطين، فتحجرت المادة الحيوية، ثم انسحب عنها الطين مرة أخرى، وحتى اليوم، كان يجب مرور آلاف السنوات حتى يختفي المحيط بها، وتتناكل الأحجار،

بفعل الرياح والأمطار، ومبرد البرد والحرارة، حتى جاء اليوم الذي لا يمكن فيه التفريق ما بين الحجر والحجر. جلس بدرو أورثي في داخل السفينة، من مكانه ما كان يمكنه أن يرى غير السماء والبحر البعيد، لو أن تلك السفينة اهتزت قليلاً قد يعتقد أنه مبحر، وحينها، حسب ما استطاعت قدراته التخيلية جاءت فكرة عبثية، لو أنه شعر بأنه يبحر حتى يجذب من خلف شبه الجزيرة، لكن لا يجب الثقة في أحلام الخيال، بالطبع سيكون من المستحيل أن يحدث، شوهدت تخیلات أكثر صعوبة من قبل، لكن في تلك الحالة المؤخرة تتجه نحو البحر، ولا توجد سفينة يمكن احترامها سافرت مرة بمؤخرتها. وقف بدرو أورثي، شعر بالبرد، وقفز الكلب على حافة السفينة، "إنها ساعة العودة إلى البيت، يا سيدى، فأنت لست في حالة تسمح لك بالسهر، لم يفعلها شاباً ولن يفعلها الآن".

عندما وصلا إلى قمة الجبل لم يكن في استطاعة بدرو أورثي أن يستمر، رثاء المسكينتان اللتان كانتا قبل قليل قادرتين على امتصاص المحيط بكامله تلهثان مثل قرية مقطوعة، الهواء جاف يجرح دواخل أنفه، ويجفف حلقه، تلك المغامرات الجبلية لا يصلح لها صيدلى على وشك الشيخوخة. ترك نفسه يسقط على حجر، ليستريح، مرفقاه مفروسان في ركبتيه، ورأسه ترتاح على كفيه، والجبهة تلمع بالعرق، والريح تهفّف مقدمة شعر رأسه، إنه حطام رجل،

متعب وحزين، لسوء الحظ لم تبدأ بعد عملية تعدين إنسان في زهرة شبابه لتحويله إلى تمثال خالد. التنفس أكثر هدوءاً الآن، وخفف الهواء من جفائه، يدخل ويخرج بلا ألم. عندما انتبه الكلب المقع إلى هذه التحولات، وقف، رفع بدرو أورثي رأسه، نظر إلى أسفل، نحو الوادي حيث يوجد البيت. بدا كما لو كانت هالة من الضوء تحلق على البيت، لو كانت تلك الجملة، مثل تلك الأخريات، فإنها تتكون من كلمات فقط، قد تصل إلى الفهم بمعنى واحد لا يقبل الشك، فالذكرى جاءت لبدر و أورثي عن رجل أورثي المصاب بالصرع، بعد الصرعات التي ألقت به أرضاً، حاول أن يفسر الأحاسيس المشوشة التي كانت تتجاذبه، إنها ذبذبات ذرات الهواء غير المرئية، إنها إشعاعات الطاقة كالحرارة عن بعد، قد تكون انحراف الإشعاعات نهاياتها، هذه الليلة، حقيقة، سكنتها الدهشة، الخيط والسحابة الصوفية الزرقاء، السفينة الحجرية الجانحة على جانب الشاطئ، والآن بيت عجيب يقشعر، أو هكذا نقول عنه من خلال رؤيته من هنا. الصورة تنمحي وتتداخل الأشياء، وفجأة تبدو وكأنها تنفصل وتبتعد حتى تتحول إلى نقطة تكاد لا تُرى، تعود بعدها، نابضة ببطء شديد. خاف بدرو أورثي للحظات أن يبقى وحيداً في هذه الصحراء الأخرى، لكن الرعب مرّ، استمر فقط خلال زمن الانتباه إلى أن هناك تحت تجتمع ماريـا جوافيرا وجواكيم زازا، تغيرت الأزمنة كثيراً، الآن فقط ما إن

تصل حتى تملأ الخرج، لو سمحتم لى بهذا التعبير
المازح القديم. نهض بدرو أورثى ليبدأ الطريق هبوطاً
من السفح، لكنه عاد إلى الجلوس من جديد وانتظر
بصبر كبير، شعر بالبرد، وانتظر أن تعود للبيت
صورته، حيث لا لهب سوى ذلك الذى لا يزال يحترق
هناك فى المطبخ، لو تأخر كثيراً، فإن الأكثر توقعاً ألا
يجد سوى الرماد مكان النار التى كانت من قبل.



استيقظت ماريًا جوافيرا مع أول خيوط الفجر. كانت في غرفة نومها، في السرير، وكان هناك رجل نائم إلى جوارها. تنفسه مسموع، عميق، كما لو كان يستمد تجديد قواه من نخاع عظامه، ونصف واع، أرادت أن يكون تنفسها متسقاً معه. حركة صدرها غير المتناسقة جعلتها تنتبه إلى عريها. مررت يدها على كل جسدها، من منتصف السمانة مستديرة حول العانة والبطن وصولاً إلى الثديين، وفجأة تذكرت صرخة الدهشة التي أطلقتها عندما انبثقت اللذة داخلها كالشمس. والآن وقد استيقظت تماماً، تعض أناملها كي لا تصرخ هذه الصرخة من جديد، لكنها كانت تريد أن تستعيد الأحاسيس المكبوتة في الصوت، وتجعلها لا تنفصل أبداً عنها، أو ربما كانت الرغبة قد عادت تستيقظ فيها من جديد، من يعرف، ربما الندم أو القلق الذي تتضمنها تلك الجملة الشهيرة، والآن

ماذا سيحدث لى؟، الأفكار ليست مستقلة عن بعضها، والأحاسيس ليست بعيدة عن التعبيرات الأخرى، هذه المرأة تعيش فى الريف، بعيداً عن فنون الحب الحضارية، وسرعان ما يصل الرجال اللذان يفلحان أرض ماريأ جوافايرا، ماذا تقول لهما والبيت ملىء بالأغراب؟، ليس هناك شىء يغير وجه الأشياء مثل ضوء النهار. لكن هذا الرجل النائم قذف حجراً إلى البحر، وقسمت جوانا كاردا الأرض إلى نصفين، وكان جوزيه أنايسو ملكاً للزراير، وبدرو أورثي يهز الأرض بقدميه، والكلب الذى وصل من حيث لا يعرف أحد ليجمع كل هؤلاء الأشخاص، لقد ربطنى بك أكثر من الآخرين، أنا جذبت الخيط حتى أتيت إلى بابى وسريرى، إلى داخل جسدى، إلى روحى، لأن الصرخة التى أطلقتها لا يمكن أن تصدر إلا من هنا". أغمضت عينيها لبضع لحظات وعندما فتحتهما أدركت أن جواكيم زازا قد استيقظ. شعرت عندها بصلاية جسده، وانفتحت له، تشهق هى من القلق، ودون أن تصرخ هذه المرة، أخذت فى البكاء والضحك فى آن، كانت الشمس قد أشرقت تماماً. إن تكرار اللقاء معاً سيكون غير مجدٍ وحساساً، ليعمل كل منهما خياله، ويتصرف حسب اعتقاده، لا شك ستخطئون، رغم أن مفردات الحب محدودة جداً، وقفت ماريأ جوافايرا فبدا جسدها أبيض كما تخيله جواكيم زازا، وقالت، "ما كنت أحب أن أرتدى هذه الملابس الداكنة، لكن لم يعد لدى وقت لأبحث عن غيرها، سيأتى العمال

حالاً، ارتدت ملابسها وعادت إلى السرير، غطت وجه جواكيم زازا بشعرها وقبلته، ثم هربت، وغادرت الغرفة، تقلّب جواكيم زازا في السرير، ثم أغمض عينيه، سينام من جديد، كانت هناك دمعة على خده، إنها دمعة ماريّا جوافايرا أو ربما دمعته هو، فالرجال يبيكون أيضاً، وليس في ذلك مدعاة للخجل بل إن البكاء يمكن أن يكون مفيداً لهم.

تلك هي غرفة التي نام فيها جوانا كاردا وجوزيه أنيسو، بابها مغلق، لا يزالان يغطان في النوم. وذلك الباب الآخر موارب، جاء الكلب لينظر إلى ماريّا جوافايرا، ثم عاد إلى الداخل، وتمدد من جديد، حارساً على نوم بدرو أورثي، الذي يرتاح بعد مغامراته واكتشافاته. كان واضحاً في المناخ العام أن اليوم سيكون حاراً. تأتي السحب من ناحية البحر وتبدو كأنها تجرى بسرعة أكثر من اللازم بسبب الرياح. إلى جوار ذات الحصانين رجلان، إنهما الأجيران جاءا ليبدءا عمل اليوم، يتحدثان فيما بينهما ويقولان إن الأرملة، التي دائماً ما تشكو من قلة إنتاج الحقول، اشترت سيارة، "الميت من الجوع، يعيش سعيداً"، هذا الحكم جاء من الأكبر سناً. نادى عليهما ماريّا جوافايرا، بينما كانت توقد النار لتسخين القهوة وشرحت لهما أنها أوت بعض المسافرين التائهين، ثلاثة منهم برتغاليون، لكن معهم إسباني، لا يزالون نائمين، إنهم مساكين، قال الأكثر شباباً، "أنت وحدك هنا لست آمنة جداً"، لكن تلك الجملة، التي تبدو

تضامناً إنسانياً، ليست سوى واحدة من أخريات قالها لها من قبل، موجهة إلى معانٍ مختلفة، "ما يجب عليك يا سيدتى هو أن تتزوجى من جديد، أنتِ فى حاجة إلى رجل يحافظ لك على البيت، ولن تجدى أفضل، أنا لا أمدح نفسى، منى، سواء فى العمل كما فى الأشياء الأخرى، المسألة أننى أحترمك، وها أنتِ ترين، أحبك كثيراً، سيأتى يوم أدخل فيه من الباب وسأبقى، أنتِ تصيبيننى بالجنون، فأنا لست من خشب"، "إننى أحذرك، إن اقتربت منى سأقذفك بالطاسة فى وجهك"، هذا ما قالته ماريّا جوافيرا، والأكثر شباباً لم يجد أمامه سوى العودة إلى جملته الأولى، معدلاً فيها بعض الشيء، "ما تحتاجينه هو شخص يحرس كل هذا"، ولا حتى بهذا المعنى استطاع أن يحصل على شيء، إلى اليوم.

ذهب العاملان إلى الحقل وعادت ماريّا جوافيرا إلى الغرفة. كان جواكيم زازا لا يزال نائماً. ببطء، وحتى لا يستيقظ، فتحت الصندوق وبدأت فى اختيار ملابس من زمن السعادة، درجات من الوردى، والأخضر، والأزرق، الأبيض والملون، البرتقالى والبنفسجى، والألوان النسائية الأنيقة، هذا ليس مخزن ملابس مسرح أو أنها تتمتع بحس عاملة التطريز، لكن العالم كله يعرف أن فستانين لامرأة يمثلان استعراضاً، وبقميصين وجونلتين يمكن صنع قوس قزح. كانت الملابس تفوح براحة النفطالين والتخزين، بدأت ماريّا جوافيرا فى نشرها فى

الشمس حتى تتبخر الروائح الكيميائية والزمن الميت، وبينما كانت تهبط وذرعاها محملة بالألوان، التقت جوانا كاردا التي تركت رجلها أيضاً في حماية الشراشف، وفهمت على الفور ما يحدث، تضرب الرياح شعريهما، تتطلق الملابس وترفرف كما الأعلام، حتى تدفع إلى الرغبة في الصراخ، "تحيا الحرية".

تعودان إلى المطبخ لإعداد الطعام، تنتشر رائحة القهوة الطازجة، والحليب، وخبز من الأكثر لذة، وجبن جاف، وحلوى من الفاكهة، كل هذه النكهات معاً توقظ الرجال، ظهر جوزيه أنيسو أولاً، وبعده جواكيم زازا، ولم يكن الثالث رجلاً بل الكلب، برز أمام الباب، نظر ثم عاد إلى الخلف، قالت ماريا جوافايرا، "سيدني بحثاً عن سيده"، التي لها نظرياً حق الملكية لكنها تنازلت عنها. وأخيراً ظهر بدرو أورثي، ألقى بتحيةة الصباح وجلس صامتاً، يبدو في نظريته شيء من الضيق عندما يلاحظ إشارات الرقة الخفية التي يتعامل بها الأربعة، سواء بين كل زوجين أو بينهم الأربعة جميعاً، فعالم الفرح له شمس خاصة والمختلفة.

هذا الغضب لا يناسب بدرو أورثي، الذي يعرف أنه شيخ، ولكن من واجبنا أن نتفهمه، لو لم يقبل بالهزيمة، آزاد جوزيه أنيسو أن يدخله في الحوار العام، ويسأله إن كانت قد أعجبتة النزهة الليلية، وإن كان الكلب رفقة طيبة، وبدرو أورثي الذي استسلم، يشكر داخلياً اليد الممدودة، فقد جاءت الكلمات في

لحظتها المناسبة، قبل أن تعقّد المראה الشاعر المستثارة، قال، "لقد ذهبت حتى البحر"، وهنا بدت الدهشة الكبرى، والأكثر دهشة كانت ماريا جوافايرا، التي تعرف جيداً أين يوجد البحر وصعوبة الوصول إليه. يقول بدرو أورثي، "لكن لو لم يكن الكلب معي، ما كان يمكنني أن أصل"، وسرعان ما تذكر السفينة الحجرية، أربكته هذه الذكرى، غير قادر على الفهم، لبضع ثوان، إن كانت تلك السفينة حلماً أم أنها كانت شيئاً محدداً وواقعياً، "لو أنني كنت أحلم، ولم تكن تلك صورة متخيلة، فإن السفينة موجودة، وأنها هناك في هذه اللحظة، أنا هنا أشرب القهوة والسفينة توجد هناك"، إن قدرات التخيل قوية إلى حد أنه يستطيع الآن، رغم كونه شاهداً فقط تحت الضوء القليل للنجوم، فإنه يتخيلها الآن في ضوء النهار، تحت الشمس والسماء الزرقاء، والصخرة السوداء تحت السفينة المتحجرة، ودون أن يفكر أنه ربما كان مخدوعاً، نظم نظريته، وعرضها، وإن كان بعض التشوش يشوب كلماتها، والعملية الكيميائية، ولكن بدأت تهرب الكلمات منه، فقد أقلقته جملة ماريا جوافايرا، المستهجنة، وانتهى إلى فرضية أخرى تحميه وتضمن له خط الرجعة، "بالطبع أقرّ تماماً أنها ربما كانت نتيجة عوامل التعرية".

قالت جوانا كاردا إنها تريد أن تذهب لرؤيتها، وأبدى جوزيه أنايسو وجواكيم زازا موافقتهما على الفور، فقط ماريا جوافايرا لم تنطق، وتبادلت

النظرات مع بدرو أورثي. سكّت الآخرون، وفهموا أن الكلمة الأخيرة لم تقل بعد، هذا إذا ما كانت هناك كلمة أخيرة تصلح لكل الأشياء، ما يُعرض على مائدة البحث القضية الحساسة عن كيف انتهت الأشياء بعد أن قيل كل شيء عنها. أمسكت ماريا جوافايرا يد جواكيم زازا كما لو كان يؤدي قسماً، وقالت، "سفينة حجرية؟"، "هذا ما قلته على التو، تحولت إلى حجرية مع الزمن، أمكنها أن تتحجر، ولكن من الممكن أن تكون من صنع الصدفة وأن شكلها الحالي صنعته ونحتته الريح وعناصر مناخية أخرى، مثلاً، ويمكن أن تكون من صنع البحر، ربما ارتفع المد في فترة من الفترات"، "إنها سفينة حجرية كانت دائماً هناك، سفينة جاءت من بعيد، وبقيت هناك بعد أن غادرها الأشخاص الذين سافروا عليها"، استفسر جوزيه أنايسو، "أشخاص؟"، "أو ربما فرد واحد، لست متأكدة من هذا"، سأل بدرو أورثي متشككاً، "وهل مؤكد ما تقولينه، كيف يمكن التأكد منه؟"، "يقول القدماء، من نقلوا عن آخرين أكثر قدماً، وأولئك عن أكثر قدماً منهم، أنه على هذا الشاطئ، جاءت سفن حجرية قادمة من صحراوات من الطرف الآخر من العالم، بعضهم قديسون، بعضهم وصل حياً، وآخرون موتى، كما كان الحال مع سانتياجو، وانغرسست السفن وبقيت في مكانها منذ تلك الأزمنة، وهذه واحدة منها"، سأل بدرو أورثي، "هل تعتقدين فعلاً فيما تقولين؟"، "المسألة ليست في الاعتقاد أو عدم الاعتقاد، كل ما

نقوله يُضاف إلى ما هو قائم، إلى ما هو موجود، قلت أولاً جرانيت، وبعدها أقول سفينة، وعندما أصل النهاية من كلامي، وإن لم أكن أعتقد فيما قلت أنا على أن أعتقد فيما قلته أنت، في كثير من الأحيان هذا يكفي، والماء أيضاً، والدقيق والخميرة يصنعان الخبز.

لقد وقع جواكيم زازا على امرأة حكيمة، إلهة حكيمة من جبال جيليقيا، أحياناً لا نفكر في هذا، لكن الحقيقة أن الأشخاص يعرفون أكثر مما نعتقد، وكثيرون لا يتخيلون ما لديهم من علوم، السيئ هو محاولة أن يكونوا من ليسوا هم فعلاً، حينها يفقدون المعرفة واللفظ، من الأفضل لهم أن يفعلوا مثل ماريا جوافايرا التي اكتفت بالقول، "قرأت في حياتي بعض الكتب، الجميل أنني استطعت أن أستفيد منها"، إنها ليست المرأة التي يفريها ما يُقال عنها، إنه الراوي، العاشق للعدالة، من لا يستطيع مقاومة التعليق. ستسأل الآن جوانا كاردا متى سيذهبون لرؤية السفينة الحجرية، في اللحظة التي كانت ماريا جوافايرا، ربما حتى لا يطول الحوار في هذا المجال لأنه ليس من مهامهم، كنا نقول، إنه في تلك اللحظة التي قامت فيها بتشغيل الراديو الموجود في المطبخ، فالعالم لديه أنباء يريد أن يقولها لنا، إنه هكذا كل صباح وكلها أخبار مرعبة، ورغم ضياع بعض الجمل الأولى، سرعان ما يجري استعادتها. "منذ ليلة أمس، بشكل غير مفهوم، فإن سرعة إبحار شبه الجزيرة تغيرت،

آخر قياس سجل أكثر من ألفى متر فى الساعة، أى حوالى خمسين كيلومتراً يومياً، أى، ثلاثة أضعاف ما تم تسجيله منذ أن بدأ الإبحار".

ربما سيطر الصمت على كل شبه الجزيرة فى تلك اللحظة، الأخبار مسموعة فى البيوت والساحات، ولكن هناك من سيعرف عنها بعد بثها بوقت متأخر، مثل الرجلين اللذين يعملان فى أرض ماريا جوافيرا، هما هناك فى الحقل، بعيداً، نراهن أن الأكثر شباباً سيترك مسألة الغزل والمطاردة ولن يفكر سوى فى حياته وإنقاذ نفسه. لكن الأسوأ ما هو آت، عندما يقرأ المذيع نبأ لشبونة، لا بد أن يعرف مهما حدث، فالسر مرّ عليه وقت طويل قبل إعلانه. هناك انزعاج كبير فى الأوساط الرسمية والعلمية البرتغالية، بما أن أرخبيل جزر الأزور موجود بالضبط فى المسار الذى سلكته شبه الجزيرة حتى الآن، فقد بدأت أولى علامات القلق بين السكان، وإن لم يكن من الممكن الحديث بعد عن الرعب، وإن كان من المقرر البدء بعد ساعات فى تنفيذ خطة إجلاء مدن وقرى الساحل التى تعتبر مهددة بشكل مباشر بالاصطدام، بالنسبة لنا نحن، الإسبان، يمكننا أن نعتبر أنفسنا بعيداً عن النتائج المباشرة؛ فالأرخبيل يقع ما بين خطى طول السادس والثلاثين والأربعين، وبما أن جليقيا كلها توجد فى شمال خط طول الثانى والأربعين، من السهل ملاحظة، إذا لم يحدث تغيير فى اتجاه السير، أن البلد الشقيق فقط، سيعانى من الاصطدام المباشر،

دون نسيان، بالطبع، الجزر سيئة الحظ نفسها، فهي تخضع لخطر الاختفاء تحت الكتلة الحجرية المبحرة الآن، وكما ذكرنا، فإنه إضافة إلى السرعة الكبيرة التي تصل إلى خمسين كيلومتراً يومياً، وإمكانية أن تلعب الجزر دور الكابح المؤقت الذى يحاول إيقاف هذا السير الذى لا يجد من يوقفه حتى الآن، نكون جميعاً بين يدي الله، فقوة الإنسان لا تكفى لوقف الكارثة إذا حدثت، من حسن الحظ، نكرر، نحن الإسبان تقريباً بعيدون عن الخطر، رغم كل شيء، لا مكان للتفاؤل المفرط، ويجب التخوف دائماً من النتائج الثانوية للاصطدام، لذلك لا بد من الاحتياط، ولا يجب أن يبقى على الشواطئ الجبلية سوى الأشخاص، الذين لا غنى عن وجودهم هناك، والذين لا يستطيعون الانسحاب نحو الأراضي الداخلية. صمت المذيع، وبدأت موسيقى موضوعة لمناسبة أخرى مختلفة، وجوزيه أنايسو، متذكراً يقول لجواكيم زازا، كنت محقاً عندما تحدثت عن جزر الأزور، يا لقدرة الرقة الإنسانية، حتى فى هذه اللحظة الخطيرة من الحياة، أعجبه أن يتم الاعتراف لجواكيم زازا بأنه محق أمام ماريّا جوافايرا، وإن لم يكن يستحق لأنه سمع هذا الكلام فى المعامل التي أخذوا إليها بدرو أورثى.

كما فى حلم متكرر، كان جوزيه أنايسو بعيد حساباته، طلب ورقة وقلماً، لم يكن يريد هذه المرة أن يعرف كم من الأيام تمضى قبل أن يمر جبل طارق أمام سييرا جابور؟ لقد كان ذلك فى زمن الفرج، والآن

يجب الإسراع لمعرفة الأيام المتبقية قبل أن يصطدم رأس روكا بجزيرة ترسييرا، يشعر الواحد بقشعريرة فقط عند التفكير في تلك اللحظة، بعد أن تنفرس جزيرة سان ميغيل كمهماز في الأرض اللينة للألننتيخو، في الحقيقة، في الحقيقة أقول لكم، ليس هناك من حدث سيئ إلا ويأتي بما هو حسن. يقول جوزيه أنايسو بعد أن يُنهي حساباته، "سرنا ما يقرب من ثلاثمائة كيلومتر، وبما أن المسافة ما بين لشبونة وأرخبيل الأزور حوالى ألف ومائتا كيلومتر، علينا أن نسير حوالى تسعمائة كيلومتر وتسعمائة كيلومتر، بسرعة خمسين كيلومتراً يومياً، يمكننا الوصول في حوالى ثمانية عشر يوماً، أى، في حوالى العشرين من سبتمبر، وربما قبل ذلك، سنصل إلى أرخبيل الأزور".

حيادية الخلاصة كانت سخرية مريرة لم تدفع أحداً للضحك. ذُكرت ماريا جوافايرا، "لكننا نحن هنا في جيليقيا، بعيداً عن الاصطدام"، حذر بدرو اورثي، "لا يجب الوثوق، يكفي أن ينحرف الاتجاه قليلاً، نحو الجنوب، وسنكون نحن من نصطدم بكاملنا بالجزر، أو ربما، الشيء الوحيد الممكن فعله، هو الهرب باتجاه الداخل، كما أشار المذيع، ورغم ذلك فلا أحد آمن، "ونتترك البيت والأرض"، "لو حدث ما يعلنون فإنه لن يكون هناك لا بيت ولا أرض"، كانوا جالسين حتى هذه اللحظة ويمكنهم أن يظلوا جالسين طوال ثمانية عشر يوماً. كان الحطب يحترق في المطبخ، والخبز على المائدة، وأشياء أخرى، لبن وقهوة، وجبن، لكن الخبز

كان اللافت لأنظار الجميع، نصف رغيف كبير، بقشرة ثقيلة ولب متماسك، لا يزالون يشعرون بطعمه في أفواههم، منذ زمن، لكن اللسان يشعر بما تبقى بعد المضغ، عندما يأتي يوم نهاية العالم سننظر إلى آخر نملة بالصمت المؤلم لمن يعرف أنه يودع إلى الأبد.

قال جواكيم زازا، "تنتهى إجازتى اليوم، وللقيام بعمل الأشياء جيداً، على أن أكون فى بورتو غداً"، كانت تلك الكلمات الموضوعية فقط مقدمة لإعلان ما، "لا أعرف إن كنا سنظل معاً أم لا، هذه مسألة لا بد من حلها، لكن، بالنسبة لى، أريد أن أكون حيث تكون ماريا إذا هى قبلت الأمر وأرادته"، الآن، وكما أنه لا بد من قول الأشياء فى وقتها، وكما يجب وضع كل جزء فى مكانه طبقاً للنظام والمكان، فقد انتظروا أن تتكلم ماريا جوافايرا أولاً، فقالت هى، "هذا ما أريده"، دون حاجة إلى كلمات لا مكان لها هنا. وقال جوزيه أنابيسو، "إذا اصطدمت شبه الجزيرة بالآزور، فإن المدارس لن تفتح مبكراً، حتى أنه من الممكن ألا تفتح أبداً، سأبقى مع جوانا ومعكم لو هى قررت ذلك"، أصبح الدور الآن على جوانا كاردا، التى قالت مثل ماريا جوافايرا ثلاث كلمات فقط، فالتساءل أصبح اليوم قليلاً الكلام، "سوف أبقى معك"، كان ذلك لأنها كانت تنظر إليه بشكل مباشر، لكنهم فهموا جميعاً الباقي. وأخيراً، الأخير، لأن أحدهم لا بد أن يكون الأخير، بدرو أورثى، قال، "أنا أذهب حيث نذهب جميعاً"، تلك الجملة، التى من الواضح أنها تسيء إلى

قواعد اللغة والمنطق لتماديها فى المنطق وربما فى قواعد اللغة أيضاً، يجب أن تبقى دون تصحيح، كما قيلت، لو وجد لها أحد حلاً فلينفذه، من له خبرة مع الكلمات يعرف أنه يمكن أن ينتظر منها كل شيء. والكلاب، معروف، أنها لا تتكلم، وهذا لا يستطيع حتى إصدار صوت يعبر به عن فرحته بالموافقة.

فى ذلك اليوم، ذهبوا جميعاً لرؤية السفينة الحجرية، ارتدت ماريا جوافايرا ملابسها الملونة، دون حتى أن تهتم بكيفية مسح الرياح والضوء كرمشات وجودها طويلاً فى الأعماق. كان بدرو أورثى فى مقدمة الجمع، كمرشد مستحق وإن كان يثق أكثر فى غريزة وتوجه الكلب من عينيه، والتي كان ضوء النهار بالنسبة لها كل شيء فى الطريق الجديد. من لا يجب أن ننتظر من ماريا جوافايرا أى توجيه، طريقها كان آخر، كل شيء بالنسبة لها مناسبة للإمساك بيد جواكيم زازا والسير خلفه، تلتصق به من وقت لآخر بقبلة، إنها طريقة متفاوتة كما نعرف، لذلك بدلاً من أن ترافق المجموعة كانت سبباً فى تأخيرهم. استخدم جوزيه أنايسو وجوانا كاردا اتجاهاً آخر، لهما أسبوع معاً، وقتلا الجوع الأول، ورويا العطش الأول، نقول إن الاستعجال يأتيهما كلما أرادا ذلك، ولقول الحقيقة، فهما لا يوفران شيئاً. فى الليلة السابقة، عندما رأى بدرو أورثى الضوء من بعيد، لم يكن فقط لأن جواكيم زازا وماريا جوافايرا تحابا، بل كان يمكن لعشرة أزواج النوم فى ذلك البيت ويمارسون جميعاً الحب فى وقت واحد.

السحب تأتي من البحر وتجري بسرعة، تتجمع وتذوب بسرعة، كما لو كانت كل دقيقة لا تدوم سوى ثانية واحدة أو جزء من الثانية، وكل حركات النساء وهؤلاء الرجال، لا تبدو نفسها أو متشابهة للحظة، بطيئة ومعروفة، يمكن القول إن العالم تغير، لو أنه إضافة إلى التفاهم يمكن وصول المعنى الكامل للتعبير الفقير والشعبي. قد يصلون إلى أعلى التلال وصخب البحر. يكاد بدرو أورثي لا يتعرف على المكان، بين كتل الأحجار المتدحرجة التي تتراكم، والطريق الذي يكاد لا يبين يهبط متدرجاً، كيف أمكنه أن يصل بالأمس إلى هنا، حتى ولو بمساعدة الكلب، إنه إنجاز يعجز عن تفسيره حتى لنفسه، يبحث بعينه عن السفينة الحجرية ولا يراها، ولكن الآن مارايا جوافايرا هي من تأخذ المبادرة أمام المجموعة، لقد حانت ساعتها، فهي الأفضل من الجميع في معرفة الطرق. يصلون إلى المكان، ويفتح بدرو أورثي فمه ليقول، "ليس هنا"، لكنه يصمت، أمام عينيه الصخرة التي تمثل الدفة المحطمة، والصاري الذي يبدو أكثر ضخامة تحت الضوء، والسفينة، في داخلها يكتشف الفوارق الأكبر، كما لو كانت عوامل التعرية، التي تحدث عنها هذا الصباح فعلت في الليل ما تفعله في آلاف السنين، أين هي؟ لا أراها؟ الدفة مرتفعة ومحطمة، حقيقة أن الصخرة في شكلها العام تشبه السفينة، لكن ولا أفضل القديسين يمكنه أن يحافظ على شيء كهذا طافياً على وجه الماء، دون أن تفرق، فهي تفتقد إلى

الجوانب، الشكوك ليست فى أنها من الحجر، ولكن الشك يأتى فى أن شكل السفينة قد اختفى، وفى النهاية فإن الطائر يطير لأنه طائر، فكر بدرو أورثى، ولكن هناك الآن ماريا جوافيرا تقول، "هذه هى السفينة التى جاء فيها قديس من الشرق، وهناك لا تزال تظهر آثار الأقدام عندما نزل من السفينة واتجه نحو الأرض الداخلية، الآثار كانت حفراً فى الصخر، وهى الآن بحيرات صغيرة، تحرك الأمواج خلال المد يجدها بشكل متواصل، بالطبع فإن كل شك مشروع، لكن الأشياء تتوقف على القبول أو الرفض، فإذا جاء قديس من بعيد مبحراً على صخرة، فليس من المستحيل ألا تصهر آثار أقدامه النارية الصخر وتبقى حتى اليوم. لم يكن أمام بدرو أورثى سوى القبول والثقة فيما يسمع، لكنه يحتفظ لنفسه بذكرى السفينة الأخرى التى شاهدها هو فقط، فى تلك الليلة التى تكاد لا تبين نجومها ورغم ذلك كانت مليئة بالرؤى العليا.

يقفز البحر على الصخور كما لو كان يصارع ضد تقدم المد نحو الأحجار والأرض. لا ينظرون الآن نحو السفينة الأسطورية، ينظرون إلى الأمواج التى تتحكم، وجوزيه أنايسو يقول، "نحن فى الطريق، نعرفه ولا نشعر به"، وجوانا كاردا، "أى مصيرة". حينها قال جواكيم زازا، "نحن خمسة أفراد وكلب، لا تكفينا ذات الحصانين، إنها مشكلة علينا أن نحلها، أحد الحلول أن نذهب نحن - الاثنين - جوزيه وأنا، بحثاً عن سيارة

أكبر، من بين تلك المهجورة فى كل مكان، من الصعب العثور على واحدة فى حالة جيدة، فكل ما شاهدناها كانت دائماً ينقصها شىء"، قال جوزيه أنايسو، "عندما نصل البيت سنقرر ما يجب عمله، لا يزال لدينا وقت"، همهمت ماريا جوافايرا، "لكن ماذا عن البيت، والأرض؟"، قال بدرو أورثي، "ليس هناك اختيار، إما أن نرحل من هنا، أو نموت جميعاً"، كانت تلك الكلمات نهائية.

بعد الغداء ذهب جواكيم زازا وجوزيه أنايسو فى ذات الحصانين بحثاً عن سيارة أكبر، ومن الأفضل أن تكون سيارة جيب، ولو كانت عسكرية ستكون أفضل، والأفضل أن تكون من النافلات، من تلك ذات الصندوق المغلق بحيث يمكن تحويلها إلى بيت متحرك وغرفة نوم، لكن، تماماً كما تخيل جواكيم زازا بشكل تقريبي، لم يعثروا على ما يفيدهم، إضافة إلى أن تلك المنطقة لم تكن من المناطق المعروفة بسياراتها بشكل خاص. عادة عند حلول المساء عبر الطريق الذى بدأ يزدحم بالمرور شيئاً فشيئاً، من الغرب باتجاه الشرق، إنها بداية هروب الناس من الساحل، كانت هناك سيارات صغيرة، وعربات، ومرة أخرى الحمير المحملة التى لا تُنسى، والدراجات، وإن كانت قليلة فى طريق لا يصلح لها، ودراجات نارية وسيارات نقل الركاب العامة، من ذات الخمسين أو أكثر من الركاب، تنقل قري بكاملها، لقد كانت أكبر هجرة فى تاريخ جيليقيا. بعض الركاب كانوا ينظرون بدهشة إلى المسافرين فى

الاتجاه المعاكس، وحتى وصلوا إلى حد إيقافهما، ربما
ليعرفوا منهما ما الذى يحدث. يقول جوزيه أنيسو،
"نعرف نحن هذا، شكراً، نحن ذاهبان فقط للبحث عن
بعض الأصدقاء، ولا يزال الخطر بعيداً الآن"، "إذا كان
الحال هنا هكذا، فما الذى يحدث فى البرتغال؟"،
وفجأة طرأت على ذهنه فكرة منقذة، "كم نحن أغبياء،
الحل سهل جداً، نقوم بالرحلة على مرتين، أو ثلاث،
أو العدد الذى نحن فى حاجة إليه، نختار مكاناً فى
الداخل لنقيم فيه، بيتاً، لن يكون صعباً، فالناس تهجر
كل شيء". كان هذا هو النبأ الذى حملاه، واحتفوا به
كما يجب، وفى اليوم التالى بدءوا فى اختيار وتنظيم
ما هم فى حاجة إليه من حاجيات لحمله، انعقدت بعد
الفداء حلقة نقاش، وتم وضع قائمة بالاحتياجات،
وأصبح على ذات الحصانين أن تسير كثيراً وتحمل
أكثر.

فى صباح اليوم التالى لم يظهر العاملان وموتور
ذات الحصانين لم يعمل. الكلام بهذه الطريقة يبدو
كما لو كان يريد الربط بين أى من الحدثين، مثلاً، أن
الفلاحين المتغيبين قد يكونان أخذوا قطعة أساسية من
السيارة، لحاجة عاجلة أو بقصد سيئ. لكن الأمر
ليس كذلك، فالشيخ كما الفتى الشاب ذهباً تحت
ضغط الهجرة الجماعية، التى أقفرت الساحل بعمق
خمسين كيلومتراً، لكن خلال ثلاثة أيام، عندما هجر
السكان البيت، سيعود العامل الأكثر شباباً الذى كان
يطارد ماريّا جوافايرا وأرض ماريّا جوافايرا، سواء

بهذه الأولوية أو العكس، ولن نعرف أبداً إن كان قد عاد لتحقيق حلمه بأن يكون مالكا لتلك الممتلكات، ولو لأيام محدودة فقط قبل أن يموت فى كارثة جيولوجية ستأخذ معها الأرض والأحلام، أو ما إذا كان قد قرر البقاء كحارس، مناضل ضد العزلة والخوف، مخاطر بكل شيء على أمل الفوز بكل شيء، يد ماريا جوافايرا وأموالها، لو لم يصل التهديد الغامض، من يعرف، بشكل قاطع، ربما عندما تعود ماريا جوافايرا فى يوم من الأيام، هذا لو عادت، ستجد رجلاً يحرق الأرض، أو نائماً، متعباً من العمل، فى سحابة من الصوف الأزرق.

ناضل جواكيم زازا طوال اليوم مع الميكانيكا العنيدة، وساعده جوزيه أنيسو بقدر ما استطاع، لكن خبرة كليهما لم تكن كافية لحل المشكلة، لم تكن تنقص قطع غيار، ولا الوقود، لكن فى أعماق الموتور هناك شيء متعب ومكسور، أو كان يتآكل ببطء، يحدث هذا مع البشر، ويمكنه أن يحدث مع الماكينات، فى يوم ما، دون سابق إنذار، يقول الجسد، "لا"، أو الروح أو النفس أو الإرادة، ويتوقف كل شيء، وذات الحصانين وصلت إلى هذه النقطة، أحضرت إلى هنا جواكيم زازا وجوزيه أنيسو، وتركتهما فى منتصف الطريق، على الأقل شكراً لها ولا تغضبوا منها، فالكلمات لا تحل أية مشكلة، وضربات الأقدام لا تُصلح شيئاً، ذات الحصانين ماتت. عندما دخلا البيت منهكين، وملطخين بالزيت، وأيديهما تالفتان من كثرة النضال،

وبلا أدوات تقريباً، ضد الصواميل والمسامير والتروس، وذهبا ليفتسلا، بالمعاونة الجميلة لنسائهما، المناخ كان كارثياً، سأل جواكيم زازا، "والآن كيف سنخرج من هنا؟"، منطلقاً من إحساسه بملكية السيارة، وليس فقط كمسئول، ولكن كمذنب، وقد اعتقد أن الأمر شيء من عدم اعتراف القدر بالجميل، وإهانة شخصية، فبعض خدش الحياء لا يعنى على الأقل عملاً عبثياً.

تم عقد مجلس عائلى على الفور، كان يبدو أن اللقاء سيكون عاصفاً، لكن ماريّا جوافايرا أخذت المبادرة بالكلام بتقديم عرض، "عندى عربية قديمة ربما تصلح، والحصان ليس فتياً، لكن لو عاملناه بحرص من الممكن أن يحملنا". مرت لحظات من الحيرة، رد فعل طبيعى من أناس اعتادوا على السيارات وفجأة يجدون أنفسهم مجبرين، لأسباب حياتية صعبة، بالعودة إلى عادات قديمة. سأل بدرو أورثي، "وهل العربية مفضاة؟"، إنها عملية ومن الأجيال القديمة، "الغطاء ربما لا يكون الآن فى حالة جيدة، ولكن يمكن ترفيعه فى الأماكن التى نحتاج إلى ذلك، عندى قماش سميك يصلح لعمل الرقع"، قال جواكيم زازا، "ولو احتاج الأمر، يمكن نزع غطاء ذات الحصانين، فهى لن تكون فى حاجة إليه، وستكون آخر مساعدة تقدمها لنا". نهضوا جميعاً واقفين، سعداء، يعتقدون أن المغامرة كبيرة، يتجولون فى هذا العالم فى عربية، كلمة عالم ما هى إلا طريقة فى

القول، وهم يقولون، "هيا نرى الحصان"، "هيا نرى
العربة"، ومطلوب أن تقوم ماريًا جوافيرا بشرح أن
العربة ليست عربة، لها أربع عجلات، ومجموعة
نوجيه كاملة في الأمام، وتحت الغطاء الذي سيقمهم
من العراء، هناك مكان كافٍ لعائلة، بالتنظيم وحسن
الإدارة لاستغلال القليل فإنها ستصبح كما لو كانوا في
البيت.

الحصان شائع، ما إن رأهم يدخلون إلى الإسطبل
حتى أدار نحوهم عينه السوداء الكبيرة، مفزوعاً من
الضوء والوضوء. ينطبق عليه ما قاله الحكيم، حتى
تحين ساعته الأخيرة، يمكن أن يحدث أي شيء، لا
تفقد صبرك.



نظراً للبعد عن الأحداث نعرف القليل عن المشاكل المعقدة التي ظهرت منذ انفصال شبه الجزيرة، وتراكمت وازدادت خطورة داخل الحكومات، وبشكل خاص بعد الغزو الشهير للفنادق، عندما هجمت الجموع الجاهلة وداست على القانون والنظام، إلى درجة عدم القدرة على وضع حلول للأوضاع المستقبلية، وإعادة الممتلكات لأصحابها، كما تقضى قيم الأخلاق والعدالة العليا. هذا مع أننا لا نعرف إن كانت هناك أزمنة قادمة أم لا. نبدأ أن شبه الجزيرة تنجرف بسرعة كيلومترين في الساعة باتجاه الأزور استغلتها الحكومة البرتغالية لتستقيل، تحت ضغط خطورة الوضع والخطر الجماعي، مما يسمح بالتفكير أن الحكومات قادرة فقط على العمل بجدية في اللحظات التي لا تتطلب عملاً ولا قدرة على الإنجاز.

رئيس الوزراء، في تصريحات للبلاد، أشار إلى أن الشكل الحزبي الواحد لحكومته يعتبر عقبة أمام الحصول على توافق وطنى عام، في لحظة الانتقال الرهيبة التى نعيشها، وحتى يمكن العودة إلى الأوضاع الطبيعية لا بد من طرح عدد من الأفكار المنظمة، وعرض على رئيس الجمهورية تشكيل حكومة إنقاذ وطنى، بمشاركة جميع الأحزاب، سواء من لهم أو لم يكن لديهم ممثلون فى البرلمان، خاصة أنه من الممكن دائماً توفير مناصب وكلاء وزارات ومساعدين بأى وزارة يمكن وضعها تحت تصرف السياسيين، الذين فى الأحوال العادية، لا يُدعون ولا حتى لفتح الباب. ولم ينس أن يترك كل شيء واضحاً على أنه وجميع وزرائه فى خدمة البلاد، للقيام بعملهم أو بأية أعمال جديدة مختلفة، والمساعدة على إنقاذ الوطن والسهر على سعادة المواطنين.

قَبِلَ رئيس الجمهورية الاستقالة، وتطبيقاً للدستور وقواعد العمل الديمقراطي للمؤسسات، طلب من رئيس الوزراء المستقيل، كمستئول أعلى عن حزب الأغلبية والذي، حتى الآن، حكم البلاد بمفرده، طلب منه، كما قلنا، تشكيل حكومة إنقاذ وطنى. لأنه من الأفضل ألا تكون هناك شكوك، فحكومات الإنقاذ الوطنى صالحة أيضاً، وحتى يمكننا أن نقول إنها أفضل ما هو موجود، من المؤسف أن الأوطان تحتاجها فى فترات متباعدة جداً، ولهذا ليس لدينا، بشكل عادى، حكومات تعرف كيف تحكم بشكل وطنى. عن

هذا الموضوع، الحساس كالموضوعات الأخرى، بدأت حوارات لا تنتهى بين الدستوريين، والسياسيين والخبراء، وخلال سنوات عديدة ما كان لهم التقدم خطوات لها أهميتها فى مواجهة معانى الكلمات الواضحة، نعم هذا هو، فإن حكومة الإنقاذ الوطنى، بما أنها وطنية، وللإنقاذ، فإنها إنقاذ وطنى. لكن جرولو سيقول نفس الكلام، وسيؤكد أنه أمر طيب. والأفضل من كل هذا أن الشعوب ستشعر أنها بعيدة عن الخطر، أو فى طريقها للابتعاد عنه، وهكذا تم الإعلان عن تشكيل الحكومة المذكورة، ولكنها لم تستطع تجنب مظاهر التشكك الفطرى منذ إعلان الأسماء ونشر صور الوزراء فى التليفزيون. فهى الوجوه نفسها، إذا ماذا ننتظر، مادامنا نرفض أن نقدم وجوهنا نحن.

تحدثوا عن الأخطار التى تتعرض لها البرتغال إن هى اصطدمت بجزر الأزور، وأيضاً عن الآثار الجانبية، إذا لم يكن الاصطدام مباشراً، وتلك التى تهدد جليقيا، لكن الأكثر خطورة هو، حقيقة، الوضع الذى يواجهه سكان الجزر. لأنه ماذا تعنى جزيرة، الجزيرة، وفى هذه الحالة الأرخبيل بكامله، الجزيرة عبارة عن بروز التلال الواقعة تحت سطح البحر، أى فى أكثر الأوقات ليست إلا قمماً مدببة من الإبر الصخرية التى تتماسك على قاع يمتد لآلاف الأمتار تحت المياه، الخلاصة، أن الجزيرة تكون الأكثر تعرضاً للخطر من الناحية المجازية، والآن هذا الشيء الذى

يظهر، أنه جزيرة أيضاً، لكنها كبيرة وسريعة حتى إننا نوشك أن نشاهد، ونرجو ألا يكون ذلك بعيداً، القطع المتوالى لجزيرة سان ميغيل وترسير، وساو خورخي، وفايال على التوالي والعديد من جزر الأزور الأخرى، وما ينتج عن ذلك من فقدان الكثير من الأرواح إذا لم تستطع حكومة الإنقاذ الوطنى، التى يجب أن تبدأ عملها من الغد، وضع حلول لنقل مئات الآلاف، فى وقت قصير، بل الملايين إلى مناطق أكثر أمناً إن وُجدت تلك الأماكن. حتى قبل تسلم الحكومة الجديدة مهام عملها وجه رئيس الجمهورية نداء للتضامن الدولى، هذا التضامن الذى أنقذ إفريقيا من الجوع، وهو ما يتذكره الجميع، ليس سوى مثال من بين الأمثلة العديدة، ويلاحظ فى الدول الأوروبية أن اللهجة أصبحت الآن أكثر وداً نسبياً، لحسن الحظ فإن ما يتعلق بإسبانيا والبرتغال بعد أزمة الهوية الخطيرة التى مرت بها تلك الدول عندما أعلن الآلاف من الأوروبيين أنهم أيبيريون، فقد استقبلت هذه الدول النداء بتعاطف وطلبت معلومات عن الطريقة التى يريد الأيبيريون مساعدتهم بها، رغم أن الأمر مرتبط، كالعادة بمعرفة هل يمكن تلبية احتياجاتنا مما هو متاح من الفائض عندهم. أما الولايات المتحدة الأمريكية، التى يجب ذكر اسمها دائماً بشكل كامل هكذا، رغم أنها أوضحت أن صيغة حكومة الإنقاذ الوطنى لا تعجبها مطلقاً، لكن نظراً للظروف، تعلن استعدادها إجلاء سكان جزر الأزور، حوالى مائتين وخمسين ألف مواطن فقط، دون أن تبين المكان

المناسب لإقامتهم بعد التهجير، بالطبع فلن يكون فى أراضى الولايات المتحدة نفسها، نظراً إلى أن قوانين الهجرة تمنع دخولهم، فقد كان الحلم السرى لوزارة الخارجية الأمريكية وزارة الدفاع أن توقفها جزر الأزور، وبذلك تثبت شبه الجزيرة فى منتصف المحيط، لأنه الحل الأمثل للسلام فى العالم والحضارة الغربية، وأيضاً من أجل المصالح الإستراتيجية، وتم الإعلان عن أن جميع الأسراب الأمريكية تلقت الأوامر للاتجاه إلى جزر الأزور، لنقل عدة آلاف من الآزوريين، فيما يتم إنقاذ الباقي عبر جسر جوى بدأ الإعداد له بالفعل. وعلى إسبانيا والبرتغال أن تحل مشاكلهما المحلية، ومشاكل الإسبان أقل منا، فقد عاملهم التاريخ والقدر بتحيز واضح.

بترك جيليقا جانباً، فهى منطقة هامشية تماماً، أو تحديداً، منطقة زائدية، تكون إسبانيا بمنأى عن أسوأ نتائج الاصطدام؛ لأنه من الناحية النظرية تحميها البرتغال كواقٍ من الصدمات، لكن هناك مشاكل إمدادية معقدة لا تزال فى حاجة إلى الحل، مثل المدن المهمة، فيجو وبنتيفيدرا، وسانتياجو دى كومبوستيلا، ولاكرونيا، لكن فيما يختص بالباقي، فإن سكان القرى اعتادوا على إهمال الحكومة لحياتهم، دون أن ينتظروا أوامر، أو نصائح أو آراء، اندفعوا باتجاه الداخل، مسالين طائعين، مستخدمين الوسائل التى أشرنا إليها، ووسائل أخرى، بدءاً بأكثرها بدائية، وهى الأقدام.

لكن الوضع فى البرتغال مختلف جذرياً، انتبهوا
 إلى أن كل الشاطئ، عدا منطقة الغربى الجنوبية،
 معرض لرجم الجزر الأزورية، كلمة تستخدم هنا،
 رجم؛ لأنه فى النهاية لا يوجد فارق كبير فى النتائج
 بين أن يضربونا بحجر أو نصطدم نحن بحجر،
 المسألة تكمن فى السرعة والقصور الذاتى، بالطبع
 دون أن ننسى، أنه فى الحالة المُشار إليها، فإن الرأس
 المجروح أو المشجوج، يمكنه أن يحول كل هذا إلى
 حصى. والآن، بشاطئ هكذا، أرضه كلها تقريباً
 منخفضة والمدن الكبرى كلها على حافة الماء، مع
 الأخذ فى الاعتبار انعدام البرتغاليين إلى الإعداد
 لمواجهة الكوارث العامة، الزلازل، والإغراق، وحرائق
 الغابات، والجفاف، هناك شك فى أن تقوم حكومة
 الإنقاذ الوطنى بواجبها. الحل يكمن فى زيادة الرعب،
 ودفع الناس إلى مغادرة بيوتهم على عجل ليحتموا
 بالحقول الداخلية. السيئ أنه خلال الرحلة أو إقامة
 هؤلاء الأشخاص سيجدون أنفسهم بلا تموين، هناك لن
 يتخيل أحد إلى أى حد يمكن أن يصل التمرد. كل
 هذا، بالطبع، يزعجنا، لكن، علينا أن نعترف، بأن ما
 يزعجنا أكثر لو لم نكن فى جيليقيا، هو أن نهتم
 بالإعداد لرحلة ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، وجوانا
 كاردا وجوزيه أنايسو، وبدرو أورثى والكلب، الأهمية
 نسبية لأن الموضوعات مختلفة، حسب وجهة النظر،
 وحالة اللحظة، والتعاطف الشخصى، وموضوعية
 الراوى اختراع حديث، يكفى أن نرى أن الله سيدنا لم
 يضمه فى كتابه.

مر يومان، وتلقى الحصان غذاءً مقوياً، مدعماً بالقرطم والشوفان، فقد كان يخضع من قبل لنظام طعام أولى، وحتى جواكيم زازا اقترح تقديم حساء النبيذ له، وتم ترقيع ثقوب العربة بالغطاء المأخوذ من ذات الحصانين، إضافة إلى الراحة الداخلية التي تتيحها، فهي تحمي من المطر عندما يهطل بشكل متواصل عما أمطرته في الأيام الأخيرة، فقد جاء سبتمبر ونحن في أرض كثيرة المياه. فيما بين الرواح والقدوم يمكن حساب أن شبه الجزيرة ربما تكون قد أبحرت مائة وخمسين كيلومتراً منذ أن حسب جوزيه أنايسو حساباته. سيبقى إذًا، السير لحوالي سبع مائة وخمسين كيلومتراً، أو خمسة عشر يوماً، لمن يفضل مقياساً أكثر تجريبية، بعدها، دقيقة أكثر أو دقيقة أقل، سيأتي أول صدام، "بحق يسوع، ومريم ويوسف"، هؤلاء الألتيفانوس المساكين، لحسن الحظ أنهم معتادون، فهم كالجيليقيين، جلودهم قاسية جداً، وهنا يمكننا العودة إلى الكلمات القديمة، بتسميتها الجلود نوفر شروحاً أكثر. في هذا الوادي الفردوسي لجيليقيا فإن الزمن يأتي ويكفي للحماية من الرفقة. وبالعربة الآن مراتب، وشراشف وبطاطين، وحقائب الجميع، ومطبخ بدائي، وطعام معد للأيام الأولى، عجة بطاطس، هذا إذا كان مطلوب التحديد، وأنواع أخرى من الأغذية، الريفية والمنزلية، لوبيا حمراء، وفاصوليا بيضاء، وأرز، وبطاطس، وبرميل مياه، وقرية نبيذ، وفرختان تضعان البيض، إحداها مبرقشة وبعنق

عار، وسمك مجفف، وإبريق زيت، وزجاجة خل، وملح، لا يمكن الحياة بدونه، إلا إذا هربنا من التعميد، وقلقل أسود وأحمر، وكل الخبز الموجود في البيت، ودقيق في كيس، وحشائش مجففة، وقرطم، وشوفان للحصان، أما الكلب فعليه أن يبحث عن طعامه بلا مساعدة، وقبوله كان من باب الإرضاء. ماريا جوافيرا، دون سبب ظاهر، وربما لا تستطيع تفسيره لو سألوها، قالت، "صنعت أساور للجميع من خيط الصوف الأزرق وأطواقاً لرقبة الحصان والكلب. كان حجم الصوف كبيراً فلم يتم ملاحظة الفارق. من ناحية أخرى، ولو كانت تريد أن تحمله معها، فإن العرية لا تكفى. إضافة إلى أن نقله لم يكن موضوعاً في الحساب، وإلا فأين يمكن للأجير الشاب أن ينام الذي سينتهى به الحال إلى النوم هنا.

ناموا متأخرين في آخر ليلة أمضوها بالبيت، ظلوا يتحدثون ساعات وساعات، كما لو كان اليوم التالي يوم الوداع المؤلم، كل في مكانه، أما البقاء معاً فإنه كان دافعاً لتقوية العزيمة، فالأعضاء تنقسم في اللحظة التي تنقسم فيها الجماعة، كل ما هو قابل للتحطم قد تحطم. نشروا خارطة شبه الجزيرة على مائدة المطبخ، في تلك الصورة التي كانت لا تزال مرتبطة فيها بفرنسا، وحددوا مسيرة اليوم الأول، الافتتاحي، واختاروا باحتراس الطرق الأقل عرضة للحوادث، مع الأخذ في الاعتبار قوة لاثارو الحصان، لكن عليهم الانحراف إلى الشمال قليلاً، حتى

لأكورونيا، هناك حيث توجد أم ماريا جوافايرا المجنونة فى المستشفى، حب الابنة البسيط كان مع إخراجها من المستشفى، ولكن لنتصور الرعب الذى يمكن أن يسيطر على البيت عندما تفتح جزيرة الباب وتجرف فى طريقها المراكب الراسية، وكل تلك العنابر الزجاجية فى شارع لامارينا محطمة فى اللحظة نفسها، والمجانين يعتقدون، وفى جنونهم يمكنهم أن يعتقدوا، أن يوم القيامة قد حان. كان على ماريا جوافايرا أن تكون أمينة لتقول، "لا أعرف كيف سنتصرف مع أمى داخل العربة، رغم أنها ليست عصبية، سنأخذها فقط إلى مكان آمن، فتحلوا بالصبر". أجابوها بأنهم سيفعلون، وأنها لا يجب أن تتزعج، وأن كل شيء سيجرى على أفضل حال ممكن، لكننا نعرف جيداً أنه لا الحب الكثير يمكنه أن يبقى فى ظل جنونها، وأنها ستلقى به على الآخرين لو أرادت، فى هذه الحالة الأم المجنونة لأحد المجانين. لحسن الحظ أن جوزيه أنايسو طرأت عليه الفكرة السعيدة بالحديث تليفونياً عند أول مكان يمكن فيه عمل هذا، للتعرف على الأخبار، فاكشف أن السلطات الصحية نقلت أو ستنقل المرضى إلى مكان آمن، لأن هذا الفرق لن يكون تقليدياً، وهنا سيتم أولاً إنقاذ من هم فى خطر.

وأخيراً انسحب كل زوجين إلى غرفتهما، ليفعلا ما يقومون به عادة فى مثل هذه المواقف، من يعرف ربما نعود يوماً إلى هنا، فليبق إذاً هنا صدى الحب

الإنسانى الجسدى، هذا الذى لا شبيه له بين أى من الكائنات؛ لأنه مكون من تنهيدات، وهمهمات، وكلمات مستحيلة، من لعاب وعرق، من احتضار، واستشهاد متوحد، "ليس بعد، يمكن الموت عطشاً، ورفض الماء المحرر"، "الآن، الآن، الحب، إنه هذا الذى لا يجب أن يسرقه لا الشيخوخة ولا الموت". بدرو أورثى، الذى شاخ وجاءه أول إنذار من الموت، وهو العزلة، خرج مرة أخرى ليرى السفينة الحجرية، ذهب معه الكلب الذى يحمل كل الأسماء ولا اسم منها، ولو قالوا إنه للذهاب لو لم يذهب الكلب، فإن بدرو أورثى لن يذهب وحده؛ لأنه ينسى الأصل البعيد للحيوان، فكلاب جهنم شاهدت كل شىء، وبما أن حياتها طويلة فهى ليست رفيقا لأحد، إنهم البشر، من يعيشون قليلاً، هم من يرافقون هذه النوعية من الكلاب. كانت السفينة الحجرية هناك، والدفة عالية ومدببة كما فى الليلة الأولى، هذا لا يدهش بدرو أورثى، فكل إنسان يرى العالم من خلال ما تراه عيناه، والعينان تريان ما تريدان، العينان تجمعان اختلافات الدنيا وتصنعان منها العجائب، حتى لو كانت من حجر، والدفات العالية حتى لو كانت من صنع الخيال.

استيقظ الصباح غائماً وممطراً، طريقة لقول شىء عادى ولكن ليس بالضبط؛ لأن الصباح لا يستيقظ، بل نستيقظ نحن فيه، وحينما نقترّب من النافذة، نرى أن السماء مغطاة بالسحب المنخفضة وتسقط الأمطار الخفيفة، سيرافقهم الليل، رغم أن

قوة العادات كبيرة، فإنه سيرافقنا خلال تلك الرحلة، ولو كانت لرحلتنا هذه يوميات فإن كاتبها سيبدأ صفحته الأولى هكذا، "استيقظ الصبح غائماً وممطراً، كما لو كانت السماء تجهض المغامرة، دائماً ما يحدث في مثل هذه الحالات نُحْمَلُ السماء المسئولية، لا يهم إن كانت تمطر أم أن الشمس مشرقة". دفعوا ذات الحصانين لتحل محل العربة تحت السقف، رغم أنه ليس سقفاً من الطوب وإنما من القش، وأنه ليس جراجاً بل مخزناً مفتوحاً أمام كل الرياح. ستنظل هكذا متروكة، دون الغطاء الذي استخدموه في ترقيع غطاء العربة، تبدو الآن مجرد بقايا، فالأشياء يحدث لها ما يحدث للبشر، عندما تفقد قيمتها تنتهي، تنتهي إذا لم يكن منها نفع. العربة، على العكس تماماً، رغم قدمها، تجدد شبابها بالخروج إلى الهواء الطلق، وغسلها المطر المتساقط وجددها، كانت النتيجة مثيرة للإعجاب، انظروا إلى الحصان، تحت السرج الذي يغطى كتفيه يبدو كجواد سباق، مستعد للمعركة.

لا يجب أن يزعم هذا التأخير الموصوف أحداً؛ لأنه طريقة لبيان كم هو صعب على الناس الخروج من أماكنهم التي عاشوا فيها سعداء، خاصة إذا لم يكن هروباً من رعب مثير. تغلق ماريا جوافايرا الأبواب الآن باحتراس شديد، تطلق الدجاجات التي ستبقى، وتُخرج الأرانب من حظيرتها، والخنزير من زربته، إنها حيوانات اعتادت على تناول الأكل من أيدي

الآخرين وسنتبقى الآن تحت رحمة الله، إن لم تبق تحت رحمة الشيطان، فالخنزير قادر، لو تركوا له الحرية، على القضاء على الحيوانات الأخرى. عندما يظهر أكثر الأجيرين شباباً عليه أن يحطم النافذة ليدخل البيت، فليس هناك أحد قريب يمكنه أن يشهد على الواقعة، إنها كلماته هو، ومن الممكن أن تكون حقيقة.

صعدت ماريا جوافايرا إلى المقدمة وجلس إلى جوارها جواكيم زازا والمظلة مفتوحة، إنه واجب، مرافقة المرأة المحبوبة وحمايتها من الطقس السيئ، لأنه لا يستطيع أن يمارس عملها، فمن بين هؤلاء الأشخاص الخمسة فقط ماريا جوافايرا من يستطيع التحكم في العربة والحصان. عندما لاح المساء، وتصبح السماء صافية، ستكون هناك دروس، وسيبذل بدرو أورثي جهداً ليكون أول من يتلقى التدريب، وهذا نبل منه لأنه بهذه الطريقة يمكن للأزواج الاستراحة تحت الغطاء برفقة مرغوبة، وأيضاً بما أن مقعد قائد العربة متسع، يمكن سفر ثلاثة أشخاص، وهو حل مثالي للحفاظ على حميمية الاثنين الباقيين، حتى لو كان تحت إجبار إن كانا صامتين، هادئين ومعاً. هزت ماريا جوافايرا لجام الحصان، دافعة به ليجر العربة، دون رفقة إلى جانبه، أطلق أول جذبة، لكن ثقل الحمولة، أعادت الذاكرة إلى عظامه وعضلاته العجوز، فتكرر ما كان منسياً، وانبعجت الأرض تحت ثقل العجلات الحديدية. كل شيء قابل للتعلم، يمكن

أن يُنسى ويمكن تعلمه من جديد لو كانت هناك حاجة لذلك. رافق الكلب العربية خلال المائة متر الأولى تحت المطر، انتبه بعدها إلى أنه يستطيع السفر، على قدميه، في حماية العربية. دخل تحت العربية، ونسّق خطواته مع خطوات الحصان، وسنراه هكذا طوال زمن الرحلة، سواء أمطرت أم كان الوقت صحواً، إلا إذا رغب في العمل كمرشد أو التسلى بالرواح والعودة دون معنى ظاهر وهو ما تقوم به فصيلته من الكلاب والبشر.

ساروا كثيراً في هذا اليوم. كان يجب عدم إجهاد الحصان، خاصة أن الطريق الوعر كان يحتاج إلى جهد متواصل، الشد عند الصعود، والتحمل عند الهبوط. على مدى البصر لم تكن هناك حياة، قالت ماريّا جوافايرا، "يبدو أننا آخر من غادر هذا المكان"، السماء منخفضة والهواء غير مستقر، والمشهد موحش، كانت تبدو ترنحات نهاية عالم، خالٍ من البشر، يستحق الشفقة بعد كل هذه المعاناة والتعب، من كثرة الحياة والموت، من كثرة الحياة المحددة المصير والموت المتوالى. لكن من يسافر في هذه العربية عشاق جدد، والعشق الجديد، كما لا يجهل المراقبون، هو الأكثر قوة في العالم، لهذا لا تقع لهم حوادث، لأنهم هم أنفسهم حادثة، الحب، كما هم الأكثر تعبيراً عن الحادثة، البرق الفجائي، والسقوط الباسم، والعرقلة المرغوبة. مع ذلك، لا يجب الثقة بشكل كامل في الانطباعات الأولى، هذا الوداع الذي يكاد يكون

جنائزياً فى الخلاء، تحت المطر المجنون، ربما يكون مفضلاً، لو لم نكن نحن أكثر احتراساً، نصيخ السمع ونتابع الحديث بين جوانا كاردا وجوزيه أنيسو، وبين ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، وصمت بدرو أورثى الأكثر احتراساً بعد، بالنسبة له يمكننا القول إنه يبدو غائباً هنا.

أول قرية عبروها لم تكن مهجورة من كل سكانها. بعضهم شيوخ قالوا لأولادهم القلقين وأقاربهم إنه لو كان الموت من أجل الموت، فالموت هنا أفضل من الموت جوعاً أو نتيجة أمراض سيئة، إذا كان الإنسان مُختاراً بعظمة حتى يصل إلى الموت فى عالمه الخاص، ما لم يكن بطلاً أوبرالياً، إن انتظار الشهادة الأعلى حيث تقع الكوارث الكبرى، فكله نابع من جيليقيا أو البرتغال، إنهم لا يعرفون شيئاً عن تلك الأشياء، وأكثر، لأسباب غير مفهومة، كانوا قادرين على القول، "لن أخرج من هنا، اذهبوا أنتم لو كنتم خائفين"، وهذا لا يعنى أنهم كانوا شجعاناً، لكنهم فقط فى تلك اللحظة من حياتهم فهموا أن الشجاعة والخوف ليسا سوى كفتى ميزان أمين على البقاء ثابتاً، ومتوقفاً بقوة الدهشة بالعواطف والانطباعات الخائبة.

عندما عبرت العربة القرية، فإن الفضول، الذى من المؤكد أنه آخر الفضائل التى تضيع، دفعت الشيوخ إلى الخروج إلى الطريق، للتحية برفع الأذرع ببطء،

فكان كما لو كانوا يودعون أنفسهم. عندما قال جوزيه أنايسو، إنه من الأفضل انتهاز الفرصة والنوم في أحد البيوت المهجورة، هنا أو في قرية أخرى، أو في مكان خالٍ، مؤكداً توجد أسرة، وراحة أكثر من العربة، لكن ماريّا جوافايرا أعلنت أنها لن تدخل أبداً بيتاً دون إذن من أصحابه، هناك أناس هكذا، حريصون، آخرون يرون نافذة مغلقة فيحطمونها، لكنهم يقولون، كان السبب خيراً، تُرى هل الخير له أم لغيره، دائماً ما يبقى الشك حول الأول والسبب الأخير، ندم جوزيه أنايسو على فكرته، ليس لأنها فكرة شريرة بل لأنها غبية، كانت كلمات ماريّا جوافايرا كافية لوضع قاعدة من الكرامة. " أن تكتفى بذاتك مادمت تستطيع التحمل، وبعدها ثق في من تعرف، ومن الأفضل أن يكون هذا يستحق الثقة أيضاً". بالطريقة التي تسير بها الأمور فإن هؤلاء الخمسة يستحقون بعضهم بعضاً، بشكل متبادل ومتكامل، إذاً فليبقوا في العربة، يأكلون عجة البطاطس، ويتحدثون عن الجزء الذي مضى والجزء الذي تبقى من الرحلة، زادت قوة ماريّا جوافايرا بنظرية الدروس التدريبية للقيادة وإن كانت قد بدأتها بالفعل، الحصان يأكل تحت الشجرة ويمضغ نصيبه من القرطم، واكتفى الكلب هذه المرة بالغذاء المنزلي، يتجول هناك متشهماً ومرعباً طيور الليل. توقف المطر، بطارية تضيء غطاء العربة من الداخل، من يمر من هنا يمكنه أن يقول، "انظر، إنه مسرح"، وهذه حقيقة إنهم شخصيات، لكنها لا تمثل..

عندما تحين اللحظة غداً وتهاتف ماريا جوافايرا
لاكرونيا، سيقولون لها إن أمها والمرضى الآخرين تم
نقلهم إلى الداخل، "وهي كيف حالها؟"، "لا تزال
مجنونة كما كانت في السابق"، لكن تلك الإجابة تنفع
للرد على أى شخص. سيواصلون الرحلة من جديد
إلى أن يعثروا على أرض مسكونة. وينتظرون هناك.



تم تشكيل حكومة الإنقاذ الوطنى للبرتغاليين، وبدأت فى العمل على الفور، بذهاب رئيس الوزراء، بنفسه إلى التليفزيون وأطلق شعارات لا شك أن التاريخ سيحفظها ، شىء من هذا النوع، "الدم، والعرق، والدموع"، أو، "ادفنوا الأموات وحافظوا على الأحياء"، أو، "مجدوا الوطن أولاً، فالوطن ينظر إليكم"، أو، "تضحية الشهداء ستزرع حصاد المستقبل". فى الحالة التى بين أيدينا، مع الأخذ فى الحسبان الخصوصيات، فإن رئيس الوزراء اعتقد أنه من الأفضل القول، "أيها البرتغاليون والبرتغاليات، السلامة فى الانسحاب".

لكن تسكين الملايين من قاطنى الشريط الساحلى بعيداً عن المواجهة مهمة معقدة لا يملك أحد الادعاء بأنه يستطيع تقديم مبادرة وطنية للترحيل العام قادرة على توحيد جميع المبادرات المحلية. مثلاً، بالنسبة

لمدينة لشبونة وما حولها، فإن تحليل الأوضاع والوسائل المطلوبة لها انطلقت من فرضية، موضوعية وشخصية، يمكن تلخيصها هكذا، الجانب الأكبر، ولم لا نقولها، الغالبية العظمى لسكان لشبونة لم يُولدوا هناك، ومن وُلِدوا هناك مرتبطون بروابط عائلية بسكان الداخل. ونتائج هذا واسعة وحاسمة، لهذا لا بد من نقلهم إلى مناطقهم الأصلية، حيث لديهم بشكل عام أقارب هناك، ربما كان بعضهم قد فقد تلك الروابط نتيجة تقلبات الحياة، لكنهم قد يستغلون الفرصة لاستعادة التواصل العائلي، بتهدئة النزاعات القديمة والكراهية الناتجة عن إرث قديم أو قسمة غير عادلة، وهى قضايا شريرة، وأكبر كارثة يمكن أن تقع على عاتقنا عليها تقرب القلوب. والنتيجة الثانية، بالإشارة إلى مشكلة إطعام المهجرين. وحتى هناك، ودون أن تجد الدولة نفسها مجبرة على التدخل، فتكون للعائلة الكبرى دورها، وهو بترجمتها إلى أرقام، يمكن التعبير عنها باستعادة المقولة القديمة للاقتصاد العام، "حيث يأكل اثنان، يأكل ثلاثة"، إنه استسلام حسابي وعائلي عندما يكون هناك طفل فى الطريق، وسيقولون الآن، بنغمة أكثر تسلطاً، "حيث يأكل خمسة ملايين، يمكن أن يأكل عشرة"، وبابتسامة باهتة، "الوطن ليس سوى عائلة كبيرة".

لن تكون هناك موارد لمن يعيشون بمفردهم وبلا عائلة، ولا للمتمردين على المجتمع، ولكن حتى هؤلاء سيتم عزلهم من المجتمع تلقائياً، لا بد من الثقة فى

أعمال التضامن العفوية، فى ذلك الحب للجار الذى كان يُعبر نفسه فى مثل هذه الحالات قديماً، أنظر إلى رحلات السفر فى القطار، بشكل خاص فى الدرجة الثانية، عندما كانت تحين ساعة فتح السلة أو صرة ربة الأسرة فإنها لا تنسى أبداً دعوة الغرباء أن يقتربوا، فتسأل، "هل لكم فى شىء؟"، وإذا قبل أحدهم، لا تأخذ هذا على محمل سيئ رغم أنها تنتظر أن يجيبوا جميعاً، "شكراً، هنيئاً"، إن الصعوبة تكمن فى السكن، إن عرض طبق من السمك المملح أو كأس نبيذ شىء، وشىء آخر مختلف، تقديم نصف سرير للفوم فيه، ولكن لو استطعنا أن نضع فى رعوس الناس أن هؤلاء الفرادى والمُهملون تجسّد حى لله سيدنا جميعاً، كما فى الأزمنة التى كان يجوب فيها العالم متخفياً فى ملابس فقير يطلب الإحسان، ليحرب مدى كرامة البشر، حينئذ سيكتشف أنه بالإمكان العثور على مكان لهؤلاء، أو بالمعنى الريفى، طوبة وكومة من القش، الله، هذه المرة، مهما تضاعف، ستجرى معاملته كما يجب أن يستحق لمن يؤمن بالإنسانية.

تحدثنا عن لشبونة، ويمكننا الحديث عن بورتو أو كويمبرا، عن سيتوبال أو أفبيرو، بنفس الكلمات وإن كان باختلاف كمى، ويمكننا الحديث عن فيانا أو فيجييراس، دون أن ننسى تلك المدن والقرى الصغيرة المنتشرة فى كل مكان، وإن كان سيعيد هذا طرح قضايا حساسة، وهى معرفة أين يجب أن يذهب من

يعيشون فى تلك الأماكن التى وُلدوا فيها، وأيضاً من يعيشون فى أرض الشاطئ، وولدوا فى أرض أخرى من الشاطئ نفسه. وتم طرح تلك القضية على مجلس الوزراء، فجاء المتحدث الرسمى ومعه الإجابة، "تثق الحكومة أن تُحل المشكلة بمبادرة من الأفراد من منطلق الإحساس بالمسئولية، وربما بهذه الطريقة الجديدة والنفع العام للجميع، خاصة الأوضاع التى لا تدخل فى أى إطار وطنى للترحيل وتسكين السكان". ومن هنا صدرت أوامر عليا بتركها جانباً، لأنها شخصية، أما بالنسبة لبورتو، فإن قضية رؤساء وزملاء جواكيم زازا، يكفى أن يُقال إنه لو نفذ الأوامر والتعليمات الصادرة والإحساس بالمسئولية المهنية، وعاد مسرعاً من التلال الجيلية، تاركاً حبه وأصدقاءه تحت رحمة القدر، فسيجد المكاتب مغلقة، وتبنيهاً مكتوباً مُعلقاً على الباب بآخر تعليمات الإدارة، "الموظفون العائدون من الإجازات عليهم بالحضور إلى المكاتب الجديدة المفتوحة فى بينيا فيل، حيث نواصل استقبال طلبات زياتنا الكرام". وأبناء عم جوانا كاردا، المقيمون فى إيريرا، موجودون الآن فى كويمبرا، فى بيت ابن العم المهجور، الذى لم يرحب بهم، وهو أمر مفهوم، فهو الخاسر، وإن كان لديه بصيص أمل عندما اعتقد أن عودة أبناء العم تهيئة لعودة الهاربة، ولكن إقامتهم طالت، فسأل، "أين جوانا؟"، فاضطرت ابنة العم أن تعترف نادمة، "نحن لا نعرف عنها شيئاً، لقد كانت فى المنزل، لكنها اختفت قبيل هذه الفوضى بوقت قليل، ومنذ ذلك الحين لم تصلنا أى أخبار.

عنها"، وتجنببت الحديث عما تعرفه من الحكاية، فإذا كان القليل الذى تعرفه أفزعها، ماذا يمكنها أن تقول لو عرفت ما تبقى منها؟

العالم معلق وفى حالة انتظار وترقب قلق، ما الذى سيحدث أو لا يحدث للشواطئ البرتغالية والجيليقية فى الغرب. لكننا نكرر مرة أخرى، وإن كان بملل، أن كل شىء يحمل فى داخله شيئاً طيباً، على أية حال إنها وجهة نظر الحكومات الأوروبية، التى رأت حماس الشباب الثورى يقل تدريجياً ويكاد ينطفئ تماماً، بالتوازي مع النتائج الإيجابية للقمع الذى سبقت الإشارة إليه، والآن، يقول الأهالى العقلاء لهؤلاء الشباب، "هل ترى يا بنى، الخطر الذى كنت ستعرض له لو استمر إصرارك على أن تكون أيبيريا؟"، يرد الابن الذى اقتنع قائلًا، "نعم يا أبى"، وبينما تدور مشاهد المصالحة العائلية، وعودة السلام الاجتماعى، كانت الأقمار الصناعية، التى تم ضبطها فى الفضاء لتظل على وضع ثابت نسبياً، ترسل إلى الأرض صوراً وقياسات، الصور ثابتة، فيما يتعلق بشكل الجسم المتحرك، أما القياسات فإنها تسجل تناقصاً فى كل دقيقة تمر يقدر بحوالى خمسة وثلاثين متراً فى المسافة الفاصلة بين الجزيرة الكبرى والجزر الصغيرة، ربما يبدو الاهتمام بمسافة خمسة وثلاثين متراً أمر مثير للسخرية فى هذا العصر، عصر السرعات الجسيمة، لكن لو تذكرنا أن وراء هذه الشواطئ الجميلة الرقيقة، وتلك السواحل الرائعة،

والمصاطب المنحدرة باتجاه البحر، تتقدم بمساحة تقدر بحوالى خمسمائة وثمانين ألف كيلومتر مربع، وكمية لا تحصى من ملايين الأطنان، ولم نذكر سوى الجبال والتلال، ولو حاولنا تصور ما يمكن أن ينتج عن القصور الذاتى لكل هذه الأنساق الجبلية لشبه الجزيرة المتحركة، دون إغفال جبال البرانس التى تحولت إلى نصف حجمها القديم، حينها لن يبق لنا غير الإعجاب بشجاعة هذه الشعوب التى اختلطت فيها دماء كثيرة، والثناء أيضاً على إحساسهم القدرى بالوجود الذى انتهى بالارتكاز، مع التجارب المتراكمة عبر القرون، على القاعدة المعروفة التى تقول، "بين الموتى والجرحى يوجد دائماً من ينجو".

لشبونة مدينة مهجورة، تجوئها دوريات من الجيش، بدعم من طائرات الهليكوبتر، كما حدث فى إسبانيا وفرنسا عند حدوث الصدع وخلال الأيام المقلقة التالية. ما لم يتم سحبهم، وهو أمر محسوب حدوثه خلال الأربع وعشرين ساعة السابقة على الاصطدام، فقد كانت مهمة الجنود السهر والحراسة، رغم أن هذا فى الواقع لا يجدى شيئاً، فقد تم سحب كل ما له قيمة من البنوك فى وقته. لكن لا أحد سيفكر للحكومة إن غادرت مدينة مثل هذه، جميلة، متناسقة، متكاملة فى تقسيماتها وسعاداتها، كما سيُقال عنها ولا شك بعد تدميرها. لذلك فالجنود هنا كتمثيل رمزى للشعب الغائب، كحرس شرف يطلق النار فى اللحظة السامية لفرق المدينة فى الماء.

فيما عدا ذلك، فالجنود سيواصلون إطلاق النار على اللصوص، ونصح وتوجيه الأشخاص القلائل الذين يصرون على عدم مغادرة بيوتهم، وأولئك الذين قرروا في النهاية تركها، وعندما يجدون، كما يحدث من وقت لآخر، مجانين يتصعلكون في الشوارع، من أولئك الهادئين، وتساعدهم صحتهم لسوء الحظ للخروج من المستشفى يوم الهروب، ولم يعرفوا أو يفهموا أوامر العودة، فانهى بهم الحال إلى البقاء تحت رحمة الله، عندها هناك طريقتان للعمل، بعض المسئولين يرون أن المجنون يكون دائماً أخطر من اللص، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا، على الأقل، يحتفظ بتفكير مشابه لغيره من البشر. في هذه الحالة فإنهم يفكرون مرتين ويأمرون بإطلاق النار. آخرون، أقل تسامحاً، وهناك من لديهم الوعي بالحاجة الحيوية بضبط الأعصاب في حالات الحرب أو ما شابهها، فيصدرون الأوامر لمرءوسيهـم أن يتسللوا لبعض الوقت على حساب المجنون المسكين، وبعدها يتركونه يذهب لحال سبيله، وهو ما لا يحدث، لو تعلق الأمر ليس بمجنون بل بمجنونة، فهم لن يتركوها كما كانت، ويعود ذلك إلى أنه بين الجنود وخارج نطاقهم أيضاً، هناك من يسئ استخدام المبادئ الأولية للتحقيق ويرون أن الجنس، نتحدث أدائياً، ليس في الرأس.

لكن عندما لا يظهر في شوارع وطرق وساحات وأحياء وحقائق تلك المدينة شخص واحد، عندما لا يطل أحد من نافذة، عندما لا تكون طيور الكناري قد

ماتت من الجوع والعطش فتغنى فى صمت مطلق فى البيت أو فى الشرفة المطلّة على الأفنية الخالية، عندما تشع المياه فى النوافير والصنابير دون أن تمتد يد لتبتل بها، وتبحث عن عيون لا تراها، عندما تكشف أبواب المقابر المفتوحة أنه لا فارق بين الغياب والغياب الآخر، وعندما، فى النهاية، تكون المدينة على حافة لحظة الاحتضار تنتظر أن تأتى جزيرة من البحر لتدمرها، حينئذ تحدث الحكاية المدهشة والمُعجزة لإنقاذ الملاح الوحيد.

منذ ما يقرب من عشرين عاماً والملاح يتجول فى بحار العالم. فقد ورث القارب الشراعى، أو اشتراه، أو أهده له ملاح آخر تجول هو أيضاً عشرين عاماً، ويبدو أنه قبل عشرين عاماً أخرى قام ملاح آخر بشق المحيطات وحيداً، إن التاريخ والسفن والملاحين الذين يتحكمون فيها مليئة بالأحداث، والعواصف الرهيبة والهدوء الأكثر تدميراً من الزوابع، وحتى لا تنقصها العناصر الرومانتيكية، كما يُقال، وتجرى عنها الأغاني المؤلفة خصيصاً، فهناك دائماً فى ميناء ما امرأة تنتظر الملاح، طريقة خاصة متفائلة لتأمل الحياة، ولكن أفعال وقرارات المرأة تُكذّب هذا كله. فالملاح الوحيد، عندما يرسو، يحدث فقط للتزود بالماء، وشراء التبغ وقطع غيار الموتور، أو للتزود بالزيت والوقود، والأدوية، وإبر الشراع، والبلاستيك الواقى من المطر والندى، والطعم، والصنابير، وصحيفة اليوم ليتأكد مما يعرفه مسبقاً، وهو ما لا يستحق شيئاً،

لكنه، أبدأ وعلى الإطلاق، يضع الملاح الوحيد قدمه على الأرض بهدف الحصول على امرأة ترافقه فى إبحاره. لو كان حقيقة أن فى كل ميناء امرأة تنتظره، فإنه يصبح من العبث تجاهلها، لكن بشكل عام هى من تريد ذلك، وللفترة الزمنية التى ترى أنه لا يمكن أن يقولها الملاح الوحيد، "انتظرينى سأعود يوماً ما"، إنه ليس طلباً يسمح لنفسه بطلبه، "انتظرينى"، ولا يمكنه أن يؤكد أنه سيأتى ربما فى يوم ما، أو فى مرة أخرى، ويعود، كم من المرات يجد الرصيف خالياً، أو لا يجد عليه امرأة، تكون فى انتظار ملاح آخر، وليس غريباً أن يغيب هذا الملاح، فتخدم من يظهر أولاً، والذنب، إذا كان يجب قول ذلك، ليس على المرأة أو الملاح، الذنب للوحدة التى لا تُحتمل فى كثير من الأحيان، فهى قد تأخذ أيضاً الملاح باتجاه الميناء، والمرأة إلى الرصيف.

تلك اعتبارات روحانية وميتافيزيقية، لكن لا نستطيع مقاومة عرضها قبل أو بعد الوقائع البسيطة، وتساعدنا دائماً على توضيحها أكثر من هذا. للكلام ببساطة، نقول إنه إطول تلك شبه الجزيرة التى تحولت إلى جزيرة متحركة يبحر فيها الملاح الوحيد، بشراعه ومحركه، ومذياعه ومنظاره، وذلك الصبر اللانهائى لمن قرر فى يوم من الأيام تقسيم حياته، نصف للسماء ونصف للبحر. توقفت الرياح فجأة عن الهبوب، وجمع شراعه، وانخفض النسيم فجأة، وفقدت الموجة العريضة التى كان القارب الشراعى

يبحر على قوتها فجأة، وقبل مرور ساعة كان البحر منبسطاً وهادئاً، فبدا لنا أنه من المستحيل أن يكون هذا الجحيم المستحيل، بآلاف الأمتار من الأعماق، أن يظل متوازناً على نفسه، دون أن يسقط باتجاه أو آخر، التأمل يبدو غيباً لمن يعتقد أن كل الأشياء في هذا العالم يمكن تفسيرها ببساطة لكونها كما هي، وهو ما يقبل بوضوح، لكنه لا يكفي. المحرك يعمل، تونك.. تونك، تونك.. تونك، البحر يمتد على مدى البصر، يستجيب، إشعاعاً بإشعاع، كالمرآة التقليدية، والملاح، رغم انضباطه طوال سنوات من الحلم والسهر، يغلق عينيه، وينتصب تحت الشمس، وينام، ربما اعتقد لبضع دقائق، أو بضع ساعات، ولم يكن سوى ثوان، استيقظ منتفضاً تحت تأثير ما اعتقد أنه فرقة كبيرة، في ذلك الحلم القصير حلم أنه صعد على بقايا حيوان، حوت، مقشعراً، والقلب يدق بلا انتظام، بحث عن مصدر الضوضاء، ولم ينتبه إلى أن المحرك قد توقف. لقد أيقظه الصمت الفجائي، لكن الجسد، ليستيقظ بشكل طبيعي، اخترع الحدث، والصدمة والصوت. المحركات معطلة، في البحر والأرض، فهو أكثر ما يمكن العثور عليه، نعرف أنه ليس هناك من مفر، فتحطمت روحه وظل تحت السقيفة معرضاً لكل الرياح، هناك في الشمال، حيث يحتمى من الصدا. لكن هذا الملاح ليس مثل سائقي السيارات، إنه محبك وخبير، اشترى القطع المهمة في آخر مرة لمس فيها الأرض والمرأة، سيفكك محركه إلى المدى الذي

يستطيعه، ويفحص الآلية، إنه عمل بلا فائدة،
فالعطب فى الأذرع والأعماق، أحصنة هذا المحرك
أصيب فى مقتل.

اليأس، كما نعرف جميعاً، سلوك بشرى، لا نعرف
خلال التاريخ الطبيعى أن الحيوانات تيأس. لكن
الإنسان نفسه لا ينفصم عن اليأس، اعتاد على الحياة
فيه، ويحتمله حتى آخر الحدود، وليس لأن محركاً
أصابه العطب فى منتصف البحر مما جعل الملاح يشد
شعره، وأن يضرع للسماء أو يطلق اللعنات والشتائم
ضدها، عمل مثل هذا لا فائدة تُرجى منه، والعلاج هو
الانتظار، فما تأخذه الريح ستعيده. لكن الريح، التى
ذهبت، لم تعد. مرت الساعات، وجاء الليل الجهم،
وولد يوم آخر، والبحر لا يتحرك، خيط صوفى رفيع
يسقط مشدوداً كما لو كان من رصاص، ولا أدنى
حركة فى المياه، إنها سفينة حجرية ترقد على لوح
حجرى. الملاح غير منزعج، ليست هذه تجربته الأولى،
لكن المذيع الآن، ودون سبب ظاهر، توقف عن العمل،
لا يسمع سوى صفير، فالموجة الحاملة، لو كانت هناك
موجة، لا تحمل سوى الصمت، كما لو كان العالم فى
تلك الدائرة المتجمدة قد توقف ليشاهد، بشكل غير
مرئى، القلق المتزايد للملاح، الذى يسير باتجاه
الجنون، ربما كان موته فى البحر. لا ينقصه لا الطعام
ولا ماء الشرب، لكن الساعات تمر، كل ساعة أطول
من سابقتها، يطبق الصمت على السفينة كحلقات
الكوبرا الناعمة، والملاح يضرب جوانب المركب من
وقت لآخر، يريد أن يسمع صوتاً لا يكون نابعاً من دمه

الجارى فى عروقه، ثقيلًا، أو من القلب، الذى أحياناً ما ينسأ، وحينها يستيقظ بعد أن يعتقد أنه يستيقظ لأنه حلم بأنه مات. الشراع مفروود فى وجه الشمس، ولكن سكون الريح يوقف الحرارة، والملاح الوحيد جلده محترق، والشفاه تشققت. مرّ ذلك اليوم، والتالى كان مشابهاً. يهرب الملاح باتجاه الحلم، هبط إلى الكابينة الصغيرة رغم أنها كانت كالفرن، هناك سرير وحيد، ضيق، دليل على أن هذا الملاح وحيد فعلاً، وعارٍ تماماً، غارق فى عرقه، أولاً، وبعدها ببشرة جافة، مشققة من القشعريرة، يقاوم النوم، وصفوف من الأشجار العالية تتأرجح على وقع الريح التى تهز الأوراق من اتجاه إلى آخر، وبعد أن يتركها يعود إليها من جديد، بلا نهاية. يستيقظ الملاح ليشرب ماءً، وينتهى الماء. يعود النعاس، والأشجار لم تعد تتحرك، لكن نورساً جاء ليقف على الصارى.

تتقدم فى الأفق كتلة ضخمة وقائمة، وعند الاقتراب أكثر تظهر البيوت المتراسة بطول الشواطئ، والفنارات كأصابع بيضاء مرفوعة، وخط رفيع من الزيد، وقريباً من المصب العريض للنهر، تقوم مدينة كبيرة على التلال، تبدو من هذه المسافة كما لو كانت كفاً دقيقة. يواصل الملاح نومه، كان قد غرق فى آخر ثبات عميق لكن الحلم عاد بشكل فجائى، هزت نسمة سريعة أفرع الأشجار، انغرس القارب فى المصب الطينى الخارج من النهر، لا يزال ساكناً، لكن الأرض لا. شعر الملاح الوحيد بالاهتزازات فى عظامه

وعضلاته، فتح عينيه، فكر، "إنها الريح، لقد عادت الريح"، وبلا قوى تقريباً، سقط على السرير من جديد، وزحف نحو الخارج، اعتقد أنه يمكنه أن يموت فى أية لحظة، ويمكنه أيضاً فى أية لحظة أن يُولد من جديد، ضربت أشعة الشمس عينيه، لكنها كانت أشعة الأرض، تأتى معها بما استطاعت أن تأخذه من خضرة الأشجار، وأعماق الحقول، وألوان البيوت الرقيقة. لقد نجا، أولاً لم يعرف كيف؟، الهواء لا يتحرك، ونسمة الهواء كانت وهماً. مر بعض الوقت قبل أن يفهم أن من أنقذه جزيرة، شبه الجزيرة القديمة التى تبحر للقاءه وتفتح له أذرع النهر. يبدو مستحيلاً، إن الملاح الوحيد نفسه، الذى سمع قبل أيام أخبار الصدع الجيولوجى، رغم أنه كان يعرف أنه يسير على طريق السفينة الأرضية، لم تخطر أبداً على باله فكرة أن يتم إنقاذه بهذه الطريقة، للمرة الأولى منذ أن وُجد غرقى وتائهين فى البحر. لكنه لم يشاهد أحداً على الأرض، وعلى أسطح السفن الراسية لا يوجد خيال واحد، عاد الصمت من جديد بحراً قاسياً، "إنها لشبونة" همهم الملاح، "لكن أين الناس؟". تسطع نوافذ البيوت، وهناك سيارات وأتوبيسات متوقفة، وساحة كبيرة محاطة بالأروقة المقوسة، فى العمق قوس النصر بتمائيل حجرية وتيجان من البرونز، هل هو برونز، باللون فقط؟. الملاح الوحيد، الذى يعرف جزر الآزور ويعرف أين يعثر عليها سواء على الخريطة أم فى البحر، تذكر حينئذ أن الجزر كانت الخاسرة فى الاصطدام، وما

أنقذه هو الذى دمرها هى، وما سيدمرها سيدمره هو أيضاً إن لم يبتعد سريعاً من تلك الأماكن. الريح غائبة، والمحرك متوقف، ولا يستطيع صعود النهر، ومخرجه الوحيد نفخ القارب المطاطى، وإلقاء الهلب لحماية القارب الشراعى، وهو أمر لا فائدة منه، الدخول إلى الأرض بالمجداف. الطاقة تعود دائماً عندما يعود الأمل.

للخروج إلى الأرض، ارتدى الملاح الوحيد بنطلوناً وقميصاً، وغطاء رأس، وشبشباً، كلها بيضاء بلون الثلج، إنها نقطة شرف الملاح. سحب القارب المطاطى حتى الدرج المنحدر نحو للرصيف، توقف لبضع ثوان، متأملاً، وأيضاً فى انتظار جميع مزيد من القوة، ولكن أيضاً ليمنح الوقت لظهور أحد من بين ظلال الأقواس، أو أن تتحرك السيارات والأتوبيسات فجأة وتمتلئ الساحة بالناس، ويمكنه أن ينتظر أن تتقدم امرأة مبتسمة، هازة وسطها بنعومة فى مشيتها، بلا تصنع، فقط للتدليل على الرغبة التى تثير نظرة وكلمات الرجل، خاصة أنه قد وضع قدمه على الأرض الآن. لكن ما كان مهجوراً، ظل مهجوراً، وسيظل مهجوراً. فهم الملاح أخيراً ما كان ينقصه ليفهم، "ذهبوا جميعاً مع الاصطدام بالجزر". نظر خلفه، شاهد قاربه الشراعى فى منتصف النهر، إنها المرة الأخيرة، كان متأكداً، ولا حتى المدمرات المصفحة يمكنها أن تتجو من هذه الاصطدام، فماذا تفعل قشرة عين الجمل ذات الشراع التى هجرها صاحبها. عبر

الملاح الساحة مترنحاً من طول البقاء ساكناً، يبدو بجلده المحترق كأسفنجة كبيرة، والشعر المجعد يبرز من تحت غطاء الرأس، والشبشب ينزلق من قدميه. عندما يقترب من القوس الكبير يرفع عينيه، يشاهد أحرفاً لاتينية، لم يتعلم اللاتينية أبداً، ولكنه يفهمه بشكل غامض، "إن هذا التمثال أقيم على شرف فضائل قدماء هذا الشعب"، يتقدم في أحد الشوارع الضيقة المحاط ببيوت متشابهة، إلى أن يخرج إلى ساحة أخرى، أصغر قليلاً، يطل عليها مبنى إغريقي أو روماني، وفي المنتصف نافورتان بنساء عرايا من الحديد، فشر بالعطش فجأة، الرغبة في إغراق فمه في تلك المياه والجسد في ذلك العرى. يسير بأيدٍ ممتدة، مستثاراً، كأنه في حالة هذيان، مهمماً، لا يعرف ما يقول، فقط يعرف ما يريد.

ظهرت الدورية على الناصية، خمسة جنود تحت قيادة ملازم، شاهدوا المجنون يمشى كمجنون، سمعوه يقول كلمات مجنون غير مفهومة، ما كان حتى لهم أن يصدروا إليه أمراً بالتوقف. سقط الملاح الوحيد ممدداً على الأرض، وكان لا يزال الطريق أمامه طويلاً ليصل إلى الماء. والنساء كما نعرف لم يكن سوى تماثيل من الحديد.



- ١٧ -

كانت تلك الأيام أيضاً أيام الهجرة الثالثة.

الأولى، كانت بعد أن تم إعلان النبأ، فكانت هجرة السواح الأجانب، الذين هربوا، رغم أنه في ذلك الوقت، لم يكن هناك سوى خطر صدع في جبال البرانس حتى مستوى البحر، من المؤسف أن الحدث لم يقف عند هذا الحد، فنتخيل ما كان يمكن من مجد أوروبا، امتلاكها بكل فخر، ممرأ جيولوجياً يفوق في العظمة ممر كولورادو. والهجرة الثانية كانت هجرة الأثرياء والمسؤولين، عندما تبين أن رآب الصدع أصبح مستحيلاً، وبداية إبحار شبه الجزيرة، وإن كان قد بدأ بشكل فاتر، كما لو كانت تبحث عن طريقها، وجاء ليؤكد، بشكل نعتقد أنه نهائي، مدى ضعف البنية والأفكار الثابتة. وكان وقتها يُنظر إليه كالبناء الاجتماعي، بكل تعقيداته، فتبين أنه ليس سوى قلعة من ورق، متماسك ظاهرياً، ولكن ما إن تهتز الطاولة

التي بُنى عليها حتى يسقط. والطاولة في هذه الحالة،
ولأول مرة في التاريخ، تحركت وحدّها. يا إلهي، يا
إلهي، لإنقاذ ممتلكاتنا الثمينة وحياتنا الغالية،
فلنهرب.

الهجرة الثالثة، هذه التي نتحدث عنها الآن قبل
أن نلخص الهجرتين الأوليين، وكان لها عنصرا تفسير،
أو جزآن، إذا أخذنا في الاعتبار الفوارق الأساسية
التي تفرق بينهما، في رأى البعض، كان يجب أن تُعتبر
الهجرتان الثالثة والرابعة. غداً، أى في المستقبل
البعيد، لأن المؤرخين سيركزون جهودهم لدراسة
الأحداث ليس بمعناها المجازي، ولكن بالمعنى الحرفي
أيضاً، هجرتان تغيران وجه العالم، وتقرران، وإن كنا
ننتظر أن يتم ذلك في حكمة واعتدال لمن يراقبون
أحداث الماضي بموضوعية، أن كان يمكن أم لا حدوث
الازدواج الذي يعرضونه اليوم. يقول هؤلاء إن هذا
سيكشف عن نقص الحس النقدي والإحساس بإبراز
انسحاب الملايين من الأراضي الساحلية إلى الأراضي
الداخلية، وهرب عدة آلاف من السياح الأجانب. فقط
بسبب أنه بين كل هجرة وأخرى هناك زمن متساوٍ لا
يمكن إنكاره. لا نهدف من موقفنا هذا في النقاش إلى
إصدار حكم مسبق، لأنه ليس من الصعب معرفة،
سبب خوف البعض أو تشابه البعض الآخر، ليست
هناك مساواة في الوسائل والإمكانات لاتخاذ
الإجراءات لمعالجته.

كان الأمر في الحالة الأولى متعلقاً بعامّة الناس الذين لا يملكون سوى القليل، عندما وجدوا أنفسهم مجبرين تحت ضغط السلطات وعنف الأحداث للانتقال إلى أماكن أخرى، انتظروا، ليس أكثر من إنقاذ حياتهم بالطرق التقليدية، والمعجزات، والحظ، والصدفة، والقدر، وحسن الطالع، والصلاة، والإيمان بالروح القدس، فإن لم يكن هناك حجاب يمكن أن يكون هناك قرن جعران معلق في الرقبة، أو ميدالية مباركة، والأشياء الأخرى التي لا تحتاج إلى حيز كبير، وإن كان يمكن تلخيصه في ذلك الشكل الآخر، الشهير كما لو كان هو نفسه، "لم تحن ساعتى بعد". في الحالة الثانية، فإن الهاربين كانوا أناساً يملكون الوسائل المتوسطة أو العالية، ويمكنهم استخدامها سريعاً، بقوا إلى أن يتبينوا إلى أي حد يمكن أن يصل الحدث، لكن عندما لم يعد هناك شك، ملأوا طائرات الجسر الجوي الجديد، وحملوا أقصى ما يستطيعون من أريطة وصناديق وأشياء أخرى أقل حجماً، عن فصول ما حدث، لم يكن هناك أي حس أخلاقي، ولا حتى غلالة من حياء، فالرشوة والدس والخيانات وحتى ارتكاب الجرائم، هناك من قتلوا فقط للحصول على تذكرة سفر، لقد كان ذلك مشهداً شائناً، لكن، بما أن العالم هو على هذه الشاكلة، سنكون أغبياء لو كنا ننتظر منه شيئاً آخر. وأخيراً، فإنه بعد النظر في كل شيء وفحصه، فإن الأكثر احتمالاً أن كتب التاريخ سوف تسجل أربع هجرات وليس ثلاثاً، ليس بسبب

المغالاة فى التصنيف، ولكن حتى لا يتم خلط الباطل بالباطل.

غير أننا نؤكد فى تحليلنا النهائى الذى عرضناه، أنه يمكن أن يعكس، وإن كان بشكل لا إرادى، ميلاً عقلياً نحو التجميل، أى، الميل نحو رؤية مثالية للطبقات الأدنى، والإدانة المفرطة للطبقات العليا، تحت شعارات برفقة، ليست مناسبة دائماً، كالأثرياء وأصحاب السلطة، وهو ما يدفع بالطبع إلى الكراهية والرفض، وفى الوقت نفسه فإنها رؤية تعكس شعوراً بائساً يتمثل فى الحسد، الذى يعتبر مصدراً لكل الشرور. لا شك أن هناك فقراء، وهو أمر صعب نفيه، ولكن لا يجب منحهم أكثر مما يستحقون من اهتمام، خاصة عندما يكونون، ولم يكونوا، فى هذه الحالة الجانبية التى جعلت من المناسب وجودهم، ولم يكونوا، نموذجاً للصبر، والانضباط الحر المقبول. لأنه بعيداً عن تلك الأحداث والأماكن يمكن تخيل الهاربين الأيبيريين، متراكمين فى بيوت، وملاجئ ومستشفيات، ومخيمات، ومخازن، فى المحال العامة والأكوخ التى أمكن إقامتها، وأكثر من تم التخلي عنهم وتسليحهم من الجيش، وأولئك الآخرين، الأكثر عدداً، الذين لم يجدوا مسكناً فسكنوا تحت الجسور، فى حماية الأشجار، وفى السيارات المهجورة، إن لم يكن فى العراء، من تصور أن الله جاء ليعيش مع هذه الملائكة، سيعرف الكثير عن الملائكة والله، ولكن عن البشر لا يعرف ولا حتى الحرف الأول.

يمكن القول، دون أية مبالغة، إن الجحيم، في الأزمنة الأسطورية كانت موزعة على كامل شبه الجزيرة، كما ذكرنا في بداية هذه الرواية، ولكنها مركزة الآن في رقعة رأسية تقريباً عرضها حوالى ثلاثين كيلومتراً، من شمال جيليقيا وحتى إقليم الغربى بالبرتغال، مع الأخذ في الاعتبار الأراضى الغربية الخالية التى يعتقد قليلون فى إمكانية اصطدامها. مثلاً، لو أن الحكومة الإسبانية لم تؤكد على الخروج من مدريد، التى تعتبر داخلية مرفهة، وهو ما كانت الحكومة البرتغالية تريد العثور عليه فى ألفيس، وهى المدينة الأبعد عن الشاطئ، فى خط مستقيم، أفقى تقريباً ومتوسطى، بداية من لشبونة. بين المهجرين، من هم سيئو التغذية، قليلو النوم، وشيوخهم يموتون، والأطفال ما بين البكاء والصراخ، والرجال بلا عمل والنساء تحملن على ظهورهن العائلة كلها، الكلمات السيئة، والفوضى والعراك، والسرققات، والنهب، أيضاً، من كان يمكنه أن يتخيل أن هذا سيمتد هذا إلى العادات المتحررة التى حولت هذه المخيمات إلى بغاء جماعى، إنه مخجل، ومثال سيئ للأبناء الكبار من يعرفون جيداً من هم آباؤهم ومن هن أمهاتهم، لا يعرفون الآن ماذا يفعل الأبناء ولا أين ولا مع من؟. بالطبع أهمية هذا الجانب من القضية يعتبر أقل من الناحية السطحية، لو أننا أخذنا فى الاعتبار قلة الاهتمام التى يعيرها مؤرخو اليوم عن الأزمنة السابقة، لسبب أو آخر، ولها نقاط تلاقٍ مع ما يحدث

الآن، بشكل خاص، في الممارسة الحرة للجنس، في أوقات الأزمات، وهو الأكثر إلحاحاً ونفعاً لمصالح البشرية والإنسان، كلاهما مرفوض بالطبع أخلاقياً، لكننا، نشير إليها من باب إرضاء المراقب المحايد.

مع ذلك فإنه في كل هذه الفوضى والارتباك توجد واحة سلام، هذه الكائنات السبعة التي تعيش في تناغم تام، امرأتان وثلاثة رجال، وكلب وحصان، وإن كان هذا عليه أن يسكت بعض الأسباب المثيرة للشكوى، خاصة فيما يتعلق بتوزيع العمل، أن يظل هو وحده يجر العربة المحملة، ولكن لهذا علاج سيأتي في يوم من الأيام القادمة. المرأتان والرجلان يشكلان زوجين، من تلك الأزواج السعيدة، فقط الرجل الثالث الذي لا يجد رفيقة له، لكن ألا يؤثر هذا فيه؟ لو نظرنا إلى عمره، فعلى الأقل لم يلحظ عليه حتى الآن أية علامات من العصبية تشي بإفرازاته الغددية. فيما يتعلق بالكلب، ففي اللحظات التي يرغب فيها في الطعام فإنه يبحث عن أشياء أخرى ترضيه ويجدها، وهو أمر لا نعرفه، فالكلب، في هذا المجال من أكثر الكائنات استعراضاً بين الحيوانات، وإن كان الحذر يوجد لدى بعض بنى جلدته، ونرجو ألا يفكر أحد في السير خلف هذا الكلب، هناك حالات من التطفل لا يجب أن تحدث. ربما كانت هذه الاعتبارات عن العلاقة والمعاملة تتعلق بالجنس، يظهرها الزوجان ربما بسبب العاطفة المشبوبة أو لحدثة الارتباط، وإن كانا لا يظهران أنهما في حالة من النشوة، وهو شيء،

من الأفضل قوله من الآن حتى لا يفكر أحد في شيء سيئ، فهو لا يعنى أنهما يجب أن يمارسا القبل والغناق في كل مكان، هم جادون حتى هذه اللحظة، ولكن ما لا يستطيعون كتمان الهالة التي تحيط بهما أو تشع منهما، فقط رأها بدرو أورثي قبل أيام من التلال وهي تشع. هنا، على أطراف الغابة حيث سيعيشون من الآن، بعيدون جداً عن القرى القريبة منهم حتى يمكنهم تخيلهم وحدهم، لكنهم قريبون إلى حد ما فيما يتعلق بالتموين الغذائي حتى لا تكون هناك مشكلة معقدة، لا يزال أمامهم أيام عدة. ولكنهم يستغلون الفرصة كما يقول الشاعر، كارب ديم، لأن أهمية هذه الإشارات القديمة من اللاتينية التي تحتوى عالمًا من المعاني الثنائية والثلاثية، هذا دون تعداد ما يكون تحتها أو غير واضح منها، التي يعثر عليها الواحد منا عندما يبدأ في ترجمة كلمة، الاستمتاع بالحياة، مثلاً، فإن الترجمة تبدو غير جميلة، ضبابية، ولا تستحق حتى مجرد المحاولة. لهذا فإننا نؤكد على قول كارب ديم، ونشعر كالألهة حتى نتمكن من الوصول إلى المعنى الحقيقي للتعبير، وهو استغلال الزمن.

أي زمن لا يزال باقياً، هذا شيء لا يعرفه أحد، محطات الإذاعة والتلفزيون تعمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، ولم تعد هناك نشرات أخبار كل ساعة، لأنهم يقطعون البرامج بشكل متكرر ليقرأوا آخر الأخبار، والأنباء تتوالى، نحن على مسافة ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً، نحن على مسافة ثلاثمائة

وسبعة وعشرين، يمكننا أن نعلن أن جزر سانتا ماريا
وسان ميجيل تم إخلاؤهما تماماً، تهجير باقى الجزر.
يتواصل بوتيرة سريعة، نحن الآن على مسافة ثلاثمائة
وثلاثة وعشر كيلومتر، لم يبق فى قاعدة لآخى سوى
عدد قليل من العلماء الأمريكىين وسينسحبون فقط،
ليواصلوا مراقبة الاصطدام من الجو، نقول فقط
الاصطدام، دون وصف محدد، ولم يتم الرد على طلب
الحكومة البرتغالية ليسمحوا لعالم برتغالى بالانضمام
إلى مجموعة العلماء المشار إليهم من قبل، كمراقب، لا
يزال هناك ثلاثمائة وأربعة كيلومترات، المسئولون عن
البرامج الثقافية والترفيهية بالتليفزيون والإذاعة
يناقشون ما يجب بثه، من الموسيقى الكلاسيكية، كما
يقول بعضهم، للتواؤم مع خطورة الحدث، فيما يرى
آخرون، أنه من الأفضل بث موسيقى خفيفة، أو أغاني
فرنسية من سنوات الثلاثينيات، أو أغاني شعبية
برتغالية، وإسبانية وأشياء أخرى من الدفوف،
والأشبيليات، وكثير من أغاني الروك، والموسيقى
الفولكلورية، والأغاني الفائزة فى مسابقات الأغاني
الأوروبية، فيرد الكلاسيكيون، لكن تلك الموسيقى
السعيدة ستفاجئ وتصدم من يعيشون الآن لحظاتهم
الأخيرة، ويعلق المحدثون، يصبح من الأسوأ أن نعزف
لهم موسيقى جنائزية، باقى مائتان وخمسة وثمانون
كيلومتراً.

تم استخدام مذياع جواكيم زازا بحرص، هناك
بطاريات احتياطية، لكن من الأفضل توفيرها، لا أحد

يعرف ما الذى يخبئه لنا الغد، إنها جملة شعبية، من تلك التى تُقال كثيراً، وهنا نراهم على ما سيكونون فى ذلك اليوم، الموت والتدمير، وملايين الجثث، وغرق نصف شبه الجزيرة. ولكن الدقائق التى لا يعمل فيها المذيع لا تحتل، فقد أصبح الزمن شيئاً محسوساً، لزجاً، يخنق الحلق، وأصبح محسوساً أن الاصطدام قريب رغم أنه لا يزال بعيداً، ليس هناك من يحتل توتراً مثل هذا، يدبر جواكيم زازا المذيع، يغنى صوت جميل عاشق للحياة، "من المؤكد أنه بيت برتغالى، بيت برتغالى من المؤكد"، "إلى أين تذهبان بشال مانيلا، أين تذهبان بالقرنفلة الحمراء"، باللذة نفسها، والحياة نفسها، لكن فى لغة أخرى، عندها يتنفسون جميعاً بارتياح، لأنهم أقرب إلى الموت بعشرين كيلومتراً، ولكن هذا لا يهم، فالموت لم يعلن بعد، وجزر الأزور لا تزال بعيدة عن البصر، "غنى يا فتاة، غنى".

كانوا يجلسون فى ظل شجرة، انتهوا من الطعام قبل قليل، يشبهون الرُّحل فى عاداتهم وملابسهم، يا له من تحول فى فترة زمنية قليلة، إنه نتيجة النقص فى وسائل الرفاهية، الملابس قنرة ومكرمشة، والرجال لم يحلقوا ذقونهم منذ أيام، ليس هناك مجال لتوبيخهم، فشفاه المراتين لم يعد فيها سوى اللون الطبيعى، الباهت نتيجة الهم، ربما تضعان مسحوق التجميل عند اللحظة الأخيرة لاستقبال الموت بشكل لائق، إلا أن هذه الحياة التى توشك على نهايتها لا تستحق أى اهتمام. استندت ماريا جوافايرا على كتف

جواكيم زازا، وأخذت يده، وانحدرت من بين رموشها دمعتان، لم يكن خوفاً مما سيحدث، لكنه الحب الذي صعد إلى عينيها. جذب جوزيه أنايسو جوانا كاردا بين ذراعيه، وقبل جبهتها وجفونها التي ترتخي، كما لو كانت هذه اللحظة تتبعني أينما كنت، إنا لا أطلب المزيد، فقط تلك اللحظة، ليست هذه اللحظة بالذات والآن، إنما الأخرى التي سبقتها، والسابقة على سابقتها، التي بالكاد يمكن تمييزها من هنا. لم أحتفظ بها عندما كنت أعيشها، والآن فات وقتها. نهض بدرو أورثي وابتعد، يلمع شعره الأبيض في الشمس، يحمل هالة من النور البارد، ويتبعه الكلب، منكساً رأسه، لن يذهب بعيداً، يقضون معاً أطول وقت ممكن، لا يريد أى منهما أن يكون وحيداً عند وقوع الكارثة. رغم الإرهاق الكبير من السير الطويل، يشعر الحصان بالسعادة، فهو كما يؤكد العلماء، الحيوان الوحيد الذي يجهل أنه سيموت. يمضغ الشوفان، ويهز جسده ليتخلص من الذباب، ويضرب كفله الأبلق بشعر ذيله الطويل، يجهل على الأرجح إن كان ينهى وجوده في الدنيا منتفخ الرئة في إسطنبول منهار وشبه مظلم، بين خيوط العنكبوت والروث، مؤكداً أن مأساة البعض قد تكون مصدر سعادة للآخرين، ولو كان لبعض الوقت.

مر نهار، وجاء آخر ومر أيضاً، تبقى مائة وخمسون كيلومتراً. يتزايد الإحساس بالخوف مثل ظل أسود، والرعب فيضان يبحث عن نقاط ضعف في

السد، ينخر أساساته العميقة وينتهى بتدميرها، وأخيراً انفجر، الذين ظلوا هادئين حتى الآن تقريباً في الأماكن التي استقروا فيها انتقلوا باتجاه الشرق؛ لأنهم أدركوا أنهم قريبون جداً من الساحل، على مسافة سبعين أو ثمانين كيلومتراً، فبدأوا في الانتقال؛ لأنهم تخيلوا أن الجزر ستشق الأرض حتى ذلك المكان، ويكتسح البحر كل شيء. القمة أشبه بالشبح، من يعرف، ربما ينشط البركان نتيجة الاصطدام، لكن ليس على جزيرة بيكو أى بركان"، لم يجد هذا التفسير اهتماماً ولا أى تفسير آخر، بالطبع، وسرعان ما أصبحت الطرق مليئة، كل تقاطع مثل عقدة صعبة التفكير، وبعدها أصبح مستحيلاً التقدم ولا حتى التراجع، كانوا أشبه بالفئران، كثيرون من تخلو عن ممتلكاتهم البائسة التي يحملونها في محاولة لإنقاذ حياتهم في الحقول. لدعم هذه الموجة وتقديم القدوة الحسنة، تركت الحكومة البرتغالية أمان ألفيس لتذهب للإقامة في إيضورا، وانتقلت حكومة إسبانيا لتقيم في ليون بشكل مريح تماماً، وبدأنا من هناك في بث بيانات بتوقيع من رئيس الجمهورية هنا وملك المملكة هناك، كل من جانبه، لأننا نسينا، للأسف، أن نقول إن الرئيس والملك تقاسما عذابات حكومتيهما في كل مراحل الحدث، وما لم نكن قد صححنا هذا السهو، كان لزاماً علينا أن نفعل ذلك الآن، لأن كلاً منهما عرض أن يذهب للقاء الجماهير التي فقدت صوابها بأذرع مفتوحة، وأن يقدم حياتهما فداءً،

نتيجة لحركات العنف أو الحوادث، ويقول كل منهما مرة أخرى، "أيها الأصدقاء، أيها المواطنون، إلخ، إلخ، لا يا جلالة الملك، لا يا سيادة الرئيس، الجماهير لن تفهم وهي في حالة رعب، إضافة إلى الجهل، لا بد أن يكون الإنسان متحضرًا ومثقفًا جداً كي يتوقف عند رؤية ملك أو رئيس فاتحاً ذراعيه في منتصف الطريق، ليعرف ما يريد، لكن هناك آخرين، يستديرون ليصرخوا في غضب: الموت أفضل من الحياة بهذه الطريقة، لننه الأمر"، وظل هؤلاء ينتظرون وهم ينظرون إلى الجبال الساكنة في الأفق، ودرجات لون الفجر الوردية، والزرقة العميقة لسماء مساء حار، والليل الموشى بالنجوم، ربما تكون هذه آخر ليلة، لكن عندما تحين الساعة لن أدير عيني عنها.

حينئذ، وقع الحدث، على بعد حوالي خمسة وسبعين كيلومتراً من الجانب الشرقي لجزيرة سانتا ماريا، دون أن يكون هناك ما ينذر بوقوعه، ودون أدنى إحساس بأية هزة، بدأت شبه الجزيرة في الإبحار نحو الشمال، وخلال دقائق قليلة، وبينما كان المراقبون في كل المؤسسات الجغرافية في أوروبا والولايات المتحدة يحللون، غير مصدقين، البيانات التي تم استقبالها عبر الأقمار الصناعية، ويترددون في الإعلان عنها، أفلت من الموت الملايين من الأشخاص المرعوبين في كل من إسبانيا والبرتغال، دون أن يعرفوا، أنه أثناء تلك الدقائق المأساوية، هناك من خاض مشاحنات على أمل الموت فيها، فيما انتحر

آخرون؛ لأنهم لم يحتملوا الإحساس بالخوف. كان البعض يطلب العفو والمغفرة لخطاياهم، في حين فكر آخرون أنه لم يعد هناك وقت للتوبة، فكانوا يسألون الله والشيطان عن آثام جديدة يمكنهم ارتكابها. ووضعت بعض النساء متمنين أن يُولد أطفالهن موتى، وعلمت أخريات أنهن حوامل في أطفال لن يولدوا أبداً، وعندما دوت الصرخة الشاملة في العالم كله، "لقد نجوا، لقد نجوا"، رفض البعض تصديق ذلك واستمروا في البكاء حزناً على نهايتهم القريبة، لكن سرعان ما تأكد أنه ليس هناك شك مما حدث، وأقسمت الحكومات على هذا بكل الطرق، وقدم العلماء تفسيرات، وكان يُحكى أن النجاة نتجت عن تيار بحرى قوى تم إحداثة اصطناعياً، فثار جدل واسع حول من كان وراء هذا، الأمريكيون أم السوفييت.

انتشرت الفرحة كالبارود وملأت شبه الجزيرة بالضحكات والرقصات، خاصة في الشريط العريض الذى تجمع فيه الملايين من المهجرين، وكانت السلطات المسئولة قد قالت، "إنه لحسن الحظ أن الحدث وقع فى وضع النهار، وقت تناول الغداء بالنسبة لمن كانوا يأكلون، وإلا لعم اضطراب وفوضى مرعبان"، لكن سرعان ما شعرت هذه السلطات بالندم على التسرع فى التعليق لأنه ما إن تم التيقن من صحة الخبر، حتى بدأ الآلاف والآلاف من المهجرين طريق العودة إلى بيوتهم، وتعين أن يتم التصحيح بشكل مؤلم، هناك إمكانية أن تعود شبه الجزيرة مرة أخرى إلى مسارها

الأصلى، وإن كان باتجاه الشمال قليلاً، لكن لم يصدق أحد ذلك، خاصة وأن قلقاً جديداً تسلل إلى أرواح الناس، حيث كانوا يرون فى مخيلتهم مدنهم وقراهم المهجورة، والمدينة، والقرية أو النجع الذى عاشوا فيه، والشارع الذى كانوا يسكنونه، والبيت، البيت المنهوب من أشخاص وطفدوا العزم، ولا يصدقون الحكايات أو فرضية الخطر الطبيعى لمن، هم بحكم المهنة، اعتادوا على اللعبة الخطرة كل ليلة، ولم تكن تلك مجرد خيالات مريض، لأن كل اللصوص والنشالين وكل الدنيئين القدامى والمحدثين يتسكعون ويحومون حول المناطق المهجورة، متخذين كل احتياطاتهم، وكل الأهداف الشريرة فى رعوسهم، والذين انتشرت بينهم بشكل جماعى قانون موحد، "من يصل أولاً له حق الاختيار، وليبحث التالى عن بيت آخر، ولا مجال للخلاف لأن هناك ببوتاً تكفى الجميع". ومن الأفضل ألا يستسلم أحد للإغراء، كما نقول نحن، سرقة بيت ماريا جوافايرا، لأنه من الأفضل له ألا يغامر بسرقة، لأن الرجل الموجود فيه يملك بندقية صيد ولن يفتح الباب إلا لصاحبة البيت ليقول لها، "لقد حرس ممتلكاتك، والآن عليك أن تتزوجينى". إلا إذا كان قد غلبه السهر والتعب، فنام على كومة الصوف الأزرق منهكاً ومتعباً من سهر الليالى، وبذلك يكون قد أضاع حياته كرجل.

دفع الحذر سكان جزر الأزور إلى عدم العودة إلى بيوتهم مباشرة، ولو كنا مكانهم لفعلنا الشيء نفسه،

حقيقة، إن الخطر المباشر قد تلاشى، لكنه لا يزال موجوداً في جميع الأنحاء، يدور، وكأنه صورة جديدة لحكاية مرجل الطين ومرجل الحديد، مع فارق أساسي أنه أمكن بالفخار صنع أوانٍ صغيرة من الجزر، ولكن لم تتوافر كمية كبيرة تكفى لصنع قدرٍ كبيرٍ لقارة، وهذه، لو أمكن أن تكون، فإنها ستغرق، ويسمونها أتلانتا، ونكون مجانين لو لم نتعلم من التجربة، سواء بالخبرة أو بالذكرى التى تركتها، حتى لو كانتا غير صحيحتين لا هذه ولا تلك، لكن ما أبقي على الأفراد الخمسة تحت الشجرة لم يكن سوى الإحساس بالحيطّة أو الحذر، فى اللحظة التى بدأ فيها الجميع السير باتجاه الشواطئ البرتغالية وجيليقيا، كنوع من العودة المنتصرة، يحملون أفرع الأشجار، والزهور، وتعزف الفرق الموسيقية والفنائية ويطلقون الألعاب النارية، وتدق الأجراس عند مرورهم، تعود العائلات إلى بيوتها، قد ينقصها أشياء لكن الحياة عادت معهم، وذلك هو الأهم، الحياة، المائدة التى نأكل عليها، والسرير الذى ننام فيه، والذى سيشهد هذه الليلة، الابتهاج الخالص، ونمارس عليه أكثر ممارسات الحب سعادة فى العالم. تحت الشجرة، تنتظر العربية والحصان الذى استعاد قواه، كان الأشخاص الخمسة الذين بقوا فى المؤخرة، ينظرون إلى الكلب، وكأنهم ينتظرون منه النصيحة أو الأمر، "أنت يا من جئت من مكان لا نعرف أين؟"، "أنت يا من ظهرت لى يوماً ما، جئت من بعيد، مرهقاً حتى إنك لم

تبد أية مقاومة"، "أنت يا من مررت عندما كنت أشير .
 لهؤلاء الرجال إلى المكان الذى رسمت فيه على الأرض
 خطأً بعضاً ونظرت إلينا"، أنت يا من كنت تنتظرنا إلى
 جوار ذات الحصانين التى تركناها تحت السقيفة"،
 "وأنت يا من كنت تحمل فى فمك خيط الصوف
 الأزرق، وكنت مرشدنا فى كل الطرق والدروب"، "أنت
 يا من ذهبت معى إلى البحر فعثرت على السفينة
 الحجرية"، "قل لنا إلى أين علينا أن نذهب، أوضح لنا،
 بحركة أو إيماءة أو علامة، إذا لم تكن تعرف النباح،
 لأنه لا أحد منا يريد العودة إلى البيت فى الوادى،
 لأنها ستكون بداية العودة النهائية لنا جميعاً"، "لأن
 الرجل الذى يريد أن يتزوجنى سيقول لى، "سيدتى
 تزوجينى"، وسيقول لى رئيس المكتب الذى أعمل فيه،
 "أحتاج إلى هذه الفاتورة"، وزوجى سيقول لى، "أخيراً
 عدت"، وسيقول لى والد أسوأ تلميذ، "سيدى المعلم،
 اضربه قليلاً"، وستقول لى زوجة كاتب المحكمة التى
 تشكو من الصداع، "أعطني أقراصاً للصداع النصفى"،
 "قل لنا أنت الآن إلى أين يجب أن نذهب، انهض
 وتقدم، وسيكون هذا مصيرنا".

الكلب الذى كان مقعياً تحت العربة، رفع رأسه،
 وكأنه سمع أصواتاً، قفز فجأة، وركض نحو بدرو
 أورثى، الذى احتضن رأسه بين يديه، "أصبحك معى،
 لو أردت ذلك؟"، فقط كانت الكلمات التى نطقها
 الرجل، ماريما جوافايرا، صاحبة الحصان والعربة لم
 تقرر شيئاً، لكن جوانا كاردا نظرت إلى جوزيه أنايسو

الذى فهم نظرتها، "قررنا ما تشاءون، فأنا لن أعود"، حينئذ قالت ماريا جوافايرا بصوت مرتفع وواضح، "لا يزال هناك وقت للإقامة ووقت للرحيل، وقت العودة لم يحن بعد"، وسأل جواكيم زازا، "الرحيل إلى أين؟"، اقترح بدرو أورثي، "إلى أى مكان بلا وجهة معينة، لنذهب إلى الجانب الآخر من شبه الجزيرة، فأنا لم أشاهد جبال البرانس أبداً"، رد عليه جوزيه أناسو، "ولن تشاهدا هذه المرة لأن نصفها ظل فى أوروبا"، "لا يهم فالعملاق يمكن معرفته من إصبعه"، واحتفلوا بالقرار، إلا أن ماريا جوافايرا قالت، "قادنا الحصان وحده إلى هنا، لكنه لا يستطيع إكمال الرحلة وحده، إنه عجوز والعربة مصنوعة ليجرها حصانان، وبحصان واحد فإنها تكون كتعاء"، سأل جواكيم زازا، "إذا يجب الحصول على حصان آخر، لن يكون من السهل العثور على خيول فى هذا المكان، إضافة إلى أننى أعتقد أن ثمن الحصان كثير، وبالطبع ليس لدينا المال الكافى".

بدت الصعوبة بلا حل، لكننا سنشاهد إثباتاً على مدى قدرة الذهن البشرى على التطويع، منذ أيام، رفضت ماريا جوافايرا فكرة النوم فى بيت مهجور، ولا يزال صدى هذا الدرس يرن فى آذان من يتذكرونه، وإذا بها الآن، بعد أن أصبح قانون الضرورة حاكماً، تعلن استعدادها لإدانة حياة كاملة من الطهارة الأخلاقية، شرط ألا ينتقد أحد تهاونها، "لن نشتره، ولكن سنسرقه"، تلك هى كلماتها، وجاء دور جوانا

كاردا لكى تصحح ما قيل بطريقة غير مباشرة حتى لا
 تصطدم بأحاسيس ماريّا جوافايرا، "أنا لم أسرق شيئاً
 فى حياتى أبداً"، عم صمت ثقيل، كان عليهم أن
 يمتادوا على القوانين الأخلاقية الجديدة، فقام بدرو
 أورثى بالخطوة الأولى، على خلاف العادة أن يكون
 الشيوخ المحنكين أكثر احتراماً للقانون القديم، فقال،
 "نحن لا نسرق أى شىء أبداً فى حياتنا، لكن نسرق
 دائماً فى حياة الآخرين"، وقد يحدث أن يمثل ذلك
 مبدأ أساسياً لأحد الفلاسفة الأغبياء، رغم أنه لم
 يكن هذا سوى إثبات مبسط لحقيقة واقعية، أخفى
 بدرو أورثى ابتسامته بخبث، لكن الكلمات قيلت،
 "حسن جداً، لقد تقرر الأمر، سنسرق حصاناً، لكن
 كيف يتم ذلك؟، هل نُجرى قرعة لمعرفة من الذى يقوم
 بالحيلة؟"، قالت ماريّا جوافايرا، "على أن أذهب أنا
 لأنكم لا تعرفون شيئاً عن الخيول، وستعجزون عن
 إحضار أى منها"، قال جواكيم زازا، "سأرافقك، لكن لو
 جاء الكلب معنا سيكون الوضع أفضل، يمكنه الدفاع
 عنا عند أى خطر".

فى تلك الليلة، خرج ثلاثتهم من المخيم وتوجهوا
 شرقاً، حيث توجد فرص أكبر للعثور على ما يبحثون
 عنه، لأن المنطقة ربما كانت هادئة نسبياً، وقبل
 مغادرتهم قال جواكيم زازا، "لا نعلم كم يستغرق ذلك،
 انتظرونا هنا"، رد جوزيه أنيسو، "لنفكر بشكل جيد،
 أليس من الأفضل أن تعودا بسيارة كبيرة تسعنا
 جميعاً، بما فى ذلك الأمتعة والكلب؟"، "لا توجد سيارة

من هذا النوع، المطلوب شاحنة، وأذكرك أنه لا توجد شاحنة واحدة فى حالة تسمح لها بالسير، ثم معنا الآن حصان لا يمكن تركه، "الواحد فداء للجميع، والجميع فداء للواحد"، هكذا قال قديماً الفرسان الثلاثة، الذين كانوا أربعة وهم حالياً خمسة، غير الكلب، "والحصان".

ذهبت ماريا جوافايرا وجواكيم زازا، فيما كان الحيوان يتقدمهم، متشمماً ومتفحماً الظلال، هناك شيء عيشى فى هذه الحملة، البحث عن حصان، أعلنت ماريا جوافايرا، "يمكن لبغل أن يؤدى المهمة أيضاً"، دون أن تعرف إن كان هناك حيوان من هذا النوع على مسافة خمسة فراسخ، لا شك أنه من الأسهل العثور على بقرة، لكن لا يمكن ربط البقرة والحصان معاً فى عربة، ولا حتى حمار، نظراً للحمولة فى هذه الحالة، سيكون الأمر هو جمع ضعيف إلى آخر، للحصول على قوة واحدة لا يحدث هذا ولا حتى فى الأمثال، والحلم كحكمة المهد المصنوع من أغصان الصفصاف التى سبق ذكرها، سارا وسارا، وكانا يتركان الطريق كلما لمحا أكواخاً وبيوتاً ريفية بين الحقول؛ لأن الخيول لا توجد سوى هناك، نحتاج إلى خيول جر، وليس حصان سباق أو حصان تنزه، بدأت الكلاب فى النباح، لكنها سرعان ما تهدأ، ولن يعرف أحد مواهب هذا الكلب، فما كان أكثر صخباً وهياجاً يخرس فجأة، ليس لأن هذا الحيوان المتوحش قادم من العالم الآخر قد قتله، لأنه فى هذه الحالة كان يمكننا

أن نسمع صراخاً وعراكاً وأناً مؤلمة، من الممكن أن يُقال إن الصمت صمت قبور لولا أن أحداً في الحقيقة لم يمت.

كان الفجر قد قارب على الانتهاء، ولم يكن ماريّا جوافيرا وجواكيم زازا يستطيعان تحريك أقدامهما من الإنهاك، قال هو "علينا أن نرتاح في مكان ما"، لكنها أصرت، "لنبحث، لنبحث"، وبحثا بكفاءة كبيرة حتى عثرا على ما يريدان، فقد عثرا عليه ولم يكتشفا، وتم ذلك بأبسط طريقة في الدنيا، كانت السماء صافية، وتحول الليل الأسود في الشرق إلى زرقة قاتمة، عندما سمعا، صهيلاً مكتوماً عند أدنى مستوى من المكان، إنها معجزة لطيفة، إنه هناك، اتجها نحو المكان فوجدا حصاناً أبلق، لم يكن الله هو الذي وضعه هناك لزيادة قائمة المعجزات، لكن صاحب الحيوان الشرعي الذي قال للبيطار، "ضع له هذا الدهان على جرحه وأتركه ينام في العراء، افعل هذا ثلاث ليالٍ متتالية، وإذا لم يشف الحصان أعيد لك نقودك وأخسر اللقب الذي أحمله"، لا بد من العثور على سكين بسرعة لقطع الحبل، لأنه لا يمكن نقل حصان مقيد، إلا أن ماريّا جوافيرا تعرف كيف تتكلم مع الحيوانات، رغم عصبية الحيوان الذي لم يتعرف على من تقوده، فإنها نجحت في أن توجهه نحو ظلال الأشجار، وهناك، معرضة نفسها لخطر أن يدوسها أو تحصل ضربة حافر قوية، نجحت في فك عقدة الحبل الخشن، تُربط العقدة عامة في مثل هذا

الموقف حتى يكون فكها سهلاً، لكن قد يجهل الناس في هذه المنطقة هذا العلم، ولحسن الحظ، فهم الحصان أنه يُراد إطلاقه، والحصول على الحرية أمر طيب في جميع الأحوال حتى لو كانت إلى المجهول.

عادة عبر طرق جانبية، واضعين ثقتهم أكثر من أى وقت مضى موهبة الكلب ليحذرهما عند أى اقتراب مشبوه، وتخليصهما من أية ورطة عند ظهور جيران غير مرغوب فيهم، وعندما طلع النهار تماماً، كانا قد ابتعدا عن المكان بشكل كافٍ، وبدءا يلتقيان بأناس في الحقول وعلى الطرق، لكن لم يكن هناك من يعرف الحصان، وحتى لو رأوه ما كان لهم أن يتعرفوا عليه، بسبب التشوش ولبراءة المشهد، الذى يبدو كما لو كان ينتمى إلى القرون الوسطى، مكون من أنسة تجلس على أحد جانبي الحصان، وفارس راجل يمسك بلجام الحيوان، فلم ينسيا أخذه معهم، وكتب الحراسة يكمل الرؤية الفاتنة التى تبدو كحلم فى عيني البعض فى حين كان البعض الآخر يرى ذلك علامة على تغيير فى طريقة الحياة، ويجهل كلا الفريقين أنهما لصان شريران من لصوص الخيول، وإذا كانت المظاهر خادعة حقاً، فإننا نجهل فى كثير من الأحيان أنها تخدع مرتين، وهو ما يشكل سبباً جيداً للثقة فى انطباعاتنا الأولية، وعدم تقصى ما هو أبعد من ذلك. لهذا السبب قد يقول بعض الناس اليوم، "رأيت أماديس وأوريان هذا الصباح، كانت تركب حصاناً وهو راجل، ويرافقهما كلب"، مؤكداً أنهما لم

يكونا أماديس وأوريان ولم يرهما أحد أبداً ومعهما
كلب"، "شاهدتهما وهذا يكفى، إنها شهادة تساوى
مائة"، "لكن لم يكن هناك ذكر لأى كلب أبداً فى حياة
وغراميات ومغامرات الاثنين"، "إذا يجب إعادة صياغة
قصة حياتهما، مرات ومرات قدر ما يكون ذلك
ضرورياً لإدخال كل شيء فيها"، "كل شيء"، "بقدر ما
أمكن".

وصلا المخيم مع حلول المساء، وجرى
استقبالهما بالعناق والضحكات. ألقى الحصان الأبلق
نظرة جانبية على الأشقر الذى كان يتنفس بجهد، "به
جرح فى الكفل، جاف تقريبا، وضعوا عليه دهاناً دون
شك وتركوه فى العراء لثلاث ليالٍ ابتداء من الجمعة،
إنه علاج ناجع".



بينما كان الناس يعودون إلى بيوتهم وتستعيد الحياة وتيرتها شيئاً فشيئاً، أو كما يقولون، تعود إلى مجراها الطبيعي، كانت الحوارات غير المجدية بين العلماء تذروها الرياح حول أسباب تحول مسيرة شبه الجزيرة في آخر لحظة، في الوقت الذي لم يكن هناك من يمنع وقوع الكارثة. الأطروحات عديدة، وكلها متعارضة تقريباً فيما بينها، وهو ما يدفع بشكل أوتوماتيكي إلى عدم الثقة في الخبراء.

أولى تلك الأطروحات تؤكد على أن الصدفة المطلقة كانت وراء التوجه الجديد، لأنه يشكل زاوية مستقيمة مع التوجه السابق، وسيكون من غير المقبول أى تفسير يعتمد على التوجه الإرادى، خاصة أنه لا يوجد من يدعمه، لأنه ليس فى إمكان أحد أن يحتمل كتلة ضخمة من الحجر والطين يتحرك عليها عشرات

الملايين من البشر، وأنه يمكن أن يحدث، لمجرد الرغبة أو بالتعدد المتقابل، من الذكاء والقوة القادرة على توجيهها بهذه الدقة، الذى يمكن وصفها، بأنها عمل شيطانى.

تدافع أطروحة أخرى عن أن تقدم شبه الجزيرة، أو بشكل أكثر دقة، خط سيرها، وسنعرف على الفور لم تم استخدام هذه الكلمة، سيتم فى كل مرة بزاوية مستقيمة جديدة، مما يسمح، طبقاً لواقع الحال، الإقرار بالاحتمال المدهش، بعودة شبه الجزيرة إلى نقطة انطلاقها، وذلك بعد سلسلة متوالية، أو بشكل أدق، مجموعة من الاندفاعات المتدرجة، يمكن أن تكون بداية من لحظة معينة أقل من مليمترية، إلى التطابق النهائى، والتام.

تفترض الأطروحة الثالثة وجود مجال مغناطيسى على شبه الجزيرة أو أية قوة أخرى مماثلة فى شبه الجزيرة، بحيث يكون رد فعله عند اقتراب أى جسم غريب، ضخماً بما فيه الكفاية، بحيث يحدث رد فعل تنافرى ذو طبيعة خاصة جداً، يدفع هذا، كما رأينا، بالعمل فى الاتجاه المعاكس للحركة الأصلية أو النهائية، لكنه على النقيض من ذلك، يحدث انزلاقاً باتجاه الشمال أو الجنوب، لكن هذه الفرضية تجاهلت تأمل هذا الجانب.

وأخيراً الأطروحة الرابعة، وأكثرها تطرفاً، وتعتمد على القوى التى يمكن تسميتها، ما وراء

نفسية، وتؤكد على أن شبه الجزيرة ابتعدت عن الاصطدام لوجود عنصر مكون من عشر ثمانية، من الرغبة في النجاة والفرار لدى السكان، وهذا التفسير، اكتسب شعبية كبيرة، وأصبح أكثر شعبية خاصة عندما عقد المدافع عنه مقارنة مع ما يجرى في مجال الفيزياء، في محاولة لتقريب العملية من الأذهان غير المثقفة للسكان، فأوضح كيفية سقوط تلك الأشعة الشمسية على عدسة محدبة الوجهين تدفع تلك الأشعة إلى التجمع في نقطة أو بؤرة واحدة، مما يحدث النتائج المعروفة من الحرارة والاحتراق واشتعال النار، وبالتالي فإن التأثير المكثف للعدسة له موازٍ واضح في قوة التفكير الجماعي، شمس عشوائية، تستطيع أن ترتفع في فترة الأزمة، إلى الذروة من القوة والقدرة إذا ما تم تركيزها، لكن هذا التفسير لم يُدهش أحداً، بل على العكس تماماً، فقد اقترح البعض مغالجة الحالات النفسية والذهنية والروحية وتلك الخاصة بالإرادة والخلق، من الآن فصاعداً، طبقاً لمفاهيم الفيزياء، حتى لو كان ذلك بطريقة القياس فقط، أو بالاستقراء الناقص، وتجرى حالياً دراسة تلك الأطروحة وتطويرها، ويهدف البعض إلى تطبيق مبادئها الأساسية على الحياة اليومية، خاصة في مجال عمل الأحزاب السياسية والمسابقات الرياضية، هذا مجرد ذكر أمثلة معروفة.

يقول بعض المتشككين إن الإثبات الحقيقي هو أن كل تلك الأطروحات ليست سوى فرضيات، ولا يمكن

أن تكون أكثر من ذلك، ويمكن التأكد من ذلك خلال أسابيع، إذا استمرت شبه الجزيرة في طريقها الحالى فإنها ستعبر فيما بين أيسلاند وجريونلاند، وتلك بلاد غير مرغوبة من البرتغاليين والإسبان المعتادين بشكل عام على الدفء والمناخ المعتدل المائل إلى الحرارة معظم فترات السنة. وإذا حدث هذا فإن النتيجة المنطقية الوحيدة التى يمكن استخلاصها من كل ما جرى حتى الآن هى: هذه الرحلة لا تستحق العناء. ومن ناحية أخرى، ما يكون، أو سيكون تبسيطاً مبالغى فيه فى عرض المسألة، فلا توجد رحلة مرغوبة فى حد ذاتها، وإن كان ظاهرياً، لأن كل رحلة تتضمن رحلات متعددة، إحداها يبدو أن لها القليل من المعنى الذى نتعجل الحكم عليه، "أنها لا تستحق العناء"، فالحس العام، الذى تخطينا عنه فى كثير من الأحيان لو قارنا الرحلات فإن النتيجة لن تكون ذات قيمة كبيرة، وأخيراً، مطلوب التأكد إن كانت تستحق العناء أم لا. كل هذه الاعتبارات مجتمعة تجعلنا نأخذ على عاتقنا التخلي عن إصدار الأحكام القطعية والتخمينات الأخرى تتطلب منا التخلي عن الأحكام المسبقة. تتوالى الرحلات وتتراكم كالأجيال، ما بين الحفيد الذى كنهته والجد الذى ستكونه، أى أب كان من المحتمل أن تكونه، ربما كنت أباً سيئاً، ولكنك ضرورى. قدر جوزيه أنيسو حساب الرحلة الذى ينتظرهم، عبر طرق ليست الأكثر مباشرة لو أرادوا تفادى المنحدرات الكبيرة وتلال كانتابريا، "المسافة من بالاس

دى رى، حيث نوجد الآن تقريباً، وحتى بلد الوليد، تبلغ حوالى الأربعمئة كيلومتر، ومن هناك وحتى الحدود، فى هذه الخريطة لا تزال هناك حدود، أربعمئة كيلومتر أخرى، المجموع ثمانى مائة كيلومتر، إنها رحلة طويلة بخطى حصان"، صححت ماريا جوافايرا، "حصان واحد، لا، لقد انتهى هذا، ولن يكون السير بطيئاً، بل عدواً"، حينئذ قال جواكيم زازا، "بحصانين لجر العرية"، ثم توقف عند هذا الحد من الجملة مع تعبير كمن يرى نوراً يشع فى جمجمته، وفهقه ضاحكاً، "يا للعجب، تركنا ذات الحصانين وها نحن نسافر بحصانين آخرين، اقترح تسمية العرية من الآن بذات الحصانين فعلاً وشرعاً، كما يقال باللاتينية، أنا لم أتعلم اللاتينية على أية حال، أعرف ذلك سماعياً فقط، كما قال أحد أجدادى الذى كان يجهل أيضاً لغة أجداده". كان الحصان يأكل الشوفان خلف العرية، وجرح الحصان الأشقر قد التأم تماماً، وإذا كان الحصان الأبلق لم يسترد حيويته فإنه استعاد قواه، وأصبح شكله أفضل كثيراً، يرفع رأسه أقل من الآخر لكنه لن يكون سيئ المظهر مع رفيقه"، بعدها أعاد جواكيم زازا سؤاله بعد الضحك العام، "كنت أقول إذن، بحصانين كم كيلومتر سنسير فى المتوسط فى الساعة؟"، أجابت ماريا جوافايرا، "حوالى ثلاثة فراسخ"، أى خمسة عشر كيلومتراً طبقاً للقياسات الحديثة"، بالضبط، عشر ساعات بمعدل خمسة عشر كيلومتراً فى الساعة يعنى مائة وخمسين

كيلومتراً، أى يمكننا أن نصل بلد الوليد فى أقل من ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أخرى سنكون فى البرانس، سيكون ذلك سريعاً"، أبدت ماريا جوافايرا علامة على عدم الرضا وأجابت، "البرنامج ليس سيئاً، بشكل حتى لا نقضى على الحيوان فى وقت قصير"، "لكنك قلت"، "قلت خمسة عشر كيلومتراً، لكن هذا على الأرض المنبسطة، وعلى أية حال فإن الحصانين لن يسيرا أبداً عشر ساعات يومياً"، "مع الراحة"، "لحسن الحظ أنك لم تنس الراحة"، مع رنة السخريه كان يبدو أن ماريا جوافايرا غاضبة تقريباً.

فى حالات مثل هذه، وإن لم تدخل أحصنة فى المسألة، فإن الرجال يتخذون أوضاعاً متواضعة، إنها حقيقة تجهلها النساء بشكل عام، وينتبهن فقط إلى ما يمكن أن يشتبهن فى أنه علامة على إظهار الذكورية، فيتخذن ردود أفعال غاضبة، ومن هنا يرتكبن الأخطاء الناتجة عن الخلط وسوء الفهم، ربما كان سبب كل هذا نقص فى الجهاز السمعى للكائنات البشرية، ولدى النساء بشكل خاص، وإن كن يبدن حساسية سمعية كبيرة، غمغم جواكيم زازا، "فى الحقيقة أنا لا أعرف شيئاً عن الخيول، فأنا من المشاة"، تدخل الآخرون فى المشادة الكلامية، ويضحكون لأن الحالة لا تستدعى كل هذه الجدية، فالخييط الأزرق أقوى رابط فى العالم، كما سنرى سريعاً. قالت ماريا جوافايرا، "ست ساعات فى اليوم على الأكثر، وإن لم نستطع فليكن ما يستطيعه الحصانان"، سأل جوزيه

أنيسو، "تبدأ الرحلة غداً"، أجابته ماريا جوافايرا، "لو كنا جميعاً متفقين على ذلك"، وبصوتها النسائي توجهت إلى جواكيم زازا، "هل ترى هذا مناسباً"، وهو الذى أصبح أعزل من كل سلاح بشكل فجائى، قال، "أعتقد أنه مناسب"، وضحك.

قاموا فى تلك الليلة بإجراء حساباتهم المالية، كم إسكودو وكم بيزيتة، وبعض العملات الأجنبية لجواكيم زازا، حصل عليها عندما خرجوا من بورتو، كان ذلك قبل أيام قليلة رغم أنه يبدو كمرور قرون، إنه تفكير لا جديد فيه، وإن كان فيه بعض الجديد، لكنه لا يقاوم، كأشياء عادية أخرى ومتعددة. المواد الغذائية التى جاءوا بها من بيت ماريا جوافايرا قاربت على الانتهاء، ويجب استكمال المثونة، وهذا لن يكون سهلاً، خلال كل هذه الفوضى فى التموين، وكل هذه الجموع الجائعة التى لا تترك فى طريقها ولا حتى أعقاب الكرب، دون الحديث عن حظائر الدجاج المنهوبة، نتيجة أيضاً للحاجة، لمن يطلب ثروة مقابل دجاجة بارزة العظام. عندما بدأت الأوضاع تعود إلى طبيعتها، هبطت الأسعار بعض الشيء، لكنها لم تعد إلى سابق عهدها، فالأمر معروف، فهى لا تعود أبداً إلى سابق عهدها. ولكن المشكلة أنه لا يوجد شيء الآن، وحتى السرقة تكتنفها الكثير من الصعوبات، هذا إذا ما قرؤوا الاستمرار فى هذا الطريق المعوج، مسألة الحصان كانت حالة خاصة، فلو لم يكن يعانى من جرحٍ لكان ينام الآن فى حظيرته ويساعد فى أعمال صاحبه

القديم، أما عن مصير الحيوان فلا يعرف صاحبه عنه سوى أنه قد سرقه لصان وكلب، وكانت هناك آثارهم. يقولون دائماً ليس هناك من سيئ ولا يأتى بالخير، منذ تلك اللحظة التى نهتم فيها بالتمييز بين الخير والشر والذين يقدر لهم هذا أو ذاك، أعلن بدرو أورثى، "لا بد من العمل للحصول على المال؟"، كانت فكرة منطقية، لكن بعد وضع قائمة بالمهن، تم التوصل إلى نتيجة كانت متوقعة مسبقاً، وهى، إذا كانت جوانا كاردا حاصلة على شهادة فى الآداب ولكنها لم تعمل فى التدريس من قبل؛ لأنها بقيت فى البيت منذ زواجها، إضافة إلى أن الاهتمام بالأدب البرتغالى فى إسبانيا محدود جداً، ولدى الإسبان انشغالات أخرى، مما يعنى أنه جزء من الكم المهمل من الموظفين فى المكاتب، وهذا يعنى أنه نشاط له قيمته، لا يشك أحد فى هذا، لكن فى فترات السلام الاجتماعى تتم معالجة الأمور العادية، بشكل مختلف. مارس بدرو أورثى تحضير الأدوية طوال حياته، وكان يعد جرعات الكينا لحظة أن تعارفا عليه، لكنه للأسف نسى أن يأخذ صيدليته معه، وإلا كان بإمكانه أن يقدم استشارات عامة، ويكسب مالاً لا بأس به؛ لأن هذه المناطق الريفية من يقول صيدلى فهو يعنى طبيباً. أما جوزيه أنابسو، فهو معلم أطفال، ومن يقول ذلك فقد قال كل شيء، دون الحديث عن حقيقة أنه يوجد الآن فى بلد يملك جغرافيا وتاريخاً مختلفين، إذ كيف يفسر لصغار الإسبان أن الخوباروتا كانت انتصاراً بينما اعتادوا نسيان أنها كانت هزيمة، لم يبق سوى

ماريا جوافايرا الوحيدة التى تستطيع الذهاب للبحث عن عمل فى هذه الحقول، والقيام فى حدود قواها ومعرفتها، وهى لا تشكل كل الأعمال الحقلية.

ينظر بعضهم إلى بعض، دون أن يعرفوا ما تخبئه لهم الحياة. قال جواكيم زازا، متردداً، "لو كان علينا أن نتوقف من وقت لآخر لكسب بعض المال فإننا لن نصل إلى البرانس أبداً، فالمال الذى نكسبه بهذه الطريقة لا يدوم كثيراً، ما إن يأتى حتى يختفى، الحل أن نفعل مثل الفجر، أريد أن أقول الرُّحل الذين ينتقلون من أرض إلى أخرى، يجب أن يعيشوا من عمل شئ، أليس كذلك؟"، هل كان سؤالاً أم شكاً، ربما كان المن والسلوى يسقطان على الفجر من السماء. مَنْ أجابه على تساؤله كان بدرو أورثى، لأنه من الجنوب، حيث يوجد من مثل هؤلاء الكثير، "هناك من يتاجرون فى الخيول، وآخرون يبيعون الملابس فى الأسواق، وهناك من يتاجرون من باب لباب، والنساء يقرأن الكف"، لا نريد المزيد من حكايات الخيول، لإثارة الخجل كان هذا كافياً، إضافة إلى هذا فهى مهنة لا نعرف عنها شيئاً، أما بالنسبة لقراءة الطالع، نرجو من الله ألا يكون طالعنا سيئاً ومليئاً بالمشاكل"، "عدا بيع الخيول نحن فى حاجة إلى البدء فى شرائها أولاً، والمال الذى معنا لا يكفى، إذا كان الحصان الذى معنا سرقناه". حل الصمت، كيف كان ذلك، لا أحد يعرف، وعندما كان كل شئ جاهزاً، قال جواكيم زازا، الذى بدا كروح كاشفة وعملية، "حاننا لا أجد له سوى مخرج واحد،

نشترى ملابس من أحد المحال التى تبيع الملابس القديمة، من المؤكد أنها موجودة فى أول المدن التى نمر بها، ونبيعها فيما بعد فى القرى، يمكننا أن نكسب شيئاً معقولاً، وأنا أتولى عملية الحسابات". بدت الفكرة طيبة، وفى وجود فكرة أفضل يمكن تكوين خبرة جيدة، خاصة أنهم لا يستطيعون القيام بأعمال الفلاحة أو الصيدلة أو التعليم، ولا القص، سيعملون باعة ملابس متجولين، يبيعون ملابس رجال ونساء وأطفال، وهو أمر غير مخجل على الإطلاق، وإدارة جيدة يمكنهم الاستمرار فى الحياة.

برسم خطة الحياة على هذا النحو، ذهبوا إلى النوم، ستكون هذه اللحظة المناسبة لنقول إنهم ينامون الخمسة فى العربة التى يطلقون عليها الآن ذات الحصانين، وبهذه الطريقة، فإن بدرو أورثى سيظل فى الأمام، ممدداً بالعرض، فى ممر ضيق يكاد يسعه وحده فقط، بعد ذلك جوانا كاردا وجوزيه أنايسو، بالطول، فى المساحة الجانبية الباقية إلى جوار الحاجيات التى يسافرون بها، ويحدث الأمر نفسه مع ماريّا جوافايرا وجواكيم زازا، فى الخلف. هناك قماش معلق يلعب دور التقسيم الرمزي، الاحترام بين الجميع كبير، لو أن جوانا كاردا وجوزيه أنايسو اللذين يحتلان منتصف العربة، أرادا الخروج إلى الهواء الطلق خلال الليل، يمكنهم المرور من جانب بدرو أورثى، لا مجال لديهما للشكوى، وعدم الراحة، هنا يجب التعامل بالطريقة نفسها التى يتعامل بها

الجميع، أما القبلات والعناق، وتفريغ الشحنات الجسدية، عندما يجرى ممارستها، عليهم أن يسألوا تلك الأرواح الفضولية في الطبيعة التي لها ميول شريرة. نقول هناك طريقتان لإشباع رغبات العشاق الخاضعين للاندفاعات الجميلة في الطبيعة، إما أن يذهب هؤلاء إلى الحقول بحثاً عن مكان منعزل وهادئ، أو ينتهزوا الابتعاد الوقتي للزملاء الآخرين، لعمل هذا ليس مطلوباً فيه استخدام الكلام، بل تكفى الإشارات المعبرة، فقط بالتلميح بها وسيفهمونها، هنا يمكن أن تغيب النقود ولكن التفاهم لا يمكن أن يغيب.

لم يبدؤوا الرحيل مع حلول الفجر كما تتطلب الشاعرية، لم يكن عليهم أن يبكروا إذا كان الوقت ملكهم، ولكن لم يكن هذا هو السبب ولا أقواها على الإطلاق، ما حدث أنهم تأخروا بسبب الإعداد الجسدي للرحلة، من اغتسال، وحلق الرجال لذقونهم، وتجميل أجساد النساء والملابس والتمشيط، في ركن قصي تحت الأشجار، حيث أخذن جرادل الماء من المجرى، اغتسلوا واحداً واحداً، الأزواج من غير المعروف إن كانوا قد اغتسلوا بالجسد عارياً بالكامل لأنه لم يكن هناك شاهد على ذلك. كان بدرو أورثي آخر من اغتسل، ورافقه الكلب، بدا شكلهما كالبلهاء، كان الواحد منهما يسخر من الآخر، يدفع الكلب بدرو وروثي، وبدرو أورثي يقذف الكلب بالماء، رجل في مثل سنه ما كان يجب عليه أن يقوم بهذا علناً، قال أحدهم، يجب عليه أن يحترم نفسه، فهو ليس

صغيراً، لم يبق من المخيم أى أثر، فقط الأرض المهروسة بالأقدام، وبقايا ماء الاستحمام تحت الأشجار، والرماد والأحجار المحترقة، ستمحو الرياح كل هذا، وأول الأمطار تسوى الأرض المحروثة، وتذيب الرماد، فقط الأحجار يمكنها أن تدل على أنه كان هنا بعض الناس، ولو تطلب الأمر فمن الممكن أن تفيد فى إشعال نار جديدة.

النهار أجمل لبداية الرحلة، من أعلى التل بدأوا سيرهم باتجاه الطريق، كانت ماريا جوافايرا تقود العربية لأنها لا تثق فى أحد للتحكم فيها، لأنه من المطلوب الحديث مع الحصانين، وهناك أحجار وزلط على الطريق، وكسر العربية هناك يعنى نهاية الرحلة، دعوا السقا لعمله. فالأشقر لم يتفاهم بعد مع الأبلق، يبدو أن أحدهما يشك فى قدرة الآخر، بمجرد ربطه مع رفيقه، مال إلى الشد باتجاه الخارج، وكأنه يريد الابتعاد عنه، مما يضطره إلى بذل مزيد من الجهد فى الجر، تراقب ماريا جوافايرا مناوراتهما، لكن ما إن يصلا إلى الطريق حتى يستعيدا انتظام سيرهما، بالموازنة الناتجة عن المعاملة الحسنة والسوط وتحريك اللجام. ستنجح فى تقويم عيوبهما، كان جواكيم زازا أول من ابتدع الاسمين للحصانين، لأنهما ليسا كحصانى السيارة، المتقاربين من بعضهما وترددتهما واحد وزمنهما واحد، ولا يمكن التمييز بينهما، فيما أن هذين يختلفان فى كل شئ، اللون والسن والقوة والشكل والطباع، من هنا يجب التمييز تماما بينهما

ومنح كل منهما اسماً خاصاً به، قال جوزيه أناسو،
"لكن بيع يعنى بالإنجليزية الخنزير، فيما آل اختصار
لألفريد مثلاً"، رد عليه جواكيم زازا، "نحن لسنا فى
أرض إنجليزية، وبيع تعنى بيجارسو، وآل تعنى
الأشقر، وأنا أبوهما الروحى"، تبادلت جوانا كاردا
وماريا جوافايرا الابتسامات فى مواجهة صبيانية
رجليهما، وفجأة انطلق بدرو أورثى، "لو كان الأمر
يتعلق بمهرة وحصان ليكون لديهما وليد، لكان من
الممكن تسميته بيجال"، قد يذهل من يكون على معرفة
بالثقافة الأوروبية، بحق الشيطان كيف يذكر بدرو
أورثى اسم بيجال، إلا أن سوء الفهم نابع منه، بعض
أنواع الأجناس الناجحة بشكل خاص ليست سوى
الثمرة اللاإرادية للمصادفة، بدرو أورثى لا يعرف شيئاً
عن بيجال.

لم يسيروا فى هذا اليوم الأول أكثر من ستين
كيلومتراً، أولاً ما كان عليهم أن يدفعوا الحصانين إلى
بذل مجهود شاق بعد هذه الراحة الطويلة التى
عاشاها؛ أحدهما بسبب الجرح، والآخر فى انتظار
اتخاذ القرارات التى تأخرت، وثانياً لأنه كان من
المطلوب المرور بمدينة لوجو، التى كانت تبتعد عن
الطريق العام قليلاً، إلى الشمال الشرقى، لشراء
البضاعة المطلوبة للتجارة التى تقرر أن يعيشوا منها.
اشتروا من المدينة صحيفة لمعرفة آخر الأخبار، وأبرز
ما وجدوه صورة لشبه الجزيرة، التقطت قبل يوم
واحد، وكان واضحاً التحرك باتجاه الشمال منذ أول

انزلاق، وتمت الإشارة إلى هذا من قبل إدارة التحرير. لم يكن هناك من شك، فقد كانت الزاوية مستقيمة جداً. لكن عن الافتراضات الشهيرة المطروحة للنقاش، التي نشرها تلخيصاً لها هنا، لم يكن هناك أدنى تقدم، أما عن موقف الصحيفة نفسها يمكن ملاحظة، أنه ربما ناتج عن الإحباط، وبعض الشك، الصحي ربما، ولكن أيضاً يمكن إرجاعه إلى قصر النظر الناتج عن رؤية مدينة إقليمية.

في حوانيت الملابس، فإن النساء، بالطبع، أوكل بهن عملية اختيار البضاعة، وإلى جانبهن كان جواكيم زازا يقوم بالعمليات الحسابية، كان لديهم شك كبير في الطريقة التي كان يجب أن يتبعها، إن كانت ملابس شتوية للموسم الذي يقترب، أم العمل على المسافات المتوسطة، واختيار ملابس تناسب الربيع القادم، صححت جوانا، "أعتقد أنه لا يقال المسافات المتوسطة، بل المدى المتوسط"، لكن جواكيم زازا أجاب بجفاء، "نقولها هكذا في مكتبى، ومتوسطات، وبعيدات وقصيرات". ولكن عند اتخاذ القرار النهائى كانت احتياجاتهم هي التي تحدد الأمر، كان واضحاً أنهم جميعاً في حاجة إلى تغيير ملابسهم، فقد كانوا يرتدون ملابس منتصف الموسم، يُضاف إلى هذا محاولة منع ماريا جوافايرا وجوانا كاردا من الانسياق وراء رغباتهن. ولتلبية جميع الرغبات، أمكن طلب البضاعة حسب تطلعات المستقبل، ليكون الطلب حسب العرض. كان جواكيم زازا قلقاً، "لقد وضعنا في

هذا أكثر من نصف الأموال التي لدينا، فإذا لم نحصل على نصف هذا النصف خلال أسبوع، ستكون لدينا مشاكل، وفي حالات مثل حالتنا، بلا وجود أموال احتياطية أو إمكانيات للحصول على قروض مصرفية، نكون في حاجة إلى إدارة حازمة للمتبقى، وتنسيق كامل بين الخارج والداخل، لا زيادة ولا نقصان". هذه الملاحظات أبداها جواكيم زازا في أول توقف بعد الخروج من مدينة لوجو، بحكم سلطته كمدير، وهو أمر قبله الجميع.

أن تكون هذه تجارة فإنها لن تسبح في بحر من الورود، فهموا هذا جميعاً عندما أجبرتهم إحدى الزبائن المتمرسات على تخفيض سعر جونلتين ووصلت إلى حد تهديد المكاسب المحتملة. بالصدفة كانت البائعة هي جوانا كاردا، التي اعتذرت للجميع بعد ذلك ووعدت، أنها في المستقبل، ستكون أكثر شراسة من كل البائعين النشطين في شبه الجزيرة، ذكّرهم جواكيم زازا مرة أخرى، "لأنه إذا لم نحترس، ستكون تجارتنا مثل خوان صاحب الماعز، ننتهي إلى أن نبقى بلا تجارة ولا بضاعة؛ لأن الأمر لا يتعلق فقط بوجودنا، فلدينا أيضاً ثلاثة أفواه تريد أن تأكل؛ الكلب والحصانان"، قال بدرو أورثي، "الكلب يحصل على معاشه وحده"، "قام بهذا حتى الآن، ولكن لو جاء يوم كان الصيد خلاله شحيحاً فسترونه وقد عاد وذيله بين فخذه، وحينها ماذا سنفعل لو لم يكن لدينا شيئاً نقدمه له؟"، "نصف طعامي سيكون له"، "جميل

أن تفعل هذا، ولكن مشكلتنا ليست تقسيم الفقر، بل زيادة رأس المال"، أبدى جوزيه أنابسو ملاحظة، "رأس مال وفقر، في هذه اللحظة من حياتنا فنحن أكثر فقراً مما نحن في الحقيقة، الوضع غريب، نعيش كما لو اخترنا أن نعيش كفقراء"، "لو كان الأمر يتعلق بالاختيار، أعتقد أنه لن يكون اختيار بحسن نية، ولكن الأوضاع هي التي أجبرتنا، وعلينا أن نختار بعضها، التي نخدم أهدافنا الشخصية، نحن كالممثلين، أو نحن مجرد شخصيات، نعم، مثلاً، سأعود أنا مع زوجي، من أكون لحظتها؟، الممثل خارج دوره، أم شخصية تلعب دور ممثل، ما بين أحدهما والآخر، أين أكون"، قالت هذا جوانا كاردا. كانت ماريّا جوافايرا تستمتع إليها، والآن تقول كمن يبدأ حواراً جديداً، ربما لم تفهم جيداً ما قاله الآخرون، "الأشخاص يولدون كل يوم، وإن يعيشوا يوم الأمس أو البداية من جديد هذا يخضع لرغبتهم، فمن الميلاد وحتى اليوم الجديد، اليوم"، "لكن هناك الخبرة وكل ما تعلمناه"، ذكرها بدرو أورثي، "نعم، لديك كل الحق" قال جوزيه أنابسو، "لكننا نمارس الحياة كما لو لم تكن لدينا أية تجارب سابقة، أو نستخدم جزءاً منها بما يسمح لنا بتكرار الأخطاء، ونفسرها بالتجارب والخبرات السابقة، والآن خطرت على بالي فكرة وإن كانت تبدو عبثية، شيء مضاد، وربما كانت الخبرة لها قوتها الكبرى في المجتمع أكثر من وجودها في كل واحد من أفراد، المجتمع يستغل تلك التجارب أكثر من أفراد جميعاً، لكن لا أحد يريد، يعرف أو يريد أن يستغل كل تجربته

يناقشون كل هذه القضايا المهمة في ظل شجرة، في ساعة الغداء، كان الغداء بسيطاً ومناسباً لرحل لم يكملوا عمل يومهم بعد، وإذا كان هناك من يرى أن هذا النقاش غير متوازن، سواء لمكانه، أو بما يحيط به من أوضاع، فنذكره، أنه بشكل عام، أن تدريب وثقافة الحجيج تقبل دون نفور غير مناسب، حديثاً مضمونه يتضمن عيوباً حقيقية، من وجهة نظر نظرية بحثة تهدف إلى حق لا يقل دقة، إلا أن حديثنا، بغض النظر عن إمكانياته، قام أو قيل، ولو مرة واحدة في الحياة على الأقل بأن هناك أشياء أسمى بكثير من طبيعتها ووضعها، ولو أمكن إخراج الناس من رتبة الحياة اليومية التي يفقدون فيها إحساسهم بما يحيط بهم، فإنهم يجبرون أنفسهم على انتزاعها من حبسها، حينها سنرى كم من العجائب يمكنهم تحقيقها، والجوانب الأساسية للمعرفة التي يصبحون قادرين على تبادلها، لأن كل واحد منهم يعرف أكثر مما يعتقد، وكل واحد من الآخرين يعرف أكثر بكثير مما نريد الاعتراف به، هنا تجمع خمسة أشخاص لأسباب غير منطقية، وسيكون غريباً ألا ينجحوا في أن يقولوا لبعضهم أشياء بعيدة عن المعتاد.

يكون غريباً أن يتم العثور على سيارة في المناطق، فقط من وقت لآخر تمر شاحنة لتموين السكان، تحمل في الأساس مواد غذائية، لأنه مع كل هذه الحكايات يكون من الطبيعي اختيار نظام تجارة محلي

بعض الشيء، هناك نقص فى الأشياء ثم فجأة يصبح العجز زيادة، إلا أن كل ذلك مقبول، لأنه لا يجب أن ننسى أن الإنسانية لم تواجه موقفاً مماثلاً من قبل، أبحرت من قبل ولكن على سفن صغيرة والكثير من البشر يسرون على الأقدام، وآخرون يمتطون الحمير، ولو كانت الأرض مستوية لشاهدنا عدداً أكبر من الدراجات الهوائية. بشكل عام، طبيعة الناس هنا طيبة، مسالمون، إلا أن الشعور بالحسد الوحيد الذى لا يختار طبقة دون أخرى، ويظهر فى النفس البشرية بتكرار أعلى، لذلك فإن العربية ذات الحصانين كانت تثير حسداً عند مرورها خلال المشهد العام. عندما تكون الأوضاع صعبة للغاية يكون الطمع فيها واضحاً، من بالعربية أحدهم مسن والآخرون ليسا شمشون ولا هرقل، ويمكن أن تكون المرأتان فريسة سهلة بعد التغلب على رفاقهما، نعرف أن ماريا جوافيرا تستطيع أن تقاوم رجالاً ولو تسلحت بجمرة نار، لكن ليس من المحتمل ألا يواجهوا هجوماً غادراً، يتركهم فى حالة انسحاق تام، المرأتان مفتصبتان والرجال جرحى، لكن كان هناك الكلب، الذى يخرج من تحت العربية عندما يقترب أى شخص، سواء كان فى المقدمة أم الخلف، أثناء التوقف أم أثناء السير، يبدو الكلب بفمه المفتوح كذئب يحدق بعينه اللتين تطلقان شرراً بارداً فى المارة الأبرياء فى أكثر الأوقات، وإن كان فزعهم لا يقل عن فزع الأشرار. لو أننا دققنا فيما فعله الكلب حتى الآن، فإنه يستحق حقاً لقب الملاك

الحارس، رغم التلميحات المتكررة عن أصله الجهنمي المزعوم. وبالوقوف خلف حكم التقاليد المسيحية وغير المسيحية، يمكن الاعتراض بأن الملائكة يمكن تمثيلهم دائماً على أنهم بأجنحة، إلا أنه في الحالات التي لا يحتاج فيها الملاك للطيران، وهي كثيرة، ماذا يمكن أن يحدث لو تمثل في شكل أليف مثل الكلب، ولن يضطر إلى النباح، لأنه لا يتناسب مع جوهره الروحي، وعلينا أن نعترف، أنه أقل ما يمكن عمله، الكلاب التي لا تنبح ما هي سوى ملائكة تقوم بمهامها.

خيّموا مع حلول المساء على ضفة نهر الميميو، بضواحي قرية كبيرة اسمها بورتومارين، بينما كان جوزيه أنابيسو وجواكيم زازا يخليان ويعتنيان بالحصانين، ويعدان النار، ويقشران البطاطس ويخرطان الخضراوات، انتهزت المرأتان برفقة بدرو أورثي وملاكهم الحارس آخر خيوط النهار ليدورا على بيوت القرية، لم تفتح جوانا كاردا فمها، بسبب اختلاف اللغة، من المؤكد أنه في البيعة السابقة كان اختلاف اللغة وصعوبة التواصل هما السبب في الخطأ في السعر، لكنها بدأت تتعلم للمستقبل، فهو المكان الوحيد الذي يمكن للواحد أن يصحح فيه أخطاءه. لم تكن المبيعات سيئة، فما باعوه كان بسعره المحدد. عندما عادوا إلى المخيم كان يبدو بيتاً، النار تشتعل بين الأحجار، والقنديل المعلق على العربة يرسل على المكان بضوئه المستدير، وروائح الخضراوات كانت حاضرة كحضور الله رب العالمين.

فيما بعد العشاء تحادثوا حول النار، فجأة

طرأت على ذهن جواكيم زازا فكرة فسأل، "من أين جاءك هذا اللقب جوافايرا، ما معناه؟"، وأجابت ماريا جوافايرا، "ما أعرفه هو أنه لقب لا يحمله أحد غيري، أطلقته على أمي عندما كنت ما أزال في بطنها، كانت تريد أن يسمونني جوافايرا، على هذا النحو فقط، لكن أبي أصر على أن أحمل أيضاً اسم ماريا، وبقيت حسب ما لم يكن على أن أكون، ماريا جوافايرا"، إذاً، تعرفين معناه، "اسمى نبع عن حلم"، "الأحلام دائماً ما يكون لها معنى"، "لكنه ليس الاسم الذي نبع من الحلم، والآن اذكروا لي أسماءكم؟"، فذكروا أسماءهم، كل واحد باسمه، واحداً بعد الآخر، حينها قامت ماريا جوافايرا بتحريك جذوة النار، وقالت، "الأسماء التي نحملها ليست سوى أحلام، بمن أحلم إن لم أحلم باسمك".



لقد تغير المناخ، إنها طريقة مثالية، رقيقة أو بحياء موضوعي، تقول لنا إن المناخ تغير إلى الأسوأ، إنها تمطر، أمطار هادئة، إعلاناً عن بداية الخريف، عندما لا تُفرق الأرض فإنها تدفعنا إلى الرغبة في التنزه في الحقول، بأحذية ذات رقبة وواقٍ من المطر، مستقبلين على وجوهنا رذاذ الماء الخفيف ومستمتعين بحزن البعاد الضبابي، تُسقط الأشجار أولى أوراقها فتبدو عارية، مرتعدة، كما لو كانت تشنق إلى اللمس، هناك من يرغب في ضرب صدره برقة حانية، نقرب وجوهنا من السقيفة المبتلة فيبدو كالمبتل بالدموع.

إلا أن غطاء العربة من أوائل الأغطية التي صُنعت من أجل هذا، كانت وقتها التكنولوجيا قوية، سواء في استخدام الخيوط أم في النسيج، إلا أنها لم تكن تحمي كثيراً من الماء، لقد كان زمان ومكان الأشخاص القادرين على تجفيف الملابس على

أجسادهم بكل الحماية، وليسوا فى حاجة دائماً إلى كأس من العرقى. تزايد أثر الفصول فجفت الخيوط، وتفتقت الحياكة، ومن السهل رؤية الغطاء المأخوذ من ذات الحصانين، تواصل نفاذ الماء، رغم قناعة جواكيم زازا، الذى دافع عنها، عندما ابتل القماش وتضخمت الخيوط مما قلل من حجم المساحة فيما بينهم، فلمطر جانبه المفيد لو كان هناك صبر للانتظار. نظرياً، ليس هناك شىء مكتمل، إلا أن الممارسة شىء آخر، فلو لم يحترسوا بطى ورفع الحشيات، ما كان يمكن لأحد أن ينام عليها.

عندما يسقط المطر بقوة أكبر وتكون هناك فرصة، يدخل المسافرون تحت أحد الجسور، إلا أن الجسور قليلة فى هذا الطريق، فهو ليس سوى طريق جانبى، بعيداً عن الطرق الكبرى، من تلك التى تحاول اتقاء الاحتكاك وتسمح بسرعة أكبر، لذلك تسمح بمرور الطرق الثانوية عبر جسور علوية. فى أحد تلك الأيام خطرت لجوزيه أنيسو فكرة شراء ورنيش أو طلاء مانع للمطر، وهكذا فعلوا، إلا أن الطلاء الوحيد الصالح الذى عثر عليه، كان طلاء أحمر اللون، ولا يكفى حتى ربع غطاء العربة. لو لم تخطر على بال جوانا كاردا فكرة أفضل وأكثر معقولية، بخياطة شرائح عريضة من البلاستيك إلى جوار بعضها البعض لتكون غطاء كاملاً، وغطاء آخر للحصانين، ولم يكن هناك حاجة إلى التفكير فى أنه على بعد ثلاثين كيلومتراً لن يمكنهم العثور على طلاء بألوان

ودرجات مختلفة، فينتهى بهم الأمر إلى المرور بالعربة
فى هذا العالم الواسع بغطاء ملئ بالخطوط والدوائر
والمربعات، طبقاً لما كان يخطر على بال الفنان، أخضر
وأصفر وبرتقالى وأزرق وبنفسجى، أبيض على أبيض،
كستائى، وربما أسود. فيما يستمر المطر فى الهطول.

بعد الحوار القصير والمتقطع عن معانى الأسماء
والأحلام، تحاوروا حول أى الأسماء التى يمكنهم أن
يطلقوها على الحلم الذى يعنيه هذا الكلب. انقسمت
الآراء، وهو ما يجب أن نعرفه، إنها مجرد توجهات،
ونقول حتى إن الرأى ليس سوى تعبيراً ظاهرياً لتبرير
وجهة النظر. عرض بدرو أورثى وبيّن أسباب اختيار
اسم ريفى تقليدى: فيدل (الأمين)، أو بيلوتو (القائد)،
وكلاهما أسماء طبيعية لو أخذنا فى الاعتبار مزايا
الحيوان؛ فهو مرشد لا يبارى وأمانته لا تقبل الشك،
تتردد جواراً كاردا ما بين سنتينيل (الحارس)
وكومباتينتى (المقاتل) أسماء لها رنين توراتى لا
تتناسب مع شخصية من يختارها، لكن الروح الأنثوية
لها أعماق لا تقاوم، "ستقاوم مارجيتا فى النوم طوال
حياتها لتقمع فراغ الليدى ماكبث التى تحملها داخلها،
وحتى آخر ساعة فى حياتها، لن تحصل على الأمان
الذى تبحث عنه". أما بالنسبة لماريا جوافايرا، التى
تكاد لا تعرف شرح السبب، إنه شىء لا يحدث لأول
مرة، تعرض، وسيلة مخجلة لفكرتها الخاصة، وهى
تسميته الملاك الحارس، لكنها خجلت من قوله؛ لأنها
انتبهت إلى أنه سيكون مثيراً للسخرية، خاصة فى

العلن، تسمية الملاك الحارس وبدلاً من تلك النوارنية والملابس النقية الناصعة المعبرة عن الأجنحة الملائكية، يظهر الحيوان القذر الملطخ بالطين والدم المتبقى من آخر أرنب التهمة، ورعب الكلاب الذى لا يحترم سوى أصحابه فقط، هذا لو كانوا هم أصحابه فعلاً. أراد جوزيه أنيسو أن يخفف من هذا الغليان الهستيرى من الضحكات الذى أثارتها ماريّا جوافايرا، فعرض أن يطلقوا عليه اسم كونستانتى (الاستمرارية)، وتذكر أنه قرأ هذا الاسم فى أحد الكتب، "لا أذكر الآن، لكن كونستانتى، إن كنت أفهم معنى الكلمة جيداً، تحتوى على كل هذه الأسماء التى عرضتموها: فيل وبيلوتو، وسنتينيلّا، وكومباتينتى؛ وحتى الملاك الحارس، لأنه إذا لم يكن أى منها كونستانتى أى مستمراً، ستضيع الأمانة، ويضل المرشد طريقه، والحارس يفادر مكانه، والمقاتل سيلقى بسلاحه، والملاك الحارس سيفرى الفتيات المفترض أنه يحميهن من الرذيلة". صفقوا له جميعاً، رغم أن جواكيم زازا يرى أنه من الأفضل تسميته ببساطة الكلب، لأنه الوحيد من نوعه الموجود هنا، وليس هناك مجال للخلط فى التسميات والعروض. وأخيراً استقر الرأى على تسميته كونستانتى، لكن كل هذا المجهود لم يكن مجدياً؛ لأن الحيوان كان يستجيب لكل هذه الأسماء التى أطلقوها عليه، لو وصلت إلى سمعه أية كلمة منها، أياً كانت فهي موجهة إليه، رغم أن اسماً آخر ينضم أحياناً إلى الذاكرة وهو "أردنت"، لكن هذا الاسم لم يخطر على

بال أحد، ومن نطقه مرة يعرف السبب، فى مواجهة رأى ماريا جوافايرا، التى ترى أن الاسم ليس شيئاً، ولا حتى حلاً.

كانوا يسيرون، دون أن يعرفوا، أنهم على طريق سانتياجو القديم، فيمرون بأراضٍ محملة أسماؤها بالأمل أو الذكريات السيئة، طبقاً لكل فصل عاشه المسافرون فى ذلك الطريق البدائي: سارا، ساموس، أو الأرض المتميزة؛ فيلافرانكا ديل بيبثو، حيث يمكن للحاج المريض أن يطرق باب كنيسة الحوارى فيُعطى من إكمال الطريق إلى كومبوستيلا، مع احتفاظه بالميزات التى كان يمكنه أن يحصل عليها حتى الفئران ذاته لو أكمله كله. إنه الإيمان، حينئذ، كل شيء له حلوله التوفيقية، ولكنه لا يُقارن بما يحدث اليوم، لأن التوفيقية تأتى من الإيمان نفسه، سواء هذا أم غيره. على الأقل، إن هؤلاء المسافرين يعرفون إذا ما أرادوا رؤية البرانس أن عليهم أن يصلوا حتى هناك، وأن يضعوا أيديهم عليه، فوضع الأقدام لا يكفى؛ لأنها أقل حساسية، أكثر مما يُعتقد، ويمكن خداعها. بعد قليل بدأ يخف انهمار المطر، وتسقط الآن نقاط متفرقة، إلى أن يتوقف نهائياً. إلا أن السماء لا تزال مغطاة بالسحاب، والليل يأتى بسرعة أكبر. خيموا تحت بعض الأشجار ليحتموا من أمطار محتملة أخرى، رغم أن بدور أورثي يذكر المثل الأيبيرى، "من يحتذى بشجرة، يبتل مرتين"، وهذه النسخة البرتغالية منه، وإن كانت نسخة معدلة، لم يكن إشعال النار سهلاً،

لكن فنون ماريا جوافايرا انتهت بالانتصار على مقاومة الأخشاب المبتلة، التي كانت تنفجر وتغلى عند الأطراف كما لو كانت تسكب اللعاب. أكلوا ما استطاعوا، أو ما يكفى حتى لا تقرر البطون من الجوع ليلاً، لأنه كما يقول مثل آخر، "من ينام بلا عشاء، يمضى ليله سعراناً"، هذه نسخة حقيقية. أكلوا فى داخل العرية، تحت ضوء القنديل الضبابى، فى مناخ ثقيل وملابس مبللة، والحشيات ملفوفة وموضوعة فوق بعضها، والأشياء الأخرى الباقية مكومة، هذا المشهد مقلق بالنسبة لربة بيت جيدة. لكن ليس هناك شئ سيئ يمكن أن يستمر إلى الأبد، فالأمطار قد تتوقف ويأتى مناخ أفضل، وحينها سنرى النشاط الذى يدب فى المعسكر، الحشيات مفتوحة حتى تجف أكثر خيوطها نعومة، والملابس منشورة على الحشائش والأحجار، وعندما نجمعها سيكون لونها دافئاً من الشمس التى تترك حرارتها أينما تمر، يحدث هذا بينما المرأتان، تشكلان صورة عائلية جميلة، تضبطان وتحيطان شرائح بلاستيكية عريضة للتغلب على مشكلة الماء، المجد لمن اخترع التقدم.

ظلوا يتحدثون بكسل وتراخٍ كمن يريد قتل الوقت فيما ساعة النوم لا تحين، حينها قاطع بدرو أورثى ما كان يقوله وبدأ حديثه، "قرأت مرة لا أعرف أين، أن المجرة التى ينتمى إليها نظامنا الشمسى تتوجه إلى مركز لم أعد أتذكر اسمه الآن، وأن هذا المركز يتوجه بدوره إلى نقطة معينة فى الفضاء، أريد أن أكون أكثر

تحديداً، إلا أن رأسى لم تعد تتذكر التفاصيل، لكن ما أريد قوله هو التالي: انظروا، نحن هنا نتحرك على شبه الجزيرة، وشبه الجزيرة تبهر فى البحر، والبحر يدور فى الأرض التى يعتبر جزءاً منها، والأرض تدور حول نفسها، وبينما تدور حول نفسها، تدور أيضاً حول الشمس، والشمس تدور أيضاً حول نفسها، وكل هذا يدور معاً باتجاه ذلك التجمع المركزى، وأنا الآن أتساءل، إن لم نكن نحن النقطة الأصغر فى كل تلك الحركة، أريد أن أعرف ما الذى يتحرك داخلنا وإلى أين؟ لا، لا أتحدث عن الديدان والبكتيريا والميكروبات، وتلك الكائنات الحية التى تعيش داخلنا، أنا أتحدث عن شيء آخر، عن شيء يتحرك وربما هو الذى يحركنا، وكيف يتحرك وكيف يحركنا فى كل هذا؟ الكوكب، والنظام الشمسى، الشمس، الأرض، البحر، شبه الجزيرة، وذات الحصانين، ما اسم كل هذا الذى يتحرك من طرف إلى آخر؟ وربما لا تكون هناك سلسلة، وربما كان العالم كله مجرد حلقة، هشة جداً، ربما نكون نحن فقط، ويمكنه أن يدخل فينا، أو ندخل فيه، وربما كان ضخماً يمكنه أن يحتوى أقصى الكون كله فيما هو يكون، ما اسم ما يأتى من خلفنا؟ "الجوع يظهر المخفى"، كانت تلك الإجابة المفاجأة لجوزيه أناسو، التى فتحت شهية التفكير.

تسقط على الغطاء، قطرات كبيرة من الماء انزلقت من ورقة إلى أخرى بين الأشجار، ويمكن سماع حركة بيج وآل هناك فى الخارج تحت غطاء

الوقاية المائية الذي لا يغطيها بالكامل، وربما هذا سبب الصمت التام، نسمع بأن ما يُقال لا أهمية له. كل واحد من الموجودين هنا يعتقد أن من واجبه أن يشرك معرفته للتواصل مع الآخرين، لكنهم يخافون جميعاً أنه عندما يفتحون أفواههم تخرج منها أشياء تافهة، وإن كانت لديهم شكوهم عن الكلمات وانتمائها إلى المحيط البدائي المعادي، قطرات المطر والحصان، دون أن ننسى الكلب الذي ينام. أما ماريا جوافيرا بسبب أنها الأقل تعليماً، كانت أول من تكلم، "ما لا نراه نسميه الله"، لكن المدهش أنها قالت الجملة برنة تساؤل، "أو الإرادة"، كانت تلك إجابة جواكيم زازا، وأضافت إليها جوانا كاردا، "أو الذكاء"، وأنهى الحوار جوزيه أنيسو، "أو التاريخ"، لم يكن لدى بدرو اورثي أى شيء جديد، واكتفى بالتساؤل، ومن يعتقد أن هذا هو الأسهل يكون مخدوعاً، فالإجابات التى تنتظر هذا التساؤل لا حصر لها.

يعلمنا الحذر أن اختبار أشياء بهذا التعقيد خاسر قبل أن يبدأ كل واحد منا فى التدخل والحديث عن أشياء مختلفة من الأشياء التى تحدثنا عنها من قبل، وليس هذا لأنه من المفضل تغيير الرأى، بل لأن الاختلافات الكثيرة التى يمكن أن تحدث، وتحدث بشكل عام، تدفع بالحوار إلى بدايته دون أن ينتبه المشاركون فيه إلى ذلك. فى هذه الحالة، فإن أول جملة لجوزيه أنيسو، بعد أن دارت دورة الحديث بين كل الأصدقاء، انتهت إلى الوصول إلى نتيجة مؤداها

عدم القدرة على رؤية الله، أو الإرادة، أو الذكاء، وربما بشكل أقل التاريخ. بينما كانت جوانا كاردا تتكور على نفسها، وتشكو من البرد، ويحاول جوزيه أنايسو ألا ينام؛ لأنه يريد شرح فكرته، إذا كان التاريخ حقيقة غير مرئي، وإذا كانت نتائج التاريخ ظاهرة ولها الظاهرية الكافية، وإذا كانت الظاهرية بهذه الطريقة لها نسبيتها، فإن التاريخ ليس سوى مجرد غطاء، كالملابس التي يرتديها الرجل الخفى، ويظل خفياً. لم تستمر تلك الدورات التفكيرية كثيراً، ولحسن الحظ، وقبل أن يحل النوم، فإن تفكيره تركز بطريقة عبثية في التأكيد على الفارق بين ما هو ظاهر وما هو خفى، شيء يبدو معلوماً لدى من يفكر قليلاً، وليس له أهمية في هذه الحالة. إن ما كشف عنه كل هذا الحوار المتشابك ليس له أدنى أهمية، فאלله المثال الأكثر وضوحاً بين كل الأمثلة المذكورة، خلق العالم لأن الدنيا كانت ليلاً عندما طرأت له هذه الفكرة، فشعر في تلك اللحظة السامية أنه لم يعد يحتمل الضباب أكثر من ذلك، وربما لو كان النهار المسيطر ربما ترك الله كل شيء كما كان. وبما أن السماء أصبحت خالية من السحب، وظهرت الشمس بلا عوائق، وظلت هكذا، فإن السفسطات الليلية تبددت تماماً، وتركز الاهتمام كله على حسن سير ذات الحصانين على ظهر شبه الجزيرة، ولم يعد يهم إن كانت شبه الجزيرة تسبح أم لا، حتى لو أخذتني حياتي باتجاه نجمة، فلن يكون ذلك سبباً في عدم التجوال في طرقات العالم.

فى ذلك المساء، وبينما كانوا مشغولين بتجارتهن، علموا أن شبه الجزيرة، بعد أن بلغت نقطة مستقيمة شمال جزر الآزور، ربما فهموا أن هذا الوصف المختصر يتحدث عن أقصى جنوب شبه الجزيرة، رأس طريفة، الموجود فى المنتصف من الشرق، إلى شمال أقصى شمال جزيرة كورفو، ورأس تارسايس، حسن الآن، فإن شبه الجزيرة، بعد ما كنا نحاول شرحه، عادت إلى الإبحار نحو الغرب، باتجاه مواز لمسارها الأول، أى، لنحاول أن نفهم الأمر بشكل واضح، باتباعها لعدة درجات نحو الأعلى. بهذا الحدث ينتصر مؤلفو ومدافعو فرضية المسار فى خط مستقيم، التى أصابها العطب فى بعض الزوايا، وإذا لم يتم حتى الآن إثبات وجود أية حركة تؤكد على حتمية فرضية العودة إلى نقطة البداية، المعلنة، فإن هذا لن يعنى استحالة التقهقر، مادام مقبولاً أن شبه الجزيرة لن تتوقف أبداً عن الحركة، وستظل تبهر بشكل أبدي عبر بحار العالم، تماماً كالهولندى الطائر الذى ذكرناه مرات عدة، ستظل شبه الجزيرة، وباسم آخر، لا نضعه هنا كنوع من الحذر منعاً من تقديم تفسيرات قومية وعنصرية ضيقة، يمكن أن تكون مأساوية فى ظل الأحداث الجارية الحالية.

لم تكن أنباء تلك التغييرات قد وصلت إلى تلك القرية التى وصلها المسافرون، كل ما علموه فقط أن الولايات المتحدة أعلنت من فم رئيسها نفسه، أن الدول التى تلقت الدعم البحرى من الأمة الأمريكية،

"إذا استمرت تبهر على هذا النحو باتجاهنا، سنستقبلها
 استمرت تبهر على هذا النحو باتجاهنا، سنستقبلها
 بأذرع مفتوحة". لكن هذه التصريحات، ذات الطابع
 غير الاعتيادي، سواء من خلال وجهة النظر الإنسانية
 كما هي من وجهة النظر الجغرافية السياسية، خفت
 تحت توجهات شركات السياحة في العالم كله، التي
 حاصرتها طلبات السياح للسفر إلى جزيرة كورفو في
 أسرع وقت ممكن، دون النظر إلى الوسائل أو
 التكاليف، ولماذا؟، لأنه إذا لم يحدث تعديل في المسار،
 فإن شبه الجزيرة ستمر أمام ناظري جزيرة كورفو،
 وهو مشهد لا يمكن مقارنته بمشهد استعراض صخرة
 جبل طارق، عندما انفصلت شبه الجزيرة عن الصخرة
 وتركتها هناك على الأمواج وحيدة. والآن ستكون
 الكتلة الضخمة التي تمر أمام المحظوظين الذين
 استطاعوا الوصول إلى ركن صغير في النصف
 الشمالي من الجزيرة، لكنه رغم اتساع شبه الجزيرة،
 فإن الحدث قد يستمر بضع ساعات فقط، ربما يومين
 على أكثر تقدير، لأنه يجب الأخذ في الحسبان الشكل
 غير العادي لهذه الطوافة، فأقصى الجنوب هو الجزء
 الوحيد الذي يمكن رؤيته، وهذا يتطلب أن يكون النهار
 واضحاً. والباقي، بسبب انحناء الأرض، سيمر بعيداً
 عن الأنظار، ولنتخيل ما كان يحدث لو أنه في تلك
 المرة كانت تلك الزاوية مقسمة بشكل مستقيم عن
 أقصى جنوبها، لا أعرف إن كنتم على وعي بالرسم،
 سيكون من الممكن رؤية مسارها طوال ستة عشر يوماً،

إجازة كاملة، هذا إذا ظلت تسير بسرعة خمسين كيلومتراً فى اليوم. أياً كان الوضع فإن المكاسب المالية ستكون كبيرة فى جزيرة كورفو، بل أكثر مما حدث فى أى وقت مضى، وهو ما دفع بالسكان إلى طلب مزاليج للأبواب، بمتاريس وأجراس إنذار.

تمطر من وقت لآخر مطراً خفيفاً، وفى أسوأ الحالات يسقط البَرَد فى زخات سريعة، إلا أن الشمس تسطع فى معظم فترات النهار، السماء زرقاء والسحب مرتفعة. أما الغطاء البلاستيكى فقد تم تدعيمه وخياطته وتقويته، وأصبح الآن، عندما يهددهم المطر، يتوقف السير، على ثلاث مراحل، يتم فرده أولاً، وثانياً يجرى رفعه، ثم ربطه ثالثاً، أصبح الغطاء محمياً. وفى العربة الحشيات أكثر جفافاً من أى وقت مضى، ورائحة الرطوبة العطنة اختفت من العربة، وأصبح الداخل نظيفاً ومرتباً، تحولت العربة إلى بيت حقيقى. لكنها أصبحت مرئية الآن كلما أمطرت هنا. الأرض موحلة، ويجب اتخاذ الاحتياطات فى العربة، وعدم إدخالها فى الطرق الجانبية قبل استطلاع الوضع؛ لأنهم فى هذه الحالة سيبدلون جهوداً مضاعفة لإخراجها من هناك، حصانان وثلاثة رجال وامرأتان لا يملكون قوة جرار. تغير المشهد الطبيعى من حولهم، فقد تركوا الجبال والوهاد، وآخر التموجات تتلاشى، وظهر أمامهم سهل منبسط بلا نهاية، وفوقه سماء من فرط إثارتها الدهشة تثير الشك فى أنها مكونة من قطعة واحدة،

قد تكون أكبر أو أصغر، أكثر ارتفاعاً أو انخفاضاً، إنه اكتشاف بالطبع يا سيدى، السماء تبدو عدداً لا نهائياً من القباب المتكررة المرصعة، تناقض التعبيرات والكلمات مسألة ظاهرية، يكفى النظر إلى السماء. عندما وصلت ذات الحصانين إلى قمة الربوة بدا وكأن الأرض لن ترتفع حتى نهاية الزمن، وبما أنه من الأمور العادية تتولد آثار عن أسباب مختلفة، فإن الشعور بالدهشة واللاهث على الأرض المسطحة أشبه بالوجود على قمة إيفرست فجأة، قل لمن كان هناك، إن كان لم يحدث له الأمر نفسه كما حدث لنا على هذه الأرض المنبسطة.

أجرى بدرو حسابات جيدة، إلا أنها حسابات مختلفة تماماً عن حسابات أى تاجر، مما يجعلنا نقول إن هذا اليبدرو لا علاقة له بأورثى، فالراوى نفسه يجهل من يكون هذا الشخص، يُقال عادة إن بدرو أجرى حساباته عندما تكون خاطئة، وهى طريقة شعبية ساخرة تعنى أنه على البعض إنجاز ما يجب على الآخرين إنجازه، أى لو أخطأ جواكيم زازا فإنه يكون قد أخطأ فى حساب السير مائة وخمسين كيلومتراً يومياً، وأن ماريّا جوافايرا لم تكن صائبة أيضاً عندما نزلت بهذا الرقم إلى تسعين كيلومتراً، فالتاجر يعرف البيع، والخيول تعرف الجر، وكما يُقال أيضاً فإن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، لأن سرعة الحصان العجوز حدثت من سرعة الحصان الأكثر شباباً، وربما نفسر هذا على أنه إشفاق من

الأكثر شباباً، وربما نفسر هذا على أنه إشفاق من الأخير، وخفة روحه، واحترامه البشري؛ لأن استعراض قوته في مواجهة من هو أضعف يعد علامة على سوء الأخلاق، كانت هذه الكلمات ضرورية لتفسير بطء تقدم العربية عما كان مقرراً لها، إلا أن الاختصار ليس فضيلة كاملة، ولكن الإسهاب قد يؤدي أحياناً إلى الإرباك والحيرة، هذا حقيقي، إلا أنه كم من مرة ربحنا بالكلام أكثر مما هو مطلوب، الحصانان يتقدمان على وتيرتهما الخاصة، وإذا دفعهما السائق إلى إسراع الخطى قد يطيعان نزوته بالتدريج، وبطريقة ماهرة، ودون أن يلاحظ أحد يقوم ببيع وآل بخفض سرعتهما، ويقومان بذلك بطريقة متناسقة جداً، إنه سر غامض، لم يسمع أحد أن أحدهما قال للآخر، "أبطئ قليلاً"، ولا أن الآخر أجابه، "بعد المرور من تلك الشجرة".

لحسن الحظ أن المسافرين لم يكونوا في عجلة من أمرهم. في البداية، عندما خرجوا من أرض جيليقيا البعيدة الآن، كانوا كمن ينفذ جدولاً زمنياً، ويتبع طرقاً محددة لا يجب الابتعاد عنها، بل كان لديهم إحساس بالاستعجال، كما لو كان على كل واحد منهم أن يصل في الوقت المناسب لإنقاذ أبيه من حبل المشنقة والوصل إلى سقالة الإعدام قبل أن يفتح الجراد الطبلية. الأمر هنا لا يتعلق لا بالأب ولا بالأم؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن هؤلاء، عدا ما نعرفه عن أم ماريا جوافايرا، والتي المجنونة ولم تعد في مستشفى

لاكورونيا، أو ربما عادت من جديد بعد أن زال الخطر. عن الأمهات الأخريات والآباء الآخرين، القدامى والحديثين، لم يكشفوا لنا شيئاً، وعندما يصمت الأبناء يجب أن تصمت الأسئلة أيضاً، وكذلك يتوقف جمع المعلومات، فالعالم في الحقيقة يبدأ وينتهي في كل واحد منا، إذا لم يكن في هذا التصريح ما ينال من روح العائلة، والاهتمام بالميراث ونقاء الاسم. تحول الطريق في أيام قليلة إلى عالم خارج العالم، مثل أي إنسان موجود في العالم يكتشف أنه هو عالم في حد ذاته، ليس سهلاً، بل يكفي خلق شيء من العزلة من حوله، مثل هؤلاء المسافرين، يذهبون معاً ووحدهم أيضاً. لهذا لم يكونوا متعجلين، ولهذا أهملوا حساب مسافة الطريق، والراحات للتجارة والراحة، وليس غريباً أن يتوقفوا دون أي سبب سوى الرغبة في ذلك، وهناك دائماً أسباب لذلك، ولا نضيع الوقت بحثاً عن تلك الأسباب. كلنا نصل في النهاية إلى حيث نريد، والمسألة مسألة وقت وصبر، فالأرنب أسرع من السلحفاة، ربما يصل أولاً، على شرط ألا يواجه في الطريق صياداً ببندقية.

نترك سهل ليون، ونسير الآن في أرض كامبوس، حيث ولد وترعرع المبشر الشهير جيرونديو دي كامباتاس، الذي روى أفعاله وأقواله الأب إيسلا الذي لا يقل شهرة عنه، لتعليم الخطباء المختارين والكتاب المبتدئين، لسوء الحظ فإن أحداً لم يستغل أحد هذا الدرس رغم وضوحه. لنختصر الحديث، ونقول

ببساطة أن المسافرين سيذهبون للنوم هذه الليلة في قرية اسمها فيلأالار، ليست بعيدة عن تورو، وتورديسياس، وسيمانكاس، كلها أماكن قريبة جداً من التاريخ البرتغالي، بالمعارك والاتفاقيات والأرشفيف. بما أن جوزيه أنيسو يعمل معلماً، فإنها أسماء تحيى فيه فنانعات سهلة، دون نمو كامل، من ناحية أخرى فإن علومه التاريخية بشكل عام بدائية، فقط بما يكفى إقناع السامعين، الإسبان والبرتغاليين، الذين تعلموا شيئاً من قبل، ولم ينسوا ما تعلموه كله، بالنسبة لسيمانكاس وتورو وتورديسياس، طبقاً للانتشار الإعلامى والاهتمام القومى للكتب الدراسية التى تعتبر وطناً لجانب كما هى للآخر. لكن فيلأالار لا أحد يعرف عنها شيئاً، عدا بدرو أورثى، رغم أنه ينتمى إلى الأراضى الأندلسية، فلديه خبرة من سافر كثيراً، وفى أى زمن، فى كل أراضى شبه الجزيرة، أما قوله بأنه لا يعرف لشبونة، عندما كان هناك قبل شهرين، فإن هذا لا يتعارض مع هذه الفرضية، ربما لم يتعرف عليها، كما لا يتعرف اليوم على مؤسسيها الفينيقيين، وسكانها الرومان، والمسيطرين عليها من القوط، وربما يعرف شيئاً عن تاريخ المسلمين فيها، ولكن عن البرتغاليين فإن معلوماته أكثر تشوشاً.

يجلسون حول النار، وقد جلسوا على هيئة أزواج، جواكيم وماريا، وجوزيه وجوانا، وبدرو وكنستانتي، الليل بارد بعض الشيء، لكن السماء صافية وهادئة، تكاد النجوم لا تظهر؛ لأن القمر الذى بزغ مبكراً

يضىء الحقول المستوية، وبالقرب من هنا، تظهر
أسطح فيلا أزالار، التى لها عمدة عاقل، لم يعترض
على أن يقيموا مخيمهم الإشباني البرتغالى بالقرب
من القرية، رغم المهنة التى يمارسونها، رحل وباعة
متجولين، ومنافسين فى هذه المهنة للتجارة المحلية. لم
يكن القمر عالياً، لكن شكله كان كما نحب أن نراه،
قرص مضىء يوحى بالشاعرية السهلة والمشاعر
الفياضة، كمنخل من الحرير يلقى دقيقاً صافياً من
ضوء الفجر على المشهد المستسلم له. نقول حينئذ، "يا
له من قمر جميل"، ونحاول أن ننسى رعشة الخوف
التي نشعر بها عندما يظهر الكوكب ضخماً، أحمر،
مهدداً، عند منحني الأرض. فبعد آلاف وآلاف السنين،
فالقمر الوليد لا يزال يبدو اليوم كتهديد، علامة على
النهاية، لحسن الحظ أن هذا الإحساس يستمر فقط
لبضع دقائق، يرتفع فيها الكوكب فى السماء، ويصفر
حجمه ويصبح أبيض، فنشعر بالراحة. حتى
الحيوانات تخافه، قبل قليل، عندما ظهر القمر، ظل
الكلب ينظر إليه متصلباً ومشدوداً، ربما كان يريد أن
ينبجه لولا أحياله الصوتية المفقودة، لكن شعره انتفش
بكامله كما لو كانت يد باردة دغدغت ظهره بالاتجاه
العكسى. إنها لحظات يخرج فيها العالم عن مركزه،
وننتبه إلى أنه لا شيء آمن، ولو أمكننا أن نصرخ
بأعلى صوتنا بما نحس به فسنقول، بكل الرغبة
المتجذرة فينا، "لقد نجونا فى آخر لحظة".

سنعرف الآن حكايات قرية فيلا أزالار التى يعرفها
بدرو أورثى، عندما ينتهى العشاء، بينما ترقص النار

فى الهواء الساكن، ينظر المسافرون إليها بتأمل، يمدون أيديهم نحوها كما لو كان ذلك واجباً عليهم أو للاستسلام للنار، هناك سر قديم فى هذه العلاقة بيننا وبين النار، حتى والسماء فوقنا، النار ونحن داخل الكهف البدائى، السجن والرحم معاً. اليوم دور جوزيه أنيسو فى غسيل الأطباق، لكن ليس هناك ما يدعو للعجلة، الوقت وقت هدوء وساعة لطيفة، يُلقى اللهب بضوئه على الوجوه التى لوحها الهواء، فتحول لونها إلى اللون الذى تتركه الشمس عليها عند الشروق، للشمس طبيعة أخرى، إنها حية، ليست ميتة كالقمر، هذا هو الفارق.

يقول بدرو أورثى، "قد لا تعرفون ما سأقوله، منذ وقت طويل جداً وقعت فى ضواحي فيلاالار معركة كبيرة، كان ذلك فى العام ١٥٢١، وترجع أهميتها إلى نتائجها أكثر من أهمية عدد ضحاياها، لو انتصر من خسروها، لكان الأحياء حالياً قد ورثوا عالماً آخر". يعرف جوزيه أنيسو المعارك الكبرى جيداً، خاصة تلك التى تركت بصماتها على وجه التاريخ، ولو طُلب منه ذكر بعضها لقال دون تردد عشرة أسماء، بادئاً بشكل تقليدى بماراتون ولاس تيرموبيلاس، ودون ترتيب تاريخى، أوستيرليتز وبورودينو، والمارنى، ومونتي كاسينو، ولاس ارديناس، والعلمين، وبويتيريس، والقصر الكبير، وأيضاً موقعة البشارة، التى لا تعنى شيئاً للعالم، أما بالنسبة لنا فهى كل شىء، جاءت كل هذه متزاوجة دون سبب خاص، أنهى جوزيه أنيسو

حديثه بالقول، "لكن معركة فيلأالار لم أسمع عنها مطلقاً". شرح بدرو أورثي، "هذه المعركة وقعت عندما تمردت الأقاليم الإسبانية على الإمبراطور كارلوس الخامس، الملقب بالأجنبي، ولكن ليس بسبب أجنبيته، لأنه في القدم كان عادياً جداً أن ترى الشعوب ملوكاً يدخلون على أبوابهم ويحدثونهم بلغة أجنبية، لقد كانت كلها تجارة بين العائلات الملكية يلعبون بشعوبهم وبيلاذ أخرى، ولن أقول إن أوراق اللعب أو الكوتشينة، اخترعوها لأسباب لها علاقة بالميراث الملكي، بكل ما فيها من تحالفات خفية وأشياء لها علاقة بالزواج، لذلك لن نقول إن تمرد الأقاليم كان ضد الملك الدخيل، ولا حتى سنصورها على أنها المعركة الكبرى بين الفقراء والأثرياء، كنا نتمنى أن تكون كل هذه الأشياء، وأشياء أخرى، بسيطة كما يفسرونها، ولكن المسألة أن النبلاء الإسبان لا يعجبهم العجب، لا شيء، وأن الأجانب الذين رافقوا الإمبراطور كان يمكنه أن يوزع عليهم المناصب والمكاتب، ولكن كانت أولى قراراته للسلادة الجدد زيادة الضرائب، إنه العلاج الناجع لدفع تكاليف الرفاهية والمغامرات، والآن نقول إن أول مدينة تمردت كانت طليطلة، وبعدها جاء من يتبع ما حدث، تورو ومدريد وأفيلا، وصورية وبورجوس وسلمنقا، وأكثر فأكثر، لكن أسباب تمرد كل مدينة كان مختلفاً عن أسباب تمرد الأخرى، تطابقت الأسباب أحياناً، بالطبع، ولكن أسباباً أخرى تعارضت، وإذا كان هذا حدث مع المدن فإن الأشخاص الذين

يسكنونها حدث مع مواقفهم الأمر نفسه، هناك فرسان دافعوا فقط عن مصالحهم وتطلعاتهم، ولذلك كانوا يغيرون مواقعهم طبقاً لاتجاه الريح والمصلحة، حسن، وكما يحدث دائماً، كان الشعب غارقاً في كل هذا لأسباب خاصة بمصالح لا يد له فيها، حدث ويحدث هذا منذ بدء الخليقة، ولو كانت الشعوب كلها شعباً واحداً، كان من الممكن أن تكون النتيجة شيئاً آخر، لكن الشعب ليس واحداً، إنها فكرة من الصعب وضعها في رءوس الناس، دون أن نقول لهم إن الشعوب تعيش عادة في خداع دائم، كم من المرات حملوا نوابهم بأصواتهم إلى كراسيهم في البرلمان، وعندما يصلون إلى هناك، تبدأ الرشوة أو التهديد، فيصوت نواب الشعب لصالح تحقيق رغبة من يأمرهم، المدهش أنه رغم كل الغضب والتناقضات، تمكنت الأقاليم من تنظيم ميليشيات والذهاب إلى الحرب لمواجهة جيش الملك، ولذلك ما كان يمكننا أن نقول إن هناك معركة خاسرة أو منتصرة، كانت معركة فيلألار آخر معركة ضائعة، لماذا؟، كما هو دائماً، كانت هناك أخطاء، وعدم الكفاءة والخيانات، وتعبت الناس من انتظار الجندية ففادرت أرض المعركة، بدأت المعركة وانتهت، بعضهم كسبها وبعضهم خسرها، ولم يعرف أحد مطلقاً عدد ضحاياها الذين سقطوا هنا، بحسابات هذا الزمان الحديث لم يكونوا كثيرين، هناك من يقول إنهم ألفان، وهناك من يقسم أنهم لم يتعدوا الألف، وهناك من يقول لم يتعدوا المائتين، لم

يعرف ولن يعرف أحد، إلا إذا خطر على بال أحدهم في يوم من الأيام نبش هذه الأرض المقبرة وتعداد الجماجم المدفونة، أما تعداد المخلّفات الأخرى من عظام فإنه لن يفيد شيئاً أكثر من زيادة التشوش، ثلاثة من قادة الأقاليم جرت محاكمتهم في اليوم التالي، وصدرت ضدهم أحكام بالموت، وقُطعت رءوسهم في ساحة فيلأالار، أسماؤهم: خوان دي باديا من طليطلة، وخوان برافو من شيجوبيه، وفرانثيسكو مالدونادو من سلمنقا، كانت تلك معركة فيلأالار، لو كان كسبها من خسرها لتغير مصير إسبانيا، بقمر مثل هذا من كان يمكنه أن يتخيل ما كان يمكن أن يكون عليه الليل والنهار يوم المعركة، إنه المطر، كانت الحقول غارقة، فكانوا يقاتلون وأجسادهم مدفونة في الوحل، مؤكد أنه بحسابات الزمن الحديث، فإن من ماتوا كانوا قلة، ولكن لى الرغبة فى أن أقول إن القلة من الناس الذين ماتوا فى الحروب القديمة لهم قيمة أكبر فى التاريخ عن مئات الآلاف والملايين الذين يسقطون فى القرن الحاضر، ولكن ما لا يتغير هو القمر، فهى يغطى فيلأالار كما يغطى اويسترلنز أو ماراتون، أو...، قال جوزيه أنايسو، "أو القصر الكبير"، سألت ماريّا جوافايرا، "آية معركة كانت تلك؟"، أجابها جوزيه أنايسو، "وهذه أيضاً لو كسبها من خسرها ما كان يمكننا أن نتخيل ما يمكن أن تكون عليه البرتغال اليوم"، قال بدرو أورثي، "قرأت مرة فى أحد الكتب أن ملككم مانويل دخل هذه الحرب"، فى

الكتب التى أعلمها لا يتحدثون عن أن البرتغاليين كانوا فى حرب مع إسبانيا فى تلك الفترة، "لم يأت البرتغاليون بأنفسهم، جاء خمسون ألفاً من الصليبيين الذى أعارهم ملككم للإمبراطور"، آه، حسن" قال جواكيم زازا، خمسون ألفاً من الصليبيين للجيش الملكى، لهذا خسرت الأقاليم الحرب، الصليبيون يكسبون دائماً.

حلم الكلب كونستانتي فى تلك الليلة أنه ينتشل من أرض المعركة عظاماً. كان قد جمع مائة وأربع وعشرين جمجمة عندما غاب القمر وأظلمت الأرض. حينها عاد الكلب إلى النعاس. يومان بعد ذلك، كان هناك بعض الأطفال يلعبون فى الحقول لعبة الحرب، وقالوا إن العمدة عثر على كومة من الجثث فى حقل القمح، ولم يعرف أحد أبداً كيف ظهرت هناك، معاً. لكن أولئك البرتغاليين والإسبان الذين جاءوا بالعربة ورحلوا، تقول عنهم نساء فيلالار، "من ناحية السعر والنوع كانوا أكثر الناس أمانة من بين كل من مروا من هنا".



- ٢٠ -

قال القدماء: خيراً تفعل شراً تجد، وهم محقون، على الأقل استغلوا أوقاتهم للحكم على الوقائع الجديدة على ضوء ما اعتبروه وقتها أحداثاً قديمة، خطؤنا المعاصر هو موقفنا المتشكك في علاقتنا بالدروس القديمة. قال رئيس الولايات المتحدة إنه سيتم الترحيب بشبه الجزيرة في حال وصولها إلى هناك، أما الكنديون فلم يعجبهم هذا. المسألة أن الكنديين قالوا إنه إذا لم يتغير اتجاه الإبحار فسنكون نحن من يستضيف شبه الجزيرة، وحينها سيكون هناك عالمان جديدان لا واحداً، وسكان شبه الجزيرة المساكين لا يعرفون ما ينتظرهم هناك، البرد القاتل والجليد، المكسب الوحيد أن البرتغاليين سيكونون هناك أقرب إلى سمك الباكلاو، الذي يحبونه كثيراً، ما يفقدونه من صيف قد يكسبونه في الطعام.

أسرع المتحدث الرسمي للبيت الأبيض ليوضح بأن تصريحات الرئيس كانت بدوافع إنسانية، دون أن تكون هناك دوافع سياسية؛ لأن الدولتين اللتين تشكلان شبه الجزيرة لم تفقدا سيادتهما واستقلالها بسبب إبحارهما على المياه، وأنه سيأتى اليوم الذى ستتوقفان فيه، وحينها سيكون وضعهم مثل بقية دول العالم، وأضاف، "من جانبنا نضمن رسمياً أن تسود الروح التقليدية لحسن الجوار بين الولايات المتحدة وكندا وألا تتأثر لأى سبب، وتعبيراً عن حسن الجوار مع الأمة الكندية، نعرض عقد قمة ثنائية لدراسة الوجوه المتعددة، فى ظل الأوضاع المأساوية التى تعيشها السياسة والإستراتيجية العالميتان، كخطوة أولى لتشكيل الواقع الدولى الجديد المكون من الولايات المتحدة وكندا، ولذلك فإن الدولتين الأيبيريتين ستدعوان للمشاركة فى الاجتماع بصفة مراقبين؛ لأنهما لا يزالان بعيداً فيزيقياً بحيث لا يمكن التعامل معهما على أنهما واقع، ويمكنهما من الانضمام إلينا".

قبلت كندا علناً تلك الإيضاحات، لكنها قالت إنها لا تعتبر أن الوقت مناسب لعقد القمة فوراً، وبالطريقة التى تم طرحها، لأنها يمكن أن تسيء إلى الإحساس القومى لإسبانيا والبرتغال، وكبديل عن ذلك، تطرح عقد مؤتمر رباعى لدراسة الآثار التى يمكن أن تنتج عن الاصطدام العنيف لشبه الجزيرة عند اقترابها من الشواطئ الكندية. وافق الأمريكيون على الاقتراح فوراً، وشكر زعمائهم فى أحاديثهم الخاصة الله على

خلقه لجزر الأزور، لأنها منعت انحراف شبه الجزيرة باتجاه الشمال، واستمرت حركتها في خط مستقيم منذ انفصالها عن أوروبا، من هنا فإن مدينة لشبونة ستدخل من نوافذ مدينة أتلانتيك سيتي، وبعد تفكير وتفكير توصلوا إلى خلاصة مفادها أنه كلما توجهت شبه الجزيرة شمالاً كان أفضل، تخيلوا أن مدناً مثل نيويورك وبوستون وبروفيدنس وفيلادلفيا وبالتيمور يمكن أن تتحول إلى مدن داخلية، وما يتبع ذلك من انخفاض في مستوى معيشة السكان، لا يوجد شك في أن الرئيس الأمريكي تعجل عندما أدلى بتصريحاته الأولى. وفي تبادل جديد للمذكرات الدبلوماسية السرية، والتي تبعها لقاءات سرية أيضاً بين سلطات الدولتين، كندا والولايات المتحدة، أعلنتا اتفاقهما على أنه من الأفضل إيقاف شبه الجزيرة في نقطة قريبة منهما لإبعادهما عن النفوذ الأوروبي، وبعيداً عنه بشكل كاف حتى لا تؤثر على المصالح الآنية والبعيدة للكنديين والأمريكيين، وقد أسفر كل هذا عن دراسة أجريت لمعرفة تأثير هذا على قوانين الهجرة، وتقوية علاقاتهما الثقافية؛ حتى لا يعتقد الإسبان والبرتغاليون أنه من السهل عليهم الاختلاط بهم بسهولة، بحجة أنهم أصبحوا جيراناً.

احتجت حكومتا البرتغال وإسبانيا على ما اعتبرته اعتداء على استقلالهما من جانب القوتين الكبيرتين، وعلى مصالحهما ومصيرهما، وكانت الحكومة البرتغالية الأكثر احتداداً في الاحتجاج؛ لأنها وجدت نفسها مجبرة على ذلك، لأنها حكومة. إنقاذ

وطنى. وبفضل مبادرة من الحكومة الإسبانية، بدأت المشاورات بين بلدى شبه الجزيرة لتنسيق سياستهما التى تتركز على الخروج من الوضع الحالى بأفضل وسيلة ممكنة، إلا أنهم فى مدريد كانوا يخشون أن تذهب الحكومة البرتغالية وفى ذهنها الحصول على منافع خاصة مستقبلية، بسبب اقترابها من الشواطئ الكندية والأمريكية. ومعروف، أو يُعتقد، أنه بين بعض الأوساط السياسية البرتغالية يوجد تيار يفضل تفاهماً ثنائياً مع جيليقا بشكل غير رسمى، وهو أمر بالطبع لا يمكن أن ترضى به الحكومة المركزية الإسبانية، مهما حاولت التمويه على ذلك، بل وهناك من يقول، بسخرية، وقد نُشر هذا التوجه، إن كل هذا ما كان يمكن أن يحدث لو كانت البرتغال تقع بالقرب من البرانس، بل وكان الأفضل، أن تظل مرتبطة بها عند لحظة الانفصال؛ لأنها طريقة ما للتخلص وللأبد من الصعوبة التى تواجه أن يكون المرء أيبيريا، ولكن الإسبان يخدعون أنفسهم هنا؛ لأن الصعوبة ستظل، ولن نقول أكثر من هذا. يجرى حساب الأيام المتبقية على الوصول إلى العالم الجديد، ويدرسون خططاً حتى يمكن للقوى المتحاربة أن تمارس عملها بشكل كامل وفى لحظة مناسبة، لا مبكراً ولا متأخراً، وهو شىء، من ناحية أخرى، يمثل قاعدة ذهبية فى فن الدبلوماسية.

بعيداً عما يجرى فى كواليس السياسة من مؤامرات، تواصل شبه الجزيرة إبحارها باتجاه الغرب،

تماماً وكما حدث منذ انسحاب جزيرة كورفو وما أكده جميع المراقبين من مختلف التوجهات، سواء كانوا من أصحاب الملايين أم من العلماء، الذين قرروا الإقامة هناك لمشاهدة مرورها. كان المشهد مذهلاً، يكفى القول إن أقصى نقطة من شبه الجزيرة مرت على مسافة أقل من خمسمائة من متر من جزيرة كورفو، فتحركت المياه بشكل قوى، وبدت كما لو كانت سهماً فى أوبرا من تأليف فاجنر، لكن أفضل مقارنة كان يمكن أن تكون أخرى، وهى أن نكون نحن فى البحر، فى قارب صغير، وأن نشاهد على بعد أمتار منا مرور تلك الكتلة الضخمة التى تشبه ناقلة بترولية فارغة، يبرز الجزء الأكبر منها خارج الماء، إنه أمر يصيب بالدوار، مدهش، كادوا يركعون ضارعين، معلنين توبتهم ألف مرة عن مروقهم وكل ما فعلوه من شرور، قاله موجود، ويسكن فى أرواح البشر، وحتى المتحضرين منهم، ويمكن الإحساس به عبر تغير أحوال الطبيعة القاسية.

لكن بينما تكمل شبه الجزيرة هكذا دورها فى الحركة فى العالم، فإن المسافرين كانوا قد مروا من بوجوس، وتجارتهم مزدهرة إلى درجة أنهم خرجوا بذات الحصانين على الطريق العام، وهو الطريق الأفضل دائماً. وهناك فى الأمام، بعد المرور من خيستيس، عادوا إلى الطرق التى تخدم القرى الصغيرة، حيث تصبح العربة جزءاً من مشهدها الطبيعي، عربة تجرها الخيول فى طرق ريفية، وليس

ذلك المشهد الغريب والمزعج لتسببها في تأخير الحركة على الطرق المخصصة للسرعات الكبيرة، والسرعة المحتملة على أساس خمسة عشر كيلومتراً في الساعة، هذا في حالة ألا تكون هناك مطالع، وتكون الحيوانات في حالة طيبة. العالم الأيبيري متغير جداً إلى درجة أن رجال المرور، الذين شاهدوا هذا المشهد، لم يوقفوهم، ولم يحرروا لهم محاضر، بل كانوا يجلسون على دراجاتهم البخارية ويلوحون بأيديهم ويتمنون لهم رحلة طيبة، وفي بعض الأحيان يسألونهم عن معنى ذلك اللون الأحمر في الغطاء، خاصة إذا كانوا على الجانب الذي يظهر فيه المربع الأحمر. كان المناخ جيداً، لم تمطر منذ أيام، حتى اعتقدنا أننا عدنا إلى الصيف مرة أخرى لولا الرياح والبرد، الذي ينذر بخريف حقيقي، خاصة حين نكون بالقرب من الجبال العالية. عندما اشتكت المرأتان في يوم من الأيام من الهواء القارس، كان جوزيه أنايسو يلمح دون إصرار إلى أن هذا نتيجة لاقتربهم من الجبال العالية، حتى إنه قال، "لو توقفنا في تيرانوفا ستنتهي الرحلة، وحتى نواجه الحياة في الهواء الطلق يجب أن نكون مثل الإسكيمو"، لكنهن لم تعيراه اهتماماً؛ ربما لأنهن لم تكن قد شاهدن الخريطة.

وربما لأنهن لم تكن تتحدثن عن البرد الذي يشعرن به، بل عن برد آخر أقوى من أي إنسان، من يمكنه أن يشعر، ليس بنفسه، حقيقة، فلديهن كل ليلة حرارة رجالهن، وأيضاً خلال النهار عندما تسمح

الظروف بذلك، فكم من مرة كان زوج منهما إلى جوار بدرو أورثي، بينما الزوج الآخر راقداً باهتزازات مسير العرية ذات الحصانين، وبعدها يظهران نصف عاريين: الرجل والمرأة بعد أن أشبعوا رغباتهما المفاجأة أو أجلا تلك الرغبة. من يعرف أنه داخل هذه العرية يسافر خمسة أشخاص موزعين هكذا بسبب الجنس، يمكنه أن يعرف، من خلال تجاربه الحياتية، ما يحدث تحت الفطاء، طبقاً لتشكيل المجموعة التي تجلس على المقدمة، مثلاً، لو كان يسافر عليه ثلاثة رجال، فيمكنه أن يراهن على أن المرأتين تقومان بأعمال منزلية، وبشكل خاص الحياكة، أو كما قيل من قبل، يسافر رجلان وامرأة، فإن المرأة الأخرى والرجل الآخر يكونان في حالة حميمية، مع أنه يمكنهما أن يكونا بكامل ملابسهما ويتحاوران فقط. لم تكن تلك كل التشكيلات الوحيدة الممكنة، لكن لا يذكر أحد أنه كان في مقدمة العرية كانت هناك امرأة مع رجل ليس رجلها؛ لأنه في هذه الحالة يقوم رجلها بعمل آخر كفرد الفطاء مثلاً، وهذا ما يجب تجنبه حتى لا يقولون عليهما. هذا التخطيط ثبت بشكل ذاتي، ولم يكونوا في حاجة إلى عقد جلسة حوار عائلية لمناقشة الطريقة التي يمكن من خلالها الحفاظ على الأخلاق داخل وخارج الفطاء، وما يمكن أن ينتج عن ذلك من آثار حسابية، ففي معظم الأحيان يسافر بدرو أورثي في المقدمة، عدا في مناسبات قليلة يخلد فيها الرجال إلى الراحة في وقت واحد وتقود المرأتان؛ أو عندما

تكون الحواس فى حالة سلام، يمكن أن يذهب فى المقدمة زوج، فيما يبقى الآخرون فى حالة أقل حميمية، وهى حالات يمكن أن تثير بدرو أورثى، وتجرح شعوره فيما يرتاح فى مكانه الضيق المتعارض، قالت ماريا جوافايرا لجوانا كاردا عندما كان جوزيه أنايسو يتحدث عن برد تيرانوفا، وضرورة أن يكون من الإسكيمو لتحمل البرد، "مسكين بدرو أورثى"، ووافقتها جوانا كاردا، "مسكين بدرو أورثى".

غالباً ما كانوا يخيمون قبيل الغروب، يحبون اختيار مكان جيد، قريب من الماء، وعلى مرأى من السكان كلما أمكن ذلك، وإذا أعجبهم مكان كثيراً ما يخيمون حتى لو كانت الشمس لا تزال أمامها ساعتان أو ثلاث حتى تغرب. تعلموا درس الخيول جيداً، باستغلال جيد بشكل عام، والحيوانات تستريح الآن أكثر لأن البشر تخلصوا من عدم الصبر الإنسانى وسرعته. لكن منذ أن قالت ماريا جوافايرا فى ذلك اليوم، "مسكين بدرو أورثى"، خيم على العربة مناخ مختلف خلال الرحلات، وعلى الأشخاص الذين يرحلون داخلها. يدفعنا هذا إلى التفكير أن جوانا كاردا سمعت الكلمات التى قيلت فقط، وأنها بتكرارها سمعتها بدورها ماريا جوافايرا، وعرفنا نحن أن كليهما احتفظت بها لنفسها، وأن هذا ليس موضوعاً للحوار العاطفى لخصناه حينها فى كلمة واحدة، عندما تُقال، تستمر أطول من الصوت أو الأصوات

التي تتكون منها، وتظل هناك، خفية وغير مسموعة لتحمي سرها الخاص، كنوع من البذرة الخفية تحت الأرض، تختمر بعيداً عن الأعين، إلى أن تتفتح الأرض فجأة وتخرج إلى الضوء في شكل جذع ملفوف، ورقة مكرمشة تتفتح ببطء. بعد أن خيموا، وحلوا الحصانين من حمل العربية والأربطة، أشعلوا النار، وقاموا بأفعال وإشارات أصبحت من تكرارها عادية ولها معناها الخاص، طبقاً للمهام الموزعة على كل واحد منهم. ولكن عكس ما كان معتاداً منذ البداية، لم يكونوا يتحدثون كثيراً، ومؤكد أنهم هم أنفسهم سيندهشون لو أخبرناهم بذلك، "مر وقت طويل دون أن تتبادلوا كلمة واحدة"، حينها سينتبهون للطبيعة الغريبة لذلك الصمت، أو يجيبون كمن لا يريد أن يعترف بحقيقة واقعة، ويبحث عن تبرير لا قيمة له، "أحياناً يحدث هذا، في الحقيقة لا يمكن أن نظل نتحدث بشكل دائم". لكن لو نظرنا في وقت واحد إلى بعضهم البعض، كما ينظرون إلى المرأة، فإن اندفاعهم والخوف من أن تخرج كلماتهم فارغة من معانيها. وإن كان علينا أن نوضح أنه في النظرات المتبادلة ما بين ماريا جوافايرا وجوانا كاردا كانت هناك معانٍ مفهومة بينهما، إلى درجة أنهن لا تحتملن تبادل تلك النظرات كثيراً، فيبعدن عيونهن.

اعتاد بدرو أورثي، بعد الانتهاء من المهام الموكولة إليه، أن يبتعد عن المخيم مع الكلب كونستانتي، كان يقول لاستطلاع المكان المحيط بهم. وكان يتأخر كثيراً،

ربما بسبب خطواته البطيئة، وربما لأنه كان يقوم بجولات واسعة، وربما يظل جالساً على أحد الأحجار متأملاً نهاية المساء، بعيداً عن أعين الرفاق. فى أحد الأيام، قبل قليل، قال جواكيم زازا، "إنه يريد أن ينفرد بنفسه، ربما يشعر بالحزن"، وعلق جوزيه أنيسو، "لو كنت مكانه من المحتمل جداً أن أفعل مثله". كانت المرأتان قد فرغتاً من غسل بعض الملابس وعلقتها فى حبل ممدود بين قوس الغطاء وفرع شجرة، سمعن وسكتن؛ لأن الحوار لم يكن معهن. بعدها بأيام قليلة وعلى أثر كلام ماريا جوافايرا عن الشعور بالبرودة، قالت لجوانا كاردا، "مسكين بدرو أورثى".

كانوا يشعرون بالوحدة، إنها حالة شاذة أن يشعروا بأنهم وحدهم، فى انتظار أن ينضج الحساء، كان النهار لا يزال فى أوجه، ولاستغلال الوقت قام جوزيه أنيسو وجواكيم زازا بالتفتيش على حالة أربطة الخيول، فيما كانت المرأتان تقمن بحساب ما تم بيعه، حسابات يجرى بعد ذلك إدراجها فى كتب المحاسب جواكيم زازا. ابتعد بدرو أورثى، اختفى بين تلك الأشجار قبل عشر دقائق، وذهب معه الكلب كونستانتي كما هى العادة. لم يكن هناك شعور بالبرودة، وربما كان النسيم الجارى آخر أنفاس الخريف، أو وربما كنا نحن من نشعر بذلك بعد تلك الأيام القارصة التى مرت. قالت ماريا جوافايرا، "علينا أن نشترى مرايل، ما تبقى منها قليل؟"، وبعد أن قالت ذلك رفعت رأسها ونظرت باتجاه الأشجار،

تحرك الجسد الجالس، كاندفاع أولى مكتوم وبعدها أصبح حرا، لم يكن هناك شيء مسموع سوى حركة أفواه الحصانين، حينئذ وقفت ماريا جوافايرا وذهبت باتجاه الأشجار، باتجاه المكان الذى خرج إليه بدرو أورثى. لم تنظر خلفها، ولا حتى عندما سألها جواكيم زازا، "إلى أين أنت ذاهبة؟"، ولا حتى انتظرت حتى يكتمل السؤال، ولكنها تركته معلقاً فى الهواء، يمكننا القول إن الرد الذى سبق السؤال كان بليفاً ولا يحتمل الاعتراض. بعد بضع دقائق ظهر الكلب، رقد تحت العربة، ابتعد جواكيم زازا بضعة أمتار، كان يبدو عليه أنه يتفحص أعشاباً فى البعيد، وجوزيه أنيسو وجوانا كاردا لم ينظر أى منهما إلى الآخر.

وأخيراً عادت ماريا جوافايرا عندما كانت تسقط آخر ظلال المساء. جاءت وحدها. اقتربت من جواكيم زازا، إلا إن هذا أدار لها ظهره بعنف. خرج الكلب من تحت العربة واختفى. أشعلت جوانا كاردا المصباح، وأخرجت ماريا جوافايرا الحساء من على النار، وضعت زيتاً فى المقلاة، ووضعت على الكانون، انتظرت إلى أن سخن الزيت، فيما كانت تكسر بعض البيض، ضربته، ووضعت بعض قطع السجق، وانتشرت بعدها فى الهواء رائحة كان يمكنها فى أوقات أخرى أن تسيل لعابهم جميعاً. إلا أن جواكيم زازا لم يأت ليتناول عشاءه، نادى عليه ماريا جوافايرا لكنه لم يأت. تبقى بعض الطعام، لم يكن لدى جوانا كاردا وجوزيه أنيسو شهية، وعندما عاد بدرو أورثى، كان المخيم قد أظلم،

لم يكن هناك سوى بعض البصيص في النار. نام جواكيم زازا تحت العرية، لكن الليل بدأ يشعر بالبرد، كانت البرودة تأتي من الجبال دون رياح، كتلة من الهواء البارد. حينئذ طلب جواكيم زازا من جوانا كاردا أن تنام مع ماريّا جوافايرا، دون أن يذكر اسمها، قال، "نامي إلى جوارها، أنا سأبقى مع جوزيه"، وكما لو كان الوقت مناسباً للسخرية، أضاف، "ليس هناك خطر منها، كلنا هنا أناس جادون، لا خطر من الاختلاط". عندما عاد بدرو أورثي، صعد إلى مقدمة العرية، ودون أن يعرف أحد السبب، وجد الكلب كونستانتي طريقة ليصعد إلى جواره، وكانت تلك أول مرة.

قضى بدرو أورثي اليوم التالي كله على كرسى مقدمة العرية. إلى جانبه جوزيه أنايسو وجوانا كاردا، وبداخل العرية كانت ماريّا جوافايرا وحدها. انتظم الحصانان في خطوهم، وعندما تكون لديهما رغبة في الإسراع كانا يفعلان ذلك دون حاجة إلى دفعهما إليه، وكان جوزيه أنايسو يحاول كبح إسرعهما، فيما كان جواكيم زازا يسير على قدميه، خلف العرية، متخلفاً عنها. قطعوا في ذلك اليوم كيلومترات قليلة. كان الوقت في منتصف المساء عندما أوقف جوزيه أنايسو ذات الحصانين في مكان كان يبدو مشابهاً تماماً للمكان الآخر، وبدا كما لو لم يخرجوا من هناك أو أنهم داروا دورة كاملة وعادوا إليه، حتى الأشجار تبدو نفسها. لم يظهر جواكيم زازا حتى وقت طويل بعد ذلك، عندما كانت الشمس تسقط في الأفق.

شاهدوه يقترب، ابتعد بدرو أورثي، حتى اختفى بين الأشجار، وتبعه الكلب. كانت النار تشتعل عالياً، لكن الوقت كان مبكراً على إعداد العشاء، إضافة إلى أن الحساء كان معداً، وكانت هناك بقايا البيض بالسجق الفائض من اليوم السابق. قالت جوانا كاردا لماريا جوافايرا، "سأذهب غداً، عليكم أن تعطوني نصيبي من النقود، وأشيري لي أين نحن على الخريطة، هل توجد محطة قطار بالقرب من هنا؟". وقفت حينها جوانا كاردا وذهبت باتجاه الأشجار، حيث اختفى بدرو أورثي والكلب، لم يسألها جوزيه أنايسو، "إلى أين أنت ذاهبة؟". بعدها بدقائق قليلة ظهر الكلب ورقد تحت العربة. بعد وقت ليس بالقليل عادت جوانا كاردا، ويرفقتها بدرو أورثي، الذي كان يقاوم العودة، لكنها كانت تجذبه برقة، كما لو لم تكن تحتاج إلى بذل مجهود كبير، أو كانت قوتها مختلفة. وصلا أمام النار. بدرو أورثي ينعكس رأسه، وشعره الأبيض منكوش وتحت ضوء النهار والنار تتراقص على وجهه، وجوانا كاردا التي كانت بلوزتها خارج جانب من البنطلون، قالت، وانتبهت إلى ذلك خلال حديثها، ودون أن تتوقف عن الكلام، أصلحت حالها دون أن تبدى اهتماماً غير عادي، "العصا التي رسمت بها خطأ على الأرض فقدت سجرها، ولكنها تصلح لرسم خط آخر هنا، ولنعرف من سيبقى على جانب ومن الذي سيبقى على الجانب الآخر، إذا لم نستطع البقاء على جانب واحد؟"، قال جواكيم زازا، "أنا الأمير سيان عندي،

سأذهب غداً"، وقال بدرو أورثي، "لا، أنا من سيذهب"، وقالت جوانا كاردا، "لقد تجمعنا في يوم ما ويمكننا الانفصال على الطريقة نفسها، لكن إذا كان علينا أن نبحث عن مذهب لتبرير الانفصال، فالذهب ليس ذنب بدرو أورثي، وإذا كان من يتحمل المسؤولية فإنها مسئوليتنا نحن، ماريا جوافايرا وأنا، ولو كنتم في حاجة إلى تفسير ما فعلنا، فهذا لأننا كنا جميعاً مخطئين منذ اليوم الذي تعارفنا فيه"، قال بدرو أورثي، "سأذهب غداً"، قالت ماريا جوافايرا، "لا لن تذهب، وإذا ما ذهبت فمن المؤكد أننا سنتفرق جميعاً، لأنهما لن يكونا قادرين على البقاء معنا، ولا نحن معهما، وهذا ليس لأننا لا نحب بعضنا، ولكن سيكون حينها لأننا لسنا قادرين على أن يفهم كل منا الآخر". نظر جوزيه أنيسو باتجاه جوانا كاردا، ومد يديه فجأة باتجاه النار كما لو كان قد شعر بالبرد فجأة، وقال "أنا سأبقى". سألت ماريا جوافايرا، "وأنت؟ ستذهب أم ستبقى؟". لم يجب جواكيم زازا على الفور، حك رأس الكلب الذي اقترب منه، ثم مرر أنامل أصابعه على الطوق الصوفي الأزرق، وفعل الأمر نفسه مع الحلقة المحيطة برسغه، وأخيراً قال، "سأبقى، لكن بشرط واحد". ولم يكن عليه أن يقول ما هو، فقد كان بدرو أورثي يتحدث، "أنا عجوز، أو تقريباً عجوز، أنا في ذلك العمر الذي لا وصف له، لكنني عجوز أكثر مني شاباً"، يبدو أنك لست عجوزاً بما فيه الكفاية"، ضحك جوزيه أنيسو، وكانت ضحكته هستيرية، "إنها

أشياء تحدث، وتحدث بشكل لا يجعلها تتكرر، كان يبدو أنها ستستمر لكنه انتبه إلى أنه قال كل شيء، حرك رأسه وابتعد من هناك حتى يتمكن من البكاء. كان بكاؤه قليلاً أم كثيراً لا أحد يعرف، وللبيضاء كان عليه أن يكون وحيداً. ناموا في تلك الليلة جميعاً في العرية، لكن الجراح كانت لا تزال تتزف، بقيت المرأتان معاً، والرجلان المخدوعان معاً، أما بدرو أورثي، فقد كان متعباً، وأمضى الليلة يحلم، كان يرغب في تغيير قلبه، إلا أن الطبيعة كانت أقوى.

أيقظتهم العصافير مبكراً، أولاً، وقبل أن تظهر الشمس، خرج بدرو أورثي من الجانب الأمامي للعرية، وبعده جواكيم زازا وجوزيه أنيسو من الخلف، وأخيراً المرأتان، كما لو كانوا جميعاً قد جاءوا من عوالم مختلفة والتقوا لأول مرة هنا. في البداية ودون أن يلتفتوا إلى بعض تقريباً إلا بنظرة جانبية، حتى يمكن القول إن رؤية الوجه كاملاً كان شيئاً غير محتمل، وكان هذا أكثر من طاقتهم على الخروج من أزمة هذه الأيام الأخيرة. بعد تناول قهوة الصباح بدأت تُسمع كلمات منفردة، نصيحة بعمل شيء، طلب، أمر صادر بشكل محدد، إلا إن أول مشكلة حساسة ستبدأ الآن، كيف سينتظم المسافرون الآن في العرية؟ مع الأخذ في الاعتبار تعقيد المجموعات المنظمة، وكما استطعنا أن نشرح ذلك من قبل، عن من يكون بدرو أورثي على مقعد القيادة في المقدمة، في هذا لا يشك أحد في ذلك، لكن الرجلين والمرأتين بعد المشكلة التي وقعت لا يمكنهم أن يستمروا منفصلين، وفي إطار هذا الوضع

المعقد، فإنه يجب على جواكيم زازا وجوزيه أنيسو أن يسافرا مع بدرو أورثي في المقدمة، ترى أى حديث يمكن أن يدور بينهم، والأسوأ هو إن ذهبت جوانا كاردا وماريا جوافايبيرا في الأمام مع بدرو أورثي، أى حوار يمكن أن يدور بين المرأتين والسائق؟ وخلال ذلك تحت الغطاء، أى صراع يمكن أن يقع، فالزوجان يسأل كل منهما الآخر، "ماذا يقولون الآن؟". إنها أوضاع مثيرة للضحك عندما نتخيل أنفسنا في حالة هؤلاء التي يمرون بها. لحسن الحظ، لكل عقدة حل، إلا مشكلة الموت. كان بدرو أورثي جالساً في مكانه، يقبض على المقود بيديه وفي انتظار ما يقرره الآخرون، عندها قال جوزيه أنيسو كما لو كان يتوجه بحديثه إلى أرواح غير مرئية هائمة في الهواء، "لتنطلق العربية إلى الأمام، جوانا وأنا سنسير على أقدامنا لبعض الوقت"، وقال جواكيم زازا، "نحن أيضاً". هز بدرو أورثي المقود، وبدأ الحضان بأول جذبة للعربة، ثم الثانية الأكثر حدة، لكن دون أن يسيرا بسرعة حتى لو كانت لديهما رغبة في ذلك؛ لأن العربية توجد الآن على مطلع قوى جداً، بين جبال تنمو على اليسار، فكر بدرو أورثي، "نحن على أعتاب البرانس"، إلا أن الجدية كانت أكبر في هذه الحال كما لو لم يكن هذا المكان الذي جرت فيه الأحداث المناسوية للانفصال التي رويناها من قبل. وخلفه يسير الزوجان، غير متلاصقين؛ بالطبع لأن ما يجب أن يتحدثوا فيه هو حديث بين رجل وامرأة دون شهود.

الجبال ليست مكاناً طيباً للتجارة، وهذه الجبال أقل في هذه الحال من أماكن أخرى؛ نظراً لقلة عدد السكان التي تعتبر سمة عامة لهذه المناطق الجغرافية الوعرة، إضافة إلى هذه الحالة، خاصة الرعب الذي اجتاح السكان الذين لم يعتادوا بعد على فكرة أن جبال البرانس القريبة من هنا ينقصها الجانب الآخر الذي كان يدعمها. تكاد القرى أن تكون خالية، بعضها مهجور تماماً، وصوت عجالات ذات الحصانين على الطرق الحجرية وبين الأبواب والنوافذ المغلقة يولد إحساساً بالكآبة، فكر بدرو أورثي، كنتُ أفضلُ أن أكون في جبال سيرا نيفادا، ملأت تلك الكلمات السحرية المضيئة صدره بالحنين، أو الذكرى، باستخدام اللهجة القشتالية. لو كان يمكن الحصول على نتيجة إيجابية من كل هذا الحزن قد تكون أن المسافرين سينامون الليلة جيداً، بعد ليالٍ عديدة من القلق، ونحن لا نشير هنا إلى ما حدث مؤخراً والذي يقسمُ الأحكام التي تدفعهم الآن إلى محاولة راب الصدع الذي أصاب علاقاتهم، النتيجة الإيجابية ستكون أنه بإمكانهم النوم في تلك البيوت التي هجرها أصحابها، وحملوا معهم ما له قيمة فقط، لكن الأسرة، بشكل عام، تركوها. كم هو بعيد ذلك اليوم الذي رفضت فيه ماريا جوافايرا بعصبية النوم في بيت غريب، نرجو ألا يكون هذا الهدوء بداية للتخلي عن القيم الأخلاقية، بل تكون نتيجة لاستيعاب دروس التجربة القاسية.

سيبقى بدرو أورثى وحده فى أحد تلك البيوت، التى يختارها، وبرفقته الكلب، لو خطر على باله الخروج فى نزهة ليلية، يمكنه أن يخرج ويعود كما يريد، ولن ينام الرجلان هذه المرة منفصلين عن المراتين، وأخيراً سينام جواكيم زازا مع ماريا جوافايرا، وجوزيه أنايسو مع جوانا كاردا، ربما كانوا قد تحدثوا فى كل ما أرادوا الحديث فيه، وربما يواصلون الحديث فى الداخل، لكن لو ظلت الطبيعة الإنسانية كما هى دائماً، سيكون من الطبيعى نتيجة التعب والحزن والرقّة والحب الآنى، أن يقترب الرجل والمرأة، ويتبادلان القبلة الأولى بتخوف، بعدها، مبارك ربنا الذى خلقنا على هذه الشاكلة، يستيقظ الجسد ويطلب الجسد الآخر، سيكون جنوناً، لا تزال هناك آثار الجراح، ولو كان بدرو أورثى يسير فى هذه الساعة بين تلك التلال سيرى بيتين من بيوت القرية مضيئين، تُرى هل سيشعر بالغيرة؟ تُرى هل تفرورق عيناه بالدموع؟ لكنه لن يعرف أنهم سيكون من السعادة ويطلقون عاطفة العشاق المتصالحين. ويكون الغد يوماً آخر حقيقياً، ولن تكون هناك أهمية لتقرير من يكون داخل العربة ومن يجلس على المقدمة، فكل التشكيلات ممكنة وليس هناك شك فى أى منها.



الحصانان متعبان، لا يستطيعان إنهاء المطالع، والطريق معظمها يتجه نحو الصعود، ذهب جوزيه أنايسو وجواكيم زازا للحديث مع بدرو أورثي، بلطف وحرص كبيرين حتى لا يفهم أهدافهما خطأ، أرادا أن يسألاه إن كان يعتبر أنه يكتفى بما شاهده من البرانس أم يريد مواصلة الرحلة حتى أعالي الجبال، أجابهما بدرو أورثي أن المرتفعات لم تكن هدفه، ولكن هدفه رؤية نهاية اليابسة، دون أن يتجاهل أن نهاية اليابسة تعنى دائماً رؤية البحر نفسه، "لهذا السبب لم نمر بمدينة سان سباستيان لأنه لم يكن مهماً رؤية الشواطئ المقتطعة، ولكن الوصول إلى حيث تقطع المياه الرمال من جانب إلى آخر"، قال جوزيه أنايسو، لكن لرؤية البحر من هناك في الأعلى، لا أعرف إن كان الحصانان يستطيعان تحمل ذلك"، "لسنا في حاجة إلى الصعود حتى ألفي أو ثلاثة آلاف متر، حتى

لو كانت هناك طرق صالحة بين القمم، لكن في الحقيقة أريد أن نواصل الصعود، حتى نراه"، فتحوا الخريطة وقال جواكيم زازا، "بالتقريب، من المفترض أن نكون هنا، إنه الأصبع العجوز نافاسكويس وحتى بورجي"، تحرك بعدها باتجاه الحدود، "لا يبدو أنه توجد مناطق عالية من هذه الجهة، فالطريق يسير محازياً نهر أيسكا، ثم يبتعد عنه ويصعد، وفي هذه المنطقة يمكن أن تتعقد الأمور، ففي الجانب الآخر هناك مرتفع يزيد عن ألف وسبعمائة متر"، ربما يوج، كان هناك" قال جوزيه أنيسو، تذكر جواكيم زازا، "بالطبع، لقد كان، سأطلب من ماريا مقصاً لقطع الخريطة عند الحدود"، قال بدرو أورثي، "يمكننا أن نحاول عبر هذا الطريق، ولو كان صعباً على الحصانين يمكننا العودة".

أمضوا يومين حتى يصلوا إلى حيث أرادوا، سمعوا عواء الذئاب في الليل في الأحرار القريبة، وشعروا بالخوف. إنهم أناس ينتمون إلى السهول، ففهموا أخيراً الخطر الذي يقعون تحت رحمته، لو وصلت الوحوش إلى مخيمهم فأول ما تفعله هو قتل الحصانين، وبعدها تستدير نحو البشر، ولم يكن معهم أسلحة نارية للدفاع عن أنفسهم. قال بدرو أورثي، "نتعرض لهذه الأخطار بسببي، فلنعد"، لكن ماريا جوافايرا أجابته، "علينا أن نواصل، فلدينا الكلب للدفاع عنا"، ذكَّرها جواكيم زازا، "كلب واحد لا يستطيع أن يفعل شيئاً في مواجهة قطع من الذئاب"،

"هذا الكلب نعم يستطيع"، ومهما كانت الحالة غير عادية يبدو أنها تعرف بخصوص هذا الأمر أكثر من الراوى، وكان الحق فى جانب ماريا جوافايرا، لأن الذئاب اقتربت فى إحدى الليالى، ارتعد الحصانان وبدءا فى الصهيل، وشدا الحبال التى تربطهما بقوة، وكان الرجال والمرأتان يبحثون عن مكان لحمايتهم من الهجوم، فقط ماريا جوافايرا؛ التى واصلت القول، وإن كان بارتجاف، "لن يأتوا"، وكررت، "لن يأتوا" كانت النيران عالية اللهب، وظلوا طوال الليل على هذه الحال من السهر، ولم تقترب الذئاب أكثر من ذلك، وكان الكلب يبدو أكثر ضخامة فى دائرة النور، وبسبب تمايل الظلال كان كما لو تعددت رعوسه، ولسانه وأنيابه، كانت كل هذه الأشياء مجرد خداع بصرى، وكان الجسد ينتفخ بدرجة كبيرة، فيما واصلت الذئاب عواءها، لكن تضخم الكلب كان ناتجاً عن خوفه من الذئاب.

كان الطريق مقطوعاً، مقطوعاً بكل ما لهذه الكلمة من معنى. فقد انقطعت الجبال والسهول والوديان بشكل مفاجئ من اليمين واليسار، وبخط مستقيم وواضح، كما لو كانت مقطوعة بسكين أو قطع سماوى. كان المسافرون قد تركوا العربية من ورائهم، يحميها الكلب، وتقدموا بخوف وحذر. كان هناك مكتب جمارك على مسافة حوالى مائة متر من القطع. دخلوه. لا تزال هناك طابعتان، فى إحداها ورقة، قائمة جمركية عليها بعض الكلمات المكتوبة. الريح

الباردة تدخل من نافذة مفتوحة فتتحرك الأوراق المنتشرة على الأرض. هناك ريش طيور. قالت جوانا كاردا، "هذه نهاية العالم"، فقال بدرو أورثي، "إذاً هيا بنا لنرى كيف انتهى؟"، خرجوا، ساروا بحذر، خوفاً من ظهور شقوق في الأرض تشي بعدم استقرار التربة، كانت فكرة جوزيه أنيسو، لكن الطريق كان يبدو مستوياً ومستقيماً ومتواصلاً، لا تظهر عليه سوى بعض الخريشات الناتجة عن الاستخدام. على بعد حوالي عشرة أمتار من القطع، قال جواكيم زازا، "من الأفضل ألا نتقدم سيراً، حتى لا يصيبنا الدوار، أنا سأسير على أربع". وفعلوا جميعاً مثله، وواصلوا تقدمهم، معتمدين أولاً على أيديهم والركب، ثم بعد ذلك زحفاً، شعروا بأن قلوبهم تدق بعنف من الخوف والدوار، والأجساد تنضج بالعرق، ذلك العرق البارد الكثيف، وكانوا يشكون في قدرتهم على النظر من على حافة الجحيم، لكن لا أحد منهم يريد أن يظهر ضعفه، وفجأة وجدوا أنفسهم ينظرون إلى البحر كما لو كانوا في حلم، من ارتفاع يكاد يصل إلى ألف وثمانمائة متر، والحافة تبدو كما لو قُطعت ببساطة، رأسياً، وكان البحر يلمع، والأمواج الصغيرة تسير بالعرض، والزيد، خط من الزيد الأبيض، والأمواج المحيطية التي تضرب جوانب الجبل كما لو تريد أن تدفعه بعيداً. صرخ بدرو أورثي بحماس، وألم بهيج، "إنها نهاية العالم"، مكرراً كلمات جوانا كاردا، وكرروها

جميعاً، "يا إلهي، السعادة لا تزال موجودة" قال
الصوت المجهول، وربما لم يكن أكثر من هذا، البحر
والنور والدوار.

العالم ملئ بالمصادفات، وإذا لم يتفق شيء مع
شيء آخر قريب منه، فليس هذا سبباً لإنكار التوافق
بينهما، فقط يريد أن يبين لنا أن الشيء المتوافق معه
لا يوجد أمام أعيننا. في اللحظة ذاتها التي كان فيها
المسافرون يميلون باتجاه البحر لرؤيته، توقفت شبه
الجزيرة عن الإبحار. لم ينتبه أي من هؤلاء الذين
كانوا هناك إلى ما حدث؛ لأنه لم يحدث اهتزاز
لتوقف مفاجئ، ولا أية إشارة مفاجئة تدل على فقدان
الاتزان، ولا أية علامة على التصلب. فقط بعدها
بيومين، بعد الهبوط من المرتفعات المدهشة، وعند
الوصول إلى أول مكان مأهول وصلهم النبأ السار. قال
بدرو أورثي، "إذا كانوا يقولون إنها توقفت، سيكون
ذلك حقيقة، ولكن الأرض لا تزال تهتز، وأنا أقسم
على هذا، بشرفي وشرف هذا الكلب". كانت يد بدرو
أورثي ترتاح على ظهر الكلب كونستانتي.



نشرت صحف العالم أجمع المانشيت بعرض صفحاتها الأولى، بعضها نشر على كامل الصفحة صورة فوتوغرافية لشبه الجزيرة، هذا إذا لم يعد أمامنا مجال لتسميتها جزيرة؟ تقف ساكنة هناك في منتصف المحيط، وتحافظ على وضعها بشكل ميليمترى ثابت مرتبط بجهات الأرض الأربع الرئيسية، حيث لا تزال بورتو في شمال لشبونة كما كانت دائماً، وغرناطة إلى الجنوب من مدريد منذ أن ولدت مدريد، وباقي المدن لا تزال في مكانها المعروف دائماً. إلا أن القوة التخيلية للصحف عثرت على مخرج خاص جداً لكل منها لكتابة المانشيت، خاصة أن أسرار الإبحار الجيولوجية، أو الأفضل القول، لغز بنية القشرة الأرضية، ظل خفياً، وعصياً على التفسير اليوم كما كان في اليوم الأول. من حسن الحظ، أن ضغوط ما يسمونه الرأي العام قد خفت، وتخلت الجماهير عن

طرح الأسئلة، واكتفت بالإثارة الناجمة عن الاقتراحات والفرضيات المباشرة وغير المباشرة التي أثارتها العناوين البراقة للصحف: "وُلدت أتلانتا الجديدة"، "تحركت قطعة على رقعة الشطرنج العالمي"، توجه جديد للوحدة بين أمريكا وأوروبا"، "ركن جديد بين أمريكا وأوروبا"، "مسرح معركة جديدة للمستقبل". لكن المانشيت الذي ترك انطباعاً كبيراً كان لصحيفة برتغالية: "نحن فى حاجة إلى اتفاقية جديدة"، لقد كان حقاً تبسيطاً عبقرياً، نظر صاحب الفكرة إلى الخريطة وتأكد من ميل أكثر أو ميل أقل، فإن شبه الجزيرة توجد على خط التقسيم الذى قسّم العالم فى تلك الأيام المجيدة، "هذا لى، وهذا لك، وذاك لى".

فى مقالٍ افتتاحى بلا توقيع، اقترحوا على دولتى شبه الجزيرة تبنى إستراتيجية موحدة ومتكاملة تجعل منهما حلقة توازن فى السياسة الدولية، بعودة البرتغال نحو الغرب، والولايات المتحدة، وتوجه إسبانيا نحو الشرق، وأوروبا. وتقدمت صحيفة إسبانية، حاولت انتهاز الفرصة حتى لا تتخلف عن الآخرين، بأطروحة إدارية تجعل من مدريد المركز السياسى الرئيسى لهذه الآلية؛ لأن العاصمة الإسبانية تقع تقريباً فى وسط شبه الجزيرة، رغم أن ذلك ليس صحيحاً، ويكفى النظر إلى الخريطة، إلا أن هناك أشخاصاً يستخدمون كل الوسائل للوصول إلى غاياتهم، ولم تقتصر على المحتجين على البرتغال، فقد ثارت بدورها المناطق الإسبانية التى تتمتع بالحكم

الذاتى ضد هذا الطرح، الذى اعتبروه مظهراً إضافياً للمركزية القشتالية، وفى الجانب البرتغالى جرى رصد بعث مفاجئ لدراسات الفلك والدراسات الباطنية، وهو ما كان متوقفاً ولا يمكن أن يوقفه سوى تغيير جذرى فى الموقف، إن استمرت تلك الظاهرة طويلاً، إلى درجة نفاد كل نسخ كتاب "تاريخ المستقبل" للقس أنطونيو فييرا، وكتاب "التنبؤات" لبندارا، إضافة إلى كتاب "رسالة" لفرناندو بيسوا، الفنى عن التعريف.

من وجهة نظر سياسية عملية، فإن المشكلة التى كانوا يناقشونها فى وزارات الخارجية الأوروبية والأمريكية دارت حول مناطق النفوذ، أى، أنه رغم المسافة بينهما وبين شبه الجزيرة، أو الجزيرة، فإنه يجب الحفاظ على العلاقات الطبيعية مع أوروبا، أى، دون الوصول إلى مرحلة القطيعة التامة، يجب أن يكون توجهها بشكل أولى لصالح وفى إطار مخططات ومصير الأمة الأمريكية. ورغم عدم وجود أمل فى التأثير على القضية بشكل حاسم، فإن الاتحاد السوفييتى ذكّر وعاد إلى التذكير بأنه لا يمكن حل أى شىء دون مشاركته فى اتخاذ القرارات، واتخذ قراراً بتدعيم القوة البحرية التى كانت تراقب الحدث منذ بداية الرحلة الغربية، وبالطبع، لمراقبة القوات الأخرى: الأمريكية والبريطانية والفرنسية.

أبلغت الولايات المتحدة خلال المباحثات البرتغال عبر ممثلها السفير تشارلز ديكنز الذى طلب مقابلة رئيس الجمهورية بشكل عاجل، أنه لم يعد فى الوقت

الحالى ما يبرر استمرار وجود حكومة إنقاذ وطنى، خاصة بعد زوال الأسباب التى حثمت تشكيل هذه الحكومة، "وهى أسباب، لو سمحتم لى سيدى الرئيس بالتعبير عن رأى، محل جدل كبير"، وتم معرفة أسباب هذا الاستعجال من مصادر خفية، وذلك نقيضاً للسياسة السليمة؛ لأن السفير لم يدل بأية تصريحات عند خروجه من الاجتماع، مكتفياً بالقول إن محادثاته مع الرئيس كانت صريحة وبناءة، لكن هذا كان كافياً لإثارة الأحزاب التى ستضطر إلى الخروج من الحكومة فى حالة إعادة تشكيلها، أو إجراء انتخابات عامة، وكانت ثورتهم ضد التدخل غير المقبول للسفير المتعجرف، وقيل، "إن حل المشاكل البرتغالية الداخلية أمر يخص البرتغاليين"، ثم أضافوا بسخرية، "بما أن السيد السفير ألف رواية "ديفيد كوبرفيلد"، فإنه لن يُسمح له بإصدار الأوامر فى بلاد الشعر والشعراء". عند هذه النقطة من الأحداث، ودون سابق إنذار، بدأت شبه الجزيرة فى الحركة من جديد.

كان بدرو أورثى على حق، عندما قال هناك على سفح البرانس، "لقد توقفت، نعم يا سيدى، لكنها لا تزال تهتز"، وحتى لا يكون وحده من يؤكد ذلك فقد مرر يده على ظهر الكلب كونستانتى، فاهتز الحيوان أيضاً، وتمكن المرأتان والرجلان من رؤية ذلك، وكرر بذلك التجربة التى قام بها جواكيم زازا وجوزيه أنابسو تحت شجرة الزيتون القرطوبولية، فى الأراضى

الجرداء بين أورثي وهنتا ميثينا، ولكن الآن، فإن الدهشة كانت عامة وعالمية، فلم تكن الحركة باتجاه الغرب ولا الشرق، ولا نحو الشمال ولا الجنوب. كانت شبه الجزيرة تدور حول نفسها، في حركة شيطانية، أي بعكس حركة عقارب الساعة، وهو شيء عندما أُعلن عنه تسبب في حدوث دوار بين السكان البرتغاليين والإسبان، رغم أن سرعة الدوران لم تكن كبيرة. أمام هذه الظاهرة العجيبة، التي تُشكك في صحة جميع قوانين الفيزياء، وبشكل خاص القواعد الميكانيكية، التي كانت الأرض محكومة بها حتى الآن، وتم وقف جميع المباحثات السياسية، ومؤامرات المكاتب والكواليس، ومناورات الدبلوماسيين جادة كانت أم خبيثة. وبالتالي علينا أن نقول إنه ليس من السهل الحفاظ على التوازن والهدوء، عندما يكون معروفاً، مثلاً، أن طاولة مجلس الوزراء، والبيت المدينة، والوطن، وشبه الجزيرة بكاملها، كانت كما لو كانت آلة تدور ببطء في عالم غارق في حلم. وكان الأفراد الأكثر حساسية يقسمون إنهم يشعرون بالحركة الدائرية، رغم اعترافهم إنهم هم لا يشعرون بدوران الأرض في الفضاء، ليؤكدوا ذلك، يمدون أذرعهم للإمساك بها، ولكن معظمهم لا يتمكنون من ذلك، ووصل الأمر إلى أنهم كانوا يسقطون، ويبقون نائمين على الأرض، فيرون كيف أن السماء تدور ببطء، وفي الليل يدور القمر والنجوم، وحتى الشمس تدور خلال النهار، وإن كان بعض الأطباء يرون أن كل هذا ليس سوى ردود أفعال هستيرية.

بالطبع كان هناك متشككون أكثر راديكالية؛ لأنه لا يمكن أن تدور شبه الجزيرة حول نفسها، إنه أمر مستحيل، أن تنزلق، يمكن، كلنا نعرف ما يعنى انزلاق التربة، وهو ما يحدث فى المناطق المرتفعة عندما تُمطر كثيراً، ويمكن أن يحدث هذا لشبه الجزيرة حتى لو لم تُمطر على الإطلاق، ولكن أن تدور فهذا يعنى أنها تدور حول مركزها، وإضافة إلى أنه يبدو مستحيلاً من الناحية الموضوعية، فإنه مستحيل أيضاً من الناحية الذاتية؛ لأن النتيجة هى أنها يمكن أن تنفصم إن آجلاً أم عاجلاً، وحينها سنبحر بلا وجهة معينة، ولن نجد شيئاً يمكن أن نمسك به، ويصبح مصيرنا معلقاً بالقدر. ولم ينتبه هؤلاء جميعاً إلى أن الدوران يمكن أن يتم ببساطة من خلال مسطح يدور على مسطح آخر، وأن هذا المسطح من الحجر الإردواز، انتبهوا يا سادة، إنه كما يقول اسمه، مكون من قطع صغيرة مركبة على بعضها، فلو خفت حدة الالتصاق بين المسطحين، يمكن لأحدهما أن يدور بإتقان على المسطح الآخر، مع الاحتفاظ، نظرياً على الأقل، بدرجة من الالتصاق بينهما قادرة على منع الانفصال النهائى بينهما. هذا هو ما يحدث، هذا ما يؤكد المدافعون عن تلك الفرضية. وحتى يمكن التأكد من صحتها جرى إرسال الفطاسين مرة أخرى إلى أعماق البحر، على أن يفتسوا إلى أقصى ما يمكنهم فى تلك المنطقة الجعجية فى المحيط، وانتقلت أيضاً إلى هناك الفواصة الفرنسية أرشميدس، والسيانا،

وأخرى يابانية لها اسم صعب النطق، وكانت نتيجة كل هذه الجهود أن كرر الباحث الإيطالي جملته الشهيرة، فقد خرج من الماء، وفتح سقف الفواصة وقال أمام ميكروفونات تليفزيونات العالم كله: "لا يمكنها أن تتحرك، ومع ذلك فهي تتحرك". لم يكن هناك أى محور مركزي منبعج كالحبل، وليست هناك مسطحات، لكن شبه الجزيرة تتحرك بعظمة فى منتصف المحيط الأطلنطى، وكلما دارت أصبحت أقل شبهاً بنفسها أمام أنظارنا، ويتساءل الناس: "هل حقيقة نحن عشنا هنا"، كانت الشواطئ البرتغالية متوجهة جميعاً نحو الجنوب الغربى، وما كان قديماً الطرف الشرقى من البرانس كان يشير باتجاه أيرلندا. أصبحت مشاهدة شبه الجزيرة من المشاهد الإجبارية خلال الرحلات الجوية العابرة للمحيط، ورغم أن الحقيقة قد قيلت، فإن الاستغلال لم يكن كبيراً؛ نظراً لانعدام وجود مكان ثابت يمكن الاتجاه إليه واتخاذ علامة. فى الحقيقة لا شئ يمكنه أن يحل محل الصورة المأخوذة والمرسلة عبر القمر الصناعى، كانت الصورة مُلتقطة من مسافة عالية جداً، وحينها نعم، كانت هناك فكرة واضحة عن الحدث الكبير.

استمرت هذه الحركة شهراً، وانطلاقاً من شبه الجزيرة كان الكون يتحول شيئاً فشيئاً. تُولد الشمس كل يوم من نقطة مختلفة فى الأفق، وكان يجب البحث عن القمر والنجوم فى السماء، فلم تعذ حركتها

الذاتية حركة مركز النظام المتمحور حول درب اللبانة، الذى كان هو ذاته يتحرك حركة أخرى حول الفضاء إلى جنون من الأضواء المتغيرة، كما لو كان الكون يعيد تشكيل نفسه من أوله إلى آخره، كما لو كان النظام الأول القائم لم ينتج ما كان منتظراً منه. جاء اليوم الذى غابت فيه الشمس فى المكان الذى كانت تشرق فيه فى الأزمنة العادية، لا يفيد فى شئ أن نقول إنه ليس حقيقة أن الأمر متعلق بظاهر بسيط، وأن الشمس تواصل مسارها المعتاد دون أن تكون لديها القدرة على التحول إلى مسار آخر، كان هذا هو ببساطة تفسير الناس، "معذرة، سيدى المحترم، كانت الشمس تدخل بيتى من الشباك الأمامى وتدخل الآن من الخلف، هيا ولنر إن كنت تستطيع أن تفسر لى هذا بطريقة أفهمها؟"، تفسير ما كان يفسره الخبير الذى يعرض الصور ويرسم رسوماً، ويثنى خريطة السماء، لكن هذا لا يقنع المتلقى، وينتهى الدرس برجاء للسيد الدكتور أن يتفضل بمحاولة جعل الشمس عند شروقها أن تعود لإضاءة واجهة البيت. فيقول الأستاذ قانطاً من القضية والعلم، "لا تنزعج، عندما تدور شبه الجزيرة دورة كاملة، سترى الشمس كما كنت تراها من قبل"، لكن التلميذ، متشككاً، أجاب، "حينئذ، سيدى الأستاذ، هل تعتقد حضرتك أن يحدث كل هذا لينتهى إلى ما كان عليه من قبل؟"، لكن الحقيقة لم تكن واضحة.

ربما كان الوقت شتاء، لكن الشتاء الذى بدا أنه قد حل، كان قد تأخر، وليس هناك تفسير آخر. لم يكن شتاءً، وخريفاً لم يكن، وربيعاً لا يمكن أن نفكر فى أنه كذلك، ولا حتى صيفاً يمكنه أن يكون. كان فصلاً معلقاً، بلا تاريخ، كما لو كان فى بدايات العالم ولم يتقرر بعد تنظيم الفصول فى أوقاتها. واصلت ذات الحصانين سيرها ببطء بمحاذاة السفوح السفلى للجبال، ويتوقف المسافرون الآن فى الأماكن، ويندهشون من مشهد الشمس بشكل خاص، فلم تعد تظهر على قمم البرانس لتظهر من البحر، ناشرة أشعتها الأولى باتجاه منتصف الجبل المرتفع وحتى أعاليه المغطاة بالجليد. لقد كان هنا، فى إحدى تلك القرى، عندما انتبهت ماريا جوافيرا وجوانا كاردا إلى أن كلاً منهما حامل، كلاهما. لم يكن فى ذلك ما يدهش، ويمكن القول أيضاً إن هاتين المرأتين فعلتا المستحيل ليحدث هذا طوال الأشهر والأسابيع الأخيرة، واستسلامهن لرجليهن بكل بسخاء صحى دون اتخاذ أية احتياطات، سواء من جانبهن أم من جانبهما. وحدث الأمر فى وقت واحد لا يجب أن يُدهش أحداً، لقد كان مجرد صدفة من تلك التى تنظم العالم، ولكن هناك صدفة تطفو للعيان عن أخرى من وقت لآخر لتؤيد وجهة نظر المتشككين. لكن الوضع أصبح محرجاً، فالحمل ومصدره فى صعوبة الفصل بين الحالتين فى إثبات الأبوة، لولا زلة جوانا كاردا وماريا جوافيرا، اللتين ذهبتا إلى الغابة بحثاً

عن الرجل المنطوى، سواء كان دافعهما إلى ذلك الشفقة أو إحساس آخر أكثر تعقيداً، حيث لم يضطر، رغم تردده بين الشوق والرغبة، إلى التوسل إليه للدخول فيهما وأن يترك فيهما لعابه ما قبل الأخير، بل لو لم يكن ذلك الجنون وهذا الفصل الشهوانى، ما كان هناك أدنى شك فى أن ابن ماريّا جوافايرا هو ابن جواكيم زازا، وابن جوانا كاردا هو ابن جوزيه أنايسو. ولكن يظهر بدرو أورثى هنا فى الطريق، رغم أنه من الأفضل القول إن الغاويتين ظهرتتا فى طريق بدرو أورثى، واللاعتماد المخجل غطى على كل شىء. قالت ماريّا جوافايرا، "لا أعرف من يكون الأب؟"، وقالت جوانا كاردا، "ولا أنا؟"، والتى واصلت بعد ذلك عرض أسبابها، أولها حتى لا تظل أكثر تخلفاً عن الأخرى، وثانيها لفهم الخطأ عن طريق الخطأ، بتطبيق القاعدة على ما هو استثناء.

لكن هذا الحديث، أو ربما أى حدث آخر أكثر حساسية، لا يخفى القضية الأساسية وهى الآن إخبار جوزيه أنايسو وجواكيم زازا، ترى كيف سيكون رد فعلهما عندما تخبر كلا منهما رفيقته؟ وبأى وجه يمكن أن تقول له؟، "أنا حامل". فى حالة التوافق، طبقاً للعادة، أو ما يقولون إنها العادة، سينظر كل منهما بفرح مجنون، وربما تحت وقع المفاجأة ستبدو على الوجه سعادة فجائية تجعل رويهما تقفزان، إلا أن وجهيهما سرعان ما تتغير تعبيراتها، وتغيم عيونهما، معلنة عن المشهد الرهيب. عرضت جوانا

كاردا ألا تقول شيئاً، يمر الوقت وتعلو البطن، فيؤدى الأمر الواقع إلى تخفيف وقع الحدث، عن الشرف المثلوم، أو الغضب الذى يحدثه، لكن ماريا جوافايرا لم تكن مع هذا رأى، وبدا لها أسوأ مما حدث من قبل، فيجب تقدير قيمة وكرم الجميع، وانتهتا إلى التصنع المغرى والجبن، فالجبن وهو الأسوأ من الترضية، اعترفت جوانا كاردا، "عندك حق، من الأفضل أخذ الثور من قرونة" قالت ذلك دون أن تفتبه إلى ما تقول، وهنا تكمن خطورة هذه الجملة عندما لا ننتبه كثيراً إلى الظروف المحيطة بها.

فى ذلك اليوم نفسه نادى المرأتان على رجليهما، وذهبوا معاً للتنزه فى الحقول، هناك حيث يخفف الفضاء من حدة الصراخ ويحوّله إلى همهمات، لهذا السبب الكثيب لا تنطلق أصوات الرجال إلى السماء أبداً، وهناك قالت كل منهما لرجلها صراحة وكما قررتا، "أنا حامل ولا أعرف إن كان منك أم من بدرو أورثى؟"، كان رد جوزيه أنيسو وجواكيم زازا كما كان متوقعاً، انفجار الغضب والألم الحاد، وحركات الذراعين العنيفة. لم يكن أى منهما يشاهد الآخر إلا أن حركاتهما كانت متماثلة، وكذلك كلماتهما، "ألا يكفى ما حدث، وأنت الآن حامل دون أن تعرفى من؟"، "كيف تريدنى أن أعرف، لكن يوم ميلاد الطفل سنعرف بالتأكيد"، "لماذا؟"، "بسبب التشابه"، "نعم، لكن تخيلى لو لم يشبه أحداً غيرك؟"، "لو كان يشبهنى، ويشبهنى أنا فقط، ذلك لأنه سيكون طفلى أنا، وليس

طفل أحد آخر، "هل تسخرين مني؟"، "أنا لا أسخر، هذا ما لا يمكن أن أفعله أبداً"، "والآن كيف سيكون حل الموقف؟"، "إذا كنت قد قبلت أن أضاجع بدرو أورثي، فتقبل أن تنتظر تسعة أشهر قبل اتخاذ أى قرار، لو كان الطفل يشبهك فهو ابنك، ولو كان يشبه بدرو أورثي فسيكون ابنه، فإرضه وارفضني أيضاً، هذا إذا كانت هذه رغبتك، أما إذا كان يشبهني أنا فقط، ولا تنتظر ذلك، دائماً ما تكون هناك إحدى القسمات التي تنتمي إلى الآخر"، "وماذا سنفعل مع بدرو أورثي، هل تفكرين في أن تقولى له ذلك؟"، "لا، لن يلاحظ شيئاً خلال الأشهر الأولى، وربما أكثر من ذلك، خاصة بهذا الشكل الذي نرتدى به ملابسنا، هذه الفساتين العريضة، وهذه الجاككات المدلاة"، "ربما كان من الأفضل ألا ننطق بكلمة"، "أعترف أن رؤية بدرو أورثي وهو ينظر إلى شيء يضايقني، إنه ينظر كما لو كان يبدى ابتهاجاً، كانت تلك الجملة الأخيرة لجوزيه أنايسو، الذي يعبر باللغة بشكل أفضل، أما جواكيم زازا فقد عبر عن نفسه كما يعبرون في بلادهم، "يزعجني أن أرى السيد بدرو أورثي كما لو كان ديكاً وحيداً في الحظيرة". بهذه الطريقة، والتي بدت أخيراً مسالمة، قَبِلَ الرجلان العرض، يحدوهما الأمل في أنهما قد لا يكونان في حاجة إلى كل هذا عندما يتم التوصل إلى حل طبيعي للغز الذي لا شكل له.

أما بدرو أورثى، الذى لم يعرف أبداً معنى إنجاب الأبناء، ولم يخطر على باله أنه فى بطن المرأتين تتكون أجنة ربما تكون له، بالطبع فالإنسان لا يعرف حقيقة كل أفعاله مطلقاً، وهنا لدينا مثال جيد على ذلك، كانت ذكرى لحظات السعادة تذبل، ومعها نتائج ما حدث، ما هو تافه يظل تافهاً فى حد ذاته لكنه أكثر أهمية بالنسبة للآخرين، لو وصل إلى نهايته وتأكد، سيكون ظاهراً للعيان، رغم ذلك سيظل خافياً، فالله نفسه خلق البشر ولا يراهم. إن بدرو أورثى على أى حال ليس أعمى بشكل كامل، لكنه يشعر بأنه تسبب فى صدم فى علاقة الأزواج التى أصبحت تعاني من تباعد ما، ولا نقول بروداً، بل إنه تحفظ بلا عنف، لكن نتج عنها لحظات صمت طويلة، هذه الرحلة بدأت بشكل جميل جداً ولكنهم يبدون الآن كما لو كان الكلام قد نفذ أو أنهم لا يجرؤون على قول الكلمات الوحيدة التى لها معنى، لقد انتهى كل شئ، ما كان حياً قد مات، إذا كان الأمر كذلك، وأيضاً ربما يكون قد أحيى بدايات الغيرة الأولى، وربما مع مرور الزمن. وربما فى محاولة لعدم لفت الأنظار، فقد عاد بدرو أورثى إلى عاداته فى التنزه فى المناطق المحيطة بالمخيم، إلى درجة أنه أصبح من المدهش أن يستطيع هذا الرجل المشى كل هذا.

فى يوم ما من تلك الأيام، فى ذلك الوقت الذى تركوا من خلفهم تماوجات التكوينات الأولى للجبال التى تعلن من بعيد عن وجود جبال البرانس، غامر

بدرو أورثى بالتقدم فى طرق منعزلة، وكان على وشك الاستسلام لغواية عدم العودة إلى المخيم مرة أخرى، إنها أفكار تطراً على ذهنه فى ساعات التعب، عثر على حافة الطريق على رجل، يستريح، ربما كان من نفس عمره أو أكبر قليلاً، كان يبدو منهكاً. إلى جانبه حمار، على ظهره بردعة و سلال، ويمضغ بين أسنانه حشائش صفراء جافة، وكما ذكرنا من قبل فإن الزمن لم يعد يكشف لنا أشياء جديدة، أو يجعلها تظهر خارج المكان والمناسبة، لقد تشتت الطبيعة، هذا ما يمكن أن يقوله عاشق للكنايات اللغوية. كان الرجل يلتهم قطعة خبز حاف، ربما كان فى وقت عوز، لكن شكله برئ، غير شرير، من ناحية أخرى لم يكن بدرو أورثى شخصاً فزعاً، كما بين ذلك خلال نزواته الطويلة فى هذه الأراضى القاحلة، حقيقة أن الكلب لم يكن يتركه وحده ولا لحظة واحدة، فقط تركه مرتين، لكن مع رفق طيبة وبدافع احترازى.

حيا بدرو أورثى الرجل، "مساء الخير"، وأجابه الآخر، "مساء الخير"، سجل سمع كل منهما صوتاً مألوفاً، إنها نغمة جنوبية، أندلسية، هذا إذا أردنا أن نقولها فى كلمة واحدة. ولكن رجل الخبز الحاف وجد فى هذا سبباً كافياً لعدم الثقة أن يلتقيا فى مكان كهذا، رجل و كلب فى مكان يبدو مهجوراً، لكن دون أن يخفى ذلك، قرب منه العصا المدعمة بالحديد التى كانت ملقاة على الأرض. فهم بدرو أورثى الحركة وقلق الآخر، ربما كان قلقاً من تحركات الكلب، الذى وقف

ساكناً محنياً رأسه إلى الأرض، "لا تخف من الكلب، إنه وديع، أعنى، هو ليس بوديح، لكنه لا يهاجم أحداً لم يفكر فى إيذائه"، وكيف يعرف هذا الحيوان ما يفكر فيه الأشخاص؟"، "إنه سؤال ممتاز، نعم يا سيدى، كنت أتمنى أن أعرف الإجابة عنه، لكن لا أنا ولا رفاقى نعرف أى نوع من الكلاب هذا، ولا من أين جاء؟"، "كنت أعتقد أنك تمشى وحدك وأنتك تعيش هنا؟"، "معى أصدقائى، لدينا عربة، ونظراً لما يحدث الآن فقد قررنا السفر، ومع ذلك لا نزال هنا"، "هل أنت أندلسى؟ تعرفت عليك من لهجتك"، "جئت من أورثى، إنها من مقاطعة غرناطة"، "وأنا من ثوفرى، فى ويلبا"، "أهلاً يا بلدياتى"، "أهلاً بك أنت، يا صديقى"، "هل تسمح لى أن أجلس هنا لبعض الوقت؟"، "خذ راحتك، لا أستطيع أن أقدم لك أكثر مما معى، خبز جاف"، "أشكرك، واعتبرنى قبلته، لقد أكلت توأ مع أصدقائى"، "من هم؟"، "إنهم صديقان مع زوجتيهما، هما وإحدى المراتين برتغاليون، والمرأة الأخرى جيليقية"، "وكيف التقيتم؟"، "آه، إنها حكاية طويلة لا أستطيع أن أقصها عليك الآن".

لم يلح الآخر؛ لأنه انتبه إلى ألا يفعل، وقال، "ستفكر أنت كيف أننى من ويلبا وموجود هنا الآن؟"، "فى هذه الأيام من الصعب أن تعثر على أحد يوجد حيث كان يعيش دائماً"، "أنا من ثوفرى وهناك توجد عائلتى، هذا إذا كانوا لا يزالون هناك، ولكن عندما بدعوا يقولون إن إسبانيا قد انفصلت عن فرنسا،

قررت أن آتى لأراه بعينى، "إسبانيا؟، لا إنها شبه
 الجزيرة بالكامل"، "نعم هو هذا"، "ولم تنفصل شبه
 الجزيرة عن فرنسا، بل انفصلت عن أوروبا"، "يبدو أن
 الأمر سيان"، "لكن هناك فارقاً"، "أنا لا أفهم فى تلك
 التفاصيل، لكنى أردت أن أراه بنفسى"، "وماذا
 شاهدت؟"، "لا شئ، وصلت إلى البرانس وشاهدت
 البحر فقط"، "ولا نحن شاهدنا شيئاً غير البحر"، "لم
 تكن فرنسا هناك، ولا أوروبا، والآن حسن، ففى رأى
 أن شيئاً غير موجود الآن فإنه لم يكن له وجود أبداً
 من قبل، كل رحلتى لمشاهدة شئ لم يكن موجوداً هذه
 عمل بلا فائدة"، "حسناً، لا خطأ هناك"، "أى خطأ؟"،
 "قبل أن تنفصل شبه الجزيرة عن أوروبا، كانت أوروبا
 هناك، وكانت هناك حدود، بالطبع، وكان يمكن المرور
 من جانب إلى آخر، كان الإسبان يمرون والبرتغاليون،
 ويأتى الأجانب، فلا يوجد سائح فى بلاده أبداً"،
 "أحياناً، لكن لا يوجد هناك ما يستحق المشاهدة"،
 "كانوا سياحاً يأتون من أوروبا"، "لكنى عندما كنت
 أعيش فى ثوفرى لم أرهم، أين الفارق؟"، "أنت لم
 تذهب إلى القمر، ومع ذلك فالقمر موجود؟"، "لكنى
 أراه، وإن كان يسير الآن بعيداً عن مساره، لكنى أراه"،
 "ما اسمك؟"، "يدعوننى روكى لورينثو، فى خدمتك"،
 "أنا اسمى بدرو أورثى"، "أنت تحمل لقب الأرض التى
 وُلدت فيها؟"، "لا أنا لم أولد فى أورثى، ولدتُ فى
 فينتا ميثينا، الموجودة بالقرب منها"، "أتذكر الآن أنه
 فى بداية رحلتى التقيت ببرتغاليين فى طريقهما إلى

أورثي، "ربما كانا هما من يرافقاني الآن"، "أحب أن أعرف ذلك؟"، "هيا معي ولنتأكد"، "لو دعوتني، أذهب، مر على وقت طويل وأنا أسافر وحيداً، "قف ببطء حتى لا يعتقد الكلب أنك ستؤذيه، وأنا أعطيك العصا"، رفع روكي لورينثو مخلاته على كتفه، وجذب الحمار وذهبوا جميعاً، الكلب إلى جوار بدرو أورثي، ربما كان يجب أن يكون الأمر هكذا دائماً، حيث يوجد إنسان يكون برفقته حيوان ما، ببغاء على كتفه، أو أفعى ملتفة حول ساعده، جعران على ياقته، عقرب على هيئة كرة، ونقول حتى قملة في رأسه لو لم يكن هذا الحيوان ينتمى إلى الفصيلة الكريهة، وأنه يمكن استغلال حتى الحشرات، مسكينة الحشرة، الذنب ليس ذنبها، ولكنها الإرادة الإلهية.

على وقع الخطى إلى اتجاه غير محدد دخلوا في عمق قطالونيا. ازدهرت تجارتهم، لقد كانت بالفعل تلك فكرة رائعة العمل في هذا الفرع من التجارة. قليل من الناس يمكن رؤيتهم على الطرق، مما يعني أنه رغم أن شبه الجزيرة تواصل دورانها فإن الناس قد عادوا إلى عاداتهم الطبيعية، لو كان يمكننا أن نطلق هذا الاسم على العادات والتقاليد القديمة. لم تعد هناك قرى مهجورة، لكن لا يمكن المراهنة على أن كل البيوت عاد إليها جميع سكانها الأوائل، هناك رجال مع نساء أخريات ونساء مع رجال آخرين، والأبناء قد اختلطوا، فالحروب الكبيرة وألهجرات الكبيرة تنتج مثل هذه الأوضاع. كان هذا الصباح عندما قال جوزيه أنابسو

بشكل مفاجئ إنه لا بد من تقرير مستقبل المجموعة، خاصة أنه لم يعد هناك خطر من الاصطدام والارتجاج. الأكثر تأكيداً أو على الأقل الأكثر توقعاً أن شبه الجزيرة ستبقى تدور إلى الأبد دون أن تخرج من مكانها، وهو ما لن يكون له نتائج غير مألوفة بالنسبة للحياة اليومية للناس، عدا أنه لن يكون معروفاً أبداً مكان الجهات الأربع الأصلية للأرض، وهو من ناحية أخرى ليست له أهمية كبيرة، فليس هناك أى قانون يمنع الحياة دون وجود جهة محددة. ولكن الآن وبعد أن شاهدوا البرانس، وكانت لحظة سعيدة جداً، وكذلك رؤية البحر من ذلك الارتفاع، كما قالت ماريا جوافايرا، "يبدو كما لو كنا نطير فى طائرة"، وصحح لها جوزيه أنايسو بصفته شخصاً خبيراً، "لا وجه للمقارنة، يكفى أنه إلى جوار نافذة الطائرة لا يشعر المرء بالدوار، وهنا نعم لو لم نتشبث بالأرض بقوة، لألقينا بأنفسنا إلى البحر برغبتنا". عاجلاً أم آجلاً، أنهى جوزيه أنايسو بهذه الكلمات إنذاره الصباحى، "علينا أن نقرر مصيرنا، مؤكداً أنه لا أحد يرغب فى أن يقضى بقية حياته على الطريق". أبدى جواكيم زازا موافقته على المبدأ، المراتان لم ترغبا فى إبداء رأييهما، اشتبهتا أن هناك سبباً خفياً وراء هذه العجلة الفجائية، فقط بدرو أورثى، بخجل، ذكرهم بأن الأرض لا تزال تهتز، وإذا لم تكن تلك علامة كافية على أن الرحلة لم تصل إلى نهايتها، فإن لديه رغبة أن يشرحوا له سبب انطلاقهم فى السفر من أساسه. فى

لحظة أخرى من الجدية، رغم أنه لا أحد يشك في جدية السبب، الذى أثر فى أعماق أرواحهم، وإلا يكونون بلا روح، وعندما يقول بدرو أورثى الآن يمكن الاشتباه فى سبب خفى، كان هذا هو التفكير الذى يمكن قراءته فى عينى جوزيه أنايسو فيما واصل القول، "فيما بعد، بعد العشاء، كل منا يقول ما يعتقد فى هذه المسألة، وإن كان علينا أن نواصل كما كنا حتى الآن أم نعود إلى البيت"، سألت جوانا كاردا فقط، "إلى أى بيت؟".

كان بدرو أورثى قادماً من بعيد وبرفقتة رجل آخر، كان يبدو من تلك المسافة شيخاً، لحسن الحظ، لأن مشكلة التعايش موجودة بأكثر مما يجب. يجر الرجل من ورائه حماراً محملاً بالمخالى والسلال، كما هى عادة كل حمير العالم القديم، ولكن هذا له لون فضى غريب، ولو أسموه بلاتيرو فإنهم يشرفون الاسم، تماماً مثل حصان الكيخوته روثنانتى، الذى كان من قبل اسمه يأتى من البلادة، وهو اسم مستحق. توقف بدرو أورثى على الخط الوهمى الذى يحد أرض المخيم، عليه أن يكمل رسمية تقديم الزائر، وهو ما يجب فعله دائماً من هذه الناحية وحتى خارج السور، إنها قواعد معروفة وليست فى حاجة إلى التعلم، نقوم بها من أعماقنا بمرجعية تاريخية، فى يوم من الأيام أردنا أن ندخل القلعة دون إذن ونتذكر ما حاق علينا من تأديب. يقول بدرو أورثى بفخامة، "لقد عثرت على بلدياتى ودعوته ليتناول معنا طبق حساء"، كان هناك

تظاهر مبالغ فيه فى كلمة بلدياتي، فاعتذر؛ ففى تلك الساعة فى أوروبا، فإن برتغالياً من مينيو وآخر من ألينتيخاس يحنان إلى الوطن نفسه، رغم أن خمسمائة كيلومتر تفصل أحدهما عن الآخر، والآن فإن ستة آلاف كيلومتر تفصلهما عن موطنهما.

لم يتعرف جواكيم زازا وجوزيه أنيسو على الرجل، لكنهما لا يستطيعان قول الشيء نفسه عن الحمار، ففيه شيء معروف ومألوف، مع الاعتذار، يمكن التعرف عليه لشيء فيه لا يدهش، فالحمار لا يتغير فى أشهر قليلة، بينما الرجل كان قدراً ومشعث الشعر، نعم ذقنه طالت وأيضاً زاد وزنه أم نحف، أم أنه كان مشعراً وتحول إلى أصلع، فإن زوجته نفسها عليها أن تعريه لترى إن كانت العلامة الخاصة به لا تزال فى المكان نفسه، وأحياناً ما يكون ذلك متأخراً، حينما يكون كل شيء قد انتهى ولا يمكن للندم أن يحصل على كل ثمار المغفرة. قال جوزيه أنيسو تطبيقاً لقواعد حسن الضيافة، "أهلاً بك، اجلس هنا معنا، وإذا أردت نزع برذعة الحمار، يمكنك أن تفعل ذلك بلا مشكلة، فهناك مكان كاف له وللحصانين". بلا برذعة ومخالٍ بدا الحمار أكثر شباباً، ويمكن رؤيته الآن جيداً وأنه مصنوع من نوعين من الفضة، قاتمة وأخرى فاتحة، وكلاهما من نوعية جيدة. ذهب الرجل لوضع الحمار فى مكانه، نظر الحصانان نظرة جانبية إلى القادم الحديث وشكاً فى أنه يمكن أن يساعدها فى شيء؛ نظراً لصغر حجمه وصعوبة تعليقه من

عنقه. عاد الرجل إلى جوار النار، وقبل أن يقرب الحجر الذي سيستخدمه كمقعد، قدم نفسه، "اسمى روكى لورينثو"، أما ما تبقى فإن التقنية الروائية تتطلب منا ألا نكرر ما هو معروف من قبل. كان جوزيه أنايسو على وشك أن يسأله إن كان للحمار اسم، أو مثل، إن كان اسمه بلاتيرو، لكن الكلمات الأخيرة التي نطق بها روكى لورينثو متكررة دائماً، "جئت لرؤية أوروبا"، جعلته يصمت، وذكرى فجائية رفعت أصبعها في ذاكرته فهمهم، "أنا أعرف هذا الرجل"، لحسن الحظ أن الذكرى جاءت في وقتها المناسب، سيكون جارحاً أن يحتاج الإنسان إلى حمار ليتعرف على الأشخاص. كانت هناك حركات مماثلة تجري أيضاً في رأس جواكيم زازا الذي قال، متشككاً، "أعتقد أننا التقينا من قبل؟"، أجابه روكى لورينثو، "وأنا أيضاً، تذكراني بالبرتغاليين اللذين التقيت بهما في بداية رحلتي، لكنهما كانا يسافران في سيارة ولم تكن برفقتهم سيدات"، قالت ماريا جوافايرا، "العالم متغير يا سيد روكى لورينثو، وفي تغيراته ما نكسبه يمكن أن نخسره، وأيضاً يمكن أن يحدث أن نخسر السيارة ذات الحصانين ونعثر على عربة بحصانين، وامرأتين ورجل آخر أيضاً"، وقالت جوانا كاردا، "ولا يزال أمامنا الكثير لنراه"، لا بدرو أورثي ولا روكى لورينثو عرفا عما يتحدثون، كان يعرف ذلك جوزيه أنايسو وجواكيم زازا، ولم يعجبهما تلك الإشارة إلى الجسد البشري، وبشكل خاص الأجساد الأنثوية.

والآن بعد التقديم والتعارف، انتهت الشكوك، فقد كان روكى لورينثو هو ذلك المسافر الذى التقوا به فى جبال سييرا مورينا وأراثينا، مع حمارة بلاتيرو يتجهان نحو أوروبا، والتي فى النهاية لم يشاهدها، لكن تبقى له النية، المنقذة دائماً. سألته جوانا كاردا، "والآن إلى أين أنت ذاهب؟"، "الآن أعود إلى البيت، فالأمر لا يستحق أن يظل الإنسان مرتحلاً فى الأرض التى لم تترك شيئاً فى مكانه"، "الأرض؟"، "لا، البيت الذى يوجد حيث توجد الأرض"، بدأت ماريّا جوافايرا فى ملء أطباق الحساء، الذى زودته بقليل من الماء ليكفى الجميع، تعشوا فى صمت، عدا الكلب الذى كان يمصمص عظمة وحيوانات الجر والحمل التى كانت تُسمع أصوات جرشهما للفلول الجاف، فيما لا يمكن للحيوانات الأخرى أن تشكو من مرور الوقت الرديء، خاصة مع الأخذ فى الاعتبار صعوبات الوقت الحاضر.

واحدة من تلك الصعوبات، ولكن بشكل خاص، حاول حلها مجلس العائلة المنعقد فى تلك الليلة، "ألا يمثل وجود شخص غريب حرجاً لأحد؟"، "بالعكس، فقد ذكرنا من قبل أن روكى لورينثو فى طريقه للعودة إلى البيت"، "ونحن، ماذا سنفعل نحن؟ هل نواصل حياتنا كفجر نشترى ونبيع ملابس قديمة، أم نعود إلى البيت، والعمل والحياة الاعتيادية، إن لم تتوقف شبه الجزيرة عن دورانها فإن الناس ستعتاد على ذلك، كما اعتادت البشرية على الحياة فى الكرة الأرضية التى لا تتوقف

أبدأ عن الحركة، ولا حتى نملك القدرة على تخيل ثمن توازن كل واحد منا داخل كرة طنانة تدور حول بحيرة بداخلها تعيش السمكة-الشمس، قال الصوت المجهول، "معذرة لمقاطعتك لكن تلك السمكة-الشمس لا وجود لها، توجد السمكة-القمر، لكن السمكة-الشمس لا"، "إذا بص، أنا لن أناقشك، فإذا لم تكن موجودة فنحن فى حاجة إليها"، لخص جوزيه أنيسو كل هذا، "لسوء الحظ لا يمكن امتلاك كل شيء، لأن الرفاهية والحرية لا يلتقيان، هذه الصعلة الحياتية لها وجوها اللذيذة، لكن أربعة جدران قوية بسقف فوقها تحمى أفضل من خيمة رقيقة مرقعة"، قال جواكيم زازا، "لنبدأ بتوصيل بدرو أورثى إلى البيت"، ثم قطع جملته، ولم يعرف كيف يكملها، تدخلت حينها ماريا جوافايرا وقالت بوضوح ما كانوا فى حاجة إلى قوله، "حسن جداً، نترك بدرو أورثى فى صيدليته، وبعدها نواصل حتى البرتغال، ليبقى جوزيه أنيسو فى مدرسته، فى ذلك المكان الذى لا أعرف اسمه، ونواصل باتجاه ما كانوا يسمونه من قبل بالشمال؛ لأن جوانا كاردا عليها أن تختار ما بين إيريرا مع أبناء عمومتها أو العودة إلى أحضان زوجها فى كويمبرا، وعندما نتوصل إلى حل لتلك المسألة، نتوجه إلى بورتو ونترك جواكيم زازا على باب مكتبه، حينها سيكون رؤساؤه قد عادوا من بينيافيل، ثم أعود أنا إلى بيتى، حيث ينتظرنى رجل يريد أن يتزوجنى، سيقول أنه بقى لحراسة ممتلكاتى خلال غيابى"، "والآن سيدتى عليك

أن تتزوجيني"، وأقوم أنا بإشعال النار في تلك العربة كمن يشعل حلماً، وربما استطعت بعدها أن أدفع السفينة الحجرية إلى البحر وأتمكن من السفر فيها".

خطاب كهذا، متواصل، يقطع أنفاس من يتحدث ولا يترك مجالاً لمن يسمع كي يتنفس. ظلوا خلال عدة دقائق صامتين، وأخيراً ذكّرهم جوزيه أنيسو، "نحن نسافر جميعاً في طوافة حجرية"، أجابته ماريّا جوافايرا، "إنها أكبر من أن تترك لنا مجالاً لنشعر بأننا بحارة، ولاحظ جواكيم زازا ضاحكاً، "كلام جميل، ولا حتى دوراننا في قبة العالم حولنا إلى رواد فضاء". صمت آخر، جاء الآن دور بيدرو أورثي في الكلام، "علينا أن نقوم بعمل شيء بعد الآخر، يمكن لروكي لورينثو أن ينضم إلينا، نأخذه إلى عائلته التي يمكن أن تكون بانتظاره في ثوفري، وبعدها نقرر ما سنفعل بحياتنا نحن"، قال جواكيم زازا، "لكن ليس هناك مكان لنوم شخص آخر في العربة"، اعترف روكي لورينثو، "لا تنزعج إن لم يكن لديك سبب آخر يحرمني من مرافقتي لكم، فأنا معتاد على النوم في الهواء الطلق، يكفي ألا تمطر، والآن بالعربة فإن النوم تحتها سيكون كما لو كنت أنام تحت سقف بيت، فقد بدأت أتعب من الوحدة، ماذا تريدون أن أقول لكم أكثر من هذا؟".

بدعوا الرحلة في اليوم التالي، بيع وآل كانا يتنهدان على حظ الحمار، الذي يسير مربوطاً من خلف العربة بحبل رقيق بلا أحمال وعارياً كما جاء إلى الدنيا، ولمعانه الفضى الجميل، وصاحبه، على

كرسى مقدمة العربية، يتحدث مع بدرو أورثى عن هموم الدنيا، والأزواج يتحادثون تحت الغطاء، فيما يسير الكلب أمامهم جميعاً كطليعة. من لحظة إلى أخرى عاد التناسق إلى المجموعة كما لو كان معجزة. بالأمس بعد آخر تداول رسموا طريقاً، ليس محدداً بشكل قاطع، ولكن فقط حتى لا يسيروا بلا هدف محدد، أولاً الهبوط باتجاه تراجونا، والسير بمحاذاة الشاطئ حتى فالنسيا، والدخول نحو الداخل باتجاه ألباثيتى، ثم قرطبة، ثم الاتجاه جنوباً باتجاه أشبيلية، وأخيراً على بعد أقل من ثمانين كيلومتراً حيث توجد قرية ثوفرى، وهناك نقول، "ها قد جاء روكى لورينثو سالماً من مغامرته الكبرى، ذهب فقيراً وفقيراً عاد، لم يكتشف لا أوروبا ولا الدورادو، والذهب ليس دائماً ذنب من يبحث، كم من المرات لم يكن هناك أى كنز نتيجة الشر أو الجهل، قالوا لنا إنه موجود هناك، وبعدها تبقى فى مكان آخر لنرى كيف يستقبلونه، الجد العزيز، الأب العزيز، الزوج العزيز، خسارة أنك عدت، لقد اعتقدت أنك مت فى العراء، وأكلتك الذئاب، كل هذا لا يُقال بصوت مسموع.

حينئذ فى ثوفرى، تعود العائلة إلى لم الشمل، ولنرى الآن إلى أين نذهب؟ ماذا سيقولون عنا عندما نصل، أين؟ ولماذا؟ ولن؟ "الكذب يكمن فى الأسئلة التى تطرحها؛ لأنك كنت تعرف الإجابة مسبقاً. فى وقت قصير جداً، تحدث الصوت المجهول مرتين.



- ٢٣ -

عندما دارت شبه الجزيرة حول نفسها نصف
دورة كاملة من الشرق إلى الغرب، بدأت في الانحدار
في تلك اللحظة بالضبط، وفي اتجاه محدد جداً بكل
ما تعنى هذه الكلمة من معنى، أصبحت البرتغال
وإسبانيا دولتين رأساً على عقب. فلنترك الإسبان
لحالهم لأنهم دائماً ما رفضوا مساعدتنا لهم، وعليهم
تحمل مسئولية أنفسهم بقدر ما يستطيعون مع التحول
الفيزيقي الذي يعيشونه، ولنقل نحن هنا، بكل التواضع
البسيط المعروف عن الشعوب البدائية، إن منطقة
الغربي بالبلاد الموجودة في جنوب الخريطة تحول ما
بين يوم وليلة، في تلك اللحظة الأسطورية، إلى
المنطقة الأكثر شمالاً في البرتغال. إنه لأمر مدهش،
لكنه حقيقة كما كان يعلمنا أحد قسس الكنيسة، ليس
لأنه لا يزال على قيد الحياة، فقسس الكنيسة ماتوا
جميعاً، بل لأنه يمكنهم أن يخرجوا الدرس في أية

لحظة، ويضعوه فى خدمة مصالحهم الإلهية كما يستخدمونه فى خدمة مصالحهم البشرية. لو أراد الحواريون السحرة أن يوقفوا شبه الجزيرة على هذا الوضع إلى الأبد، فإن نتائج الواقع: الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، التى لا نوليها اهتماماً كما تستحق، النتائج كما نقول ستكون جذرية، ويمكن تلخيصها فى كلمة واحدة: كونية. يكفى التذكير على سبيل المثال أن المدينة الشهيرة بورتو ستجد نفسها منعزلة دون أية مصادر منطقية وسكانية، وتفقد موقعها المحبب إليها كعاصمة للشمال وعلامته البارزة، فى عيون السكان العالميين نابع عن ضيق أفق وقصر النظر، فلنتخيل حينئذ ما يمكن أن ينتج عن العثور على ميلانو التى تقع فى جنوب إيطاليا فى كالابريا، وتزدهر تجارة سكانها وصناعاتهم فى الشمال، وتحول كل شىء، وهو أمر لا يبدو مستحيلاً تماماً، لو أخذنا فى الاعتبار ما حدث فى شبه الجزيرة الأيبيرية.

لكنها كانت لحظة واحدة، كما قلنا من قبل. انحدرت شبه الجزيرة، لكن لم يتوقف الدوران. جدير بالملاحظة، قبل أن نستمر فى الرواية، أنه يجب علينا تفسير المعنى الذى يجب أن نعطيه، فى هذا المجال، لكلمة انحدار، بالطبع ليس معناها المباشر؛ لأن هذا يعنى أن شبه الجزيرة بدأت فى الغرق. ولكن لو أنها بعد كل هذا الإبحار، مع عدم انحسار خطورة حدوث كارثة، فإن تلك الكارثة لم تقع، ولا حتى وقع شىء

مشابه، لذلك يصبح من غير المناسب رواية رحلة الفرق كاملة. مع أنه ليس صعباً، وعلينا أن نقبل أن عوليس لم يصل إلى الشاطئ في الوقت المناسب ليعثر على الجميلة ناوساثي، ولكن لنسمع على الأقل لذلك الشخص المتعب أن يصل إلى جزيرة الفياسين، وإذا لم يكن من الممكن أن يكون كذلك، يمكنه الوصول إلى أية جزيرة أخرى، يكفي أن يُريح رأسه على ساعده، إذا لم يجد أحضانا أنثوية تنتظره. فلنهدأ؛ لأن شبه الجزيرة، ونقسم على ذلك، لم تكن تفرق في البحر الفاضب، لو حدث هذا فإنها قد تختفى دون أن تترك أثراً يدل عليها، ولو كانت أعلى قمة في البرانس، فالجحيم هنا عميق جداً. شبه الجزيرة تنحدر، نعم، ليست هناك طريقة أخرى لقول ذلك، لكنها كانت تنحدر باتجاه الجنوب لأنه بهذه الطريقة يمكننا تقسيم الكرة الأرضية إلى عليا وسفلى، إلى فوق وتحت، إلى أبيض وأسود، نتحدث هنا بمعانٍ تصويرية، وإن كان يجب أن يتسبب ذلك في إثارة دهشة الدول التي تقع إلى الجنوب من خط الاستواء، والتي تستخدم الخرائط بشكل عكسي، فقررنا بحق منح العالم صورته التي كانت ناقصة. لكن ستبقى الأشياء على ما هي عليه، وهو ما يعطيها هذه الفضيلة التي لا تُقاوم، حتى إنه يمكن لطفل في مدرسة أن يفهم الدرس من أول مرة، دون تفسيرات أخرى، فقاموس المترادفات المهمل يؤكد لنا ذلك، لكن تحت، وتنحدر، ولحسن الحظ أن هذه الطوافة الحجرية لم تذهب باتجاه الأعماق، فتبقى مائة

مليون رثة، مازجة مياه نهري التاخو والوادي الكبير
الحلوة مع مياه البحر العميقة المرة.

كان هناك دائماً ما يوجد من يؤكد أن الشعراء
يمكن الاستغناء عن وجودهم، وأنا أسأل: ما هو
مصيرنا لو لم يأت الشعراء ليساعدونا على فهم عدم
وضوح ما يقولون أنه واضح؟ حتى هذه اللحظة، بعد
أن كتبنا الكثير من الصفحات، فإن المادة الروائية
انحصرت في وصف رحلة عبر المحيط، وإن لم تكن
كلها عادية، بل ويمكن في هذه اللحظات المأساوية
التي عادت فيها شبه الجزيرة إلى سلوك طريقها،
باتجاه الجنوب الآن، وفي الوقت نفسه لا تزال تدور
حول مركزها الوهمي، لا نعرف كيفية إعادة صياغة أو
إثراء الأحداث المعلنة ما لم يكن بمساعدة وحى ذلك
الشاعر البرتغالي، الذي قارن ثورة وانحدار شبه
الجزيرة بطفل يدور أول دورة في حياته، وهو لا يزال
في بطن أمه. إن التشبيه رائع، وإن كان علينا أن
نرفض فيه إضفاء الصفات البشرية على الأشياء، وأن
كل ما يمكن رؤيته يمكن الحكم عليه بعلاقته الحتمية
بالإنسان، كما لو كان بالفعل لا علاقة للطبيعة سوى
أنها تدفعنا إلى التفكير في أنفسنا، ببساطة، فإن
خوفنا اللانهائي، يدفعنا وحده إلى ملء العالم بصور
تشبهنا أو تشبه ما نعتقد أننا، عدا إذا كان إصرارنا
على العكس من ذلك تماماً، إنه خلق للشجاعة، أو
ببساطة الحصول على من يرفض أن يكون حيث يكون
الفراغ، وعدم إضفاء معنى على ما لا معنى له. مؤكد

أن الفراغ لا يمكنه أن يمتلئ بنا، وهذا الذى نسميه معنى لا يعدو أن يكون مجموعة من الصور السريعة التى تبدو متناسقة فى لحظة محددة، أو ما يحاول الذكاء أن يضيف عليه العقلانية والنظام والتناسق فى لحظة رعب قاتلة.

بشكل عام، فإن صوت الشعراء غير مفهوم، وهو شئ رغم القواعد التى تحكمه يخضع للاستثناءات، كما هو واضح فى هذا الجزء الغنائى، عندما جرى تجميل الكناية بكل الطرق وتكرارها على جميع الأفواه، دون أن يشارك فى ذلك معظم الشعراء، وهو أمر لا يجب أن يدهشنا، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أننا غير معصومين من مشاعر الحسد والغيرة الإنسانية. وواحدة من أكثر النتائج جمالاً تلك الناجمة عن الإلهام المقارن، هو البعث، رغم أنها تخضع لعمليات تحول دفعت بها الحداثة إلى مجال الحياة الأسرية، والروح الأمومية، والسائل الأمى الذى يبدو أمام الأفعال المعروفة يدفع بالعديد من الأسباب لتفكر جوانا كاردا وماريا جوافايرا فيما كانتا وراء حدوثه، بسبب طريقتهما الطبيعية الخالصة، نحن لا نتحدث هنا عن القسوة والعمل الناتج عن تفكير عميق. فالنساء، ناجحات عن إصرار. وأعضائهن الجنسية، مع الاعتذار عن هذه الإشارة الجسدية، هى الاستثناء، والتى يمكن تلخيصها أو التوسع فيها، فهن أساس ميكانيكية الكون، من تلك الماكينات التى يخرج منها هذا الشئ التافه الذى هو كل شئ، تلك الخطوة

المتوقفة بين ما هو تافه وما هو عظيم، بين ما هو محدد وما هو لا نهائى. فى هذه النقطة يجب رؤيته لأننا نفقد كل ما تحتويه المعانى، وهذا ما لا يجب أن يدهشنا، وحتى لو أننا تجاسرنا فإن التجربة علمتنا كم أن الكلمات غير قادرة على تقريبنا من حدود ما لا يوصف، نريد أن نقول الحب ولكن ليست لدينا اللغة الكافية، نريد أن نقول أحب فنقول لا أستطيع، نريد نطق الكلمة الأخيرة ولكننا ننتبه إلى أننا قد عدنا إلى البداية.

لكن فى الفعل المتبادل بين القضايا ونتائجها، هناك نتائج أخرى، هى فى وقت واحد حدث وعنصر، جاء ليخفف من حدة الحوارات ويضع كل واحد فى مكانه، وتوزيع الابتسامات والعناق. لقد كانت الحالة متغيرة من ساعة إلى أخرى، ونزع تطرف الأشكال التى تنغلq عليها دائماً، كل أو تقريباً كل النساء الخصبة تعلن عن حملها، رغم أنهن لم يجربن أية تغيرات مهمة فى الممارسات الخاصة بمنع الحمل لهن أو لهن، ونحن نشير هنا بالطبع إلى الرجال الذين يعاشروهن بشكل دورى أو عرضى. فى الموضع الذى تكون فيها الأشياء، فلا أحد أصبح يندهش من أى شىء. لقد مرت عدة أشهر منذ أن انفصلت شبه الجزيرة عن أوروبا، وسافرنا آلاف الكيلومترات عبر هذا البحر المفتوح بعنف، وكنا على وشك الاصطدام بجزر الآزور الخائفة، أو لم يكن عليها أن تصطدم، كما شاهدنا هذا فيما بعد، لكن هذا ما لا يعرفه

الرجال والناس، من جانب أو آخر، الذين أُجبروا على الهرب، لقد حدث هذه الأشياء إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة: انتظار بزوغ الشمس من اليسار ورؤيتها تظهر من اليمين، والقمر الذي لم يكن يكفيه مساره الذي يسير فيه منذ أن انفصل عن الأرض، وأيضاً الرياح التي تهب من جميع الاتجاهات، والسحب التي تجرى من جميع الآفاق وتدور على رؤوسنا المنبهرة، نعم، منبهرة؛ لأن على رؤوسنا ناراً حية، كما لو كان الإنسان لم يخرج من حيوانيته البطيئة، وأمكن وضعه مجدداً بكماله وعقله في عالم حديث التكوين، نظيف وجميل لم يُمس. بحدوث كل هذا، بالقول إن هذا البرتغالي الشاعر الذي قال إن شبه الجزيرة طفل تكون خلال السفر، ويدور الآن في البحر كي يُولد، كما لو كان في داخل رحم مائي، أي سبب يدفعنا إلى الدهشة أكثر من أن تمتلئ أرحام النساء، ربما خصبها الحجر الكبير الذي يهبط باتجاه الجنوب، ولا نعرف إن كانت تلك المخلوقات الجديدة من بنات الرجال، أم إن كان أبوهم قاطع البحار العملاق الذي يدفع بالأمواج أمامه، داخلاً فيها، كمياه دافقة، وعصف الرياح.

علم المسافرون عن ظاهرة الحمل الجماعي من الإذاعة، وأيضاً عن طريق الصحف، ولم يبتعد التليفزيون عن تلك القضية، ما أن يروا امرأة في الشارع حتى يضعوا الميكروفون في وجهها ويمطرونها بالأسئلة، كيف حدث ومتى؟ وما الاسم الذي

ستختارينه للطفل؟ مسكينة هذه المرأة، والكاميرات تلتهمها، تحمّر خجلاً وتتلعثن، وإذا لم تذكر الدستور فذلك لأنها تعرف أنهم لن يأخذوا المسألة مأخذ الجد. لوحظ عودة التوتر بين راكبي العرب، فإذا كانت كل نساء شبه الجزيرة حوامل فهاتيك المرأتان هنا لا تفتحان أفواههما عن ما وقع لهما، ويمكن فهم الصمت، فإن أعلنتا حملهما فإنه لا مفر من ضم بدرو أورثي إلى قائمة الأبوة، والتناغم الذى تمكنوا من استعادته بصعوبة فى المرة الأولى لن يتمكنوا الحفاظ عليه بعد الصدمة الثانية. لهذا السبب فإن جوانا كاردا وماريا جوافايرا، فى إحدى الليالى عندما كانتا تقدمان طعام العشاء للرجال، قالتا بنفمة ضاحكة، "ها أنتم ترون، كل النساء فى إسبانيا والبرتغال حوامل، ونحن هنا لا أمل لنا". عليكم قبول هذه اللحظة من التصنع، عليكم أن تقبلوا أن يتصنع جوزيه أنابيسو وجاكيم زازا ادعاءهما الرجولة التى شككت فيها المرأة فى قدرتهما على التخصيب، والأسوأ أن هناك إمكانية أن يصيب هذا التهمك الهدف؛ لأنه إذا ما كانت المرأتان حاملتين حقيقة، فهناك حقيقة أخرى، هى أنهما لا تعرفان من السبب. ونظراً لوجود العديد من أسباب التردد فلا يبدو أن المناخ قد هدأ، ومرور الوقت سيكشف إن كانت جوانا كاردا وماريا جوافايرا حوامل أم لا، وعندما نفيتا أنهما كذلك، فأى تفسير ستقدمان حينها، الحقيقة دائماً ما تكون فى انتظارنا، إلى أن يأتى يوم لن نستطيع فيه الهروب منها.

ظهرت وزيرات البلدين فى التليفزيون حوامل بشكل ظاهر، فلم يعد الأمر سبباً فى الشعور بالخجل عند الكلام عن الانفجار السكانى الذى سيتأكد فى شبه الجزيرة خلال تسعة أشهر، سيُولد ما بين اثنى عشر إلى خمسة عشر مليوناً من الأطفال فى الوقت نفسه تقريباً، يصرخون تحت الأضواء فى وقت واحد، وتتحول شبه الجزيرة إلى بيت أمومى، والأمهات السعيدات، والآباء المبتسمون، فى حالة التأكد من تلك الأبوة بشكل كاف. من وجهة النظر هذه من المحتمل استخراج تأثير سياسى، والضرب على وتر الديماجوجية، والمطالبة بالتقشف باسم مستقبل أبنائنا، والتأكيد على التناغم الوطنى، ومقارنة تلك الخصوصية بعقم بقية العالم الغربى، لكن ليس من الممكن تجنب أن كل واحد منا أن يركن إلى فكرة أنه ليحدث انفجار سكانى لابد بالضرورة من وجود طبيعة غير عادية لحالة الخصوبة. كان رئيس الوزراء يتحدث عن الإجراءات الصحية التى سيجرى اتخاذها، من أول الخطة القومية للمساعدة على الولادة، إلى تحديد وتوزيع فرق الأطباء والقبالات عندما تحين اللحظة، وكان يبدو على وجهه تناقض الشاعر وصراع التعبير الرسمى مع الرغبة فى الضحك، وشعر المشاهدون فى كل لحظة أنه على وشك القول، "آيتها البرتغاليات والبرتغاليون سنجنى فائدة كبيرة من هذا الموقف، وآمل أن يكون استمتاعكم كذلك؛ لأن صنع الأطفال دون لذة الشهوة يعتبر من أسوأ العقوبات". يستمع

الرجال والنساء فيما يتبادلون النظرات والضحكات؛ لأن الجميع يعرفون أنهم فى تلك اللحظة بالتحديد، يتذكرون تلك الليلة، وذلك اليوم، وتلك الساعة، حين حركهما اندفاع مفاجئ فتقاربا من بعضيهما، وفعلما ما يجب عليهم فعله تحت سماء تدور ببطء، وشمس مجنونة وقمر مجنون ونجوم عاصفة. كان يمكن الاعتقاد لأول وهلة بأن كل هذا لم يكن سوى حلماً ووهماً. لكن عندما بدأت تظهر النساء هناك ببطون بارزة، اكتشفوا ساعتها أنهم لم يكونوا يحلمون.

توجه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى العالم أيضاً، وقال، إنه رغم تحول مسيرة شبه الجزيرة باتجاه مكان غير معلوم من الجنوب، فإن الولايات المتحدة لن تتخلى أبداً عن مسئوليتها فى أن يعم السلام والحرية، ولكن شعوب شبه الجزيرة لا يمكنها الاعتماد علينا لأنهم يدخلون الآن فى منطقة نفوذ متضاربة"، "لا يستطيعون الاعتماد علينا، أكرر، وعلى المساعدات التى كان من المتوقع أن يتلقوها من قبل عندما كان مستقبلهم يبدو مرتبطاً بمستقبل الأمة الأمريكية". تقريباً كانت تلك التصريحات التى أدلى بها إلى مستمعيه فى العالم. لكن، فى الأحاديث الخاصة التى تجرى فى سرية مكتبه البيضاء، قال الرئيس لمستشاريه، وهو يقلب قطعة ثلج فى كأسه، "لو جنحوا فى أتلانتا بالقطب الجنوبى لانتهد همومنا، ماذا سنفعل والعالم من حولنا يتصعك بلا اتجاه معين، ليست هناك إستراتيجية تحتمل ذلك، على

سبيل المثال، فالقواعد التي لا تزال لنا على شبه الجزيرة ما فائدتها لنا الآن؟ إنها تصلح فقط لإطلاق صواريخنا على طيور البطريق في القطب الجنوبي". أبدى أحد المستشارين ملاحظة مفادها أن المسار الجديد، لو أخذنا في الاعتبار الفوائد الممكنة منه، ليس سيئاً إلى هذا الحد، "فهم ينحدرون إلى المنطقة الواقعة ما بين أفريقيا وأمريكا اللاتينية، سيدي الرئيس"، "نعم، هذا المسار يمكن أن تنتج عنه فوائد لنا، لكن أيضاً يمكنه أن يزيد من حالة الفوضى في المنطقة". وربما بسبب هذه الذكرى المزعجة ضرب الرئيس بقبضته على المكتب ضربة أطارت الصورة الضاحكة للسيدة الأولى. فقفز أحد المستشارين القدامى، وجال بعينه فيمن حوله وقال، "فلتحذر، سيدي الرئيس، لا يعلم إلا الله ما قد يحدث نتيجة ضربة مثل هذه".



والآن لم يعد جلد الثور المسلوخ سوى حصة ضخمة، لها شكل واحدة من تلك الأدوات التي كان يستخدمها البدائيون، مطروقة بضربات هادئة صبورة متوالية، إلى أن يتم تحويلها إلى أداة من أدوات العمل، حدها الأعلى ملىء ومتماسك ليستقبل قبضة اليد، والأسفل مدبب ليستخدم في الحك والتجريف، والقطع وتحديد الحدود، والرسم أيضاً، لم نستطع الهروب حتى اليوم من غواية الجرح أو القتل. أوقفت شبه الجزيرة حركة دورانها، تهبط الآن بحركة بطيئة جداً باتجاه الجنوب، ما بين أفريقيا وأمريكا الوسطى، كما قال مستشار الرئيس، وشكلها المستلهم من عيون من يعرف مكانها السابق القديم، تبدو توأماً لكلا القارتين اللتين توجدان إلى جانبها، هكذا، البرتغال وجليقيا في الشمال، تحتلان كل العرض، من الغرب

إلى الشرق، وتأتى بعدها الكتلة الكبرى التى تميل إلى الضيق، وعلى اليسار لا يزال هنا قرن بارز، إنه مكون من فالنسيا والأندلس، وعلى اليمين يوجد الشاطئ الكانتبرى على الخط نفسه الذى يوجد فى حائط البرانس. القمة الحجرية، والدفة المقتطعة، يوجدان هناك فى رأس كريوس، حملوهما من المياه المتوسطة إلى هذه البحار الهائجة، بعيداً جداً عن الدائرة الميلادية، فقد كان هو من قبل من سكان ثيريرى، تلك القرية الفرنسية التى تحدثوا عنها كثيراً فى بداية هذه الرواية.

تهبط شبه الجزيرة، ولكن ببطء، يتوقع الحكماء، وإن كانوا يحذر شديد، أن الحركة على وشك التوقف، معتقدين فى الظواهر الكونية التى تقول إن كل شىء لا يمكن أن يظل على حاله إطلاقاً، وإن كانت الأجزاء المكونة له عليها أن تثبت فى يوم ما، وحتى الحياة البشرية الثرية بإمكانيات المقارنة، كما نعرف جميعاً، تُعتبر الإثبات على صحة هذه المسألة، وعند صدور هذا الإعلان العلمى ستولد لعبة القرن، إنها فكرة ظهرت فى العالم كله فى وقت واحد، وتتلخص فى إقامة نظام رهان مزدوج عن الزمان والمكان اللذين ستتوقف فيهما الحركة، ولمزيد من الفهم نقترح الفرضية التالية: الساعة السابعة عشرة وثلاث وثلاثون دقيقة وتسع وأربعون ثانية، بالتوقيت المحلى للشخص المراهن، وبالطبع، عليه أن يذكر اليوم والشعر والسنة، وكذلك الإحداثيات مع الإشارة إلى

خط الطول بالدرجات والدقائق والثواني، وجرى اعتبار رأس كرويس، التى سبق الإشارة إليه، مرجعاً. بلغ مجموع ما تم حصده من الرهانات عدة تريلونات من الدولارات، وإذا ما توصل شخص إلى هاتين النتيجتين: الزمان المحدد والمكان الصحيح، وهو أمر قليل الاحتمال طبقاً لحسابات الاحتمالات، فإن هذا الشخص الذى يتمتع بحس شبه إلهى سيجد نفسه على رأس أكبر ثروة يمكن جمعها على سطح الأرض، التى شهدت الكثير من الثروات. مفهوم أنه لم يحدث من قبل أن جرت لعبة أكثر رعباً من هذه؛ لأن كل دقيقة تمر، وكل ميل يمكن سيره، يقلل من عدد المراهنين القادرين على كسب الرهان، وإن كان يجب التحذير من أن هناك كثيراً من المبعدين يعودون إلى الرهان من جديد، وهكذا وصلت قيمة الجائزة إلى أرقام فلكية. بالطبع ليس كل الناس يمكنهم جمع المال للرهان من جديد، وبالطبع هناك أناس لا يجدون مخرجاً آخر من هذا سوى الانتحار بعد الإفلاس الذى حل عليهم نتيجة المراهنة. تهبط شبه الجزيرة باتجاه الجنوب تاركة من خلفها أثراً من الموتى البريئة من دمائهم، بينما تنمو فى بطون نسائها تلك الملايين من المخلوقات التى خصبتها ببراءة.

كان بدرو أورثى قلقاً، ومهوماً. يتكلم قليلاً، ويقضى ساعات طويلة خارج المخيم، ويعود منهكاً ولا يأكل شيئاً، ويسأله رفاقه إن كان مريضاً، فيجيب هو، "لا، لست مريضاً"، دون أن يقدم أية تفسيرات أخرى.

والكلمات القليلة التي كان ينطقها يحتفظ بها لروكي لورينثو، وهي دائماً ما تكون عبارة عن حوارات حول الأرض التي ينتمى إليها كلاهما، كما لو كانا لا يعرفان موضوعاً آخر. ويرافقه الكلب في كل مكان، ويبدو كما لو كان توتر الرجل قد انتقل إلى الحيوان، الذي كان من قبل هادئاً جداً. كان جوزيه أنيسو قد قال لجوانا كاردا، "إذا كان هذا يعتقد أنه يمكنه أن يعيد الحكاية، فهو مخطئ، ها أنتِ ترينه يلعب دور الرجل الوحيد والمهجور، وبعدها تأتي المرأة الحنونة والمحسنة التي تريحه من غدده الممتلئة"، وتجيبه هي بابتسامة سعيدة، "أنت المخطئ؛ لأن مرض بدرو أورثي، هذا إذا كان مريضاً، فهو مرض آخر"، "أى مرض؟"، "لا أعرف، ولكن ما أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يريد لفت أنظارنا، لأن المرأة تفهم هذا على الفور"، "إذن، من الأفضل الحديث معه، وإجباره على أن يقول لنا ما الذي يحدث له، ربما كان حقيقة مريضاً"، "ربما، ولكن حتى هذا ليس مؤكداً".

يسيرون بمنطقة سلسلة جبال الكارات، سيخيّمون اليوم بالقرب من قرية، طبقاً للبيانات التي على الخريطة، اسمها بينسيرفيدا (الخدمة الطيبة)، وتبدو على الأقل اسماً طيباً. على المقعد الأمامي للعربة يقول بدرو أورثي لروكي لورينثو، "لم يبقَ الكثير لندخل إلى مقاطعة غرناطة، لو أردنا أن نتجه إلى هناك مباشرة"، "لا تزال قريتي بعيدة جداً"، "ستصل قريباً"، "سأصل، لكنى أود أن أعرف إن كانت رحلة قد

عادت بالفائدة أم لا؟"، "هذه الأشياء لا نعرفها إلا بعد مرور زمن عليها، اهتمز ذلك الأبقع قليلاً لأنه غير منتظم الخطوة". جذب روكى لورينثو اللجام، ولمس بطرف السوط خلفيات الحصانين، تكاد تكون لمسة دغدغة، وبيج مُطيعاً، نظّم خطواته. كان الأزواج داخل العمرة، يتحدثون بصوت خفيض، وتقول ماريّا جوافايرا، "ربما كان يفضل أن يبقى في البيت ولا يجرؤ على أن يخبرنا، يخاف أن نغضب منه"، أجاب جواكيم زازا، "ربما كان هذا صحيحاً، علينا أن نتحدث معه بكل صراحة، ونقول له إننا نتفهمه وإننا لن نغضب منه، فهو لم يقسم على البقاء معنا أو يوقع تعاقدًا للبقاء معنا مدى الحياة، نحن أصدقاء كنا، وأصدقاء سنبقى، وربما نعود إلى زيارته في يوم من الأيام"، همهمت جوانا كاردا، "أرجو ألا يحدث هذا"، "هل خطر لك شيء آخر؟"، "لا، إنها فقط مجرد خاطرة"، سألت ماريّا جوافايرا، "أى خاطرة؟"، "بدرو أورثى سيموت"، "كلنا سنموت"، "لكنه سيكون أولنا".

تبتعد قرية بينسيفيدا بعيداً عن الطريق الرئيسي. مارسوا تجارتهم هناك، اشتروا بعض الأغذية، وجددوا خزانات المياه، وبما أن الوقت كان لا يزال مبكراً، فقد عادوا إلى الطريق. لكنهم لم يبتعدوا كثيراً. بالقرب من هناك يوجد ضريح، إنه ضريح توروتشيل، مكان طيب لقضاء الليل، فتوقفوا هناك. هبط بدرو أورثى من على المقعد الأمامى، وعلى غير العادة قام بمساعدته كل من جوزيه أنايسو وجواكيم

زازا، اللذين قفزا من العربية بمجرد وقوفها، وقال،
 فيما كان يعتمد على اليدين اللتين امتدتا إليه، "ما
 هذا يا صديقي فأنا لست عاجزاً بعد"، ولم ينتبه إلى
 أن كلمة صديق ملأت أعين الاثنين بالدموع، هذان
 الرجلان اللذان يحملان في صدريهما ألم الخيانة،
 ولكنهما يستقبلان بين أحضانهما الجسد المتعب الذي
 يلقي بنفسه إليهما، رغم ذلك التصريح المتسم
 بالكبرياء، هناك لحظات ليس للكبرياء أن تكون سوى
 كلمات. يضع بدرو أورثي قدماً على الأرض، ويخطو
 بضع خطوات، وعلى وجهه علامات الدهشة، وكأن
 نوراً باهراً قد شل حركته، سألت ماريا جوافايرا التي
 اقتربت، "ماذا يحدث؟"، "لا شيء، لا شيء"، سألت جوانا
 كاردا، "هل تشعر بالإرهاق؟"، "لا، إنه شيء آخر"، ثم
 انحني ووضع راحتي يديه على الأرض ونادى على
 الكلب كونستانتي، ووضع يده على رأسه، ثم مرر
 أصابعه على عموده الفقري، وعلى الظهر والمؤخرة، لم
 يتحرك الكلب، كان يضغط على الأرض كما لو كان
 يريد أن يغرس فيها أقدامه، وتمدد بدرو أورثي على
 الأرض ورأسه الأشيب يستند على حزمة من الأعشاب
 التي تنبثق منها فروع مزهرة، كانت هناك زهور في
 هذا الفصل المفترض أن يكون شتاء. ركعت جوانا
 كاردا وماريا جوافايرا إلى جواره، وأمسكتا بيديه،
 "ماذا حدث لك، هل يؤلمك شيء؟"، كان يتألم، كان ألمه
 كبيراً، كان هذا ما تعكسه قسمات وجهه، كان يفتح
 عينيه على اتساعها وينظر إلى السماء، إلى السحب

التي تمر، لرؤيتها لم يكن على جونا كاردا وماريا جوافايرا النظر إلى أعلى، كانت تنعكس على عيني بدرو أورثي ببطء كما لو كانت أضواء شوارع بورتو تنزلق على عيني الكلب، لقد مر وقت طويل، أين نعيش، والآن معاً، مجتمعون، إضافة إلى روكي لورينثو الذي له تجربة في الحياة والموت، كان الكلب يبدو مسحوراً بنظرة بدرو أورثي، ينظر إليه، ورأسه منخفض، وشعره منتفش كما لو كان يواجه قطعان ذئاب العالم كله، حينئذ قال بدرو أورثي بصوت واضح، كلمة كلمة، "الآن لا أشعر، إنها الأرض، الآن لا أشعر"، غامت عيناه، وسحابة رمادية، كالريش، كانت تمر في السماء، ببطء، ببطء شديد، وقامت ماريا جوافايرا بأنامل رقيقة جداً بإغلاق جفني بدرو أورثي، وقالت، "لقد مات"، حينها اقترب الكلب وصرخ، كما لو كان شخصاً يولول.

مات رجل، ثم يبكي الأصدقاء الأربعة، وحتى روكي لورينثو الذي عرفوه قبل قليل، كان يفرك عينيه بقبضتيه بغضب، وصرخ الكلب لمرة واحدة فقط، ويقف الآن إلى جوار الجسد المسجى، وسرعان ما يرقد ويضع رأسه الضخم على صدر بدرو أورثي، ولكن لا بد من التفكير واتخاذ قرار بما يمكن عمله مع الجثمان، يقول جوزيه أنيسو، "لنأخذه إلى بينسيرفيدا، ونبلغ السلطات هناك، لا نستطيع أن نفعل معه أكثر من ذلك"، وتذكر جواكيم زازا، "ألم تقل لي يوماً إن مرقد انطونيو ماتشادوا كان تحت شجرة

بلوط، فلنفعل الأمر نفسه مع بدرو أورثي، لكن كانت جوانا كاردا من قالت الكلمة الأخيرة، "لن نذهب به إلى بينسيرفيدا ولن ندفنه تحت شجرة، لنأخذه إلى فينتا ميثينا، هيا ندفنه في المكان الذي وُلد فيه".

يرقد بدرو أورثي ممدداً في سريره المصنوع من القش، كانت المرأتان إلى جواره، تمسكان بيديه الباردتين، تلك الأيدي المشتاقة التي تعرفت بالكاد على جسديهما، فيما كان الرجال على المقعد الأمامي للعربة، يقود روكي لورينثو الحصانين، اعتقدوا أنهم سيستريحون، ولكنهم الآن يواصلون الطريق، ويتقدمون في الليل، لم يحدث لهم هذا من قبل، ربما يتذكر الحصان آل ليلة أخرى مثل هذه، فقد حلم في يوم من الأيام بأنه كان مربوطاً وينام لعلاج جراحه في ندى الليل العليل، عندما جاء رجل وامرأة وكلب، وحرروه من الأربطة، لم يكن يعرف إن كان الحلم قد بدأ هناك أم انتهى. كان الكلب يسير تحت العربة وتحت بدرو أورثي، كما لو كان هو من يحمله، فقد كان يشعر بحمل ثقيل على عنقه. كانوا يحملون شمعة مشتعلة مثبتة في القوس الحديدي الذي يدعم الغطاء، من الأمام. ما زال أمامهم مائة وخمسون كيلومتراً.

يشعر الحصانان بالموت من خلفهما، لم يعودا في حاجة إلى ضربات السوط. صمت الليل ثقيل جداً حتى أنه لم يكن يسمع سوى صوت عجلات العربة على الأرض الخشنة للطرق القديمة، وصوت حوافر

الحصانين مخنوقاً كما لو كانت حدواتهما ملفوفة
بخرق. لن يكون هناك قمر، ويسافرون تحت جناح
الضباب، إنه انقطاع الضوء، إنه الإظلام، إنها أولى
الليالي السابقة على كل قول قيل، "لو طلعت الشمس،
لن يكون الكوكب جميلاً، فאלله يعرف أن كوكب النهار
عليه أن يُولد هناك خلال ساعتين". كانت ماريا
جوافيرا وجوانا كاردا تبكيان منذ بداية الرحلة، هذا
الرجل الذي يحملونه ميتاً منحهما جسده الرحيم،
وأخذتاه وضمتاه بيديهما، وساعدتاه، وربما من
بطنيهما هما ابناه ولهذا زادت حدة شهقاتهما، "يا
إلهي، يا إلهي، كم تأتي أشياء هذا العالم مرتبطة
ببعضها البعض، ونحن نعتقد أننا من يقطع ويربط
عندما نريد، بإرادتنا وحدها، إنه الخطأ الأكبر الذي
نرتكبه، كم من الدروس علمتنا عكس كل هذا، خط
مرسوم على الأرض، وسرب من الزراير، وحجر
مقذوف إلى البحر، وجورب صوفى أزرق، كل هذه
الأشياء يمكننا معرفتها مغمضو العيون، كما لو كنا
نصرخ في بشر جفاة وأصابهم الطرش".

عندما وصلوا إلى فينتا ميثينا كانت السماء
قائمة. على طول الطريق، ما يقرب من ثلاثين
فرسخاً. وأورثي، القرية النائمة كانت تبدو شبحاً،
البيوت كجدران مخادعة، الشبابيك والأبواب مغلقة،
فيما القلعة ذات الأبراج السبعة تعلو الأسطح، وتبدو
كخيال غير ثابت. وأضواء الشوارع تتذبذب كنجوم
على وشك الانطفاء، وأشجار الساحة انخسرت إلى

جذوع وأفرع عارية، تبدو كما لو تبقّت من غابة
محتركة، مروا أمام الصيدلية، لم يكونوا في حاجة
هذه المرة إلى التوقف، فلا تزال علامات الطريق
طازجة في أذهانهم، "اتبعوا اليمين"، باتجاه ماريا،
سيروا ثلاثة كيلومترات وبعد المرور بآخر البيوت،
سترون جسراً صغيراً، إلى جوار شجرة زيتون، وخلال
دقائق أكون هناك"، ها قد وصل. بعد المرور من
المنحنى الأخير، شاهدوا المقابر، والجدران البيضاء،
والصليب الضخم. كانت البوابة مغلقة، كان عليهم أن
يفتحوها عنوة. ذهب جوزيه أنايسو للبحث عن عتلة،
أدخلها بين المفضلات، لكن ماريا جوافايرا أمسكت
ذراعه، "لن ندفنه هنا"، وأشارت باتجاه التلال
البيضاء، باتجاه كهوف الروساليس، حيث عثروا على
الجمجمة الأوروبية الأقدم في التاريخ، لذلك الرجل
الذى عاش قبل مليون سنة، وقالت، "سيبقى هناك، إنه
المكان الذى اختاره هو". ساروا بالعربة إلى أقرب مكان
ممكن، الحصانان بالكاد يستطيعان السير، كانا
يجرجران أرجلهم فى التراب. لم يكن يعيش فى فينتا
ميثينا أحد يمكنه حضور الجنازة، كل البيوت مهجورة،
وكلها تقريبا مهدمة. تكاد أشكال الجبال لا تظهر فى
الأفق، تلك التى شاهدها رجل أورثى لحظة موته، الآن
الوقت ليل، "بدرو أورثى ميت، وبقيت فى عينيه
سحابة قاتمة، ولا شئ آخر".

عندما لم تستطع العربة أن تتقدم أكثر من ذلك،
سحب الرجال الثلاثة الجثمان، كانت ماريا جوافايرا

تحميه من جانب وجوانا كاردا تحمل في يدها عصا الدردار من جانب آخر. صعدوا إلى أعلى تلة، مستوية في أعلاها، كانت الأرض الجافة تنفتت تحت أقدامهم، وتنحدر على الجوانب، تأرجح جثمان بدرو أورثي وكاد ينزلق من بين أيديهم ويسحب حامله من خلفه، لكنهم استطاعوا رفعه حتى أعلى التلة، ووضعوه على الأرض، كانت أجسادهم غارقة في العرق والتراب الأبيض. كان روكي لورينثو من بدأ في حفر القبر، لقد طلب منهم أن يقوم هو بهذا العمل، كان التراب سهلاً، مستخدماً العتلة كفأس. بدأت السماء تتير من الشرق، وشكل الجبال غير المحدد بدأ في الظهور مجللاً بالسواد. خرج روكي لورينثو من الحفرة، ونفض يديه، ركع ووضعهما تحت الجثمان، فيما كان جوزيه أنايسو يسند بدرو أورثي بذراعيه، ويرفعه جواكيم زازا من قدميه، وهبطوا به إلى الأرض ببطء، كان القبر عميقاً جداً، لو عاد الأنثروبولوجيون في يوم من الأيام إلى هذا المكان فلن يكون من الصعب العثور عليه، وستقول حينها ماريا دولوريس، "توجد هنا جمجمة"، وسيلقى رئيس الحفارين نظرة ويقول، "ليست مهمة، لدينا الكثير من هذه النوعية". غطوا الجثمان، ومسحوا الأرض حتى أصبحت كالأرض المحيطة بها، لكن كان عليهم إبعاد الكلب الذي أراد حفر القبر بأظفاره. ثم غرست جوانا كاردا فرع الدردار بالقرب من رأس بدرو أورثي. لم تكن صليباً كما يبدو، وليست علامة جنائزية، إنها فقط عصا فقدت قدرتها السحرية التي

كانت تسكنها، لكنها لا تزال صالحة لمثل هذا، كساعة شمسية في صحراء محترقة، وربما تحولت إلى شجرة مولودة من جديد، لو أن عصا جافة يتم غرسها في الأرض، فإنها قادرة على خلق المعجزات، وأن تمد جذورها، وتحرر عيني بدرو أورثي من السحابة القائمة، غداً ستمر على هذه الحقول.

توقفت شبه الجزيرة عن الحركة، سيرتاح المسافرون في ذلك اليوم، في الليلة واليوم التاليين. وتبدأ الأمطار عندما يبدءون في الرحيل. نادوا على الكلب طوال تلك الساعات إلا أنه لم يبتعد عن القبر، ولكنه لم يتبعهم، قال جوزيه أنايسو، "إنها الحكاية الأبدية، ترفض الكلاب الابتعاد عن أصحابها، وأحياناً تترك نفسها للموت". لقد كان مخطئاً. نظر الكلب أردينت، إلى جوزيه أنايسو، ثم ابتعد ببطء شديد، ورأسه منخفض. لن يعودوا لرؤيته بعد ذلك أبداً. واستمرت الرحلة، سيبقى روكي لورينثو في قرية ثوفري، سيطرق باب بيته، "لقد عدت"، لقد كانت تلك حكايته، ربما كان هناك من يحكيها في يوم من الأيام. الرجلان والمرأتان، أولئك، سيواصلون طريقهم، أي مستقبل، أي زمن، أي مصير. عصا الدردار اخضرت، ربما تزهر في العام القادم.

صدر من هذه السلسلة

- ١ - «ملكة الضمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» -
رواية - جائزة ميديسيس.
- ٢ - «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيغى» -
رواية - جائزة «انتير».
- ٣ - «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خبرى
شلبى» - رواية - جائزة الدولة التقديرية.
- ٤ - «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد
عفيفى مطر» - سيرة ذاتية - جائزة «سلطان العويس».
- ٥ - «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» -
مسرح - جائزة «أبها».
- ٦ - «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس
منصور» - سيرة ذاتية - «جائزة مبارك».
- ٧ - «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «هؤاد قنديل» -
رواية - «جائزة التفوق».

٨ - «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» -
مسرح - «جائزة التفوق».

٩ - العاشقات - للكاتبة النمساوية «إلمريدة يلينك» -
رواية - «جائزة نوبل».

١٠ - نوة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»،
رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ - «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالي - «إيتالوكالفيينو»
رواية - عدد خاص - جائزة «فياريجيو».

١٢ - القلعة البيضاء - للكاتب التركي «أورهان باموق»
- رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط - للكاتب المصري
«إبراهيم عبدالمجيد» - أدب رحلات - «جائزة
التفوق».

١٤ - قرية ظالمة - للكاتب المصري «محمد كامل
حسين» - عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب».

١٥ - الرجل البطيء - للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م.
كويتسي» - رواية - «جائزة نوبل».

١٦ - طحالب - للكاتبة الجنوب إفريقية «ماري
واطسون» - متتالية قصصية - «جائزة كين».

١٧ - شوشا - للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس
سنجر» - رواية - «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل - للكاتب من ترينداد - «ف. س.
نايبول» - رواية - «جائزة نوبل».

١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركي «أورهان باموق»
- رواية - «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة - للكاتب الإنجليزي
«هارولد بنتر» - مسرح - «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالي «جوزيه
ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ - المستبعدون - للكاتبة النمساوية «إفريدة
يلينك» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٣ - الأنثى كتوع- للكاتبة الأمريكية «جويس كارول
أوتس» - قصص - جائزة بن مالامود.

٢٤ - ثلاثة أيام عند أمي - للكاتب الفرنسي
«فرانسوا هاجرمان» - رواية - جائزة الجونكور.

٢٥ - اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركي
«أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ - الذكريات الصغيرة .. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨ .

٢ - السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جرتروود .. بريجتيه كروناور.. جائزة جورج بوشنر الكبرى . ٢٠٠٥ .

٣ - عن الجمال .. زادى سميث.. جائزة الأورانج . ٢٠٠٦ .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٢٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW.egyptianbook.org.eg

E - mail : info @egyptianbook.org.eg

جوزيه ساراماجو

كاتب برتغالي.

ولد عام ١٩٢٢ فى مدينة أريتاجا البرتغالية.

عمل فى مهن مختلفة كصانع أقفال وميكانيكى وصحفى ومترجم قبل أن يتفرغ للأدب تماماً.

أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام ١٩٤٧. وعلى الرغم من الاحتفاء النقدي بها إلا أنه توقف عن الكتابة أكثر من عشرين عاماً.

أصدر بعدها نحو عشرين كتاباً جعلته واحداً من أهم الكتاب فى العالم منها: "عام موت ريكاردوس"، "العمى"، "كل الأسماء"، "الآخر مثلى".

حصل على جائزة نادى القلم الدولى، وجائزة كاموس البرتغالية، قبل أن تتوج جوائز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٩٨.

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥. كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رفى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعها المختلفة: رواية، شعر، مسرح، وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

فى لحظة ما.. ننطلق كلاب قرية فى النباح
 دون توقف. ويقذف موظف برتغالى حجراً
 فى مياه المحيط الأطلنطى دون قصد.
 وتتبع الزراير معلماً فى مدرسة برتغالية
 أينما توجه دون سبب. ويشعر صيدلى
 إسباني باهتزاز الأرض تحت قدميه دون سائر
 البشر. وترسم سيدة برتغالية مطلقاً
 خطأ على الأرض بفرع شجر دردار وهى
 ساهمة. وتفك أرملة جيليقية خيوط جورب
 صوفى لتغلب على سأمها فيتكون منه
 تل من الخيوط التى لا تنتهى.
 هذه الأحداث العادية المتوازية غير
 المنطقية تؤدى إلى تصدع جبال البرانس
 فتنفصل شبه الجزيرة الإيبيرية: إسبانيا
 والبرتغال عن أوروبا مشكلة طوقاً حجرياً
 يبحر فى مياه المحيط الأطلنطى بانتظام
 ودون توقف.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعر ١٢ جنيه

ISBN# 9789774200519



6 221149 005167